

الجمهورية الجزائرية الديمقراطية الشعبية
وزارة التعليم العالي و البحث العلمي

كلية: الآداب و الحضارة الإسلامية
قسم: اللغة العربية

جامعة الأمير عبد القادر
للعلوم الإسلامية-قسنطينة-
رقم التسجيل:
الرقم التسلسلي:

عنوان البحث

النسب و دلالاته في القرآن الكريم

دراسة بيانية

مذكرة مقدمة لنيل شهادة الماجستير في العلوم الإسلامية
تخصص إعجاز القرآن و الدراسات البيانية

إشراف الأستاذ الدكتور:
رابح دوب

إعداد الطالب :
رمزي بن قرط

لجنة المناقشة

الاسم و اللقب	الصفة	الرتبة العلمية	الجامعة الأصلية
أ.د. سامي الكناني	رئيسا	أستاذ التعليم العالي	جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية-قسنطينة-
أ.د. رابح دوب	مشرفا ومقررا	أستاذ التعليم العالي	جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية-قسنطينة-
أ.د. ذهبية بورويس	عضوا مناقشا		جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية-قسنطينة-
أ.د. أحمد غرسالله	عضوا مناقشا		جامعة منتوري -قسنطينة -

سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُقُولُونَ عُلُوًّا كَبِيرًا ﴿٤٣﴾ تَسْبِيحٌ لَهُ السَّمَوَاتُ

السَّبْعُ وَالْأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ

وَلَكِنْ لَا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا

غَفُورًا ﴿٤٤﴾ وَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ جَعَلْنَا بَيْنَكَ

وَبَيْنَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ

حِجَابًا مَسْتُورًا ﴿٤٥﴾ الإِسْرَاءُ

إهداء

إلى التي سهرت من أجل أن أرتاح
أمي العزيزة
إلى الذي تعب حتى أوصلني إلى ما أنا عليه الآن
أبي العزيز
إليكما أهدي ثمرة رضاكما عني.
إلى التي سهرت معي: تتعب لتعبي و ترتاح لراحتي و
أعانتني في شدتي
زوجتي
الطيبة الكريمة الوفية.
إلى إخوتي: مراد، و بلال، زينة و التوأم آدم و أسماء
أهدي هذه الرسالة
إلى الذي لم يدخر جهدا و لا وقتا في إخراج هذا
العمل إلى
ما هو عليه صهري
عبد الحميد
إلى جميع العائلة كبيرها و صغيرها
إلى كل باحث جاد يذب
عن كلام الله و كلام رسوله



مُقَدِّمَةٌ



جامعة أمّ القيوين
عبد القادر للعلوم الإسلامية



مقدمة

الحمد لله و الصلاة و السلام على رسول الله و على آله و صحبه و من

والاه.

أما بعد: لما كان شرف العلم بشرف المعلوم كانت العلوم القرآنية في موضع الصدارة من بين سائر العلوم وعلت منزلتها إلى القمة من بين الفنون فصار مثل علم القرآن كما قال عبد العزيز الكناني¹ رحمه الله: "مثل الأسد لا يمكن من غيله² سواه". وقال الحسن رحمه الله: "علم القرآن ذكر لا يعلمه إلا الذكور من الرجال". فهو بحق أصل ينبوعها الذي لا ينضب ﴿ مَا فَرَطْنَا فِي الْكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ ﴾ الأنعام :

و الله جل و علا تكلم بكلامه الذي هو صفة ذاته، و أنزله على قلب نبيه فصيحاً مبيناً معجزاً للعالمين، يتحدى به أساطين البلغاء من العرب الفصحاء، الذين أدركوا إعجازه البياني، ما أيأسهم من محاولة الإتيان بمثله. وإن من جل ما علم من ذلك و أهمه، لفظ متعلق بمبحث المفردة القرآنية، ألا و هو التسييح، الذي تكرر في القرآن الكريم بصيغته و مشتقاته إحدى وتسعين مرة، في كل سياق يرد بمعنى؛ فمرة بمعنى الصلاة و أخرى للعجب و ثالثة للذكر والاستثناء و براءة الله و التنزيه.

فاستدعى ذلك مي الوقوف على مشكلات و سؤالات أهمها:

ما هو أصل معنى التسييح؟ و ما أسرار نسبته إلى فاعلين كثر؟ و ما

معنى تسييح الكائنات؟ و نحاول في هذا البحث الإجابة عن هذه الأسئلة و مسائل

¹ عبد العزيز بن يحيى بن عبد العزيز الكناني المكي توفي بعد سنة ثلاثين ومائتين. التقريب 513/1

² الغيل: الشجر المتلف والمراد هنا: موضع الأسد.

آخر. وهذا مجال المحاولة التي أقدمها اليوم في فهم إعجاز البيان القرآني، و من هنا تأتي فكرة اختيار الموضوع في رسالة علمية موسومة :

التسبيح و دلالاته في القرآن الكريم

دراسة بيانية

هناك أسباب دفعت الباحث لاختيار هذا الموضوع منها ما هو ذاتي ومنها ما هو موضوعي و هذه الأسباب هي:

- حكاية الصحابي لصلاة النبي ﷺ بالليل حيث قال : " يقرأ مُترسلاً ، إذا مرَّ بآية تسبيح سَبَّح ، وإذا مر بسؤال سأل... " الحديث ³.

أولاً: على الرغم من أهمية الموضوع فإنه لم ينل حقه من العناية لدى الباحثين، لاسيما في مجال الدراسات القرآنية، فإني لم أقف -حسب إطلاعي- على بحث علمي أو كتاب مؤلف على هذا النمط و في هذا الموضوع بالطريقة التي خططت لها في هذا البحث.

ثانياً: تعلق الموضوع بكتاب الله يتيح للباحث النظر في ألوان المعرفة من كتب التفسير والغريب والنحو والحديث التي تفتح له باب المعرفة وتشد همته للنظر في كنوز الأولين المحبوة في التراث .

ثالثاً: أن المسلم يشغل بهذا التسبيح في أوقات عديدة من نهاره و ليله فيحتاج إلى إدراك معانيه كيف ما ورد في القرآن المجيد، وهذا البحث موضوع للكشف

³ أخرجه البخاري 15،16/3 ومسلم 773 وأحمد 385،396/1 ونحوه حديث حذيفة قال: صليت مع النبي - صلى الله عليه وسلم - ذات ليلة فافتتح بالبقرة، فقلت يركع عند المائة، ثم مضى فقلت: يصلي بها في ركعة فمضى، فقلت: يركع بها، ثم افتتح النساء فقرأها، ثم افتتح آل عمران فقرأها، يقرأ مترسلاً - أي مرتلاً بتبيين الحروف وأداء حقاها - إذا مر بآية فيها تسبيح سبح وإذا مر بسؤال سأل وإذا مر بتعوذ تعوذ ، ثم ركع فجعل يقول: سبحان ربي العظيم، فكان ركوعه نحواً من قيامه، ثم قال: سمع الله لمن حمده ربنا لك الحمد، ثم قام طويلاً قريباً مما ركع، ثم سجد فقال: سبحان ربي الأعلى فكان سجوده قريباً من قيامه) [أخرجه مسلم 772 وأبو داود 874 والنسائي 176،177/2 وأحمد 384/5، 397].

عن بعض تلك المعاني .

رابعاً: أن الموضوع فيه إضافة علمية تسهم — بإذن الله — في ترسيخ معاني العقيدة الصحيحة في الله خاصة أن له صلة مباشرة بمبثني المتشابه والتأويل واللغة والفهم وهما مبحثان خطيران في فهم كلام الله ومراده .
و للبحث أهداف يمكن إجمالها فيما يأتي :

أولاً: بما أنه مرتبط بكتاب الله العزيز بل بالمفردة القرآنية التي هي أساس بناء كلام الله المجيد و مرتبط بأشهر الأذكار التي يؤتي بها أكثر من مرة في اليوم و الليلة فهو محاولة للوصول إلى فهم حقائق الألفاظ التي وسع القرآن فضاء دلالاتها.

ثانياً: إظهار العلاقة الوثيقة بين ألفاظ التسييح وسياقاتها وكيف تتغير دلالاتها المناسبة مقاصد السور والآي.

ثالثاً: بيان مظهر من مظاهر إعجاز المفردة القرآنية فالتسييح فيه معنى التترية؛ تترية كلام الله عما وصفه به أعداء هذا الدين قديماً وحديثاً ببيان إعجاز خطاب الله من خلال هذه المفردة.

رابعاً: أن التسييح معناه الجامع هو التترية؛ و التترية مسألة رئيس في التعامل مع الله في أسمائه و صفاته و أفعاله و تتعلق به مباحث عظيمة ظاهرها عقدي و لبها لغوي دلالي بلاغي كالتأويل و المجاز و المتشابه و غيرها من القضايا المشكلة في المباحث البلاغية و العقدية .

و طبيعة الموضوع تلزم الباحث إتباع منهج الاستقراء والتتبع للاستقراء الآيات القرآنية التي تتصل بالتسييح. و كذا المنهج الوصفي و المناقشة بغية إبراز الموضوع في صورة علمية متكاملة.

و قد قسمت البحث في هذا الموضوع إلى مقدمة ومدخل وثلاثة فصول رئيسة وخاتمة وأما على التفصيل فهي على النحو الآتي:

مدخل تمهدي: ماهية التسييح. و فيه أربعة مباحث

المبحث الأول: التسييح في اللغة



المبحث الثاني: التسييح في اصطلاح النحاة

المبحث الثالث : أصل معنى التسييح في القرآن

الفصل الأول: عقده لبيان صيغ التسييح الواردة في القرآن الكريم و فيه مبحثان

المبحث الأول : صيغة الأفراد .

المبحث الثاني : صيغة القران :

الفصل الثاني: وضمنته فاعلي التسييح الواردة في كتاب الله و فيه ستة مباحث:

المبحث الأول : تسييح الله لنفسه.

المبحث الثاني : تسييح الملائكة.

المبحث الثالث : تسييح المرسلين.

المبحث الرابع : تسييح صالحى البشر

المبحث الخامس: تسييح الكائنات كلها.

المبحث السادس : تسييح أهل الجنة

و فصل ثالث بينت فيه دلالات التسييح و هو على ستة مباحث:

المبحث الأول : دلالة التسييح على التعظيم و التزيه.

المبحث الثاني : دلالة التسييح على الصلاة.

المبحث الثالث : دلالة التسييح على الذكر عموما.

المبحث الرابع : دلالة التسييح على الاستثناء .

المبحث الخامس : دلالة التسييح على العبادة .

المبحث السادس: دلالة التسييح على الدعاء .

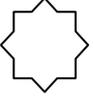
و خاتمة ضمننتها أهم نتائج البحث

وإن أهم المصادر والمراجع تفسير الكشاف و المحرر الوجيز لابن عطية و مفاتيح

الغيب لفخر الدين الرازي، والتحرير والتنوير ، وأضواء البيان، وتفسير أبي السعود ، وتفسير

القرطبي و تفسير الإمام محمد ابن جرير الطبري.





أما عن منهج عملي في المذكرة فهو كالآتي:

1. تتبعت الآي المرادة من البحث وكتبتها بالرسم العثماني على رواية حفص عن عاصم وجعلتها بين قوسين مزهرين وخرجتها في متن البحث .
2. من أجل ذلك التزمت أن لا أغفل التنبيه على ما يلوح لي من هذا الفن العظيم في آية من آي القرآن كلما أهتمه بحسب مبلغ الفهم وطاقة التدبر .
3. وزعت مادة البحث على فصول ومباحث ومطالب مراعاة للمنهجية العلمية
4. حرصت في التعليق على الآيات القرآنية على كتب التفسير لاسيما التي تعنى بالبيان ونوّعت فيها ووقفت موقف الحكم بين طوائف المفسرين تارة لها وآونة عليها ، فإن الاقتصار على الحديث المعاد ، تعطيل لفيض القرآن الذي ما له من نفاذ .
5. توخيت إبراز مسألة التسبيح بصورة علمية تهدف للوصول إلى مقررات عقدية تزيل الاضطراب عن آي الكتاب وفقا لمقررات أهل السنة والجماعة في إجراء النصوص على مفاهيمها الصحيحة من غير تأويلات المتكلمين.
6. خرجت الأحاديث وهي قليلة بنسبتها لكتب الصحاح أو السنن أو المسانيد.
7. عزوت الشواهد الشعرية لقائلها وذكرت بحورها وبيّنت الشاهد منها ونسبتها إلى أيسر مظاهها.
8. وثقت المادة العلمية على المنهجية المقررة فإن كان النقل بالنص جعلته بين قوسين مزدوجين وإن كان بتصريف أشير إليه بقولي: ينظر.
9. ترجمت لبعض من رأيت من الأعلام في هامش البحث.
10. ذيلت البحث بفهارس علمية وهي على الترتيب:
 - فهرس الآيات القرآنية مرتبة ترتيب السور.
 - فهرس المصادر والمراجع مرتبة ترتيب الحروف.



لاشك أن لكل بحث مشاكله و صعوباته منها ما هو شخصي ليس من داع
لذكره ومنها ما هو علمي أذكر أهمها:

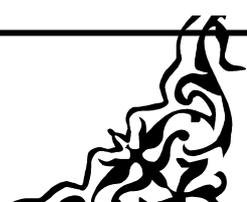
- قلة الزاد المعرفي وضعف المراس وقلة التجربة في البحث الأكاديمي.
- غزارة المادة العلمية صعب علي حصر الموضوع في عنوانه .
- حداثة الموضوع المتناول فيني لم أقف -حسب اطلاعي- على رسالة علمية
تعالج قضية من القضايا البيانية توافق ما رسمت له في هذه المذكرة.

وقد ميزت ما يفتح الله لي من فهم في معاني كتابه ، ولست أدعي انفرادي به في
نفس الأمر، فكم من كلام تنشئه تجد قد سبقك إليه متكلم. و علمت أن ما يهول من توقع
كلل أو غلط، لا ينبغي أن يحول بيني وبين نسج هذا النمط، إذا بذلت الوسع من الاجتهاد ،
وتوخيت طرق الصواب والسداد ؛ متوسطا في معترك أنظار فجعلت حقا علي أن أبدي في
بحثي نكتا علاها الغبار ، ولقد رأيت الناس حول كلام الأقدمين أحد رجلين: رجل معتكف
فيما شاده الأقدمون ، وآخر أخذ بمعوله في هدم ما مضت عليه القرون ، وفي كلتا الحالتين
ضر كثير ، وهنالك حالة أخرى ينجر بها الجناح الكسير، وهي أن نعد إلى ما شاده
الأقدمون فهذه ونزيده، وحاشا أن ننقضه أو نبيده، عالما بأن غمط فضلهم كفران للنعمة،
وجحد مزايا سلفها ليس من حميد خصال الأمة، فالحمد لله الذي صدق الأمل ، ويسر إلى
هذا الخير ودل .

المدخل

معنى التسييح

المبحث الأول: التسييح في اللغة
المبحث الثاني: التسييح عند النحاة
المبحث الثالث: أصل معنى التسييح في القرآن



المبحث الأول : التسييح في اللغة

تمهيد :

- لدراسة مفردة التسييح في القرآن الكريم يكفي أن نتناول المفردة على صيغتها الواردة في القرآن الكريم
- ✓ مفردة (تسييح) الذي يصاغ منه الفعل و الوصف و ما تفرع منهما)
 - ✓ مفردة (سبحان) الذي يستعمل مضافا لغيره و تلزمتنا هذه الدراسة التعرض إلي مباحث لغوية و نحوية نوزعها على المطالب الآتية :

المطلب الأول: بنية مفردة التسييح

المطلب الثاني : معني التسييح

المطلب الثالث : أصل التسييح

المطلب الأول: بنية مفردة التسبيح

التسبيح مصدر قياسي للفعل سبح على وزن فَعَلَ الذي هو مقياس مصادر الأفعال الرباعية

وجل الأفعال المبنية على هذا الوزن هي أفعال ثلاثية ضعفت عين الفعل منها لإفادة معنى من المعاني منها:

1. المبالغة في الفعل و تكراره كقوله ﷺ: ﴿مَلْعُونَيْكَ أَيُّنَمَا تُقْفُوا أَخَذُوا وَقَتَّلُوا تَفْتِيلًا

﴿٦١﴾ الأحزاب

2. تعدية الفعل إلى المفعول كقوله ﷺ: ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُمْ

مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا ﴿٧٠﴾ الإسراء

فالفعل (كرمنا) بني على وزن (فعل) ليتعدى إلى مفعوله و الأصل فيه اللزوم (كرمنا)

3. إفادة معنى الفعل كقوله ﷺ: ﴿تِلْكَ الرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ مِنْهُمْ مَنْ كَلَّمَ

اللَّهُ

﴿٢٥٣﴾ البقرة

(كَلَّمَ) مصدرها تكليما ولم يرد به التكثير ولا التعدية البتة و إنما أريد به إثبات وقوع

خطاب الله لرسوله، وهي مفردة رباعية ليس لها ثلاثي منقولة منه .

4. اختصار حكاية الكلام نحو : أيه، أي: قال يا أيها الرجل وكقولك حمد لمن قال الحمد

للَّهِ

و أقتصر على ذكر هذه الأربع لصلتها بمعنى سبح الذي سيأتي ذكره .

المطلب الثاني: معنى التسييح

بعد النظر والتحقيق في كتب المعاجم و غريب القرآن و التفاسير، أقول إن لهذه المفردة معنيين في اللغة:

● أما أحدهما: التزيه، تقول سبح الرجل تسييحا أي نزّهه تزيها و برأه من كل عيب ونقص.

● و أما الآخر: التسييح بمعنى قولك: سبحان الله

أما المعنى الأول: قال صاحب المقاييس⁽⁴⁾: " (سبح) السين والباء والحاء أصلان: أحدهما جنسٌ من العبادة، والآخر جنسٌ من السَّعي. التَّسييح، وهو تَنْزِيهُ الله جَلَّ ثَنَاؤُهُ من كلِّ سوء. والتَّنْزِيهِ: التبعية. والعرب تقول: سبحان من كذا، أي ما أبعدَه. قال الأعشى:

أَقُولُ لَمَّا جَاءَنِي فِخْرُهُ سُبْحَانَ مَنْ عُلْقَمَةُ الْفَاخِرِ⁽⁵⁾

وقال قوم : تَأْوِيلُهُ عَجَبًا لَهُ إِذَا يَفْخَرُ. وهذا قريبٌ من ذلك لِأَنَّهُ تَبَعِيدٌ لَهُ مِنَ الْفَخْرِ.

⁽⁴⁾ أبو الحسين أحمد ابن فارس اللغوي، قال الخليل: تفي بعد الخمسين سمع أبا مسلم الكجي وعبد الله بن أحمد وأبو الحسن بن سالم الزاهد، وعنه أخذ الأستاذ أبو طالب صاحب القوت وهو آخر أصحاب سهل التستري وقد خالف أصول السنة في مواضع وبالغ في الإثبات في مواضع وعمر دهرًا وبقي إلى سنة بضع وخمسين وثلاثمئة.

⁽⁵⁾ البيت من السريع وهو من قصيدة الأعشى في تفضيل عامر بن الطفيل على علقمة بن علاثة، الصحابي، وروي أن النبي صلى الله عليه وسلم نهى عن روايتها لما تضمنته من هجاء مقذع لعلقمة، قال البغدادي بعد أن روى الحديث وأورد أبياتا من القصيدة: ولهذا لم أذكرها كله ينظر: صبح الأعشى في صناعة الإنشا: أحمد بن علي القلقشندي يوسف علي طويل، دار الفكر - دمشق الطبعة الأولى، 1987، 444/1. و مقاييس اللغة: ابن فارس، 96/3 وكتاب سيبويه، تحقيق عبد السلام محمد هارون، دار الجيل - بيروت ج1 ص65. و المصباح المنير في غريب الشرح الكبير للرافعي: أحمد بن محمد بن علي المقرئ الفيومي، المكتبة العلمية - بيروت ج1 ص263. والمخصص: أبو الحسن علي بن إسماعيل النحوي اللغوي الأندلسي المعروف بابن سيده تحقيق: خليل إبراهيم جفال، دار إحياء التراث العربي - بيروت - 1417هـ - 1996م، 233/5 وغيرهم...

تَنْزَهُ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ لَا يَنْبَغِي لَهُ. جلال الله جل ثناؤه وعظمته." (6)

قلت: ومعنى تنزيه الله من السوء: تبيعه منه، وكذلك تسبيحه تبيعه، والقول هو الأول، وجماع معناه بُعد تبارك وتعالى عن أن يكون له مثل أو شريك أو ضد أو نِدُّ وأنشدوا:

وما عليك أن تقولي كلما سبحت أو صليت : يا اللهم (7)

والتسبيح : تنزيه الله وتعظيمه وتقديسه، فالتسبيح مصدر معناه البراءة والتنزيه التَّسْبِيحُ : التقديس والتنزيه يقال (سَبَّحْتُ) الله أي نزهته عما يقول الجاحدون قد جاء التسبيح بمعنى التنزيه في القرآن (8)

التسبيح تنزيه الحق وقال بعض المحققين: "التسبيح هو تنزيه الله عما لا يليق بجاهه من صفات النقص." (9)

"والتسبيح: تَنْزِيَهُ عَنْ كُلِّ مَا لَا يَنْبَغِي أَنْ يُوصَفَ بِهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى" (10)

وأما المعنى الآخر: وهو قول (سبحان الله)، وهذا المعنى اختاره بعض اللغويين:

(سَبَّحَ) قال سبحان الله، سبحان الله معناه براءة الله من السوء تنزيها لله معناه إيعاذ الله من السوء، والتزهة البعد، ورجل نزيه أي بعيد من السوء (11)

(6) معجم مقاييس اللغة: أبو الحسين أحمد بن فارس بن زكريا، تحقيق عبد السلام محمد هارون، دار الفكر، ط1399هـ - 1979، 3/ 125

(7) البيت من مشطور الرجز وهذا أيضا من الشواهد التي لم ينسبها أحد لقائل وقد أخطأ نشوان الحميري في نسبته إلى الأعشى. ومضمونه أنه يأمر زوجته أو ابنته بالدعاء كلما صلت أو سبحت ليعود إليها سالما. ينظر: الإنصاف في مسائل الخلاف بين النحويين البصريين والكوفيين: أبي البركات عبد الرحمن بن محمد بن أبي سعيد الأنباري، دار الطلائع - القاهرة - تحقيق محمد محي الدين عبد الحميد، 292/1 الزاهر في معاني كلمات الناس: أبو بكر محمد بن القاسم الأنباري، مؤسسة الرسالة - بيروت - 1412 هـ - 1992 الطبعة : الأولى تحقيق : د. حاتم صالح الضامن 50/1

(8) الكلبيات: أبو البقاء أيوب بن موسى الحسيني الكفوي، ج3 ص424.

(9) الفروق اللغوية: أبو هلال العسكري 125/1.

(10) المحيط في اللغة : الصاحب بن عباد، 202/1.

(11) كتاب حروف المعاني : أبو القاسم عبد الرحمن بن إسحاق الزجاجي، تحقيق : د. علي توفيق الحمد، مؤسسة

الرسالة - بيروت، الطبعة الأولى، 1/1984، 18

وسَبَّحَ الرجلُ قال: سبحان الله وفي التثنية كلُّ قد عَلِمَ صَلَاتَهُ وتَسْبِيحَهُ.
قال رؤبة:

سَبَّحْنَ وَاسْتَرْجَعْنَ مِنْ تَأَلُّهِ (12) (13)

وزعم بعضهم أن التسبيح مقصور على هذا المعنى و ذكر ذلك غير واحد منهم.
قال الزجاج (14):

وسُبْحان في اللغة: تزييه لله عزّ وجلّ عن السوء (15).

أخرج ابن أبي حاتم عن ابن عباس في قوله: سبحان الله قال: تزييه الله نفسه عن السوء
قال سيبويه (16) "زعم أبو الخطاب أن سبحان الله كقولك براءة الله، أي أُبرئُ الله من

(12) عجز بيت من الرجز لرؤية بن العجاج كما هو مثبت في الديوان ص 165 و صدره: لله در العانيات المده، ينظر:

كتاب العين: الخليل بن أحمد الفراهيدي 90/4 ومقاييس اللغة: ابن فارس 132/1

(13) لسان العرب: محمد بن مكرم بن منظور الأفرريقي المصري، دار صادر - بيروت - الطبعة الأولى، 470/2

(14) الزجاج: هو أبو إسحاق بن السرى بن سهل البصرى النحوى (241 - 311 هـ = 855 - 923 م) صاحب
كتاب معاني القرآن. قال الخطيب في تاريخ بغداد: كان أبو إسحاق الزجاج هذا من أهل الفضل والدين، حسن
الاعتقاد، وحسن المذهب، له مصنفات حسان في الأدب كان يخرط الزجاج مات سنة 311 ، وسئل عن سنه عند
العرفات : فعقد سبعين وسمع منه يقول : اللهم احشرنى على مذهب أحمد بن حنبل - رضي الله عنه - له كتاب
مختصر في النحو وكتاب فعلت وأفعلت وكتاب ما ينصرف ومالا ينصرف أخذ الأدب عن الميرد وثعلب وغير ذلك ن
كتبه (معاني القرآن - خ) و (الاشتقاق) و (خلق الإنسان - ط) و (الامالي) في الأدب واللغة، و (فعلت وأفعلت -
ط) في تصريف الالفاظ و (المثلث - خ) في اللغة، مهياً للنشر في بغداد، و (إعراب القرآن - ط) ثلاثة أجزاء.
ينظر: طبقات النحويين واللغويين للزبيدي (111) وتاريخ بغداد (89/6 - 93) ومراتب النحويين (136) والمنتظم
لابن الجوزى (176/6) والكامل في التاريخ (145/8)

(15) تاج العروس الزبيدي 162/7

(16) عمرو بن عثمان بن قنبر مولى بني الحارث بن كعب أبو بشر ويقال أبو الحسن، وقال أحمد بن عبدالرحمن
الشيرازي في كتاب الألقاب: إن اسم سيبويه نشر ابن سعيد وهو غريب والمشهور عمرو وسيبويه بالفارسية راتحة
التفاح أخذ النحو عن الخليل ولازمه وعن عيسى بن عمر الثقفي ويونس وغيرهم واللغة عن أبي الخطاب الأحمش
ووضع كتابه المنسوب إليه الذي طار طائرته في الآفاق، ولما تعصب عليه الكسائي خرج مغضبا يريد طلحة بن طاهر
بخراسان فلما وصل ساوة مرض هناك مرض الموت. توفي سنة ثمانين ومئة عن بضع وثلاثين سنة بشيراز في أيام الرشيد
على أن في سنة موته اختلافا كثيرا ينظر: تاريخ بغداد أو مدينة السلام : الخطيب البغدادي

السوء"⁽¹⁷⁾ - براءةً وقيل قوله سبحانه أي أنزهك يا رب من كل سوء وأبرئك والعرب تقول سُبْحَانَ مَنْ كَذَا وكذلك تسيبحه تبعيده قال: أُمِيَّة

سُبْحَانَهُ ثُمَّ سُبْحَانًا يَعُودُ لَهُ وَقَبْلَنَا سَبَّحَ الْجُودِيُّ وَالْجُمْدُ⁽¹⁸⁾

وقال ابن جني :

سبحان اسم علم لمعنى البراءة والتتريه⁽¹⁹⁾

وسُبْحَانَ اللَّهِ، معناه التتريه لله، كآته قال: أُبْرِيءُ اللَّهُ مِنَ السُّوءِ بَرَاءَةً. والعرب تقول: سُبْحَانَ مَنْ كَذَا، إذا تعجبت منه. قال الأعشى:

أَقُولُ لَمَّا جَاءَنِي فَخْرُهُ ... سُبْحَانَ مَنْ عَلَقَمَةَ الْفَاخِرِ⁽²⁰⁾

وسَبَّحَلَ الرَّجُلُ، إذا قال سبحانه الله.⁽²¹⁾

قلت: فسُبْحَانَ فِي اللُّغَةِ: تَتْرِيهِ لِهِنَّ عَزَّ وَجَلَّ عَنِ السُّوءِ. وهذا قول سيبويه وقول الجمهور، يقال: سَبَّحْتَ اللَّهَ تَسْبِيحًا وَسُبْحَانًا، بمعنى واحد وقال الليث: "سبحان الله، تتريه لله عن كل ما لا ينبغي له أن يوصف به."⁽²²⁾

وبعد عرض هذه الأقوال وبسطها نخلص أن التسييح بالمعنى الأول (التتريه) دلالة معنوية، تفهم من سياق المعاني ومن لازم المفردة، وبالمعنى الآخر (سبحان الله) دلالة لفظية وإن كان المعنيان والمدلولان يؤديان الغرض الواحد ولكن السياق القرآني يحدد أيهما أنسب للنظم. وجماع معناه وفائدته - في كلتا الحالين - بُعْذُهُ وتتريهه - جل وعلا - عن أن يكون

(17) الكتاب: سيبويه 65/1

(18) البيت لأمية بن أبي الصلت الثقفي كان مغري في الجاهلية بتمجيد الله وصفة الجنة والنار ينظر: الكتاب: سيبويه 326/1 الزاهر في معاني كلمات الناس: أبو بكر محمد بن القاسم الأنباري تحقيق: د. حاتم صالح الضامن مؤسسة الرسالة - بيروت - 1412 هـ - 1992 الطبعة: الأولى ج 1 ص 50. والمخصص - لابن سيده 233/5 تاج العروس: الزبيدي 206/7 لسان العرب: لسان العرب للإمام العلامة أبي الفضل جمال الدين ممد بن مكرم ابن منظور الإفريقي المصري نشر أدب الحوزة قم - إيران 1405 هـ 1363 ق 255/13.

(19) الخصائص: أبو الفتح عثمان بن جني: عالم الكتب - بيروت - تحقيق: محمد علي النجار. ج 2، ص 197

(20) سبق ص 4

(21) الصحاح تاج اللغة وصحاح العربية إسماعيل بن حماد الجوهري تحقيق: أحمد عبد الغفور عطار دار العلم للملايين

- بيروت - لبنان، الطبعة الرابعة 1407 هـ - 1987 م، ج 7، ص 5

(22) تهذيب اللغة: الأزهرى، ج 2، ص 45

له مثلٌ أو شريك أو ندُّ أو ضدّ .

المطلب الثالث: أصل التسييح

بعد تأمل في أصل معنى مفردة التسييح يمكن أن نحصر أصل معانيها في أصول ثلاث:

1. **التبعيد:** قال النحاس: "أصل التسييح التزيه و- التزيه التبعيد لله عز و جل (23) (سَبَّحَ اللهُ) أي نَزَّهَهُ" (24)

و التسييح: "التزيه والبراءة، وأصله من السَّبَّح وهو البعد، ومنه السَّابِح في الماء" (25)
إن أصل التسييح التبعيد من قولك سبحت في الأرض إذا تباعدت فيها ومنه قوله
تَعَالَى: ﴿كُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ﴾ (٣٣) الأنبياء (26)

قال محمد الأمين الشنقيطي: "وأصل التسييح في اللغة: الإبعاد عن السوء، ومعناه في عرف
الشرع: تزيه الله" (27)

التسييح: أصله الإبعاد عن السوء، وتسييح الله وتزيهه عن كل ما لا يليق بكماله
وجلاله، وذلك التزيه واجب له في ذاته وأسمائه وصفاته وأفعاله (28)
إذن أصله في اللغة الإبعاد عن السوء، من قولهم: (سَبَّحَ)، إذا صار بعيداً، ومنه قيل للفرس:
سابع، لأنه إذا جرى يبعد بسرعة، ومن ذلك قول عنترة:

(23) فتح القدير الجامع بين فني الرواية والدراية من علم التفسير: الشوكاني محمد بن علي بن محمد: دار الفكر - بيروت، ج5، ص273

(24) : لمسات بيانية: الدكتور فاضل صالح السامرائي ص43

(25) اللباب في علوم الكتاب: أبو حفص عمر بن علي ابن عادل الدمشقي الحنبلي: دار الكتب العلمية - بيروت / لبنان - 1419 هـ - 1998 م الطبعة: الأولى، تحقيق: الشيخ عادل أحمد عبد الموجود والشيخ علي محمد معوض ج، ص1، ص508

(26) غريب الحديث: حمد بن محمد بن إبراهيم الخطابي البستي أبو سليمان: جامعة أم القرى - مكة المكرمة، 1402 تحقيق: عبد الكريم إبراهيم العزباوي، 685/1

(27) أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن: محمد الأمين بن محمد بن المختار الجكني الشنقيطي،: دار الفكر للطباعة والنشر - بيروت - 1415 هـ - 1995 م، تحقيق: مكتب البحوث والدراسات. ج2، ص221

(28) المصدر نفسه: 538/7

لجري النجوم⁽³⁴⁾.

وأما دلالته على التزيه البليغ فمن الاشتقاق أعني من التسبيح وهو الإبعاد في الأرض وأظهر منه أن يكون سبّح بمعنى نسبة للسبّح أي البعد وأريد البعد الاعتباري وهو الرفعة أي التزيه عن أحوال النقائص والمعائب.

وجميع هذه المعاني قريب بعضها من بعض وتؤول في النهاية إلى أصل المعنى الذي جاءت الآيات لتقريره وهو البعد الذي لازمه تزيه الله في الربوبية والألوهية والأسماء والصفات. وعلى ما تقدم فتفسير التسبيح بالتزيه أو التباعد أو التبرئة سواء.

قلت: ولما كان أصل (سبّح) بمعنى أبعد-اللازم-بني التسبيح على وزن التفعيل للتعدية ، فيكون (سبّح) المضاعف قد نقل من صيغة الثلاثي المجرد إلى الرباعي لإفادة المبالغة في المعنى ، ففي التسبيح معنى المبالغة في التباعد والتزيه عن السوء.

وعلى قول من قال بأنه من (سبّح) المخفف لم يستعمل بمعنى نزه وإنما استعمل (سبّح) المضعف فعلى هذا يكون التسبيح بني على التفعيل لإفادة المعنى المجرد والحمل على المعنيين وارد وإن كنت أميل إلى الأول.

المبحث الثاني: التسبيح عند النحاة

المطلب الأول : تعدية التسبيح

المتبع لمفردة فعل التسبيح في القرآن الكريم يجده يتعدى تارة من غير واسطة و تارة بالباء و تارة أخرى باللام و لا رابع لهذه الحالات في كتاب الله -جل و علا-.

جاء في أضواء البيان⁽³⁵⁾: " وهذا الفعل الذي هو سبّح قد يتعدى بنفسه دون اللام كقوله

تعالى: ﴿وَسَبِّحْهُ بُكْرَةً وَأَصِيلاً﴾ الفتح، و: قَالَ تَعَالَى: ﴿وَمِنَ اللَّيْلِ فَاسْجُدْ لَهُ، وَسَبِّحْهُ لَيْلاً طَوِيلاً﴾ الإنسان".

وقد يتعدى باللام كقوله: سَبِّحَ لِلَّهِ، وعلى هذا فسبّحه وسبّح له لغتان كنصحه

⁽³⁴⁾ فيض القدير شرح الجامع الصغير من أحاديث البشير النذير: للعلامة محمد عبد الرؤوف المناوي، ضبطه وصححه أحمد عبد السلام، دار الكتب العلمية بيروت - لبنان/الطبعة الأولى 1415 هـ - 1994 م . 468/6

⁽³⁵⁾ أضواء البيان: الشنقيطي، 450/7

ونصح له. وشكره وشكر له (36)

ولكن المتأمل في خصوصية النص القرآني من حيث نظمه ودلالاته يجد الأمر أبعد من أن يقال: بأن تعدية الفعل بالحرف أو تعديته بنفسه لغتان فما بالك إذا كان هذا الحرف في القرآن الكريم؟

وإذا جاء التسييح بمعنى التزيه و التبعيد فإن الفعل منه يكون متعديا .

الحال الأولى : أن يتعدى بنفسه : و قد ورد ذلك **ست عشرة مرة** و هي كما يأتي :

1. قَالَ تَعَالَى: ﴿سَبِّحْ أَسْمَاءَ رَبِّكَ الْأَعْلَى﴾ ﴿١﴾ ﴿الأعلى
2. قَالَ تَعَالَى: ﴿وَمِنَ اللَّيْلِ فَسَبِّحْهُ وَأَدْبَرَ السُّجُودِ﴾ ﴿٤٠﴾ ﴿ق
3. قَالَ تَعَالَى: ﴿وَمِنَ اللَّيْلِ فَاسْجُدْ لَهُ، وَسَبِّحْهُ لَيْلًا طَوِيلًا﴾ ﴿٦٦﴾ ﴿الإنسان
4. قَالَ تَعَالَى: ﴿وَمِنَ اللَّيْلِ فَسَبِّحْهُ وَإِدْبَرَ الْجُودِ﴾ ﴿٤٩﴾ ﴿الطور
5. قَالَ تَعَالَى: ﴿وَسَبِّحْهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا﴾ ﴿٤٣﴾ ﴿الأحزاب
6. قَالَ تَعَالَى: ﴿فَخَرَجَ عَلَى قَوْمِهِ مِنَ الْمِحْرَابِ فَأَوْحَى إِلَيْهِمْ أَنْ سَبِّحُوا بُكْرَةً وَعَشِيًّا﴾ ﴿١١﴾ ﴿مريم
7. قَالَ تَعَالَى: ﴿إِنَّمَا يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا الَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا بِهَا خَرُّوا سُجَّدًا وَسَبَّحُوا بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ﴾ ﴿١٥﴾ ﴿السجدة
8. قَالَ تَعَالَى: ﴿لَتُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ، وَتُعَزِّرُوهُ وَتُوَقِّرُوهُ وَتُسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا﴾ ﴿١﴾ ﴿الفتح
9. قَالَ تَعَالَى: ﴿وَيَسْبِغُ الرِّعْدُ بِحَمْدِهِ، وَالْمَلَائِكَةُ مِنْ خِيفَتِهِ، وَيُرْسِلُ الصَّوَاعِقَ فَيُصِيبُ بِهَا مَنْ يَشَاءُ وَهُمْ يُجَادِلُونَ فِي اللَّهِ وَهُوَ شَدِيدُ الْمِحَالِ﴾ ﴿١٣﴾ ﴿الرعد
10. قَالَ تَعَالَى: ﴿وَمِنَ آيَاتِنَا اللَّيْلِ فَسَبِّحْ وَأَطْرَافَ النَّهَارِ لَعَلَّكَ تَرْضَى﴾ ﴿١٣٠﴾ ﴿طه
11. قَالَ تَعَالَى: ﴿وَاذْكُرْ رَبَّكَ كَثِيرًا وَسَبِّحْ بِالْعَشِيِّ وَالْإِبْكَرِ﴾ ﴿٤١﴾ ﴿آل عمران
12. قَالَ تَعَالَى: ﴿كَيْ تُسَبِّحَهُ كَثِيرًا﴾ ﴿٣٣﴾ ﴿طه
13. قَالَ تَعَالَى: ﴿يُسَبِّحُونَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لَا يَفْتُرُونَ﴾ ﴿٢٠﴾ ﴿الأنبياء

(36) والأفعال التي هذا وصفها قليلة معدودة محفوظة في لغة العرب.

14. قَالَ تَعَالَى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ عِنْدَ رَبِّكَ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِ وَيُسَبِّحُونَهُ، وَلَهُ يَسْجُدُونَ﴾ ﴿١٧٩﴾

﴿٢٠٦﴾ الأعراف

15. قَالَ تَعَالَى: ﴿وَسَخَّرْنَا مَعَ دَاوُدَ الْجِبَالَ يُسَبِّحْنَ وَالطَّيْرَ وَكُنَّا فَاعِلِينَ﴾ ﴿٧٦﴾ ﴿٢٠٦﴾ الأنبياء

16. قَالَ تَعَالَى: ﴿إِنَّا سَخَّرْنَا الْجِبَالَ مَعَهُ يُسَبِّحْنَ بِالْعَشِيِّ وَالْإِشْرَاقِ﴾ ﴿١٨﴾ ﴿٢٠٦﴾ ص

ويتعدى الفعل أيضا بحرف الجر ويكون ذلك سببا في زيادة معناه.

الحال الثانية: أن يتعدى الفعل باللام وقد ورد ذلك في مواضع عشرة كاملة في كتاب الله:

1. قَالَ تَعَالَى: ﴿سَبِّحَ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ ﴿١﴾ ﴿٢٠٦﴾ الحديد

2. قَالَ تَعَالَى: ﴿سَبِّحَ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ ﴿١﴾ ﴿٢٠٦﴾ الصف

3. قَالَ تَعَالَى: ﴿سَبِّحَ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ ﴿١﴾ ﴿٢٠٦﴾ الحشر

4. قَالَ تَعَالَى: ﴿فِي بُيُوتِ الَّذِينَ أَنْزَلَ اللَّهُ أَنْ تَرَفَّعَ وَيُذَكَّرَ فِيهَا أَسْمُهُ يُسَبِّحُ لَهُ، فِيهَا بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ﴾

﴿٢٦﴾ ﴿٢٠٦﴾ النور

5. قَالَ تَعَالَى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُسَبِّحُ لَهُ، مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالطَّيْرُ صَهَقَتْ كُلُّ قَدِّعَةٍ

صَلَاتُهُ، وَسَبِّحُهُ، وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِمَا يَفْعَلُونَ﴾ ﴿٤١﴾ ﴿٢٠٦﴾ النور

6. قَالَ تَعَالَى: ﴿هُوَ اللَّهُ الْخَلِيقُ الْبَارِئُ الْمُصَوِّرُ لَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى يُسَبِّحُ لَهُ، مَا فِي السَّمَوَاتِ

وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ ﴿٢٤﴾ ﴿٢٠٦﴾ الحشر

7. قَالَ تَعَالَى: ﴿يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ الْمَلِكِ الْقُدُّوسِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ﴾ ﴿١﴾ ﴿٢٠٦﴾ الجمعة

8. قَالَ تَعَالَى: ﴿يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ لَهُ الْمُلْكُ وَلَهُ الْحَمْدُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾

﴿١﴾ ﴿٢٠٦﴾ التغابن

9. قَالَ تَعَالَى: ﴿يُسَبِّحُ لَهُ السَّمَوَاتُ السَّبْعُ وَالْأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ﴾ ﴿٤٤﴾ ﴿٢٠٦﴾ الإسراء

10. قَالَ تَعَالَى: ﴿فَإِنْ اسْتَكْبَرُوا فَالَّذِينَ عِنْدَ رَبِّكَ يُسَبِّحُونَ لَهُ، بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَهُمْ لَا

يَسْمَعُونَ﴾ ﴿٢٨﴾ ﴿٢٠٦﴾ فصلت

ويتعدى باللام كقوله هنا: قَالَ تَعَالَى: ﴿سَبِّحَ لِلَّهِ﴾ وشكره وشكر له، وذكر بعضهم في

الآية وجهاً آخر:

قال أبو حيان: "واللام في لله، إما أن تكون بمتزلة اللام في: نصحت لزيد، يقال: سبح الله، كما يقال؛ نصحت زيداً، فجيء باللام لتقوية وصول الفعل إلى المفعول؛ وإما أن تكون لام التعليل، أي أحدث التسبيح لأجل الله، أي لوجهه خالصاً".⁽³⁷⁾

قال الزمخشري⁽³⁸⁾: وقد عدى هذا الفعل باللام تارة وبنفسه أخرى في قوله تعالى: (وتسبحوه) وأصله: التعدي بنفسه، لأن معنى سبحته: بعدته عن السوء، منقول من سبح إذا ذهب وبعد، فاللام لا تخلو إما أن تكون مثل اللام في: نصحت له، وإما أن يراد بسبح لله: أحدث التسبيح لأجل الله ولوجهه خالصاً".⁽³⁹⁾ ويمكن إجمال أقوال العلماء في معنى اللام في:

1. مزيدة للتأكيد كما في شكرته وشكرت له⁽⁴⁰⁾
2. أو هي للتعليل: أي افعل التسبيح لأجل الله سبحانه خالصاً له.⁽⁴¹⁾

ومعنى للتعليل أي للإخلاص. تسبّحه لأجله قال تعالى: ﴿قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾^(١١٢) الأنعام، يسموها لام التعليل لبيان العلة وهي تدل على الإخلاص. فقوله (سبح لله) أي أخلص التسبيح له.

⁽³⁷⁾ البحر المحيط: أبو حيان الأندلسي، 163/8

⁽³⁸⁾ الزمخشري (467 - 538 هـ، 1074 - 1143 م). أبو القاسم محمود بن عمرو بن أحمد، الزمخشري جار الله. كان إماماً في التفسير والنحو واللغة والأدب، واسع العلم، كبير الفضل متفتناً في علوم شتى. ولد بزمخشر من ضواحي خوارزم، وتوفي بقصبة خوارزم ليلة عرفة. وكان معتزلي المذهب ألف الزمخشري تصانيف عديدة في صنوف المعرفة المختلفة، ففي تفسير القرآن الكريم ألف كتابه الكشاف الذي وصف بأنه لم يصنّف قبله مثله. وفي تفسير الحديث صنّف كتاب الفائق، وله في اللغة كتاب أساس البلاغة، أما في النحو فقد صنّف كتباً كثيرة منها: المفصل، وقد اعتنى بشرحه خلق كثير، والأنموذج، والمفرد، والمؤلف، وشرح أبيات كتاب سيبويه، وله في الأمثال: المستقصي في أمثال العرب. كما أن له كتباً في علم الفرائض، والأصول، والفقهاء والأمال في كل فن، وله شعر جميل.

⁽³⁹⁾ الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل: أبو القاسم محمود بن عمر الزمخشري: تحقيق: عبد

الرزاق المهدي، إحياء التراث العربي - بيروت، 470/4

⁽⁴⁰⁾ المصدر نفسه

⁽⁴¹⁾ فتح القدير: للشوكاني، 373/7

إذن هناك فرق (سَبَّحَ) قام بالفعل لكن (سَبَّحَ لِلَّهِ) قام بالفعل وأخلص التسبيح له "وهو متعدد ليدل على العموم بقصره ، وعلى الإخلاص بتعديته باللام" (42).

و إمامزیده للتأكيد كما في نصحت له وشكرت له أو للتعليل أى فعل التسبيح لأجل الله تعالى وخالصا لوجهه (43).

قوله: سَبَّحَ لِلَّهِ يَجُوزُ فِي هَذِهِ اللَّامِ وَجِهَانِ:

أحدهما: أنها مزيدة كهي في "نَصَحْتُ لزيدٍ" و"شَكَرْتُ له" إذ يقال: سَبَّحْتُ الله

تعالى. قَالَ تَعَالَى: ﴿وَيُسَبِّحُونَهُ، وَلَهُ يُسَجَّدُونَ﴾ ﴿٤٠﴾ الأعراف.

والآخر: أن تكون للتعليل، أي: أَحَدَتْ التَّسْبِيحَ لِأَجْلِ اللَّهِ تَعَالَى .

إشعارا بأن إيقاع الفعل لأجل الله وخالصا لوجهه وهي نفيسة بيانية .

وهذا الفعل قد عدى باللام تارة وبنفسه أخرى في قوله وتسبحوه وأصله التعدي بنفسه لأن معنى سبحته بعدته من السوء منقول من سبح إذ ذهب وبعد فاللام إما أن تكون مثل اللام في نصحته ونصحت له وإما أن يراد بسبح الله اكتسب التسبيح لأجل الله ولووجهه خالصا (44)

وهو سر عظيم من أسرار البيان. كما قال صاحب العجائب: "سبح لله هذه كلمة استأثر الله بها فبدأ بالمصدر منها في بني إسرائيل لأنه الأصل ثم الماضي سبح لله في الحديد والحشر والصف لأنه أسبق الزمانين ثم المستقبل في الجمعة والتغابن ثم بالأمر في سورة الأعلى استيعابا لهذه الكلمة من جميع جهاتها وهي أربع المصدر والماضي والمستقبل والأمر المخاطب فهذه

(42) نظم الدرر في تناسب الآيات والسور: برهان الدين أبو الحسن إبراهيم بن عمر البقاعي دار الكتب العلمية -

بيروت - 1415هـ - 1995 م تحقيق: عبد الرزاق غالب المهدي 433/7

(43) إرشاد العقل السليم إلى مزايا القرآن الكريم: محمد بن محمد العمادي أبو السعود: دار إحياء التراث العربي -

بيروت ج8 ص203

(44) تفسير النسفي: أبو البركات عبد الله بن أحمد بن محمود النسفي تحقيق الشيخ: مروان محمد الشعار، دار النفائس

— بيروت 2005، 174/4

دخلت اللام في قوله تعالى: ﴿سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿١﴾﴾ الحديد، والمراد التسبيح الذي هو السجود والخضوع والطاعة ولم يقل في موضع سبح الله ما في السموات والأرض كما قال تعالى: ﴿وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَظُلْمًا لَهُمْ بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ ﴿١٥﴾﴾ الرعد، وتأمل قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ عِنْدَ رَبِّكَ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِ وَيَسْبِحُونَهُ، وَلَهُ يَسْجُدُونَ ﴿٢٦﴾﴾ الأعراف.

يقول تعالى ﴿سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿١﴾﴾ الحديد، ومرة يقول تعالى: ﴿سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿١﴾﴾ الحشر، فهل هناك فارق بينهما؟ قيل التسبيح يراد به التزويه والذكر المجرد دون معنى آخر ويراد به ذلك مع الصلاة وهو ذكر وتزويه مع عمل ولهذا تسمى الصلاة تسبيحا فإذا أريد التسبيح المجرد فلا معنى للباء لأنه لا يتعدى بحرف جر لا تقول سبحت بالله وإذا أردت المقرون بالفعل وهو الصلاة أدخلت الباء تنبيها على ذلك المراد كأنك قلت سبح مفتتحا باسم ربك أو ناطقا باسم ربك كما تقول صل مفتتحا أو ناطقا باسمه ولهذا السر والله أعلم دخلت اللام في قوله تعالى: ﴿سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿١﴾﴾ الحديد، والمراد التسبيح الذي هو السجود والخضوع والطاعة ولم يقل في موضع الحديد كما قال تعالى: ﴿وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَظُلْمًا لَهُمْ بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ ﴿١٥﴾﴾ الرعد، وتأمل قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ عِنْدَ رَبِّكَ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِ وَيَسْبِحُونَهُ، وَلَهُ يَسْجُدُونَ ﴿٢٦﴾﴾ الأعراف، فقال ويسبحونه لما ذكر السجود باسمه الخاص فصار التسبيح ذكرهم له وتزويهم إياه⁽⁴⁶⁾

(45) البرهان في علوم القرآن: بدر الدين محمد بن عبد الله بن بهادر الزركشي (المتوفى: 794هـ) المحقق: محمد أبو الفضل إبراهيم، الطبعة الأولى، 1376 هـ - 1957 م: دار إحياء الكتب العربية عيسى البابي الحلبي وشركائه، 165/1

(46) ينظر: لمسات بيانية: الدكتور فاضل صالح السامرائي، ص 43

المطلب الثاني: مسألة سبحان (47)

سبق عند الحديث عن معنى التسبيح أن (سبحان الله) معناه: تزيه الله وبراءته من السوء.

ولاحلاف بين أهل اللغة والعلم بكلام العرب في معناها ولكن الخلاف وقع في نوع هذه المفردة، هل هي مصدر أو اسم مصدر؟⁽⁴⁸⁾

✓ فجمع غزير من العلماء يقررون أن (سبحان) مصدر غير أنهم يختلفون في نوع مصدريته:

فيرى بعضهم أنه مصدر قياسي للفاعل (سبح) سُمِعَ له فعلٌ ثلاثي⁽⁴⁹⁾ هذا بالتخفيف فيكون ك (غفران) مصدر غفر و (شكران) مصدر شكر⁽⁵⁰⁾

قالوا: أَمَّا الْقَوْلُ بِأَنَّهُ مَصْدَرٌ فَلِأَنَّهُ جَارٍ عَلَى بِنَاءِ الْمَصَادِرِ ، فَكَثِيرًا مَا يَأْتِي عَلَى فُعْلَانَ (51).

وإلى هذا ذهب أبو حاتم والزجاج وقرروا أنها على فعلان⁽⁵²⁾ مَنْصُوبٌ عَلَى الْمَصْدَرِ ؛ قَالَهُ سَبَّوْنِيهِ وَالْخَلِيلُ. ومن أصحاب هذا المذهب من حكى أن فعله غير مستعمل، وأنه من المصادر التي ماتت أفعالها⁽⁵³⁾

قال ابن عطية: "هو مصدر سبح يقال سبح يسبح تسبيحا وسبحانا مثل كفر اليمين تكفيرا وكفرانا....." ⁽⁵⁴⁾

⁽⁴⁷⁾ عنوان رسالة معروفة لنفطويه

⁽⁴⁸⁾ بين المصدر واسمه فارق لفظي وآخر معنوي: أما اللفظي، فالمصدر جار على فعله الذي هو قياسه، واسم المصدر غير جار على فعله وأما المعنوي: فالمصدر دال على الحدث وفاعله واسم المصدر دال على الحدث وحده

⁽⁴⁹⁾ الدر المصون: للسمين الحلبي 1/ 197

⁽⁵⁰⁾ ينظر: مفردات ألفاظ القرآن، للراغب الأصفهاني: 1/ 453 ،

⁽⁵¹⁾ ينظر: وشرح المفصل لابن يعيش 1/ 54، وتاج العروس: للزبيدي 2/ 254

⁽⁵²⁾ تاج العروس: للزبيدي 4/ 303

⁽⁵³⁾ ينظر: الإتقان في علوم القرآن: للسيوطي 1/ 456 ينظر: تاج العروس: للزبيدي، 7/ 163 المنخص في اللغة: لابن

سيده 11/ 152

⁽⁵⁴⁾ المحرر الوجيز: ابن عطية 3/ 206

وقال الأخفش: "سُبْحان مصدر لا ينصرفُ." (55)

• ويرى بعضهم الآخر أن (سبحان) مصدر سماعي للفعل (سَبَّحَ) بالتشديد فهو كالنسيب (56) وهذا بعيد عن القياس، لأنه لا نظير له، خلافاً كونه مصدر (سَبَّحَ) بالتخفيف، فإنه كثير وإن كان لا قياس له. (57)

✓ وجماعة أخرى من اللغويين والنحاة والمفسرين (58) يرون أن (سبحان) اسم مصدر سَبَّحَ، وليس مصدرًا ويحتجون لذلك بأن لم يسمع له فعل سالم من أبنية الرباعي (59) ويجعلونه اسمًا وُضِعَ لِلْمَصْدَرِ لِأَنَّهُمْ رَأَوْهُ لَا يَجْرِي عَلَى الْفِعْلِ الَّذِي هُوَ سَبَّحَ. قال الطاهر بن عاشور: (سبحان) اسم مصدر سَبَّحَ، وليس مصدرًا، لأنه لم يسمع له فعل سالم (60)

وكذلك يحتجون لكونه اسم مصدر: أنه لم يجز منه فعل.

وهاتان الحجتان ليس فيهما أمانة من علم ولا إثارة من دليل على القول المذكور بل إن عدم مجيء (سبحان) على أبنية مصادر الرباعي حجة على من جعله مصدرًا للفعل الثلاثي (سَبَّحَ) ولو كان متنازعاً في استخدامه لأن بناء (فعلان) يأتي من مصادر أبنية الثلاثي قال ابن مالك:

وَلِلْمَصَادِرِ أَوْزَانٌ أُبَيِّنُهَا... فَلِلثَلَاثِيِّ مَا أُبْدِيهِ مُتَّخِلاً
فَعْلٌ وَفُعْلٌ وَفُعْلٌ أَوْ بَتَاءٌ مُؤَنٌّ... نَتُّ أَوْ الْأَلْفِ الْمَقْصُورِ مُتَّصِلاً
فَعْلَانٌ فَعْلَانٌ فَعْلَانٌ وَنَحْوُ جَلًّا... (61)

واللغويون أيدوا إجراء الفعل من (سبحان) والنافي لذلك ليس معه إثارة من أمانة

(55) معاني القرآن: للأخفش، 46/1

(56) الصحاح في اللغة: الجوهري ج

(57) ينظر: تاج العروس: للزبيدي، 163/7

(58) ينظر؟: الدر المصون. السمين الحلبي، 197/1. واللباب في علوم الكتاب: لعمر ابن علي 520/1

(59) التحرير والتنوير: الطاهر بن عاشور، دار سحنون للنشر والتوزيع - تونس - 1997 م، 363/6

(60) المصدر السابق 363/6

(61) لامية الأفعال: لابن مالك الأندلسي، ص5

والمثبت مقدم على النافي ومن علم حجة على من لم يعلم .
ثم إن القائلين بأنه اسم مصدر مختلفون في نوع اسميته:

- فزعم فريق أنه معرف بالإضافة، وليس اسم علم، بل هو نكرة⁽⁶²⁾
- وذهب قوم آخرون إلى تعريفه بالعلمية أي انه اسم علم للتسييح فهو علم

جنس لمعنى التزويه
قال الشنقيطي⁽⁶³⁾: "سُبْحَانَ : علم للتزويه . وعليه فهو علم جنسٍ لمعنى التزويه ..."،
مشيراً إلى أن علم الجنس يكون للمعنى كما يكون للذات : ومثله برة للمبرة ومجيب الأعلام
في المعاني كمجيبها في الأعيان
نحو قوله⁽⁶⁴⁾

أقولُ لَمَّا جَاءني فَخْرُهُ سُبْحَانَ مِنْ عِلْمَةِ الْفَاخِرِ⁽⁶⁵⁾

وقال الزجاج: "سبحان في اللغة تزويها لله عز وجل عن السوء، معرفة . قال شيخنا:
يريد أنه علم على البر، ونحوه من أعلام الأجناس الموضوعه للمعاني". وما ذكره من أنه علم
هو الذي اختاره الجماهير، وأقره البيضاوي والزنجشيري والدماميني وغير واحد⁽⁶⁶⁾
فعند هذا الفريق (سبحان) اسم علم لمعنى البراءة والتزويه وهو معرف بالعلمية دائماً
حال الإضافة والإفراد

وفصل بعضهم فقالوا: هو معرف بالعلمية عند الأفراد ومعرف بالإضافة عند إضافته
فليس-والحال هذه-علماً لأن العلم لا يضاف قياساً⁽⁶⁷⁾

⁽⁶²⁾ روح المعاني: محمود الألويسي أبو الفضل و أضواء البيان للشنقيطي 7/3

⁽⁶³⁾ أضواء البيان للشنقيطي 7/3

⁽⁶⁴⁾ تفسير البحر المحيط : العلامة أبو حيان الأندلسي، دار الفكر 413/5 والكشاف عن حقائق التزويل وعبون
الأقاول في وجوه التأويل: أبو القاسم محمود بن عمر الزنجشيري الخوارزمي دار إحياء التراث العربي - بيروت
604/2

⁽⁶⁵⁾ سبق تخريجه ص5

⁽⁶⁶⁾ تاج العروس 162/7

⁽⁶⁷⁾ المقتضب للمبرد 45/1

فهذا عرض لكلام العلماء في مسألة سبحان - فيما يسر الله لي الاطلاع عليه -
 والراجح في ذلك- إن شاء الله- هو الجمع بين القولين ،أي:
 (سبحان) مصدر باعتبار فعله الثلاثي المخفف (سبح) المستعمل في كلام العرب
 والذي يصاغ منه المصدر على زنة فُعلان
 وباعتبار (سَبَّح) المشدد فهو اسم مصدر، كما هو مقرر في علم الصرف أن الاسم
 الدال على مجرد الحدث إن كان فعله مزيدا ثلاثيا وهو على وزن مصدر الثلاثي المجرد،
 فهو اسم مصدر⁽⁶⁸⁾
 وبما تقدم نجد أن القراءتين توسع فضاء الدلالة وتثري القراءة البيانية والإعمال أولى
 من الإهمال، وستظهر ثمرة هذا الخلاف في ما يأتي -إن شاء الله-

المطلب الثالث: استعمال سبحان في اللغة

بعد استقصاء هذه المفردة في المعاجم والتفاسير وأشعار العرب وكلامهم يمكننا الجزم
 أن لها أربع استعمالات لا خامس لها:

الاستعمال الأول: أن تضاف إلى ما بعدها:

وهي الأصل في الاستعمال بل لم يأتي في الترتيل إلا استعمالها مضافة وقد صرح
 بعض أهل العلم بأنها من الألفاظ التي لا تنفك عنها الإضافة⁽⁶⁹⁾

وتضاف للاسم الظاهر كقوله قَالَ تَعَالَى: ﴿قُلْ سُبْحَانَ رَبِّيَ هَلْ كُنْتُ إِلَّا بَشَرًا رَسُولًا
 ﴿١٣﴾﴾ الإسراء، وقوله تَعَالَى: ﴿سُبْحَانَ اللَّهِ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٦٨﴾﴾ القصص، وقوله
 تَعَالَى: ﴿سُبْحَانَ رَبِّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبِّ الْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿٨٢﴾﴾ الزخرف، وقوله تَعَالَى: ﴿قَالُوا سُبْحَانَ رَبَّنَا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ ﴿٢٩﴾﴾ القلم، وقوله تَعَالَى: ﴿سُبْحَانَ الَّذِي خَلَقَ الْأَزْوَاجَ كُلَّهَا
 مِمَّا تُنْبِتُ الْأَرْضُ وَمِنْ أَنْفُسِهِمْ وَمِمَّا لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٦﴾﴾ يس

وتضاف أيضا إلى الضمير (الاسم المضمرة) كقوله تَعَالَى: ﴿قَالُوا سُبْحَانَكَ لَا عِلْمَ لَنَا إِلَّا

⁽⁶⁸⁾ ينظر أوضح المسالك إلى ألفية ابن مالك: لابن هشام الأنصاري، دار الجيل - بيروت الطبعة الخامسة، 201/3

⁽⁶⁹⁾ أضواء البيان: ج2/370

مَا عَلَّمْتَنَا إِنَّكَ أَنْتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ ﴿٣٣﴾ البقرة، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿أَنَّى أَمُرُ اللَّهَ فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿١﴾ النحل، قَالَ تَعَالَى: ﴿سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يَقُولُونَ عُلُوًّا كَبِيرًا﴾ الإسراء. ﴿٤٣﴾

الاستعمال الثاني: أن تقطع عن الإضافة وتنون: وقد سمعت لفظة (سُبْحَانَ) غير مضافة مع التنوين والتعريف؛ فمثاله مع التنوين قول أمية ابن أبي الصلت:

سُبْحَانَهُ ثُمَّ سُبْحَانًا نَعُودُ بِهِ وَقَبْلَنَا سُبْحِ الْجُودِيِّ وَالْجَمْدِ (70)

وهو عزيز نادر ولم يسمع إلا هذا البيت وبيت آخر وهو:

سُبْحَانَ ذِي الْعَرْشِ سُبْحَانًا يَدُومُ لَهُ رَبُّ الْبَرِّيَّةِ فَرْدٌ وَاحِدٌ صَمَدٌ (71) (72)

وهذا يدل على أن المفردة مصدر أو اسم مصدر وليست علما لأن الشاعر عندما لم يصفه - لفظا ولا تقديرا - جعله منونا.

وذهب الذين جعلوه علما بأنه منون ضرورة (73)، قال فأما قول الشاعر:

سُبْحَانَهُ ثُمَّ سُبْحَانًا نَعُودُ بِهِ ... وَقَبْلَنَا سُبْحِ الْجُودِيِّ وَالْجَمْدِ

في رواية: نَعُودُ بِهِ. فإنما نون مضطرا، ولو لم يضطر لكان كقول الآخر:

أَقُولُ لَمَّا جَاءَنِي فَخْرُهُ ... سُبْحَانَ مِنْ عُلْقَمَةَ الْفَاخِرِ

قلت: لم يقم دليل على علميته، قال الرضي: "لا دليل على علميته لأن أكثر ما

يستعمل مضافاً فلا يكون علماً" (74) وإذا قطع فقد جاء منوناً في الشعر كقوله:

(70) من البسيط ينسب لأمية بن أبي الصلت وهو في ديوانه ص30، وينسبه البعض لورقة بن نوفل من أبيات قالها لكفار مكة حين رآهم يعذبون بلالا عند إسلامه واضطرب في نسبة هذا البيت، نسبه سيبويه إلى أمية ابن أبي الصلت: الكتاب، 1/326. وكذا صاحب المحكم والمحيط، 2/426، وكذا في اللسان، 2/470. ونسبه صاحب شرح الكافية إلى ورقة بن نوفل، "الأغاني 3/15، أمالي الشجري 1/348، 2/2509، معجم ما استعجم 391، الروض الأنف 1/125"

(71) ونسب إلى أمية وهو في ديوانه ونسب إلى ورقة بن نوفل الأغاني لأبو الفرج الأصفهاني 2/76 بلفظ: سبحان ذي العرش سبحانا نعود به وقبل قد سبح الجودي والجمد

(72) الكتاب: الأغاني: أبي الفرج الأصفهاني، دار الفكر - بيروت، الطبعة الثانية تحقيق: سمير جابر 3/315

(73) المخصص - لابن سيده 5/233

(74) حاشية الصبان: 1/283

سبحانه ثم سبحاناً نعوذ به
وقد جاء بالألف واللام كقوله:

سبحانك اللهم ذا السبحان

قالوا دليل علميته قوله:

سبحان من علقمة الفاخر

ولا مانع من أن يقال حذف المضاف إليه ونون وبقي المضاف على حالة مراعاة
لأغلب أحواله أعني التجرد عن التنوين - كما سبق -

قلت: بل الشاهد المتون دليل على أنه نكرة ولا يفرع إلى القول بالضرورة في مثل هذا
(75)

الاستعمال الثالث: استعماله مقطوعاً عن الإضافة غير منون ولم يوجد - في ما

وقفت عليه - إلا شاهداً واحداً وهو قول الأعشى:

أقول لما جاءني فخره سبحان من علقمة الفاخر (76)

وبه حفل من ذهب إلى أن المفردة اسم علم للتسبيح (77) وقالوا: إن الشاعر ترك تنوينه
لأنه لا ينصرف للعلمية وزيادة الألف والنون. (78)

وقد ضَعَّفَ هذا القول من جمهور من أهل العلم بالنحو والتفسير واللغة وبينوا أن
سبحان ليس علم. والشاعر ترك تنوينه في البيت لأنه على تقدير مضاف محذوف والتقدير
:(سبحان الله من علقمة) وحذف المضاف وتقديره معروف شائع في لغة العرب، والحمل
عليه أولى لبقاء سبحان على أصله وهو الفتح بغير تنوين مراعيًا فيه أغلب أحواله وهو التجرد
عن التنوين. (79)

(75) ينظر: كتاب سيبويه: 326/1

(76) سبق تخريجه ص 5

(77) ينظر: مطلب مسألة سبحان ص 16

(78) ينظر: الكشاف: للزمخشري، 604/2 واللباب في علوم الكتاب: أبو حفص عمر بن علي ابن عادل الدمشقي

الحنبل: 21/16 تحقيق: الشيخ عادل أحمد عبد الموجود والشيخ علي محمد معوض، دار الكتب العلمية بيروت /

لبنان - 1419 هـ - 1998 م، الطبعة 1

(79) ينظر: المغرب في ترتيب المغرب: أبو الفتح ناصر الدين بن عبد السيد بن علي بن المطرز: تحقيق: محمود فاحوري

الاستعمال الرابع: وهو أندر من سابقه، أن يحلى بالألف واللام: كما في قول

الشاعر:

سبحانك اللهم ذا السبحان⁽⁸⁰⁾

واستعماله محلى بأل دليل على أنه ليس بالعلم لأن الأعلام لا تعرف والحاصل من هذا كله أن المفردة (سبحان) أكثر ما تستعمل مضافة واستعملت مقطوعة عنها في النادر لضرورة الشعر ووردت في حالة عدم إضافتها منونة وغير منونة، ووردت مرة محلاة بالألف واللام .

فاتضح لي - والله أعلم - بأن المفردة معرفة بالإضافة -لفظاً أو تقديراً - لا بالعلمية أو معرفة بأل فإن لم يكونا فهي نكرة .

المطلب الرابع: إعراب مفردة سبحان

من المقرر في علوم المعاني أن البلاغة تبدأ عندما ينتهي النحو لذلك أحببت أن أتم هذه المطالب بإعراب المفردة .

و الذي لا خلاف فيه أن المفردة (سبحان) منصوبة البتة.

وقد جاءت في حال مسموعة محلاة بأل ومرة منونة لضرورة الشعر، ولكنّ الحالتين السابقتين لا تخدم المفردة الواردة في القرآن المجيد لانتهاء صورتها فيه. وهذا السبب نحصر الدراسة في صورة المفردة الواردة،(سبحان)

والمعربون متفقون على أن(سبحان)منصوب على المصدرية⁽⁸¹⁾ يعني على أنه مفعول مطلق⁽⁸²⁾.والعامل فيه فعل مضمر مقدر⁽⁸³⁾ وتنازعا في تقديره. فحمله بعضهم فعلاً من

و عبد الحميد مختار، مكتبة أسامة بن زيد - حلب . الطبعة الأولى ، 1، 378/1979 . وشرح الرضي على الكافية: 247/3.

⁽⁸⁰⁾ لم ينسب هذا الشطر من الرجز لأحد -في ما وقفت عليه -ينظر : روح المعاني : محمود الألوسي، 1/226. وأضواء البيان : 3/8 و التحرير والتنوير : 1/414 أورده ابن الشجري في أمالية، وحكاة ابن مالك في منظومته ولم ينسب لأحد.

⁽⁸¹⁾ الأصول في النحو: أبي بكر محمد بن سهل بن السراج النحوي البغدادي. تحقيق : د.عبد الحسين الفتلي مؤسسة الرسالة - بيروت الطبعة الثالثة ، 1988 . 3/331

⁽⁸²⁾ ينظر المخصص - لابن سيده. 4/347

معناه لا من لفظه على تقدير أنزهه تزيها وأبرأه تبرئة فيحل سبحان مكان تزيها وتبرئة⁽⁸⁴⁾
وقد حمل هؤلاء على هذا التقدير زعمهم أن سبحان لم يجر من لفظه فعل فهو على
مثل اشتمل الصماء وقعد القرفصاء

وقدره بعضهم أسبح أو سبّح وهو قريب من الصواب لأنه اعتبر سبحان اسم مصدر
كما قد سبق .

والقريب من الصواب - في ما أرى - أن الفعل العامل في سبحان هو الفعل (سبح)
المخفف باعتباره أصل المصدر كما سبق تعليل ذلك وبيانه.

ويبقى الخلاف في هذا العامل، هل يقدر أمراً أو خبراً؟

ويمكن القول بأن تقديره أمراً أو خبراً راجع للسياق ومتعلقاته فمثلاً: قوله

تَعَالَى: ﴿سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلًا﴾ الإسراء، يناسبها الخبر والأمر معاً .

وقوله ﴿فَسُبْحَانَ اللَّهِ حِينَ تُمْسُونَ وَحِينَ تُصْبِحُونَ﴾^(١٧) الروم، يناسبها الأمر خاصة

إذا فسرنا التسبيح هنا بمعنى الصلاة فيكون المعنى كما في قول الله تعالى ﴿فَضْرَبَ الرَّقَابَ﴾ محمد

قد روي عن الكسائي أنه جعله مُنَادَى تقديره: يا سُبْحَانَك ومنعه جمهور النحويين

...⁽⁸⁵⁾

وعند التفكير قليلاً في سياقات ورود المفردة وما يتعلق بذلك من معنى التسبيح

والتقديس والتتزيه لله، فإن ترجيح كون العامل خبراً أقوى ما يكون في التتزيه، لأن باب

الخبر أوسع من باب الإنشاء في إثبات ما يتعلق بالله جلّ وعلا. وفقاً للقاعدة المقررة عند أهل

السنة: "أن باب الأخبار أوسع من باب الإنشاء".

وسواء أكان الفعل أمراً أم خبراً فقد أجمعوا على وجوب إضماره، باعتبار سبحان قد

حلت محله فسدت مسده .⁽⁸⁶⁾

⁽⁸³⁾ ينظر: الكتاب: سيبويه: 71/1

⁽⁸⁴⁾ ينظر: كتاب العين: الفراهيدي. 151/3

⁽⁸⁵⁾ تفسير اللباب: لابن عادل، 130/1

⁽⁸⁶⁾ وقد بوّب لها سيبويه بقوله: هذا باب أيضاً من المصادر ينتصب بإضمار الفعل المتروك إظهاره. ينظر

فهذا مجمل قولهم في إعراب المفردة والله الموفق.

المبحث الثالث: أصل معنى التسبيح في القرآن

الله جل وعلا مآثره عن كل نقص، وهو سبحانه ليس له كفؤ في شيء من أموره، فهو موصوف بصفات الكمال على وجه التفصيل مآثره فيها عن التشبيه والتمثيل، ومآثره عن النقائص مطلقاً؛ فإن وصفه بها من أعظم الأباطيل.

المطلب الأول: تسبيح الله عن النقائص

لما كان أصل معنى التسبيح تزيه الله في أسمائه و صفاته و أقواله و أفعاله فإن مدار دلالة مفرداته دائرة بين تزيه الله عن العيوب و النقائص و تزيه الله عن التشبيه و التمثيل وهذا مبحث جليل نبيل يتصل بمسألة المتشابهة والتأويل .

يدور معنى النقيصة على العيب، الضعف و الخصلة الدنيئة و الخسران و الوقعة (87)

فجملة معناها على الذم و سلب الكمال و المتبوع لآيات التسبيح يجدها مشتملة على تزيه الله من كل هذه النقائص و الآيات في ذلك كثيرة وقد ذكر الله تعالى (سبحان) في القرآن في خمسة وعشرين موضعاً، في ضمن كل واحد منها إثبات صفة من صفات المدح، ونفى صفة من صفات الذم، (88)

ينطق بتزيهه عن جميع النقائص تزيهًا ظاهرًا، {وهو العزيز} لا يُغلب، {الحكيم} الذي لا يمكن الاعتراض عليه في شيء من تقديراته. ختم السورة بما بدأ به من التسبيح. (89)

والتزيه نحو "سبحان الذي أسرى بعبده" و"سبح اسم ربك الأعلى" و"سبح لله ما في السموات" "يسبح لله" كلاهما في سبع سور فهذه أربع عشرة سورة استفتحت بالثناء

(87) ينظر: مختار الصحاح: للإمام محمد بن أبي بكر بن عبد القادر الرازي ضبطه وصححه أحمد شمس الدين، دار الكتب العلمية بيروت - لبنان 217/1 ولسان العرب: 100/7 والمعجم الوسيط: إبراهيم مصطفى - أحمد الزيات - حامد عبد القادر - محمد النجار تحقيق / مجمع اللغة العربية، دار النشر: دار الدعوة 947/2. والمخصص -

لابن سيده 102/4 والقاموس المحيط: الفيروز آبادي 50/1

(88) بصائر ذوي التمييز: الفيروز آبادي 868/1

(89) البحر المديد: 17/8

على الله ثبوت صفات الكمال ونصفها لسلب النقائص

وهو سر عظيم من أسرار الألوهية، (سبح لله) هذه كلمة استأثر الله بها⁽⁹⁰⁾
قال الشيخ الطاهر بن عاشور مبينا هذا المعنى: "وتقولوا سبحان الذي سخّر لنا هذا"
:وافتح هذا الشكر اللساني بالتسييح لأنه جامع للثناء إذ التسييح تزيه الله عما لا يليق ، فهو
يدلّ على التزيه عن النقائص بالصريح ويدلّ ضمناً على إثبات الكمالات لله في المقام
الخطابي. واستحضار الجلالة بطريق الموصولية لما يؤذن به الموصول من علة التسييح حتى
يصير الحمد الذي أفاده التسييح شكراً لتعليقه بأنه في مقابلة التسخير لنا".⁽⁹¹⁾

وجملة من يتكلم عن معنى التسييح وحقيقته يعرج على هذا النوع من التزيه، وهذا
ابن القيم يحدثنا بمثال من الصفات: "ومعلوم أن نفي خصائص صفات المخلوقين عن الخالق
لا يقتضي نفي أصل الصفة عنه سبحانه ولا إثبات أصل الصفة له يقتضي إثبات خصائص
المخلوق له . كما أن ما نفي عن صفات الرب تعالى من النقائص والتشبيه لا يقتضي نفيه عن
صفة المخلوق، ولا ما ثبت لها من الوجوب والقدم والكمال يقتضي ثبوته للمخلوق. ولا
إطلاق الصفة على الخالق والمخلوق وهذا مثل الحياة والعلم، فإن حياة العبد تعرض لها
الآفات المضادة لها من المرض والنوم والموت وكذلك علمه يعرض له النسيان والجهل المضاد
له وهذا محال في حياة الرب وعلمه فمن نفي علم الرب وحياته لما يعرض فيهما للمخلوق
فقد أبطل، وهو نظير نفي من نفي رحمة الرب وعلمه فمن نفي رحمة الرب عنه لما يعرض في
رحمة المخلوق من رقة الطبع وتوهم المتوهم أنه لا تعقل رحمة إلا هكذا نظير توهم المتوهم
أنه لا يعقل علم ولا حياة ولا إرادة إلا مع خصائص المخلوق"⁽⁹²⁾

ومعلوم في عقائد أهل السنة والجماعة أن النفي المحض ليس بكمال لذلك فإن نفي
النقائص يستلزم ثبوت الكمال قال شيخ الإسلام ابن تيمية: "وهو يقتضي تزيه نفسه من
فعل السيئات، كما يقتضي تزيهه عن الصفات المذمومة. ونفي النقائص يقتضي ثبوت

⁽⁹⁰⁾ البرهان: الزركشي، 1/182

⁽⁹¹⁾ التحرير والتنوير: الطاهر بن عاشور، 25/174

⁽⁹²⁾ ينظر: بدائع الفوائد: ابن القيم، 261/ع ينظر المحرر الوجيز: 5/440 وتفسير ابن تيمية 1/379

صفات الكمال، وفيها التعظيم كما قال ميمون بن مهران : (اسم يعظم الله به ويحاشى به من السوء) ⁽⁹³⁾

ومعلوم أن الطرق العقلية التي سلكها المتكلمون من المعتزلة والأشاعرة من الاستدلال بالأعراض على حدوث الأجسام لا تدل على إثباته، ولا على إثبات شيء من صفات الكمال، ولا على تزهره عن شيء من النقائص . فليس عند القوم ما يحيلون به عنه شيئاً من النقائص.

والمقصود هنا أن صفات التزهر يجمعها هذان المعنيان المذكوران:

● أحدهما: نفي النقائص عنه، وذلك من لوازم إثبات صفات الكمال، فمن ثبت له الكمال التام انتفى النقصان المضاد له.

● والثاني: أنه ليس كمثل شيء في صفات الكمال الثابتة — يتضمن تزهره عن كل نقص وعيب، وتزهره في صفات الكمال ألا يكون له مماثل في شيء منها .

يخبر تعالى عن الملائكة المقربين من حملة العرش ومن حوله بأنهم يسبحون بحمد ربهم أي: يقرون بين التسييح الدال على نفي النقائص والتحميد المقتضي لإثبات صفات المدح". ⁽⁹⁴⁾

وهذا مذهب من أثبت له القدر والحكمة وحقائق الأسماء والصفات ونزهه عن النقائص ومشابهة المخلوقات ويوحشك في هذا المقام جميع الطوائف غير أهل السنة الذين لم يتحيزوا إلى نحلة ولا مقالة ولا متبوع من أهل الكلام الفرقة الثانية الذين أثبتوا له الملك وعطلوا حقيقة الحمد وهم الجبرية نفاة الحكمة والتعليل ⁽⁹⁵⁾.

، وقال الله ﷻ: ﴿سُبْحَانَ رَبِّكَ رَبِّ الْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿١٨٠﴾ وَسَلَامٌ عَلَى

الْمُرْسَلِينَ ﴿١٨١﴾ وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٨٢﴾﴾ الصفات قال غير واحد من السلف هم

⁽⁹³⁾ ينظر: تفسير ابن تيمية: 74/5

⁽⁹⁴⁾ ينظر: تفسير القرآن العظيم الامام الحافظ عماد الدين، أبو الفداء اسماعيل بن كثير القرشي الدمشقي قدم له

الدكتور يوسف عبد الرحمن المرعشلي دار المعرفة بيروت - لبنان 1992م - 7/4هـ 1412

⁽⁹⁵⁾ ينظر: شفاء العليل في مسائل القضاء والقدر والحكمة والتعليل: محمد بن أبي بكر أيوب الزرعي أبو عبد الله تحقيق

: محمد بدر الدين أبو فراس النعساني الحلبي، دار الفكر - بيروت 1398هـ/2017

الرسول فتره نفسه عما يصفه به الخلق ثم سلم على المرسلين لسلامة ما وصف ١٨٢ وه به من النقائص والعيوب ثم حمد نفسه على تفرد به بالأوصاف التي يستحق عليها كمال الحمد فتضمنت هذه الكلمة إثبات صفات الكمال الذي أثبتته لنفسه وتزويده عن العيوب والنقائص والتمثيل وأن ما وصف به نفسه فهو الذي يوصف به (96).

المطلب الثاني : تسييح الله عن التمثيل

وقد نزه الله نفسه عن المثل بنص الكتاب فقال جل وعلا: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾^ط وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ ﴿١١﴾ الشورى، وجاء هذا المعنى متضمنا في كل آية من آي التسييح بركنيه النفي والإثبات لذلك حتمت الآية هنا وفي جل آي التسييح بأسماء الله الحسنى فمثلا:

﴿سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾^ط الحديد

﴿سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾^ط الحشر

﴿سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾^ط الصف

﴿سَبَّحَ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى﴾^ط الأعلى

﴿يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ الْمَلِكُ الْقُدُّوسُ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾^ط الجمعة

﴿يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ لَهُ الْمُلْكُ وَلَهُ الْحَمْدُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾^ط التغابن

وهذا يظهر أهمية التعرض هنا إلى تزويده الله عن التمثيل.

جاء في كتاب العين : الميم و الثاء و اللام أصل لغوي صحيح يدل على مشابهة الشيء للشيء و مناظرته له ، يقال : مثل و مثل و مثل و مثل كشيبه و شبيه و شبيهه (97) و مثل الشيء بالشيء أي سواه و شبهه به و جعله على مثاله و مصدر ذلك هو التمثيل .

(96) الصواعق المرسله في الرد على الجهمية والمعتلة: ابن قيم الجوزية 153/1

(97) كتاب العين: أبو عبد الرحمن الخليل بن أحمد الفراهيدي، تحقيق: د. مهدي المخزومي ود. إبراهيم السامرائي، دار ومكتبة الهلال 228/8 ينظر: الصحاح تاج اللغة وصحاح العربية: إسماعيل بن حماد الجوهري، تحقيق أحمد عبد الغفور عطار، دار العلم للملايين بيروت - لبنان الطبعة الأولى - القاهرة 1956.1376 م الطبعة الرابعة 1987.1407

يدل الأصل الثلاثي (م ث ل) على معنى الشبه والنظير، يقول الزمخشري: "والمثل في أصل كلامهم بمعنى المثل والنظير.. المثل من المماثلة وهو الشيء المثل لشيء يشابهه، والشيء الذي يضرب لشيء مثلاً، فيجعل مثله، والأصل فيه التشبيه⁽⁹⁸⁾ فتضح أن معني التمثيل في اللغة هو التشبيه و التسوية .

قال شيخ الإسلام⁽⁹⁹⁾: "والله سبحانه: بعث رسله (بإثبات مفصل ونفي مجمل فأثبتوا لله الصفات على وجه التفصيل ونفوا عنه ما لا يصلح له من التشبيه والتمثيل كما قال تعالى: ﴿رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا فَاعْبُدْهُ وَأَصْطِرْ لِعِبَادِهِ ۗ هَلْ تَعْلَمُ لَهُ سَمِيًّا﴾^(٦٥) مريم.

قال أهل اللغة⁽¹⁰⁰⁾: ﴿هَلْ تَعْلَمُ لَهُ سَمِيًّا﴾^(٦٥)

أي نظيراً يستحق مثل اسمه. ويقال: مسامياً يساميه وهذا معنى ما يروى عن ابن عباس ﴿هَلْ تَعْلَمُ لَهُ سَمِيًّا﴾^(٦٥)، مثيلاً أو شبيهاً⁽¹⁰¹⁾.

وقال: التشبيه الذي يجب نفيه عن الرب تعالى اتصافه بشيء من خصائص المخلوقين كما أن المخلوق لا يتصف بشيء من خصائص الخالق وأن يثبت للعبد شيء بماثل فيه الرب فإنهم مثلوا ما جاءت به الرسل من صفاته بنفس صفات المخلوقات — وإن كان هذا التمثيل الذي ادعوا أنه معنى النصوص أقل تمثيلاً من تمثيلهم الذي ادعوه .

قلت: وهذه مسألة عظيمة اشتبهت على فئام من المتكلمين من الأشاعرة و المعتزلة ينفون عن الله ما وصف به نفسه وما وصفه به نبيه بدعوى نفي التمثيل و بدعوى التزیه من

⁽⁹⁸⁾ المثل والتعبير الاصطلاحي: علاء إسماعيل الحمزاوي 9/1

⁽⁹⁹⁾ ابن تيمية، تقي الدين (661-728هـ، 1263-1328م). تقي الدين أبو العباس أحمد بن عبد الحليم بن عبد السلام بن عبد الله بن أبي القاسم بن محمد ابن تيمية الحراي الحنبلي الدمشقي. شيخ الإسلام في زمانه وأبرز علمائه، فقيه أصولي ومفتي الدين الحنيف وصاحب الآثار الكبرى في علوم الدين والفكر الإسلامي. ولد بجران بتركيا، ورحل إلى دمشق مع أسرته هرباً من غزو التتار. وتلقى العلم على والده وعلى مشايخ دمشق وظهرت عليه علامات النجابة منذ نعومة أظفاره، فكان قوي الذاكرة سريع الحفظ. نهل من منهج النبوة، حتى آلت إليه الإمامة في العلم والعمل سنة 720 هـ

⁽¹⁰⁰⁾ الصحاح تاج اللغة وصحاح العربية: 8/ 298 وتاج العروس ج ص ولسان العرب 464/14

⁽¹⁰¹⁾ رواية جماعة عن ابن عباس . ومجاهد . وابن جبير. ينظر: مجموع الفتاوى 207/1

هنا كانت أسماء الله و صفاته معلومة باعتبار معانيها التي دلت عليها ظواهر ألفاظها، و
مجهولة باعتبار كيفياتها التي هي عليها. و التي بها تتره الله تعالى عن مخلوقاته.
والقرآن مملوء بإثبات هذين الأصليين بإثبات صفات الكمال على وجه التفصيل،
وتتزيهه عن التمثيل سبحانه وتعالى عما يقول الظالمون علواً كبيراً. (102)
و كلامنا هنا عن التمثيل و التشبيه متصل بالكلام عن التسييح باعتبار هذا الأخير
معناه التزيه والتزيه: حمل طوائف من الخلق إلى جعل آيات الصفات من المتشابه، والمتشابه
مبحث ظاهره عقدي و جوهره لغوي ومن هنا كان الكلام على تسييح الله عن التمثيل
ركن من ركني التزيه الحق الذي يدندن حوله كثيرا علماء أهل السنة.
و جميع ما يأتي هو بيان وإيضاح لهذا الأصل العظيم.

الفصل الأول

التسييح باعتبار

صيغته

(102) ينظر: مجموع فتاوى ابن تيمية (التفسير) 349/4

المبحث الأول: صيغة الإفراد المبحث الثاني: صيغة القرآن

الفصل الأول: أنواع التسييح باعتبار صيغته

جاء التسييح في الكتاب العزيز باعتبار صيغته: مفردا يعني مجردا عن غيره من ألفاظ الحمد والثناء والتتريه. وجاء أيضا مقرونا ومتبوعا ببعض ألفاظ الذكر والدعاء. وتنوع هذه الصيغ له سر بياني ودلالة بلاغية ينبغي الكشف عنها خاصة أنها متعلقة بتتريه الله لنفسه وفي كتابه وبكلامه جلّ وعلا.

المبحث الأول: صيغة الإفراد

المقصود بالإفراد هنا: ألا يعطف على التسييح حمد ولا تهليل ولا تكبير ولا استغفار ولا دعاء ولا اسم من أسماء الله ولا صفة له ولا سلام على المرسلين. جاء هذا النوع من التسييح في الكتاب العزيز ثمانية وعشرين موضعا تنوعت فيها صيغ التسييح بين الأمر (سبح) والخبر بأزمته (سبح، يسبح، المصدر) (سبحان) واسم الفاعل

(المسبحون ، المسبحين) وهي:

1. ﴿قَالُوا سُبْحَانَكَ لَا عِلْمَ لَنَا إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَا إِنَّكَ أَنْتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ﴾ (٣٢) البقرة

جاءت هنا مضافة إلى كاف الخطاب مراعاة لمقام الحوار.

وجرد (قَالُوا) من الفاء لأنه محاوره كما تقدم عند قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ

لِلْمَلَكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا﴾ (٣٠) البقرة.

وافتح كلامهم بالتسبيح وقوف في مقام الأدب والتعظيم لذي العظمة المطلقة.

وفي تصدير كلامهم ب-: سبحانك إيماء إلى الاعتذار عن مراجعتهم بقولهم: ﴿أَتَجْعَلُ فِيهَا

مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا﴾ (٣٠) البقرة، فهو افتتاح من قبيل براعة الاستهلال عن الاعتذار. والاعتذار

وإن كان يحصل بقولهم (لَا عِلْمَ لَنَا إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَا) لكن حصول ذلك منه بطريق الكناية دون

التصريح ويحصل آخرًا لا ابتداء فكان افتتاح كلامهم بالتزويه تعجيلًا بما يدل على ملازمة

جانب الأدب العظيم)....⁽¹⁰³⁾، نزوهه وتابوا إليه عن مقاتلتهم ومعناه سبحانك تبنا إليك

من مقالتنا⁽¹⁰⁴⁾.

والغرض من هذا الجواب الاعتراف بالعجز عن أمر الخلافة، والقصور عن معرفة

الأسماء على أبلغ وجه كأنهم قالوا: لا علم لنا إلا ما علمتنا ولم تعلمنا الأسماء فكيف نعلمها؟

وفيه إشعار بأن سؤالهم لم يكن إلا استفسارًا، إذ لا علم لهم إلا من طريق التعليم وثناءً عليه

تعالى بما أفاض عليهم مع غاية التواضع ومراعاة الأدب وترك الدعوى، ولهذا كله لم يقولوا

لا علم لنا بالأسماء مع أنه كان مقتضى الظاهر ذلك، ومن زعم عدم العصمة جعل هذا

توبة، والإنصاف أنه يشبهها ولكن لا عن ذنب محل بالعصمة بل عن ترك أولى بالنسبة إلى

علو شأنهم ورفعة مقامهم إذ اللائق بحالهم على العلات أن يتركوا الاستفسار ويقفوا

مترصدين لأن يظهر حقيقة الحال⁽¹⁰⁵⁾.

⁽¹⁰³⁾ ينظر: التحرير والتنوير : 413/1

⁽¹⁰⁴⁾ ينظر بحر العلوم : أبو الليث نصر بن محمد بن إبراهيم السمرقندي الفقيه الحنفي تحقيق: د. محمود مطرجي:

دار الفكر- بيروت. 69/1.

⁽¹⁰⁵⁾ ينظر: روح المعاني : الألويسي أبو الفضل 227/1.

سبحانك : معناه تزيهك⁽¹⁰⁶⁾

(سُبْحَانَكَ لَا عِلْمَ لَنَا إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَا): أي تزيهك عن الادعاء وعن الاعتراض، والكاف في سُبْحَانَكَ لأن المعنى تزهت. وقد ذكرنا، حين تكملنا على المفردات، أنه منصوب على معنى المصدر بفعل من معناه واجب الحذف. ولما سأل تعالى الملائكة، ولم يكن عندهم علم بالجواب، وكانوا قد سبق منهم قولهم (أَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا) الآية، أرادوا أن يجيبوا بعدم العلم إلا ما علمهم، فقدموا بين يدي الجواب تزيه الله اعتذاراً وأدباً منهم في الجواب، وإشعاراً بأن ما صدر منهم قبل يحوه هذا التزيه لله تعالى، فقالوا: سبحانك، ثم أجابوا بنفي العلم بلفظ (لَا) التي بنيت معها النكرة، فاستغرق كل فرد من أنواع العلوم، ثم استثنوا من ذلك ما علمهم هو تعالى، فقالوا: (لَا عِلْمَ لَنَا مَا عَلَّمْتَنَا)، وهذا غاية في ترك الدعوى والاستسلام التام لله تعالى.⁽¹⁰⁷⁾

"وقوله: (إِنَّكَ أَنْتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ) تذييل يؤكد مضمون الجملة السابقة أردفوه بالوصف بالحكمة لما تبين لهم ما تبين واصل الحكمة المنع ومنه حكمة الدابة لأنها تمنعها عن الاعوجاج ويقال للعلم لأنه يمنع عن ارتكاب الباطل وإلتقان الفعل لمنعه عن طرق الفساد والاعتراض وهو المراد هاهنا لثلا يلزم التكرار فمعنى الحكيم ذو الحكمة وقيل: المحكم لمبدعاته قال في البحر: وهو على الأول صفة ذات وعلى الثاني صفة فعل والمشهور أنه إن أريد به العليم كان من صفات الذات أو الفاعل لما لا اعتراض عليه كان من صفات الفعل فأفهم وقدم سبحانه الوصف بالعلم على الوصف بالحكمة لمناسبة ما تقدم من (أَنْبِئُونِي) و (لَا عِلْمَ لَنَا) ولأن الحكمة لا تبعد عن العلم وليكون آخر مقالتهم مخالفا لما يتوهم من أوله"⁽¹⁰⁸⁾ وبذلك يجتمع نوعا التزيه النفي والإثبات وليس أدل من ذلك الاسمين في آخر الآية الكريمة .

⁽¹⁰⁶⁾ ينظر تفسير البحر المحيط: محمد بن يوسف الشهير بأبي حيان الأندلسي تحقيق: الشيخ عادل أحمد عبد الموجود - الشيخ علي محمد معوض شارك في التحقيق: د. زكريا عبد المجيد النوقي و د. أحمد النجولي الجمل: دار الكتب العلمية - لبنان/ بيروت - 1422هـ الطبعة: الأولى 284/1

⁽¹⁰⁷⁾ المصدر السابق 297/1

⁽¹⁰⁸⁾ ينظر: روح المعاني: الألوسي، 227/1

2. ﴿وَقَالُوا أَخَذَ اللَّهُ وُلْدًا سُبْحَانَهُ بَلْ لَّهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ كُلُّ لَّهُ قَدِيرٌ ﴿١١٦﴾﴾

البقرة، "سُبْحَانَهُ" (تزيهاً له من قولهم) أَخَذَ اللَّهُ وُلْدًا" (109)

"نص صريح في تزيه الله سبحانه وتسيبحة عما قالوا. ثم جاء حرف الإضراب عن قولهم: (بَلْ) (110)

وقوله: (سُبْحَانَهُ)، تزيه لله عن شنيع هذا القول. وفيه إشارة إلى أن الولدية نقص بالنسبة إلى الله تعالى وإن كانت كما في الشاهد لأنها إنما كانت كمالاً في الشاهد من حيث إنها تسد بعض نقائصه عند العجز والفقير وتسد مكانه عند الاضمحلال والله متره عن جميع ذلك فلو كان له ولد لآذن بالحدوث وبالْحاجة إليه.

"وقوله: (بَلْ لَّهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ)، إضراب عن قولهم لإبطاله، وأقام الدليل على الإبطال بقوله: (بَلْ لَّهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ)، فالجملة استئناف ابتدائي واللام للملك و (بَلْ لَّهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ) أي ما هو موجود فإن السماوات والأرض هي مجموع العوالم العلوية والسفلية. ك" (111)

3. ﴿وَإِذْ قَالَ اللَّهُ يَعْيسَى ابْنَ مَرْيَمَ ءَأَنْتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمَّيَ إِلَهَيْنِ مِنْ دُونِ

اللَّهِ قَالِ سُبْحَانَكَ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقِّ إِنْ كُنْتُ قُلْتُهُ فَقَدْ عَلِمْتَهُ تَعَلَّمَ

مَا فِي نَفْسِي وَلَا آَعَلَّمُ مَا فِي نَفْسِكَ إِنَّكَ أَنْتَ عَلَّمُ الْغُيُوبِ ﴿١١٦﴾ المائدة:

وتقرع النصرى هو المقصود من هذه الآيات كما تقدم عند قوله ﷺ ﴿يَجْمَعُ اللَّهُ

الرُّسُلَ ﴿١١٩﴾﴾ الآية، فالاستفهام هنا كالأستفهام في قوله تعالى للرسول: ﴿مَاذَا أُجِبْتُمْ ﴿١١٩﴾﴾

والله يعلم أن عيسى لم يقل ذلك ولكن أريد إعلان كذب من كفر من النصرى وتقديم المسند إليه على الخبر الفعلي في قوله: (ءَأَنْتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ) يدل على أن الاستفهام متوجه إلى

(109) النكت والعيون: الماوردي أبو الحسن علي بن محمد بن حبيب البصري تحقيق: السيد بن عبد المقصود بن

عبد الرحيم دار الكتب العلمية - بيروت / لبنان - 177/1 وينظر الكشاف 207/1 و ينظر: تفسير السمعاني :

(110) أضوء البيان: الشنقيطي، 151/9

(111) ينظر: التحرير والتنوير : 683/1

تخصيصه بالخبر دون غيره مع أن الخبر حاصل لا محالة. فقول قائلين: اتَّخَذُوا عَيْسَى وَأُمَّهُ
إِلْهَيْنِ وَاقِع. وإِنَّمَا أَلْقَى الْاسْتِفْهَامَ لِعَيْسَى أَهْوَ الَّذِي قَالَ لَهُمْ ذَلِكَ تَعْرِيفاً بِالْإِرْهَابِ وَالْوَعِيدِ
بِتَوَجُّهِ عَقُوبَةِ ذَلِكَ إِلَى مَنْ قَالَ هَذَا الْقَوْلَ إِنْ تَنصَّلَ مِنْهُ عَيْسَى فَيَعْلَمُ أَحْبَارُهُمُ الَّذِينَ اخْتَرَعُوا
هَذَا الْقَوْلَ أَنَّهُمْ الْمُرَادُ بِذَلِكَ. (112)

وبدأ بالتسبيح قبل الجواب لأمرين :

- أحدهما : تزيهاً له عما أضيف إليه .
- الثاني : خضوعاً لعزته وخوفاً من سطوته (113).

جواب عيسى عليه السلام بقوله : (سُبْحَانَكَ) تزيهه لله تعالى عن مضمون تلك المقالة
. وكانت المبادرة بتزيه الله تعالى أهم من تبرئته نفسه، على أنها مقدّمة للتبرّي لأنّه إذا كان
يتّزه الله عن ذلك فلا جرم أنّه لا يأمر به أحداً. وتقدّم الكلام على سبحانك في قوله تعالى:
(سُبْحَانَكَ لَا عِلْمَ لَنَا) في سورة البقرة (114)

السؤال هنا مقصوده التبكيت في قوله تعالى لعيسى: (ءَأَنْتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ) (115)

قلت والآية نص صريح في إثبات النفس لله على لسان نبيه عيسى - صلى الله عليه
وسلم - وختم الله الآية باسمين جليلين من أسمائه الحسنى.

4. ﴿قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَى بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي وَسُبْحَانَ اللَّهِ وَمَا أَنَا مِنَ
الْمُشْرِكِينَ﴾ (١٠٨) يوسف:

(وَسُبْحَانَ اللَّهِ): وأنزهه عن الشركاء والأنداد، (وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ) به شركاً جلياً ولا
خفياً، بل مخلصاً موحداً. (116)

عُطِفَتْ جَمَلَةٌ (وَسُبْحَانَ اللَّهِ) عَلَى جَمَلَةٍ (أَدْعُو إِلَى اللَّهِ)، أَي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ وَأَنْزَهَهُ.

(وَسُبْحَانَ): مصدر التسبيح جاء بدلاً عن الفعل للمبالغة. والتقدير: وأسبح الله

(112) ينظر: المصدر نفسه: 113/7

(113) ينظر: النكت والعيون: 62/2

(114) التحرير والتنوير: ص 114

(115) الكشاف: 709/4

(116) البحر المديد: 432/3

سبحاناً، أي أدعو الناس إلى توحيدهم وطاعته وأنزهه عن النقائص التي يشرك بها المشركون من ادعاء الشركاء، والولد، والصاحبة. وجملة (وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ) بمترلة التذييل لما قبلها لأنها تعم ما تضمنته. (117)

(وَسُبِّحَنَ اللَّهُ) وأنزهه من الشركاء. (118)

(وَسُبِّحَنَ اللَّهُ) "تزيها له عن الشرك (وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ) على دينهم (119)

وقوله: (وَسُبِّحَنَ اللَّهُ) عطف على قوله: قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أي: قل هذه سبيلي وقل سبحان الله تزيهاً لله عما يشركون وما أنا من المشركين الذين اتخذوا مع الله ضدًا ونداً وكفوفاً وولداً، وهذه الآية تدل على أن حرفة الكلام وعلم الأصول حرفة الأنبياء عليهم السلام وأن الله ما بعثهم إلى الخلق إلا لأجلها. (120)

وسبحان الله يقول له تعالى ذكره:

"وقل تزيها لله وتعظيماً له من أن يكون له شريك في ملكه أو معبود سواه فيسلطانه (121)، أي وأسبح الذي اختص بصفات الكمال سبحاناً، أي أقدره حق قدره فأثبت له من صفات الكمال ما يليق بجلاله، وأنزهه عما هو متعال عنه تزيهاً يعلم هم أنه يليق بجلاله ويرضى به، وفي تخصيص الله بذلك عقب ما أثبت له ولأتباعه تلويحاً بنسبة النقص إليهم تواضعاً، اعتذاراً عما يلحقهم من الوهن وطلباً للعفو عنه (وَمَا أَنَا) وعدل عن " مشركاً " إلى أبلغ منه فقال: (مِنَ الْمُشْرِكِينَ) أي في عداد من يشرك به شيئاً بوجه من الوجوه، لأنني علمت بما آتاني من البصيرة أنه منعوت بنعوت الكمال، متزه عن سمات النقص، متعال عنها، وأن ذلك أول واجب لأنه الواحد الذي جل عن المجانسة، القهار الذي

(117) التحرير والتنوير: 64/13

(118) مدارك التنزيل وحقائق التأويل: عبدالله بن أحمد بن محمود حافظ الدين أبو البركات النسفيو تنوير المقباس

من تفسير ابن عباس الفيروز آبادي: دار الكتب العلمية لبنان

(119) بحر العلوم — : السمرقندي 213/2.

(120) مفاتيح الغيب من القرآن الكريم: الرازي: دار إحياء التراث العربي 520/18.

(121) جامع البيان عن تأويل آي القرآن: أبي جعفر محمد بن جرير الطبري، قدم له الشيخ خليل الميس ضبط

وتوثيق وتخرّيج صدقة حميد العطار. دار الفكر 116/7.

كل شيء تحت مشيئته، وفسرت {سبحان} بما تقدم لأن مادة "سبح" بكل ترتيب تدور على القدر والشدة والاتساع ؛ وتارة يقتصر فيه على الكفاية ومنه الحسب: مقدار الشيء. (122)

5. ﴿وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ الْبَنَاتِ سُبْحَانَهُ وَلَهُمْ مَا يَشْتَهُونَ﴾ (النحل، ٥٧) (أي يعتقدون. ذكر جل وعلا في هذه الآية الكريمة: أن الكفار يعتقدون أن لله بنات إناثاً، وذلك أن خزاعة وكنانة كانوا يقولون : الملائكة بنات الله. كما بينه تعالى بقوله: ﴿وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ الْبَنَاتِ سُبْحَانَهُ وَلَهُمْ مَا يَشْتَهُونَ﴾ (النحل، ٥٧) (123)

فاعترض له لغرض التثريه والتعظيم وفيه الشناعة على من جعل البنات لله (124) أن زعموا أن الملائكة بنات الله من سروات الجن، كما دل عليه قوله تعالى: ﴿وَجَعَلُوا بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْجَنَّةِ نَسَبًا﴾ (الصافات، ١٥٨) وهو اعتقاد قبائل كنانة وخزاعة. والجعل: هنا النسبة بالقول. (سُبْحَانَهُ) مصدر نائب عن الفعل، وهو منصوب على المفعولية المطلقة، وهو في محل جملة معترضة وقعت جواباً عن مقالتهن السيئة التي تضمنتها حكاية) ويجعلون لله البنات (إذ الجعل فيه جعل بالقول، فقوله: (سبحانه) مثل قولهم: حاش لله ومعاذ الله، أي تثريها له عن أن يكون له ذلك .

وإنا قدم (سُبْحَانَهُ) على قوله: (وَلَهُمْ مَا يَشْتَهُونَ) ليكون نصاً في أن التثريه عن هذا الجعل لذاته وهو نسبة النبوة لله، لا عن جعلهم له خصوص البنات دون الذكور الذي هو أشد فظاعة، كما دل عليه قوله تعالى: (وَلَهُمْ مَا يَشْتَهُونَ)، لأن ذلك زيادة في التفضيع، فقوله: (وَلَهُمْ مَا يَشْتَهُونَ) جملة في موضع الحال. وتقديم الخبر في الجملة للاهتمام بهم في ذلك على طريقة التهكم. (125)

(122) نظم الدرر في تناسب الآيات والسور: برهان الدين أبو الحسن إبراهيم بن عمر البقاعي، دار الكتب

العلمية — بيروت، الطبعة الثانية، 2002 م — 1424هـ، 108/4.

(123) أضواء البيان: 387/2

(124) البرهان: 57/1

(125) ينظر: التحرير والتنوير: 183/ 14

كانت خزاعة وكنانة تقول : الملائكة بنات الله (سُبْحَنَهُ) تتريه لذاته من نسبة الوالد إليه . أو تعجب من قولهم⁽¹²⁶⁾ .

وسماه قدامة التفاتا وهو الإتيان بجملة أو أكثر لا محل لها من الإعراب في أثناء كلام أو كلامين اتصالا معنى لنكته غير دفع الإيهام كقوله ويجعلون لله البنات سبحانه ولهم ما يشتهون فقوله سبحانه اعتراض لتترية الله سبحانه وتعالى عن البنات والشناعة على جاعليها⁽¹²⁷⁾ .

6. ﴿سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلًا مِنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَا الَّذِي بَرَكْنَا حَوْلَهُ لِنُرِيَهُ مِنْ آيَاتِنَا إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ ﴿١﴾﴾ الإسراء
مقصود السورة ومعظم ما اشتملت عليه:

تترية الحق تعالى

الافتتاح بكلمة التسييح من دون سبق كلام مُتضمّن ما يجب تترية الله عنه ويؤذن بأن خبراً عجيباً يستقبله السامعون دالاً على عظيم القدرة من المتكلم ورفيع منزلة المتحدث عنه فإن جملة التسييح في الكلام الذي لم يقع فيه ما يوهم تشبيهاً أو تنقيصاً لا يليقان بجلال الله تعالى مثل: ﴿سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُصِفُونَ ﴿١٥٩﴾﴾ الصفات, يتعين أن تكون مستعملة في أكثر من التترية ، وذلك هو التعجيب من الخبر المتحدث به كقوله ﴿قُلْتُمْ مَا يَكُونُ لَنَا أَنْ نَتَكَلَّمَ بِهَذَا سُبْحَانَكَ هَذَا بُهْتَنٌ عَظِيمٌ ﴿١٦﴾﴾ النور

ولما كان هذا الكلام من جانب الله تعالى والتسييح صادراً منه كان المعنى تعجيب السامعين،... ووجه هذا الاستعمال أن الأصل أن يكون التسييح عند ظهور ما يدل على إبطال ما لا يليق بالله تعالى. ولما كان ظهور ما يدل على عظيم القدرة مزيلاً للشك في قدرة الله وللاشراك به كان من شأنه أن يُنطق المتأمل بتسييح الله تعالى، أي تتريةه عن العجز.

وأصل صيغ التسييح هو كلمة سبحان الله التي نُحِت منها السبحلة. ووقع التصرف في صيغها بالإضمار نحو سبحانك وسبحانه ، وبالموصول نحو ﴿سُبْحَانَ الَّذِي خَلَقَ الْأَزْوَاجَ

⁽¹²⁶⁾ الكشاف : 571/2

⁽¹²⁷⁾ الإتقان في علوم القرآن : 262/2

كُلَّهَا ﴿٣٦﴾ يس: ومنه هذه الآية .. (128)

قوله عز وجل : (سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلًا مِّنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَا) أما قوله (سُبْحَانَ) ففيه تأويلان:

● أحدهما: تزييه الله تعالى من سوء ، وقيل بل نزه نفسه أن يكون لغيره في إسراء عبده تأثير .

● الثاني : معناه براءة الله تعالى من سوء (129)

قوله تعالى "سُبْحَانَ" أي عجب من أمر الله تعالى "الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ" ويقال تزييه الله تعالى وروى موسى بن طلحة قال كان رسول الله صلى الله عليه وسلم سئل عن "سُبْحَانَ" فقال نزه الله نفسه عن سوء وروي عن علي بن أبي طالب أن ابن أبي الكواء سأله عن سبحان الله فقال علي كلمة رضيها الله لنفسه ويقال معناه سبحوا الله "الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ" أي أدلج برسوله صلى الله عليه وسلم "لَيْلًا" أي في ليلة ويقال "أَسْرَى" يعني سار بعبده ليلا "الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ" أي مكة وقال ابن عباس من بيت أم هانئ "الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ" يعني إلى بيت المقدس (130)

سبحان هنا على ما ذهب إليه بعض المحققين مصدر سبح تسيباً بمعنى نزه تزيهاً لا بمعنى قال سبحان الله؛ نعم جاء التسيب بمعنى القول المذكور كثيراً حتى ظن بعضهم أنه مخصوص بذلك وإلى هذا ذهب صاحب القاموس (131)

سبحان الذي أسرى وبإسناده عن ابن عباس في قوله تعالى سبحان يقول تعظم وتبرأ عن الولد والشريك (132) تزيها للذي أسرى بعبده وتبرئة له مما يقول فيه المشركون من أن له من خلقه شريكا، وأن له صاحبة وولدا، وعلوا له وتعظيما عما أضافوه إليه، ونسبوه من

(128) التحرير والتنوير : 9/15

(129) النكت والعيون: 223/3

(130) بحر العلوم : 299/2

(131) ينظر: تفسير الألوسي : 3/15

(132) تنوير المقباس: 233/1

جهالاتهم وخطأ أقوالهم (133)

7. ﴿ تَسْبِيحٌ لَهُ السَّمَوَاتُ السَّبْعُ وَالْأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَكِنْ لَا تَفْقَهُونَ

تَسْبِيحَهُمْ إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا ﴿٤٤﴾ الإسراء

ونرجئ الكلام في هذه الآية إلى مبحث تسبيح الكائنات

8. ﴿ أَوْ يَكُونُ لَكَ بَيْتٌ مِّنْ زُخْرَفٍ أَوْ تَرْقَى فِي السَّمَاءِ وَلَنْ نُؤْمِنَ لِرُفِيِّكَ حَتَّىٰ تَنْزِلَ عَلَيْنَا كِتَابًا

نَقْرُؤُهُ قُلْ سُبْحَانَ رَبِّيَ هَلْ كُنْتُ إِلَّا بَشَرًا رَسُولًا ﴿٩٣﴾ الإسراء

أي تزيهاً لربي - جل وعلا - عن كل ما لا يليق به، ويدخل فيه تزيهه عن العجز عن فعل ما اقترحتم. فهو قادر على كل شيء، لا يعجزه شيء، وأنا بشر أتبع ما يوحيه إليّ ربي (134).

واختلف في (قُلْ سُبْحَانَ رَبِّي) فمن أثبت الألف قال هذا تبرئة من مقام الإسلام وحصره الأجسام صدر به مجاوبة للكفار في مواطن الرد والإنكار ومن أسقط فلعلو حال المصطفى صلى الله عليه وسلم لا يشغله عن الحضور تقلبه في الملكوت الخطاب في الملك وهو أولى الوجهين (135)

قلت: وهذه لطيفة من البيان المعجز في كتاب الله وخلفها سر من أسرار الرسم العثماني المعجز ولما كان اقتراحهم اقتراح مُلاحة وعناد، أمره الله بأن يجيبهم بما يدل على التعجب من كلامهم بكلمة (سُبْحَانَ رَبِّي) التي تستعمل في التعجب، ثم بالاستفهام الإنكاري، وصيغة الحصر المقتضية قصر نفسه على البشرية والرسالة قصرًا إضافيًا، أي لستُ رباً متصرفاً أخلق ما يطلب مني، فكيف آتي بالله والملائكة وكيف أخلق في الأرض ما لم يخلق فيها.

(وقرأ الجمهور) قل بصيغة فعل الأمر. وقرأه ابن كثير، وابن عامر قال (بألف بعد القاف بصيغة الخبر الماضي على أنه حكاية لجواب الرسول ﷺ)

(133) جامع البيان: ج 9

(134) أضواء البيان: 185/3

(135) البرهان: 412/1

عن قولهم: ﴿ وَقَالُوا لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى تَفْجُرَ لَنَا مِنَ الْأَرْضِ يَنْبُوعًا ﴾ (الإسراء 136)

وقوله: " قُلْ سُبْحَانَ رَبِّيَ هَلْ " يقول تعالى ذكره لنبيه محمد ﷺ: قل يا محمد لهؤلاء المشركين من قومك القائلين لك هذه الأقوال. تزيها لله عما يصفونه به، وتعظيما له من أن يؤتى به وملائكته، أو يكون لي سبيل إلى شيء مما سألتموني: هل كنت إلا بشرا رسولا يقول: هل أنا إلا عبد من عبده من بني آدم، فكيف أقدر أن أفعل ما سألتموني من هذه الأمور، وإنما يقدر عليها خالقي وخالقكم، وإنما أنا رسول أبلغكم ما أرسلت به إليكم، والذي سألتموني أن أفعله بيد الله الذي أنا وأنتم عبيد له، لا يقدر على ذلك غيره. (137)

وهذا هو المعنى المراد وليس كما زعمه الفخر الرازي (138) في تفسيره من معنى متأول مبعثه نفي صفة الجيئ عن الله جل وعلا.

فأمر سبحانه رسوله ﷺ أن يأتي بما يفيد التعجب من قولهم، والتزيه للرب سبحانه عن اقتراحاتهم القبيحة فقال: (سُبْحَانَ رَبِّيَ) أي: تزيها لله عن أن يعجز عن شيء (139) فلما تم تعنتهم فكان لسان الحال طالبا من الله تعالى الجواب عنه، أمره الله تعالى بجوابهم بقوله: (قُلْ سُبْحَانَ رَبِّيَ) أي تزه عن أن يكون له شريك في ملكه يطلب منه ما لا يطلب إلا من الإله، فهو تزيه لله وتعجب منه لوضوح عنادهم بطلبهم ما لا قدرة عليه إلا للإله ممن لا قدرة له على شيء منه إلا بإذن الله، ولم يدع قط أنه قادر على شيء منه، فحسن الاستفهام جدا في قوله تعالى: (هَلْ كُنْتُ إِلَّا بَشَرًا رَسُولًا) لا يقدر على غير ما يقدر عليه البشر (رَسُولًا) كما كان من قبلي من الرسل (140).

9. ﴿ وَيَقُولُونَ سُبْحَانَ رَبِّنَا إِنْ كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولًا ﴾ (الإسراء 108)

(وعظفت) ويقولون سبحان ربنا (على) يجرون للإشارة إلى أنهم يجمعون بين الفعل الدال على الخضوع والقول الدال على التزيه والتعظيم ونظيره قوله: ﴿ خَرُّوا سُجَّدًا وَسَبَّحُوا

(136) التحرير والتنوير: 211/15

(137) جامع البيان: 278/9

(138) ذكره في مفاتيح الغيب: 410/21

(139) ينظر: فتح القدير: 112/3

(140) نظم الدرر: 672/4

بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ﴿١٥﴾ السجدة. على أن في قولهم : سبحان ربنا (دلالة على التعجب والبهجة من تحقق وعد الله في التوراة والإنجيل بمجيء الرسول الخاتم ﷺ (141).
● أحدهما: كتابهم إيماناً بما فيه من تصديق محمد ﷺ.

● الثاني: القرآن كان أناس من أهل الكتاب إذا سمعوا ما أنزل منه قالوا: سُبْحَانَ رَبِّنَا إِنْ كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولًا ، وهذا قول مجاهد. (142)

سجدا ويقولون "سُبْحَانَ قُلِّ" أي تزيها لربنا وقال الكلبي أي نصلي لربنا (143)

"سُبْحَانَ" نزهوا الله عما نسبته إليه كفار قريش وغيرهم من أنه لا يرسل البشر رسلاً وأنه لا يعيدهم للجزاء ، وأن هنا المخففة من الثقيلة المعنى أن ما وعد به من إرسال محمد عليه الصلاة والسلام وإنزال القرآن عليه قد فعله وأنجزه (144)

10. ﴿فَخَرَجَ عَلَى قَوْمِهِ مِنَ الْمِحْرَابِ فَأَوْحَىٰ إِلَيْهِمْ أَنْ سَبِّحُوا بُكْرَةً وَعَشِيًّا﴾ ﴿١١﴾ مريم

(فَأَوْحَىٰ إِلَيْهِمْ أَنْ سَبِّحُوا) هي المفسرة. والمعنى أن ما بعدها يفسر الإيحاء المذكور قبلها. فهذا الذي أشار لهم به هو الأمر بالتسبيح بكرة وعشيًا، وهذا هو الصواب. ويحتمل أن تكون مصدرية بناء على أن (المصدرية) تأتي مع الأفعال الطلبية. وعليه فالمعنى: (أوحى إليهم) أي أشار إليهم بأن سبحوا، أي بالتسبيح أو كتب لهم ذلك بناء على القول بأن المراد به الكتابة، وكونها مفسرة هو الصواب. (145)

وقيل كتب في الأرض (أَنْ سَبِّحُوا) أي صلوا (بُكْرَةً وَعَشِيًّا) : صلاة الفجر وصلاة العصر ، ولعلها كانت صلاتهم. أو : نزهوا ربكم طرفي النهار ، ولعله أمر أن يُسبح فيها شكراً ، ويأمر قومه بذلك. والله تعالى أعلم (146).

وقوله " أَنْ سَبِّحُوا " " أَنْ " مفسرة بمعنى أي و " سَبِّحُوا " قال قتادة معناه صلوا

(141) التحرير والتنوير : 232/15

(142) النكت والعيون: 280/3

(143) بحر العلوم: 332/2

(144) البحر المحيط: 86/6

(145) أضواء البيان: 377/3

(146) البحر المديد: 305/4

والسبحة الصلاة وقالت فرقة بل أمرهم بذكر الله وقول سبحان الله وقرأ طلحة أن سبحوه بضمير وباقي الآية بين ويقال وحى وأوحى بمعنى واحد⁽¹⁴⁷⁾

"أَنْ سَبَّحُوا" يعني صلوا لله تعالى " بكرة وعشيا " يعني غدوة وعشيا فعرف عند ذلك أنه آية الولد⁽¹⁴⁸⁾

والجمهور على أن المعنى (أَنْ سَبَّحُوا) صلوا. وقيل أمرهم بذكر الله والتسبيح. قال المفسرون كان يخرج على قومه بكرة وعشيا فيأمرهم بالصلاة إشارة . قال صاحب التحرير والتحبير وعندني في هذا معنى لطيف وهو أنه إنما خص بالتسبيح بالذكر لأن العادة جارية أن كل من رأى أمراً عجب منه أو رأى فيه بديع صنعة أو غريب حكمة يقول : سبحان الله سبحان الخالق ، فلما رأى حصول الولد من شيخ وعافر عجب من ذلك فسبح وأمر بالتسبيح⁽¹⁴⁹⁾

التسبيح على ظاهره وهو التزيه أي زهوا ربكم طرفي النهار ولعله ﷺ كان مأموراً بأن يسبح شكراً ويأمر قومه . وقال صاحب التحرير والتحبير : عندني في هذا معنى لطيف وهو أنه إنما خص التسبيح بالذكر لأن العادة جارية أن كل من رأى أمراً عجب منه أو رأى فيه بديع صنعة أو غريب حكمة يقول : سبحان الله تعالى سبحان الخالق جل جلاله فلما رأى حصول الولد من شيخ عافر عجب من ذلك فسبح وأمر بالتسبيح⁽¹⁵⁰⁾ .

(أَنْ سَبَّحُوا) أي أوجدوا التزيه والتقديس لله تعالى بالصلاة وغيرها (بُكْرَةً وَعَشِيًّا) فحملت امرأته كما قلنا فولدت ولداً فسماه يحيى كما بشرناه به فكبر حتى ميز فقلنا: قَالَ تَعَالَى: ﴿يَجِيئُ حُذِّ الْكِتَابِ بِقُوَّةٍ وَأَتَيْنَهُ الْحُكْمَ صَبِيًّا﴾ ﴿١٢﴾ ﴿٣٥﴾ مريم⁽¹⁵¹⁾

11. ﴿مَا كَانَ لِلَّهِ أَنْ يَتَّخِذَ مِنْ وَلَدٍ سَبْحَنَهُ إِذَا قُضِيَ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾ ﴿٣٥﴾ مريم

⁽¹⁴⁷⁾ المحرر الوجيز: 8/4

⁽¹⁴⁸⁾ بحر العلوم: 370/2

⁽¹⁴⁹⁾ البحر المحيط: 667/6. وينظر تفسير النسفي: 263/2 وتنوير المقياس: 254/1 وجامع البيان: 86/10

ومعاني القرآن للنحاس: 314/4.

⁽¹⁵⁰⁾ روح المعاني: 140/22

⁽¹⁵¹⁾ نظم الدرر: 818/4

معلوم أن لفظ (مَا كَانَ) يدل على النفي، فتارة يدل ذلك النفي من جهة المعنى على الزجر والردع، كقوله تعالى: ﴿ مَا بِأَنْفُسِهِمْ عَنِ الْمَدِينَةِ وَمَنْ حَوْلَهُمْ مِنَ الْأَعْرَابِ أَنْ يَتَخَلَّفُوا عَن رَّسُولِ اللَّهِ ﴾ (١٢٠) التوبة

وتارة يدل على التعجيز، كقوله تعالى: ﴿ قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ وَسَلَامٌ عَلَىٰ عِبَادِهِ الَّذِينَ اصْطَفَىٰ ۗ فَأَنْبَتْنَا بِهِءَ ۗ أَمَا يُشْرِكُونَ ﴾ (٥٩) ﴿ أَمَّنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَأَنْزَلَ لَكُمْ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَنْبَتْنَا بِهِءَ حَدَائِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ مَا كَانَ لَكُمْ أَنْ تُنْبِتُوا شَجَرَهَا ۗ أَلَيْسَ اللَّهُ بِعَلِيمٌ قَوْمٍ يَعْدِلُونَ ﴾ (٦٠) النمل

وتارة يدل على التثريه، كقوله هنا: ﴿ مَا كَانَ لِلَّهِ أَنْ يَتَّخِذَ مِنْ وَلَدٍ سُبْحَانَهُ ۗ ﴾ (٣٥) ﴿ مَرْيَمُ وَقَدْ أَعْقَبَهُ بِقَوْلِهِ (سُبْحَانَهُ) أَي تَتْرِيهَا لَهُ عَنِ اتِّخَاذِ الْوَلَدِ وَكُلِّ مَا لَا يَلِيقُ بِكَمَالِهِ وَجَلَالِهِ. فَقَوْلُهُ (مَا كَانَ لِلَّهِ) بِمَعْنَى مَا يَصِحُّ وَلَا يَتَأْتَى وَلَا يَتَصَوَّرُ فِي حَقِّهِ جَلُّ وَعِلَا أَنْ يَتَّخِذَ وَلَدًا، سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عَنِ ذَلِكَ عُلُوًّا كَبِيرًا. وَالآيَةُ كَقَوْلِهِ تَعَالَىٰ: ﴿ وَمَا يَنْبَغِي لِلرَّحْمَنِ أَنْ يَتَّخِذَ وَلَدًا ﴾ (٩٢) ﴿ مَرْيَمُ. (152)

إذ هو تقرير لعبودية عيسى وتثريه لله تعالى عما لا يليق بجلال الألوهية من اتخاذ الولد ومن شائبة الشرك، ولأنه القول الناشئ عن الغلو في التقديس، فكان فيما ذكر من صفات المدح لعيسى ما قد يقوي شبهتهم فيه بخلاف قول اليهود فقد ظهر بطلانه بما عُدَّ لعيسى من صفات الخير .

وصيغة (مَا كَانَ لِلَّهِ أَنْ يَتَّخِذَ) تفيد انتفاء الولد عنه تعالى بأبلغ وجه لأن لام الجحود تفيد مبالغة النفي، وأنه مما لا يلاقي وجود المنفي عنه، ولأن في قوله: (أَنْ يَتَّخِذَ) إشارة إلى أنه لو كان له ولد لكان هو خَلَقَهُ، واتَّخِذَهُ فلم يَعُدْ أَنْ يَكُونَ مِنْ جَمَلَةٍ مَخْلُوقَاتِهِ، فإثبات النبوة له خُلْفٌ مِنَ الْقَوْلِ.

(وجملة) (إِذَا قَضَىٰ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ، كُنْ فَيَكُونُ) (بيان لجملة) ما كان لله أن يَتَّخِذَ مِنْ وَلَدٍ لإبطال شبهة النصراري إذ جعلوا تكوين إنسان بأمر التكوين عن غير سبب معتاد دليلاً

على أن المكوّن ابن لله تعالى ، فأشارت الآية إلى أن هذا يقتضي أن تكون أصول الموجودات أبناء لله وإن كان ما يقتضيه لا يخرج عن الخضوع إلى أمر التكوين.⁽¹⁵³⁾

(سُبْحَنَهُ) أي تزه عن الولد إذ هو مما لا يتأتى ولا يتصور في المعقول ولا تتعلق به القدرة لاستحالته، إذ هو تعالى متى تعلقت إرادته بإيجاد شيء أو جده فهو متره عن التوالد⁽¹⁵⁴⁾

كذب النصارى وبكتهم بالدلالة على انتفاء الولد عنه ، وأنه مما لا يتأتى ولا يتصور في العقول وليس بمقدور عليه، إذ من المحال غير المستقيم أن تكون ذاته كذات من ينشأ منه الولد، ثم بين إحالة ذلك بأن من إذا أراد شيئاً من الأجناس كلها أو جده بكن، كان مترها من شبه الحيوان الوالد . والقول هنا مجاز، ومعناه: أن إرادته للشيء يتبعها كونه⁽¹⁵⁵⁾ .

قلت: بل القول هنا حقيقة وهو صفة من صفات الله التي أثبتتها لنفسه فنثبتها نحن من غير تأويل ولا تعطيل لكي لا نكذب الله في ما قرره من التزيه في الآية ومعلوم مذهب الزمخشري في كلام الله والقرآن.

قال ابن جرير: "وقوله (سُبْحَنَهُ) قول: تزيها لله وتبرئة له أن يكون له ما أضاف إليه الكافرون القائلون: عيسى ابن الله. وقوله: (إِذَا قَضَىٰ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ، كُنْ فَيَكُونُ) يقول جل ثناؤه: إنما ابتداء الله خلق عيسى ابتداء، وأنشأه إنشاء، من غير فحل افتحل أمه، ولكنه قال له: كن فيكون لأنه كذلك يبتدع الأشياء"⁽¹⁵⁶⁾

التسبيح :معنى إيجاد عيسى بكمال القدرة (سُبْحَنَهُ إِذَا قَضَىٰ أَمْرًا).⁽¹⁵⁷⁾

12. ﴿يُسَبِّحُونَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لَا يَفْتُرُونَ﴾ ﴿٢٠﴾ الأنبياء

يأتي الكلام عليه في ذكر تسبيح الملائكة إنشاء الله

13. ﴿وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَدًا سُبْحَانَهُ بَلْ عِبَادٌ مُّكْرَمُونَ﴾ ﴿٢٦﴾ الأنبياء

⁽¹⁵³⁾ التحرير والتنوير: 101/16

⁽¹⁵⁴⁾ البحر المحيط: 178/6

⁽¹⁵⁵⁾ الكشاف: 18/3

⁽¹⁵⁶⁾ جامع البيان: الطبري، 125/10

⁽¹⁵⁷⁾ بصائر ذوي التمييز: الفيروز آبادي، 405/1

ذكر جل وعلا في هذه الآية الكريمة: أن الكفار لعنهم الله قالوا عليه أنه اتخذ ولداً. وقد بينا ذلك فيما مضى بياناً شافياً في مواضع متعددة من هذا الكتاب المبارك. سبحانه وتعالى عما يقول الظالمون علواً كبيراً .

" وبين هنا بطلان ما ادعوه على ربهم من اتخاذ الأولاد وهم في زعمهم الملائكة بحرف الإضراب الإبطالي الذي هو (بَل) مبيناً: أنهم عباده المكرمون، والعبد لا يمكن أن يكون ولداً لسيده. ثم أتى على ملائكته بأهم عباد مكرمون، لا يسبقون ربهم بالقول أي لا يقولون إلا ما أمرهم أن يقولوه لشدة طاعتهم له (158)

قلت: فلما فرغ من بيان باطلهم فيما اتخذوا من دون الله آلهة انتقل إلى بيان باطل آخر وهو اعتقادهم أن الله اتخذ ولداً . وقد كانت خُزاعة من سكان ضواحي مكة يزعمون أن الملائكة بنات الله من سرّوات الجن وشاركهم في هذا الزعم بعض من قريش وغيرهم من العرب. وقد تقدم عند قوله تعالى ﴿ وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ الْبَنَاتِ سُبْحَانَهُ وَلَهُمْ مَا يَشْتَهُونَ ﴾ (٥٧) النحل "والولد اسم جمع مفردُه مثله، أي اتخذ أولاداً، والولد يشمل الذكر والأنثى، والذين

قالوا اتخذ الله ولداً أرادوا أنه اتخذ بناتٍ، قال تعالى: (وَجَعَلُونَ لِلَّهِ الْبَنَاتِ سُبْحَانَهُ)

ولما كان اتخاذ الولد نقصاً في جانب واجب الوجود أعقب مقالتهم بكلمة (سُبْحَانَهُ) (تزيهاً له عن ذلك فإن اتخاذ الولد إنما ينشأ عن الافتقار إلى إكمال النقص العارض بفقد الولد كما قال تعالى في سورة يونس (68) قالوا اتخذ الله ولداً سبحانه هو الغني). (159)

14. ﴿ فَفَهَّمْنَاهَا سُلَيْمَانَ وَكُلًّا ءَايِنَّا حُكْمًا وَعِلْمًا وَسَخَرْنَا مَعَ دَاوُدَ الْجِبَالَ يُسَبِّحْنَ وَالطَّيْرَ وَكُنَّا فَاعِلِينَ ﴾ (٧٨) الأنبياء

يأتي الكلام عليها في الكلام عن تسبيح المخلوقات.

﴿ وَلَوْلَا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ قُلْتُمْ مَا يَكُونُ لَنَا أَنْ نَتَكَلَّمَ بِهَذَا سُبْحَانَكَ هَذَا بُهْتَانٌ عَظِيمٌ ﴾ (١٦)

النور وفي هذا بيان فضل عائشة رضي الله عنها حيث نزهها باللفظ الذي نزه به نفسه وهو لفظ سبحان الله ويقال سبحان الله أن تكون امرأة النبي صلى الله عليه وسلم زانية ما

(158) أضواء النيان: الشنقيطي، 138/4

(159) التحرير والتنوير: 49/17

كانت امرأة نبي زانية قط (160)

(سُبْحَانَكَ) تعجب ممن تفوه به، وأصله أن يذكر عند معاينة العجيب من صنائعه تعالى شأنه تزيهاً له سبحانه من أن يصعب عليه أمثاله ثم كثر حتى استعمل في كل متعجب منه واستعماله فيما ذكر مجاز متفرع على الكناية.

وجوز أن يكون (سُبْحَانَكَ) هنا مستعملاً في حقيقته والمراد تزيه الله تعالى شأنه من أن يصم نبيه عليه الصلاة والسلام ويشينه فإن فجور الزوجة وصمة في الزوج تنفر عنه القلب وتمنع عن اتباعه النفوس ولداً صان الله تعالى أزواج الأنبياء عليهم السلام عن ذلك ، وهذا بخلاف الكفر فإن كفر الزوجة ليس وصمة في الزوج ، وقد ثبت كفر زوجتي نوح عليهما السلام كذا قيل ، وعلى هذا يكون (سُبْحَانَكَ) تقريراً لما قبله وتمهيداً لقوله سبحانه (هَذَا بُهْتَنٌ) أي كذب يبهت ويحير سامعه لفضاعته (عَظِيمٌ) لا يقدر قدره لعظمة المبهوت عليه فإن حقارة الذنوب وعظمتها كثيراً ما يكونان باعتبار متعلقتهما ، والظاهر أن التوبيخ للسامعين الخائضين لا للسامعين مطلقاً ، فقد روي عن سعيد بن جبير أن سعد بن معاذ لما سمع ما قيل في أمر عائشة رضي الله تعالى عنها قال: (هَذَا بُهْتَنٌ عَظِيمٌ) (161)

(هَذَا بُهْتَنٌ عَظِيمٌ) ، تزيهاً لك يا رب وبراءة إليك مما جاء به هؤلاء هذا بهتان عظيم (162)

ومعنى قوله (هَذَا بُهْتَنٌ عَظِيمٌ) التعجب من أولئك الذين جاءوا بالإفك، وأصله التزيه لله سبحانه ، ثم كثر حتى استعمل في كل متعجب منه (163)

15. ﴿ فِي بُيُوتٍ أَذِنَ اللَّهُ أَنْ تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا أَسْمُهُمْ يُسَبِّحُ لَهُ فِيهَا بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ ﴾ (النور)

قرأ هذا الحرف جميع السبعة غير ابن عامر، وشعبة، عن عاصم: يسبح له فيها بكسر الباء الموحدة المشددة، مبنياً للفاعل، وفاعله رجال والمعنى واضح على هذه القراءة. وقرأه ابن

(160) بحر العلوم: 503/2

(161) تفسير الألوسي: 374/13

(162) جامع البيان: 132/18

(163) فتح القدير: 196/5

عامر، وشعبة، عن عاصم: (يُسَبِّحُ لَهُ فِيهَا) بفتح الباء الموحدة المشددة، مبنياً للمفعول، وعلى هذه القراءة فالفاعل المحذوف قد دلت القراءة الأولى على أن تقديره: (رِجَالٌ) فكأنه لما قال (يُسَبِّحُ لَهُ فِيهَا) قيل: ومن يسبح له فيها؟ قال رجال: أي يسبح له فيها (رِجَالٌ)، لأن المقرر عند العلماء أن القراءتين في الآية الواحدة كالآيتين (164).

وإذا علمت ذلك فاعلم أن قراءة الجمهور: (يُسَبِّحُ) بكسر الباء وفاعله (رِجَالٌ)، مبنية أن الفاعل المحذوف في قراءة ابن عامر، وشعبة، عن عاصم: (يُسَبِّحُ) بفتح الباء مبنياً للمفعول المحذوف الفاعل هو (رِجَالٌ) كما لا يخفى. والآية على هذه القراءة حذف فيها الفاعل ل: (يُسَبِّحُ)، وحذف أيضاً الفعل الرفع للفاعل الذي هو (رِجَالٌ).

﴿يُسَبِّحُ لَهُ فِيهَا بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ﴾ (النور أي: يصلي له فيها بالغدوة: صلاة الفجر، والآصال: صلاة الظهر والعصر والعشاءين. وإنما وَحَدَّ الْغُدُوِّ؛ لأن صلاته صلاة واحدة، وفي الآصال صلوات، وهو جمع أصيل، وفاعل "يُسَبِّحُ": رجال (165).

(يُسَبِّحُ لَهُ فِيهَا) وفي هذا التسييح قولان:

- أحدهما: أنه تزيه الله.
- الثاني: أنه الصلاة، قاله ابن عباس والضحاك. (بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ) الغدو جمع غَدوة والآصال جمع أصيل وهي العشاء (166).

وقال الشوكاني: "ومعنى يسبح يصلي وقوله بالغدو والآصال أي بالبكر والعشايا قال

الشاعر: وقفت فيها أصيلا لا أسائلها أعيت جوابا وما بالربع من أحد

وإنما خص البكرة والعصر لأن صلاة الغداة وصلاة العصر أول ما فرض على

المسلمين وعن ابن عباس - رضي الله عنهما - أنه قال صلاة الضحى في القرآن ولا يغوص عليها الأغواص ثم قرأ هذه الآية وهو قوله بالغدو والآصال وزعم أن المراد بالتسييح بالغدو

(164) أضواء البيان: 538/5

(165) البحرالمديد: 123/5

(166) النكت والعيون: 106/4

وهو صلاة الضحى والمعروف ما بينا وهو أن المراد منه صلاة الصبح وصلاة العصر⁽¹⁶⁷⁾
أي يصلي له فيها بالغدوة صلاة الفجر وبالآصال صلاة الظهر والعصر والعشاءين .
وإنما وحد الغدو لأن صلاته صلاة واحدة ، وفي الآصال صلوات والآصال جمع أصل جمع
أصيل وهو العشي⁽¹⁶⁸⁾

اختلفت القراءة في قراءة قوله: يسبح له، فقرأ ذلك عامة قراءة الامصار: يسبح له بضم
الياء وكسر الباء، بمعنى: يصلي له فيها رجال، ويجعل يسبح فعلا ل الرجال وخبرا عنهم،
وترفع به الرجال.

سوى عاصم وابن عامر، فإنهما قرءا ذلك: يسبح له بضم الياء وفتح الباء، على ما لم
يسم فاعله، ثم يرفعان الرجال بخبر ثان مضمّر، كأنهما أرادا: يسبح الله في البيوت التي أذن الله
أن ترفع، فسبح له رجال فرفعا الرجال بفعل مضمّر. والقراءة التي هي أولاهما بالصواب:
قراءة من كسر الباء، وجعله خبرا ل الرجال وفعلا لهم. وإنما كان الاختيار رفع
الرجال بمضمّر من الفعل لو كان الخبر عن البيوت لا يتم إلا بقوله: يسبح له فيها، فأما
والخبر عنها دون ذلك تام، فلا وجه لتوجيه قوله: يسبح له إلى غيره، أي غير الخبر عن
الرجال. وعني بقوله: يسبح له فيها بالغدو والآصال يصلي له في هذه البيوت بالغدوات
والعشيات رجال. وينحو الذي قلنا في ذلك قال أهل التأويل قلت وهو قول ابن عباس،
قال: : يسبح له فيها بالغدو والآصال يقول: يصلي له فيها بالغدوة والعشي. يعني بالغدو:
صلاة الغداة، ويعني بالآصال: صلاة العصر. وهما أول ما افترض الله من الصلاة، فأحب أن
يذكرهما ويذكر بهما عبادته⁽¹⁶⁹⁾

واختلف في هذا التسبيح ما هو؟ فالأكثر ونحمله على الصلاة المفروضة قالوا الغدو
صلاة الصبح والآصال صلاة الظهر والعصر والعشاءين لأن اسم الآصال يشملها ومعنى
بالغدو والآصال بالغدوة والعشي وقيل صلاة الصبح والعصر وقيل المراد صلاة الضحى وقيل
المراد بالتسبيح هنا معناه الحقيقي وهو تزيه الله سبحانه عما لا يليق به في ذاته وصفاته

⁽¹⁶⁷⁾ تفسير السمعاني: 534/3

⁽¹⁶⁸⁾ تفسير النسفي: 418/2

⁽¹⁶⁹⁾ جامع البيان: 228/12

وأفعاله ويؤيد هذا ذكر الصلاة والزكاة بعده (170)

قلت: وهذا أرجح مما قبله لكونه المعنى الحقيقي مع وجود دليل يدل على خلاف ما ذهب إليه الأولون.

16. ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَسْخِجُ لَهُ مِنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالطَّيْرِ صَفَقَتْ كُلُّ قَدِّ عِلْمٍ صَلَاتُهُ وَتَسْبِيحُهُ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِمَا يَفْعَلُونَ ﴾ (٤١) النور

يأتي الكلام عليها عند ذكر تسبيح المخلوقات

17. ﴿ قَالُوا سُبْحَانَكَ مَا كَانَ يَنْبَغِي لَنَا أَنْ نَتَّخِذَ مِنْ دُونِكَ مِنْ أَوْلِيَاءَ وَلَكِنْ مَتَّعْتَهُمْ وَءَابَاءَهُمْ حَتَّى نَسُوا الذِّكْرَ وَكَانُوا قَوْمًا بُورًا ﴾ (١٨) الفرقان

المعبودين يقولون: سبحانك أي تزيهاً لك عن الشركاء وكل ما لا يليق بجلالك وعظمتك ما كان ينبغي لنا أن نتخذ من دونك من أولياء: أي ليس للخلائق كلهم، أن يعبدوا أحداً سواك لا نحن ولا هم.

(: مَا كَانَ يَنْبَغِي لَنَا أَنْ نَتَّخِذَ مِنْ دُونِكَ مِنْ أَوْلِيَاءَ): "أي ما كان يصح لنا ولا يستقيم...". (171)

وإذا عرفت ما ذكره جل وعلا في هذه الآية من سؤاله للمعبودين وجوابهم له، فاعلم أن العلماء اختلفوا في المعبودين. فقال بعضهم: المراد بهم الملائكة وعيسى وعزير قالوا: هذا القول يشهد له القرآن ، لأن فيه سؤال عيسى والملائكة عن عبادة عن عبدهم

18. ﴿ فَسُبْحَانَ اللَّهِ حِينَ تُمْسُونَ وَحِينَ تُصْبِحُونَ ﴾ (١٧) وَلَهُ الْحَمْدُ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَعَشِيًّا وَحِينَ تُظْهِرُونَ ﴾ (١٨) الروم قالوا: المراد بالتسبيح في هذه الآية الصلاة (172)

وأشار بقوله: (تُمْسُونَ) إلى صلاة المغرب والعشاء وبقوله: (وَحِينَ تُصْبِحُونَ) إلى صلاة الصبح وبقوله: (وَعَشِيًّا) إلى صلاة العصر وبقوله: (وَحِينَ تُظْهِرُونَ) إلى صلاة

(170) فتح القدير: 69/5

(171) أضواء البيان: 32/6

(172) يكاد يجمع أهل العلم بالتفسير أن معنى سبحان هنا هو الصلاة.

الظهر⁽¹⁷³⁾ (فَسُبِّحَنَّ اللَّهُ) أي: فسبحوا الله ونزهوه تزيهاً يليق به وعن ابن عباس: الآية جامعة للصلوات الخمس، (تُْمَسُّوْنَ): صلاتا المغرب والعشاء، (تُصْبِحُونَ): صلاة الفجر، (وَعَشِيًّا): صلاة العصر، (تُظْهِرُونَ) صلاة الظهر. ولذلك زعم الحسن أنها مَدْنِيَّةٌ؛ لأنه كان يقول: كان الواجب عليه بمكة ركعتين، في أي وقت اتفقت، وإنما فرضت الخمس بالمدينة. والأكثر على أنها فرضت بمكة.⁽¹⁷⁴⁾

وعليه يخرج ما روي أن نافع بن الأزرق سأل ابن عباس: هل تجد الصلوات الخمس في القرآن؟ قال: نعم. وتلا قوله تعالى (فَسُبِّحَنَّ اللَّهُ حِينَ تُْمَسُّوْنَ وَحِينَ تُصْبِحُونَ) إلى قوله (وَحِينَ تُظْهِرُونَ) فإذا صح ما روي عنه فتأويله: أن (فَسُبِّحَنَّ) أمر بأن يقولوا: سبحان الله، وهو كناية عن الصلاة لأن الصلاة تشتمل على قول: سبحان ربي الأعلى وبحمده قلت: أما وجه الأمر بالتزيه حين المساء والصبح؛ فلأنَّ الجوس كانوا يسجدون للشمس في هذين الوقتين؛ تسليماً وتوديعاً، فأمر الحق تعالى المؤمنين أن يزهوه عن يستحق العبادة معه، وأما العشي؛ فلأنه وقت غفلة الناس في جميع حوائجهم، وأما وقت الظهيرة؛ فلأن جهنم تشتعل فيه؛ كما في الحديث، وأمر بحمده والثناء عليه في كل وقت؛ لما غمرهم من النعم الظاهرة والباطنة.

و هو مستحق للتسبيح والحمد لتصرفه في المخلوقات بالإيجاد العجيب وبالإحياء بعد الموت. واختير من تصرفاته العظيمة تصرف الإحياء والإماتة في الحيوان والنبات لأنه تخلص للغرض المقصود من إثبات البعث رداً للكلام على ما تقدم من قوله⁽¹⁷⁵⁾

(فَسُبِّحَنَّ اللَّهُ حِينَ تُْمَسُّوْنَ وَحِينَ تُصْبِحُونَ) وفي تسمية الصلاة بالتسبيح وجهان:

● أحدهما: لما تضمنتها من ذكر التسبيح في الركوع والسجود.

● الثاني: مأخوذ من السبحة، والسبحة الصلاة.⁽¹⁷⁶⁾

قال الألويسي: "(فَسُبِّحَنَّ اللَّهُ) أي: نزهوه تعالى تزيهه اللائق به عز وجل في

⁽¹⁷³⁾ أضواء البيان: 280/1

⁽¹⁷⁴⁾ البحر المديد: 508/5

⁽¹⁷⁵⁾ التحرير والتنوير: 67/21

⁽¹⁷⁶⁾ ينظر: النكت والعيون: 303/4

هذه الأوقات .

وفيه إشكال لأن سبحان الله لزم طريقة واحدة لا ينصبه فعل الأمر لأنه إنشاء من نوع آخر، والجواب: أن ذلك توضيح للمعنى وأن وقوعه جواب الشرط على منوال إن فعلت كذا فنعم ما فعلت فإنه إنشاء أيضاً لكنه ناب مناب الخبر وأبلغ، كذلك هو لإنشاء تزيهه تعالى في الأوقات هرباً من وييل عقابه وطلباً لجزيل ثوابه ، والشرط والجواب مقول على ألسنة العباد فمعنى الآية إذا كان الأمر كما تقرر فأنتم تسبحون الله تعالى في الأوقات المذكورة وهو في معنى الأمر بالتسبيح فيها. (177)

قلت : والمعنى فسبحوه تسيحاً في الأوقات، ولا يخفى ما فيه، ويجوز نصب فعل الأمر لها إذا اقتضاه المقام وأشعر به الكلام، ولكنني أميل إلى اعتبار كون الجملة خبرية لفظاً إنشائية معنى بأن يراد بها الأمر أي: فسبحوا الله تعالى تسبيحه اللائق به سبحانه في هذه الأوقات واحمدوه وسيأتي -إنشاء الله- تمة الكلام عليها في دلالة التسبيح على الصلاة.

19. ﴿ قَالُوا سُبْحَانَكَ أَنْتَ وَلِيِّنَا مِنْ دُونِهِمْ بَلْ كَانُوا يَعْبُدُونَ الْجِنَّ أَكْثَرُهُمْ بِهِمْ مُؤْمِنُونَ ﴾

﴿ ٤١ ﴾ سبأ، وسيأتي إنشاء الله تمة الكلام عليها في تسبيح الملائكة

﴿ سُبْحَانَ الَّذِي خَلَقَ الْأَزْوَاجَ كُلَّهَا مِمَّا تُنْبِتُ الْأَرْضُ وَمِنْ أَنْفُسِهِمْ وَمِمَّا لَا يَعْلَمُونَ ﴾

﴿ ٣٦ ﴾ يس، وفائدة التزيه : نفي تشبيه الذات بشيء من هذه الأزواج. (178)

استئناف مسوق لتزيهه تعالى عما فعلوه من ترك شكره عز وجل واستعظام ما ذكر في حيز الصلة من بدائع آثار قدرته وأسرار حكمته وروائع نعمائه الموجبة لشكره تعالى وتخصيص العبادة به سبحانه والتعجب من إخلالهم بذلك والحال هذه ، وفيه مبالغة من جهة الاشتقاق وجهة العدول إلى التفعيل وجهة العدول عن المصدر الدار على الجنس إلى الاسم الموضوع له خاصة لا سيما العلم وجهة إقامته مقام المصدر مع الفعل ، وقيل : هو مصدر كغفران أريد به التزه التام والتباعد الكلي عن السوء ففيه مبالغة من جهة إسناد التزه إلى الذات المقدس فالمعنى تزه بذاته عن كل ما لا يليق به تعالى تزهاً خاصاً به سبحانه ، فالجملة على هذا إخبار منه تعالى بتزهه وبراءته عن كل ما لا يليق به مما فعلوه وما تركوه؛

(177) روح المعاني: الألويسي، 27/12

(178) البحر المديد: 224/6

وعلى الأول حكم منه عز وجل بذلك وتلقين للمؤمنين أن يقولوه ويعتقدوا مضمونه ولا يخلو به ولا يغفلوا⁽¹⁷⁹⁾

يقول تعالى ذكره تزيها وتبرئة للذي خلق الألوان المختلفة كلها من نبات الأرض، ومن أنفسهم،

يقول: وخلق من أولادهم ذكورا وإناثا، ومما لا يعلمون أيضا من الأشياء التي لم يطلعهم عليها، خلق كذلك أزواجا مما يضيف إليه هؤلاء المشركون، ويصفونه به من الشركاء وغير ذلك⁽¹⁸⁰⁾ مستأنفة مسوقة لتزيهه سبحانه عما وقع منهم من ترك الشكر لنعمة المذكورة، والتعجب من إخلالهم بذلك. وهو في تقدير الأمر للعباد بأن يترهوه عما لا يليق به⁽¹⁸¹⁾

20. ﴿فَسَبِّحْنَ الَّذِي بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾^(٨٢) يس

بدأ بتسبيح نفسه وتزيهه لعموم الملك ومطلق التصرف ونفي الشريك لأن ملكه ملك تصرف وتدير مع الكمال في الحمد والتقدير⁽¹⁸²⁾

فَسَبِّحْنَ تزيه له عز وجل مما وصفوه به تعالى وتعجب عما قالوا في شأنه عز شأنه، والفاء جزائية أي إذا علم ذلك فسبحان أو سببية لأن ما قبل سبب لتزيهه سبحانه. " والمملوك مبالغة في الملك كالرحموت والرهبوت فهو الملك التام، وفي تعليق سبحانه بما في حيزه إيماء إلى أن كونه تعالى مالكا للملك كله قادراً على كل شيء مقتضى للتسبيح، وفسر المملوك أيضاً بعالم الأمر والغيب فتخصيصه بالذكر قيل لاختصاص التصرف فيه به تعالى من غير واسطة بخلاف عالم الشهادة⁽¹⁸³⁾. "فتزه الذي بيده ملك كل شيء وخزائنه".⁽¹⁸⁴⁾

أي: تزيها للذي بيده ملك كل شيء وخزائنه فهو يقدر على إحياء الموتى وما يريد

⁽¹⁷⁹⁾ روح المعاني : 9/23

⁽¹⁸⁰⁾ جامع البيان: 7/18

⁽¹⁸¹⁾ فتح القدير: 163/6

⁽¹⁸²⁾ أضواء البيان: 175/9

⁽¹⁸³⁾ ينظر: روح المعاني: الأوسي 57/23

⁽¹⁸⁴⁾ ينظر: جامع البيان: 48/18

وإليه ترجعون أي تردون وتصيرون بعد مماتكم⁽¹⁸⁵⁾

21. ﴿ فَلَوْلَا أَنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُسَبِّحِينَ ﴾^(١٤٣) الصافات

22. يأتي الكلام عليها في مبحث تسييح صالحى البشر

23. ﴿ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُصِفُونَ ﴾^(١٥٩) الصافات

نزه نفسه عما يصفه الكفرة من الولد والصاحبة⁽¹⁸⁶⁾

أتبعت حكاية قولهم الباطل والوعيد عليه باعتراض بين المستثنى منه والمستثنى يتضمن إنشاء تزيه الله تعالى عما نسبوه إليه، فهو إنشاء من جانب الله تعالى لتزيهه، وتلقين للمؤمنين بأن يقتدوا بالله في ذلك التزيه، وتعجيب من فطيع ما نسبوه إليه.⁽¹⁸⁷⁾

فتره سبحانه وتعالى عما يصفه به كل أحد إلا المخلصين من عباده وهم الرسل

ومن تبعهم⁽¹⁸⁸⁾. " سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُصِفُونَ " يعني تزيها لله عما يصف الكفار

ثم استثنى على معنى التقديم والتأخير يعني فقال " إنهم لمحضرون " إلا عباد الله المخلصين " يعني الموحدين فإنهم لا يحضرون النار ويقال بغير تقديم وتأخير ومعناه " سبحانه عما يصنعون إلا عباد الله المخلصين " يعني الموحدين فإنهم لا يقولون ذلك⁽¹⁸⁹⁾ أي المترهون الله عن ما نسب إليه الكفرة، أو المترهون بلفظ التسييح، أو المصلون. وينبغي أن يجعل قوله: (سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُصِفُونَ) من كلام الملائكة، فتطرد الجملة وتنساق لقائل واحد، فكأنه قيل: ولقد علمت الملائكة أن ناسبي ذلك لمحضرون للعذاب؛ وقالوا: سبحان الله، فترهوا عن ذلك واستثنوا من أخلص من عباد الله؛ وقالوا للكفرة: فإنكم وآهتكم إلى آخره. وكيف نكون مناسبيه، ونحن عبيد بين يديه، لكل منا مقام من الطاعة؟ إلى ما وصفوا به أنفسهم من رتبة العبودية⁽¹⁹⁰⁾.

وقوله: سبحان الله عما يصفون يقول تعالى ذكره تزيها لله، وتبرئه له مما يضيف إليه

⁽¹⁸⁵⁾ ينظر: معاني القرآن: للنحاس، 5/ 522

⁽¹⁸⁶⁾ ينظر: البحر المديد: 6/ 292

⁽¹⁸⁷⁾ ينظر: التحرير والتنوير: 32/ 188

⁽¹⁸⁸⁾ ينظر: التفسير القيم: 2/ 263

⁽¹⁸⁹⁾ بحر العلوم: 3/ 147 وينظر: روح المعاني: 17/ 257

⁽¹⁹⁰⁾ البحر المحيط: 7/ 363 وينظر: تفسير السمعي: 2/ 199

هؤلاء.

المشركون به، ويفترون عليه، ويصفونه، من أن له بنات، وأن له صاحبة⁽¹⁹¹⁾.

أو هو حكاية لتزييه الملك لله عزّ وجلّ عما وصفه به المشركون⁽¹⁹²⁾

24. ﴿وَإِنَّا لَنَحْنُ الْمُسِيحُونَ﴾ (٣٦) ﴿الصفات

يأتي الكلام عليها في مبحث تسييح الملائكة

25. ﴿إِنَّا سَخَرْنَا الْجِبَالَ مَعَهُ، يُسِيحْنَ بِالْعِشِيِّ وَالْإِشْرَاقِ﴾ (١٨) ﴿ص

يأتي الكلام عليها في مبحث تسييح الكائنات

26. ﴿فَإِنِ اسْتَكْبَرُوا فَالَّذِينَ عِنْدَ رَبِّكَ يُسَبِّحُونَ لَهُ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَهُمْ لَا يَسْأَمُونَ﴾ (٣٨)

﴿فصلت

يأتي الكلام عليها في مبحث تسييح الملائكة

27. ﴿لِتَسْتَوُوا عَلَى ظُهُورِهِ ثُمَّ تَذْكُرُوا نِعْمَةَ رَبِّكُمْ إِذَا اسْتَوَيْتُمْ عَلَيْهِ وَتَقُولُوا سُبْحَانَ الَّذِي

سَخَّرَ لَنَا هَذَا وَمَا إِنَّا مُقْرِنِينَ﴾ (١٣) ﴿الزحرف

يأتي الكلام عليها في مبحث تسييح صالحى البشر

28. ﴿وَمِنَ اللَّيْلِ فَسَبِّحْهُ وَأَدْبَرَ السُّجُودِ﴾ (٤٠) ﴿ق

يأتي الكلام عليها في مبحث دلالة التسييح على الصلاة

29. ﴿أَمْ لَهُمْ إِلَهٌ غَيْرُ اللَّهِ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ (٤٣) ﴿الطور

(سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ) أي : تزيهاً له عن إشراكهم،⁽¹⁹³⁾

(سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ) يعني تزيهاً لله تعالى عما يصفون من الشريك والولد⁽¹⁹⁴⁾

وقوله سبحان الله عما يشركون نزه نفسه عن شركهم وعما كانوا يعتقدونه من عبادة

⁽¹⁹¹⁾ جامع البيان: 161/18

⁽¹⁹²⁾ فتح القدير: 222/6

⁽¹⁹³⁾ البحر المديد: 333/7

⁽¹⁹⁴⁾ بحر العلوم: 337/3

غيره (195)

سبحان الله عما يشركون يقول: تزيها لله عن شركهم وعبادتهم معه غيره (196).
ثم نزه سبحانه نفسه عن هذه المقالة الشنعاء فقال (سبحان الله عما يشركون) أي عن
شركهم به أو عن الذين يجعلونهم شركاء له (197)

30. ﴿وَمِنَ اللَّيْلِ فَسَبَّحَهُ وَإِدْبَرَ النُّجُومِ﴾ (٤٩) ﴿الطور

يأتي الكلام عليها في مبحث دلالة التسييح على الصلاة

31. ﴿سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ (١) ﴿الحديد

32. ﴿سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ (١) ﴿الحشر

33. ﴿سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ (١) ﴿الصف

34. ﴿يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ الْمَلِكُ الْقُدُّوسُ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ (١) ﴿الجمعة

﴿يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ لَهُ الْمُلْكُ وَلَهُ الْحَمْدُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ (١)

﴿التغابن

يأتي الكلام عليها في مبحث تسييح الكائنات

35. ﴿قَالَ أَوْسَطُهُمْ أَلْأَقْلَ لَكَرُلُوْلَا تُسَبِّحُونَ﴾ (٢٨) ﴿القلم

36. ﴿قَالُوا سُبْحَانَ رَبِّنَا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ﴾ (٢٩) ﴿القلم

يأتي الكلام عليها في مبحث دلالة التسييح على الاستثناء

المبحث الثاني: صيغة القران

المقصود بالقران هنا ضم لفظ من ألفاظ الحمد أو التهليل أو التكبير أو الاستغفار أو
الدعاء إلى التسييح وقد ورد ذلك في كتاب الله في مواطن عديدة وبمعان مختلفة ولعلي أحصر

(195) تفسير السمعاني: 280/5

(196) جامع البيان: 48/22 وينظر: روح المعاني: الألوسي 129/19

(197) فتح القدير: الشوكاني، 102/4 وينظر إعراب القرآن: للنحاس 287/2

هذه الأنواع في ستة فروع:

● قرن التسبيح بالتحميد: وقد جاء في أربعة عشر موضعا:

1. ﴿وَخُنُّ نُسُوحِ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ﴾ ﴿٣٠﴾ البقرة
2. ﴿وَيُسَبِّحُ الرَّعْدُ بِحَمْدِهِ وَالْمَلَائِكَةُ مِنْ خِيفَتِهِ وَيُرْسِلُ الصَّوَاعِقَ فَيُصِيبُ بِهَا مَنْ يَشَاءُ وَهُمْ يُجَادِلُونَ فِي اللَّهِ وَهُوَ شَدِيدُ الْمِحَالِ﴾ ﴿١٣﴾ الرعد
3. ﴿فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَكُنْ مِنَ السَّاجِدِينَ﴾ ﴿٩٨﴾ الحجر
4. ﴿وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَكِنْ لَا نَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا﴾ ﴿٤٤﴾ الإسراء
5. ﴿فَاصْبِرْ عَلَى مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ غُرُوبِهَا﴾ ﴿١٣٠﴾ طه
6. ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى الْحَيِّ الَّذِي لَا يَمُوتُ وَسَبِّحْ بِحَمْدِهِ وَكَفَى بِهِ بِذُنُوبِ عِبَادِهِ خَبِيرًا﴾ ﴿٥٨﴾ الفرقان
7. ﴿إِنَّمَا يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا الَّذِينَ إِذَا ذُكِرُوا بِهَا خَرُّوا سُجَّدًا وَسَبَّحُوا بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ﴾ ﴿١٥﴾ السجدة
8. ﴿وَتَرَى الْمَلَائِكَةَ حَافِينَ مِنْ حَوْلِ الْعَرْشِ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَقُضِيَ بَيْنَهُم بِالْحَقِّ وَقِيلَ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ ﴿٧٥﴾ الزمر
9. ﴿الَّذِينَ يَجْمَلُونَ الْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيُؤْمِنُونَ بِهِ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ آمَنُوا﴾ ﴿٧﴾ غافر
10. ﴿فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَأَسْتَغْفِرْ لِذَنْبِكَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ بِالْعَشِيِّ وَالْإِبْكَرِ﴾ ﴿٥٥﴾ غافر
11. ﴿وَالْمَلَائِكَةُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِمَنْ فِي الْأَرْضِ﴾ ﴿٥﴾ الشورى
12. ﴿وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ الْغُرُوبِ﴾ ﴿٣٩﴾ ق
13. ﴿وَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ حِينَ تَقُومُ﴾ ﴿٤٨﴾ الطور

14. ﴿ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَأَسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُ كَانَ تَوَّابًا ﴾ (النصر)

قال شيخ الإسلام ابن تيمية: " والتحميد مقرون بالتسبيح وقالت الملائكة (وَنَحْنُ سُبِّحٌ بِحَمْدِكَ) وهاتان الكلمتان إحداهما مقرونة بالتحميد والأخرى بالتعظيم فإنما ذكرنا أن التسبيح فيه نفي السوء والنقائص المتضمن إثبات المحاسن والكمال والحمد إنما يكون على المحاسن وقرن بين الحمد والتعظيم كما قرن بين الجلال والإكرام إذ ليس كل معظم محبوبا محمودا ولا كل محبوب محمودا معظما وقد تقدم أن العبادة تتضمن كمال الحب المتضمن معنى الحمد وتتضمن كمال الذل المتضمن معنى التعظيم ففي العبادة حبه وحمده على المحاسن وفيها الذل له الناشئ عن عظمته وكبريائه ففي إجلاله وإكرامه وهو سبحانه المستحق للجلال والإكرام فهو مستحق غاية الإجلال وغاية الإكرام"⁽¹⁹⁸⁾ نسبح بحمدك ونقدس لك فقولهم « سُبِّحُ » أي نزهك ونباعد عنك ما وُصفت به من خلاف صفاتك، وقوله: « بِحَمْدِكَ » أي برضاك ، ورضانا بذلك⁽¹⁹⁹⁾

قال محمد الأمين الشنقيطي: "وأصل التسبيح في اللغة: الإبعاد عن السوء. ومعناه في عرف الشرع: تزيه الله جل وعلا عن كل ما لا يليق بجلاله وكماله. ومعنى (سبح) : نزه ربك جل وعلا عن كل ما لا يليق بكماله وجلاله . وقوله (بِحَمْدِ رَبِّكَ) أي في حال كونك متلبساً بحمد ربك، أي بالثناء عليه بجميع ما هو أهله من صفات الكمال والجلال"⁽²⁰⁰⁾ .

لأن لفظة بِحَمْدِ رَبِّكَ أضيفت إلى معرفة فتعم جميع المحامد من كل وصف كمال وجلال ثابت لله جل وعلا. فتستغرق الآية الكريمة الثناء بكل كمال، لأن الكمال يكون بأمرين: أحدهما: التحلي عن الرذائل ، والتتره عما لا يليق، وهذا معنى التسبيح .
والآخر: التحلي بالفضائل والاتصاف بصفات الكمال، وهذا معنى الحمد، فتم الثناء

⁽¹⁹⁸⁾ دقائق التفسير الجامع لتفسير ابن تيمية (مختارات): أحمد بن عبد الحليم بن تيمية الحراني أبو العباس: تحقيق

: د. محمد السيد الحليند، مؤسسة علوم القرآن - دمشق الطبعة الثانية ، 1404هـ، 365/2،

⁽¹⁹⁹⁾ مسألة سبحان: لفظويه:ص2

⁽²⁰⁰⁾ أضواء البيان: الشنقيطي، 321/2 و البحر المديد: 470/4 و 477/6

بكل كمال.

(فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ) أي : "نزهه عما ينسبون إليه ، ما لا يليق بشأنه الرفيع ، حامداً له على ما خصك به من الهدى ، معترفاً بأنه مولى النعم كلها".
أي : دُم على التسيب ملتبساً بحمده ، أي : قل : سبحان الله وبحمده وعلى هذا فالبناء للملابسة

قوله: (بِحَمْدِ رَبِّكَ): حالٌ أي: وأنت حامدٌ له⁽²⁰¹⁾

واختلف الناس في قوله " (فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ) " فقال أبو الأحوص عوف بن مالك: هو التسيب المعروف ان يقول في كل قيام له سبحان الله وبحمده وقال ابن زيد: التسيب هنا هو صلاة النوافل وقال الضحاك وابن زيد: هذه إشارات إلى الصلاة المفروضة ف- "حين تقوم الظهر والعصر" أي حين تقوم من نوم "القائلة" , ومن الليل "المغرب والعشاء" , وإدبار النجوم " الصبح "

ومن قال: هي النوافل جعل إدبارهم النجوم " ركعتي الفجر " قلت: وعلى هذا القول جماعة كثيرة منهم عمر وعلي بن أبي طالب وأبو هريرة والحسن رضي الله عنهم وقد روي مرفوعاً ومن جعله التسيب المعروف جعل قوله " حين تقوم " مثلاً أي حين تقوم وحين تقعد وفي كل تصرفك

وقال أبو حيان : الظاهر أن قوله تعالى : (فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ) أمر بالتسيب مقروناً بالحمد وحينئذ إما أن يراد اللفظ أي قل سبحانه الله والحمد لله أو يراد المعنى أي نزهه سبحانه عن السوء وأثن عليه بالجميل⁽²⁰²⁾

(فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ) أي: صلِّ حمداً لله⁽²⁰³⁾

⁽²⁰¹⁾أضواء البيان: الشنقيطي، 321/2

⁽²⁰²⁾ بحر العلوم: 201/3

⁽²⁰³⁾ معالم التنزيل : محيي السنة ، أبو محمد الحسين بن مسعود البغوي [المتوفى 516هـ]: حققه وخرج أحاديثه محمد عبد الله النمر - عثمان جمعة ضميرية - سليمان مسلم الحرش دار طيبة للنشر والتوزيع الرابعة ، 1417هـ -

فإذا تقرر هذا المعنى فأهل العلم بالتفسير متباينون في تفسير هذا التسبيح المقرون بالحمد على مذاهب عديدة في بيان المقصود منها.

ومناط النزاع في ذلك - حسب ما اطلعت - عليه راجع إلى:

- أولاً: هل معنى التسبيح هنا هو التثنية أو هو الصلاة و الذكر
 - ثانياً: هل معنى الحمد هو الثناء أو التوفيق والإنعام أو الرضا أو الأمر
- ثالثاً: هل الباء الداخلة على لفظ الحمد للمصاحبة أو للاستعانة أو للسببية أو هي زائدة (204).

وبعد النظر في أقوال العلماء - إن شاء الله - في معنى (سبح بحمدك) يمكن حصرها في:

القول الأول: أن كلا من التسبيح و التحميد يراد به معناه الأصلي، و الباء

للمصاحبة بمعنى (مع)⁽²⁰⁵⁾. و عليه فالمراد بقوله: ﴿وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ﴾ الجمع بين التسبيح و التحميد لفظاً بقول: سبحان الله و بحمده، أو سبحان الله و الحمد لله⁽²⁰⁶⁾. و معنى بتثنيه الله تعالى عما لا يليق به من النقائص و التمثيل، و إثبات ما يليق به من المحامد و

1997م 364/7. و تفسير الإمامين الجليلين: العلامة جلال الدين محمد بن أحمد المحلي والعلامة جلال الدين عبد الرحمن بن أبي بكر السيوطي مذيلاً بكتاب لباب النقول في أسباب النزول قدم له وراجعته الأستاذ مروان سوار، دار المعرفة للطباعة والتوزيع بيروت. لبنان 82/4.

⁽²⁰⁴⁾ المقصود بالزيادة هنا ما اصطلاح عليه أهل العلم: بالصلة. والقول بالزيادة معلوم الخلاف فيه وليس هذا محل بيانه.

⁽²⁰⁵⁾ ينظر: نور المسرى، لأبي شامة المقدسي: ص 42، و الدرر المصون، للسمين الحلبي: 256، و مغني اللبيب، لابن هشام الأنصاري: ص 140، و تفسير سورة النصر، لابن رجب الحنبلي - ضمن مجموعة رسائل له، جمع عادل العزازي: ص 213.

⁽²⁰⁶⁾ ينظر: الوسيط في تفسير القرآن المجيد، للواحدي: 1/ 115، و تفسير البغوي: 6/ 91، و الحرر الوجيز، لابن عطية: 6/ 164، و الجامع لأحكام القرآن، للقرطبي: 1/ 277، و البحر المحيط، لأبي حيان: 6/ 268، و التسهيل، لابن الجزري: 2/ 29.

صفات الكمال⁽²⁰⁷⁾ و ربما جعل بعضهم التسبيح خاصا باعتقاد القلب، و التحميد خاصا بقول اللسان الموافق لاعتقاد القلب .⁽²⁰⁸⁾

القول الثاني: أن التسبيح يراد به معناه الأصلي، و التحميد يراد به التوفيق للخير و الإنعام، و الباء للسببية. فقله: (وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ) معناه: سبح بتوفيق ربك لك و إنعامه عليك، أي: بسبب ذلك⁽²⁰⁹⁾

و حقيقة هذا المعنى أن الحمد هو الشناء، و الشناء ناشئ عن التوفيق للخير و الإنعام على المثني ، فتزل الناشئ عن السبب منزلة السبب.⁽²¹⁰⁾ و لكن ليس في هذا المعنى ما يدل على الجمع بين التسبيح و التحميد لفظا و معنى ، و إنما يدل على أن العبد يأتي بالتسبيح لفظا و معنى من أجل توفيق الله له و إنعامه عليه.

القول الثالث: أن التسبيح يراد به معناه الأصلي ، و التحميد يراد به الرضا، و

ذلك كما قال نفطويه: و أما قوله: ﴿وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ﴾ البقرة فقولهم : (نُسَبِّحُ) أي : نترهك و نباعد عنك ما وصفت به من خلاف صفاتك. وقوله: (بِحَمْدِكَ) أي: برضاك و رضانا بذلك)) اهـ -⁽²¹¹⁾.

و هذا المعنى يفيد الجمع بين التسبيح-لفظا و معنى- و بين الرضا، و هو من أعمال القلوب؛ لأنه ضد السخط و الكراهة⁽²¹²⁾، و لهذا يكون تفسير الحمد بالرضا تفسيرا له بجزء مدلوله⁽²¹³⁾ ؛ لأن الحمد يتضمن الرضا و زيادة ، فحقيقة الحمد: الإخبار عن محاسن

⁽²⁰⁷⁾ ينظر: نور المسرى، لابن شامة: ص42 ، و البحر المحيط، لابن حبان : 268/6، و مغني اللبيب، لابن هشام الأنصاري : ص 140 ، و تفسير سورة النصر ، لابن رجب : ص213 .

⁽²⁰⁸⁾ ينظر : البحر المحيط ، لأبي حيان : 465/6 .

⁽²⁰⁹⁾ ينظر : التفسير الكبير ، للفخر الرازي : 32 / 161 ، و الدر المصون، للسمين الحلبي : 256/1، و البحر المحيط ، لأبي حيان : 1 / 291.

⁽²¹⁰⁾ ينظر البحر المحيط، لأبي حيان: 291/1 .

⁽²¹¹⁾ مسألة سبحان : ص 30 .

⁽²¹²⁾ ينظر مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية : 43/10 ، و القاموس المحيط للفيروز آبادي : مادة (رضي) : ص 1662.

⁽²¹³⁾ ينظر بدائع الفوائد ، لابن القيم الجوزية : 333/1 .

المحمود مع حبه و إجلاله و الرضا به ⁽²¹⁴⁾، فتضمن الشاء و المحبة و الإجلال و الرضا .

القول الرابع: أن التسبيح يراد به معناه الأصلي ، و التحميد يراد به الأمر. (وَسَبِّحْ

بِحَمْدِ رَبِّكَ) معناه: سبح بأمر ربك ⁽²¹⁵⁾. وقد أشار إليهما شيخ الإسلام ابن تيمية:

التوجيه الأول: أن قوله: (بِحَمْدِ رَبِّكَ) أي بكونه محمودا، يعني المحمود على التسبيح، حيث كان هو الذي أمر بذلك و شرعه، فإذا سَبَّحْنَا سَبَّحْنَا بِحَمْدِهِ ⁽²¹⁶⁾.

التوجيه الثاني: أن ((يكون القائل الذي قال : (وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ) أي: بأمره، أراد المأمور به، أي: سبحه بما أمرك أن تسبحه. فيكون المعنى: سبح التسبيح الذي أمرك به ⁽²¹⁷⁾

و على كلا الوجهين، لا يكون قوله: (وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ) دالا على الجمع بين التسبيح والتحميد في اللفظ و المعنى؛ لأنه -على التوجيه الأول- تكون الباء للسببية، بمعنى: سبح بسبب أن الله أمر بذلك و هو المحمود عليه.

وعلى التوجيه الثاني تكون الباء للاستعانة، بمعنى: سبح بما أمرك الله أن تسبحه به.

القول الخامس: أن التسبيح يراد به التثنية، و قوله: (بِحَمْدِ رَبِّكَ) الباء للاستعانة،

و الحمد مضاف إلى الفاعل، فمعنى (وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ): نزهه بما حمد به نفسه من الأسماء و الصفات ⁽²¹⁸⁾. و هذا التفسير قريب في المعنى مما قبله ، بحسب التوجيه الثاني له .

و الظاهر أن أصحاب هذا القول أرادوا التنبيه بهذا التفسير على أن تثنيه الله تعالى لا بد أن يكون منضبطا بما جاء به الكتاب و السنة من إثبات صفات الكمال لله تعالى مع نفى، والنقائص و التمثيل عنه ، فهذا هو التثنية المحمود ؛ لأنه تثنيه لله تعالى بما حمد به نفسه خلافا لمن نفى صفات الله تعالى أو نفى بعضها بدعوى التثنية ، فهذا تثنيه مذموم ، لمخالفته

⁽²¹⁴⁾ ينظر: المصدر السابق ، الموضع نفسه ، و الوابل الصيب ، للمؤلف نفسه ص:119.

⁽²¹⁵⁾ ينظر: زاد المسير ، لابن الجوزي: 202/7 .

⁽²¹⁶⁾ ينظر: قاعدة حسنة في الباقيات الصالحات ، لشيخ الإسلام ابن تيمية : ص 50 _ 51 .

⁽²¹⁷⁾ المصدر نفسه: ص51 .

⁽²¹⁸⁾ ينظر: نور المسرى، لأبي شامة: ص 42، و مغني اللبيب، لابن هشام: ص 140، و تفسير سورة النصر، لابن

الكتاب و السنة (219) .

القول السادس: أن التسبيح يراد به الصلاة، والتحميد يراد به الثناء، و الباء للاستعانة، فقلوه : (وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ) معناه: صل بثنائك على ربك (220).
و قد تقدم -عند بيان معاني التسبيح في الشرع- أن التسبيح جاء بمعنى الصلاة في مواضع كثيرة من الكتاب، مع بيان مناسبة ذلك.

و لا ريب أن الثناء على الله تعالى بالحمد له ركن في الصلاة، فأما لا تتم إلا بالفاتحة التي نصفها الأول حمد الله و ثناء عليه و تمجيد له، وقد شرع قبل ذلك الاستفتاح، وشرع التسبيح في الركوع و السجود، وشرع في الصلاة غير ذلك من أنواع الثناء على الله تعالى (221).

فالمصلي إذا حمد ربه في القيام، و سبح في الركوع و السجود، فقد جمع بين التسبيح و التحميد، فسبح بحمد ربه ، فالصلاة الشرعية تسبيح بحمد الله تعالى (222).
القول السابع: أن التسبيح يراد به الصلاة، و التحميد يراد به الأمر. فقلوه:
(وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ) : معناه : صل بأمر ربك (223).

و في هذا التفسير أيضا التوجيهان المذكوران في القول الرابع مما سبق، فإما أن يكون المراد صل بأمر ربك، أي: بكونه المحمود على ذلك، حيث كان هو الذي شرع الصلاة و أمر بها.

و إما أن يكون المراد: صل بأمر ربك، أي: صل الصلاة المأمور بها التي أمرك بها ربك (224) و قد علم أن الصلاة المأمور بها في الشرع تتضمن الجمع بين التسبيح و التحميد،

(219) ينظر : المصادر السابقة ، المواضع نفسها ، و مسألة سبحان ، لنفظويه : ص 42 _ 43 .

(220) ينظر : تفسير الطبري : 476/8 و زاد المسير ، لابن الجوزي : 23/8. و قاعدة حسنة في الباقيات الصالحات

، لشيخ الإسلام ابن تيمية : ص 49 .

(221) ينظر : قاعدة حسنة في الباقيات الصالحات : ص 50 .

(222) ينظر : المصدر السابق : ص 56 .

(223) ينظر : تفسير البغوي : 397/4 ، و قاعدة حسنة في الباقيات الصالحات : ص 50_51 .

(224) ينظر : قاعدة حسنة في الباقيات الصالحات : ص 50_51 .

و غير ذلك من الثناء على الله تعالى.

القول الثامن : أن التسبيح يراد به الذكر ، و التحميد يراد به الثناء ، و الباء

للاستعانة . فقلوه : (وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ) معناه : اذكر ربك بالتحميد و الشكر، أي: ليكن ذكرك بالحمد و الشكر لربك (225) .

و هذا المعنى لا يدل ضرورة على الجمع بين التسبيح و التحميد بل يدل على أن يكون ذكر الله بالتحميد و الشكر له .

و تفسير التسبيح بجنس ذكر الله تعالى سبق بيانه في معاني التسبيح (226).

القول التاسع : أن التسبيح يراد به الحمد نفسه، و التحميد يراد به الثناء، و الباء

للاستعانة. فقلوه: (وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ) معناه: احمده ، أي سبحه بواسطة أن تحمده. و ذلك أن الحمد يقوم مقام التسبيح، لما تضمنه الحمد من معنى التسبيح، فإن الحمد معناه الثناء على الله والشكر له، وهذا تزيه له واعتراف بأنه أهل لأن يتره و يعظم و يثنى عليه لأنه لا يكون مستحقا للثناء إلا إذا كان مترها عن النقص، فحمد الحامد لله تسبيح له (227).

وبناء على هذا التفسير لا تكون الآيات الواردة في الباب دالة على الجمع بين التسبيح و التحميد في اللفظ و المعنى، و هذا فيه نظر، و كون الحمد يتضمن معنى التسبيح لا يقتضي أن يقوم مقامه، لاسيما عند الاقتران، فقد تقدمت الإشارة إلى أن كلا من التسبيح و التحميد يستلزم معنى الآخر إذا أفردا، و عند الاقتران يعطى كل خاصيته، فلا سبيل إلى تفسير التسبيح بالحمد نفسه في هذه الآيات.

القول العاشر : أن التسبيح يراد به التزيه و التطهير ، و التحميد يراد به الثناء، و

الباء صلة زائدة ؛ لأن العرب تدخل الباء أحيانا في التسبيح - و تحذفها أحيانا ، فتقول :

(225) ينظر : معاني القرآن ، للأخفش : 219/1 و 745/2 ، و تفسير القرآن ، لأبي المظفر السمعاني : 297/6 .

(226) ينظر : ما مضى من البحث

(227) ينظر : الوسيط في تفسير القرآن المجيد للواحدي : 115/1 ، و الدعاء المأثور و آدابه ، للطرطوشي : ص164

، و التفسير الكبير ، للرازي : 160/32 ، و نور المسرى لأبي شامة : ص46 ، و فتح الباري ، لحافظ ابن حجر العسقلاني : 299/2 .

سبح بحمد ربك، و سبح حمد ربك، كما قال الله تعالى: ﴿فَسَبِّحْ بِأَسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ﴾ (٧٤)

[الواقعة: 74 و96، والحاقة: 52]، و قال في موضع آخر: ﴿سَبِّحْ أَسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى﴾ (١) ﴿الأعلى

فقوله (وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ) تقديره: سبح حمد ربك (228).

و في المراد بذلك احتمالات :

الأول : أن معناه اختر لربك أظهر المحامد و أزكاها .

الثاني : طهر محامد ربك عن الرياء و السمعة ، و عن التوسل بذكرها إلى الأغراض

الدنيوية.

الثالث : طهر محامد ربك عن أن تقول جئت بها كما يليق به (229).

و هذا التفسير بجميع ما فيه من الاحتمالات قائم على أن الفعل (سَبِّحْ) مسلط على

لفظ (حمد ربك)، بمعنى: طهر حمد ربك ، ثم لهذا التطهير الاحتمالات المذكورة، و ليس

فيها ما يدل على الجمع بين التسبيح و التحميد لفظا و معنى .

تلك عشرة كاملة معظمها صحيح في نفسها، و لكن الشأن هنا في بيان ما جاء به

الكتاب من القرن بين التسبيح و التحميد لفظا و معنى، قولاً و اعتقاداً. و أوضح هذه

الأقوال دلالة على ذلك هو القول الأول .

و قد دلت السنة على أن المراد بقوله تعالى: (وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ) الجمع بين التسبيح و

التحميد لفظا و معنى، و قولاً و اعتقاداً، كما في حديث عائشة رضي الله عنها قالت: (كان

النبي ﷺ يكثر أن يقول في ركوعه و سجوده: (سبحانك اللهم ربنا و بحمدك اللهم اغفر

لي) ، يتأول القرآن (230).

فنقول: "التسبيح والتحميد" يجمع النفي والإثبات؛ نفي المعايب وإثبات المحامد،

وذلك يتضمن التعظيم. ولهذا قال: (سَبِّحْ أَسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى) . وقال: (فَسَبِّحْ بِأَسْمِ رَبِّكَ

(228) ينظر: تفسير الطبري : 35/11، و الدعاء المأثور و آدابه، للطرطوشي :ص164 ، و التفسير الكبير ، للرازي:

. 161/32

(229) ينظر : التفسير الكبير : 161/32 .

(230) أخرجه البخاري في صحيحه _ مع الفتح _ 299/2 ، برقم (817) ، و مسلم في صحيحه : 1 / 350 ،

برقم (484) .

الْعَظِيمِ).

وقد قال ﷺ: "اجعلوا هذه في ركوعكم، وهذه في سجودكم" (231). وقال: "أما الركوع فعظموا فيه الرب" (232). فـ "التسبيح" يتضمن: التزويه المستلزم للتعظيم. و"الحمد" يتضمن: إثبات المحامد المتضمن لنفي نقائصها.

فقولها: (يتأول القرآن) يفعل ما أمره الله به في القرآن، تعني قوله تعالى: ﴿ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْ لَهُ إِنَّهُ كَانَ تَوَّابًا ﴾ (النصر) (233).

ثم إن هذه الأقوال لا يظهر فيها - عند التأمل - اختلاف حقيقي في المعنى، وإن كان القول الأول - في الجملة - أحسن بيانا للمعنى المقصود بالواو في هذه الصيغة من التسبيح و به تكون صيغة (سبحان الله و بحمده) مثل صيغة (سبحان الله و الحمد لله).

و على كل ، فإن صيغة التسبيح المقرون بالتحميد من أكمل صيغ الثناء على الله تعالى، و أدلها على استغراق الثناء عليه سبحانه بكل كمال ؛ لأن التسبيح دال على تزيهه عن كل ما لا يليق به من النقائص و العيوب و الأمثال و الشركاء، و التحميد دال على إثبات ما يليق به المحامد و الفضائل و صفات الكمال ، فإذا سبح العبد بحمده، جمع له بين هذا و هذا (234)

فنفي (سبحان الله) كل نقص عن الله تعالى؛ لأن ترك التقييد فيه مشعر بالتعميم، و أثبت (حمده) كل وصف كمال و جلال ثابت لله ﷻ ؛ لأنه مضاف إلى معرفة، فتعم جميع المحامد (235).

(231) أبو داود (869) وابن ماجه (887) وأحمد 155/4 والدارمي (1305) وصححه الحاكم 347/1، 348 ، 520/2 وابن خزيمة (600)، من حديث عقبة بن عامر رضي الله عنه.

(232) مسلم (479) (279) من حديث ابن عباس رضي الله عنهما

(233) ينظر : شرح صحيح مسلم ، للنووي : 201/4 .

(234) ينظر : منهاج السنة ، لشيخ الإسلام ابن تيمية : 104/5 _ 105 ، و أضواء البيان ، للشيخ محمد الأمين الشنقيطي: 111/2 .

(235) ينظر : ملحة الاعتقاد ، لعز الدين بن عبد السلام ، تحقيق حسن السامحي : ص 35 _ 36 ، و فتح الباري ، لابن حجر العسقلاني : 541/13 ، و أضواء البيان : 111/2 .

فكان في قوله: (سبحان الله و بحمده)، إثبات تزيهه و تعظيمه و تحميده و إلهيته

(236)

• قرن التسبيح بالتهليل والعلو

وقد جاء ذلك في تسعة مواضع من كتاب الله وهي:

1. ﴿ وَجَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ الْجِنَّ وَخَلَقَهُمْ وَخَرَقُوا لَهُ بَنِينَ وَبَنَاتٍ بِغَيْرِ عِلْمٍ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُصِفُونَ ﴾ (١٠٠) الأنعام
2. ﴿ اتَّخَذُوا أَحْبَابَهُمْ وَرُهَيْبَتَهُمْ أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ وَالْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا إِلَهًا وَاحِدًا إِلَّا إِلَهُهُ سُبْحَانَهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾ (٣١) التوبة
3. ﴿ وَجَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ الْجِنَّ وَخَلَقَهُمْ وَخَرَقُوا لَهُ بَنِينَ وَبَنَاتٍ بِغَيْرِ عِلْمٍ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُصِفُونَ ﴾ (١٠٠) الأنعام
4. ﴿ أَنْتَ أَمْرُ اللَّهِ فَلَا تَسْتَعْجِلْهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾ (١) النحل
5. ﴿ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يَقُولُونَ عُلُوًّا كَبِيرًا ﴾ (٤٣) الإسراء
6. ﴿ وَذَا النُّونِ إِذْ ذَهَبَ مُغْضِبًا فَظَنَّ أَنْ لَنْ نَقْدِرَ عَلَيْهِ فَنَادَى فِي الظُّلُمَاتِ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ ﴾ (٨٧) الأنبياء
7. ﴿ وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَيَخْتَارُ مَا كَانَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ سُبْحَانَ اللَّهِ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾ (٦٨) القصص
8. ﴿ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَكُمْ ثُمَّ رَزَقَكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ هَلْ مِنْ شُرَكَائِكُمْ مَنْ يَفْعَلُ مِنْ ذَلِكَ مِثْلَ شَيْءٍ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾ (٤٠) الروم

9. ﴿ وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ وَالْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَمَةِ وَالسَّمَاوَاتُ

مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ ۗ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٦٧﴾ الزمر

أهل العلم بالتفسير مجمعون على معنى التسييح في الآية وهو التنزيه⁽²³⁷⁾ فقرن تعاليه عن ذلك بالتسييح. وقال تعالى: ﴿ مَا أَخَذَ اللَّهُ مِنْ وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنْ إِلَهٍ إِذًا لَذَهَبَ كُلُّ إِلَهٍ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَّ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُصِفُونَ ﴿١١﴾ عَلِيمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَتَعَلَّىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿١٢﴾ المؤمنون، وفي دعاء الاستفتاح : (سبحانك اللهم وبحمدك، وتبارك اسمك، وتعالى جدك). وفي الصحيحين⁽²³⁸⁾ أنه كان يقول في آخر استفتاحه: (تباركت وتعاليت، أستغفرك وأتوب إليك).

فقد بين - سبحانه - أنه تعالى عما يقول المبطلون وعما يشركون . فهو متعال عن الشركاء والأولاد، كما أنه مسيح عن ذلك .
وتعالیه-سبحانه- عن الشريك هو تعاليه عن السمي، والند، والمثل فلا يكون شيء مثله.⁽²³⁹⁾

قال الإمام الطبري: (سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ) يقول: تنزيها وتطهيرا لله عما يشرك في طاعته وربوبيته القائلون عزيز ابن الله، والقائلون المسيح ابن الله، المتخذون أحبارهم أربابا من دون الله⁽²⁴⁰⁾.

وما أمروا إلا ليعبدوا إلهها واحدا لا إله إلا هو سبحانه عما يشركون فتره نفسه عن شركهم وذلك أن أصل دينهم ليس فيه شرك فإن الله إنما بعث رسله بالتوحيد والنهي عن الشرك كما قال تعالى وأسأل من أرسلنا من قبلك من رسلنا أجعلنا من دون الرحمن آلهة

⁽²³⁷⁾ تفسير القرآن العزيز: أبي عبد الله محمد بن عبد الله بن أبي زمنين، تحقيق: أبو عبد الله حسين بن عكاشة -

محمد بن مصطفى الكثر الناشر الفاروق الحديثة 1423هـ - 2002م. مصر/ القاهرة 1/246

⁽²³⁸⁾ رواه البخاري ومسلم

⁽²³⁹⁾ تفسير ابن تيمية: 70/5

⁽²⁴⁰⁾ جامع البيان: الطبري 4/189

يعبدون(241).

و لصيغة التسبيح المقرون بالتهليل دلالة عظيمة في مقام الثناء على الله تعالى و توحيده، فإن التهليل صريح في نفي الإلهية عن كل ما سوى الله عز وجل، و إثباتها له وحده لا شريك له، فلا إله إلا الله، أي: لا معبود بحق إلا الله. و التسبيح صريح في تزيه الله تعالى عن النقائص و الأمثال.

فمنطوق التهليل توحيد، و مفهومه تزيه، لأن الإلهية الحققة تقتضي انتفاء النقائص و الأمثال.

و منطوق التسبيح تزيه، و مفهومه توحيد، لأن تزيهه عن النقائص و الأمثال يقتضي اختصاصه بالإلهية، و أن لا يستحق العبادة أحد سواه سبحانه.

فإذا قرن التسبيح بالتهليل كان التسبيح تقريراً لمعنى التهليل، و تحقيقاً لتزيه الله تعالى و توحيده.

و إذا قرن بين التسبيح و التحميد و التكبير، نشأت من اقتران الثلاثة دلالة أخرى، لأن التسبيح يتضمن نفي النقائص و العيوب، و التحميد يتضمن إثبات صفات الكمال التي يحمد عليها، و التكبير تفصيل لما تضمنه التسبيح و التحميد من النفي و الإثبات، فإن كل ذلك إما أن يكون مختصاً به، أو ليس كمثله شيء فيه(242).

و قد أوضح شيخ الإسلام ابن تيمية أن هذه الكلمات شطران: فالتحميد مقرون بالتسبيح و تابع له، و التكبير مقرون بالتهليل و تابع له(243)، ثم غن كلا من الكلمتين يتضمن معنى الكلمتين الأخرين إذا أفردتا، و عند الاقتران تعطى كل كلمة خاصيتها(244).

كما أن هذه الكلمات الأربع تتضمن معاني أسماء الله الحسنى و صفاته العليا، ففيها

(241) دقائق التفسير الجامع لتفسير ابن تيمية (مختارات): أحمد بن عبد الحلیم بن تيمية الحراني أبو العباس، تحقيق

: د. محمد السيد الجليند، مؤسسة علوم القرآن - دمشق، الطبعة الثانية، 1404

(242) ينظر: قاعدة حسنة في الباقيات الصالحات: ص 26، 31.

(243) ينظر: مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية: 10/251 و 24/232، 231، و قاعدة حسنة الباقيات

الصالحات، له: ص 18.

(244) ينظر: مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية: 10/252، 253، 254.

كمال المدح و تمام الثناء على الله تعالى (245).

و جاء في كلام للعلامة العز بن عبد السلام (246) بيان اندراج أسماء الله تعالى في هذه الكلمات الأربع، حيث بين أن: ما كان من أسماء الله تعالى سلبا، فهو مندرج تحت كلمة (سبحان الله)، كالقدوس، و السلام. و ما كان من أسمائه إثباتا، فهو مندرج تحت كلمة (الحمد لله)، كالعليم، والسميع، البصير. و ما كان من أسمائه مدحا فوق ما يعرفه البشر و يدركونه، فهو مندرج تحت كلمة (الله أكبر)، كالأعلى، و المتعالي. و ما كان من أسمائه جامعا لجميع هذه المعاني.

• قرن التسبيح بأسماء الله و صفاته

وقد ورد ذلك في مواضع كثيرة في القرآن الكريم:

1. ﴿ دَعَوْتُهُمْ فِيهَا سُبْحَانَكَ اللَّهُمَّ وَتَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَامٌ ۗ وَعَآخِرُ دَعْوَتِهِمْ أَنِ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ

الْعَالَمِينَ ﴿١٠﴾ ﴿يونس: ١٠﴾

2. ﴿ قَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا سُبْحَانَ اللَّهِ هُوَ الْعَزِيزُ لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ إِنَّ

عِنْدَكُمْ مِّنْ سُلْطَانٍ بِهَذَا أَتَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٦٨﴾ ﴿يونس

3. ﴿ أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِّن زُرْحٍ أَوْ تَرْقَى فِي السَّمَاءِ وَلَنْ نُؤْمِنَ لِرُفْيَاكَ حَتَّىٰ تَنْزِلَ عَلَيْنَا كِتَابًا

تَقْرَأُهُ قُلْ سُبْحَانَ رَبِّي هَلْ كُنْتُ إِلَّا بَشَرًا رَسُولًا ﴿١١٣﴾ ﴿الإسراء

4. ﴿ وَيَقُولُونَ سُبْحَانَ رَبِّنَا إِنْ كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولًا ﴿١٠٨﴾ ﴿الإسراء

5. ﴿ لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا فَسُبْحَانَ اللَّهِ رَبِّ الْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿٢٢﴾ ﴿الأنبياء

6. ﴿ فَلَمَّا جَاءَهَا نُودِيَ أَنْ بُورِكَ مَن فِي النَّارِ وَمَنْ حَوْلَهَا وَسُبْحَانَ اللَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٨﴾ ﴿النمل

7. ﴿ سُبْحَانَ الَّذِي خَلَقَ الْأَزْوَاجَ كُلَّهَا مِمَّا تُنْبِتُ الْأَرْضُ وَمِنَ أَنْفُسِهِمْ وَمِمَّا لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٦﴾

﴿يس

(245) ينظر: المصدر السابق: 254/10.

(246) هو عبد العزيز بن عبد السلام بن القاسم بن حسن السلمي، عز الدين، أبو محمد الدمشقي، الشافعي، الملقب بسطان

العلماء، كان عالما بارعا، وفقهيا ناسكا، أمارا بالمعروف نهاء عن المنكر، درس و أفق و صنف، و من مصنفاته: قواعد

الأحكام في مصالح الأنام، و توفي سنة (660هـ)، رحمه الله

8. ﴿سُبْحٰنَ الَّذِي بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٨٣﴾﴾ يس
9. ﴿سُبْحٰنَ رَبِّكَ رَبِّ الْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿١٨٠﴾﴾ الصافات
10. ﴿لَوْ اَرَادَ اللهُ اَنْ يَتَّخِذَ وَلَدًا لَاصْطَفٰنِ مِمَّا يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ سُبْحٰنَهُ هُوَ اللهُ الْوَاحِدُ الْفَهَّارُ ﴿٤﴾﴾ الزمر
11. ﴿لِتَسْتَوُوا عَلٰى ظُهُورِهِ ثُمَّ تَذْكُرُوا نِعْمَةَ رَبِّكُمْ اِذَا اُسْتَوَيْتُمْ عَلَيْهِ وَتَقُولُوا سُبْحٰنَ الَّذِي سَخَّرَ لَنَا هٰذَا وَمَا كُنَّا لَهُ مُقْرِنِينَ ﴿١٣﴾﴾ الزخرف:
12. ﴿سُبْحٰنَ رَبِّ السَّمٰوٰتِ وَالْاَرْضِ رَبِّ الْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿٨٢﴾﴾ الزخرف
13. ﴿فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيْمِ ﴿٧٤﴾﴾ الواقعة
14. ﴿فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيْمِ ﴿١٦﴾﴾ الواقعة
15. ﴿سَبِّحْ لِلّٰهِ مَا فِي السَّمٰوٰتِ وَالْاَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيْزُ الْحَكِيْمُ ﴿١﴾﴾ الحديد
16. ﴿سَبِّحْ لِلّٰهِ مَا فِي السَّمٰوٰتِ وَمَا فِي الْاَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيْزُ الْحَكِيْمُ ﴿١﴾﴾ الحشر
17. ﴿هُوَ اللهُ الَّذِي لَا اِلٰهَ اِلَّا هُوَ الْمَلِكُ الْقُدُّوسُ السَّلَامُ الْمُؤْمِنُ الْمُهَيِّبُ الْعَزِيْزُ الْجَبَّارُ الْمُتَكَبِّرُ سُبْحٰنَ اللهِ عَمَّا يُشْرِكُوْنَ ﴿٢٣﴾﴾ الحشر
18. ﴿هُوَ اللهُ الْخَلِيْقُ الْبَارِئُ الْمُصَوِّرُ لَهُ الْاَسْمَاءُ الْحُسْنٰى يُسَبِّحُ لَهُ مَا فِي السَّمٰوٰتِ وَالْاَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيْزُ الْحَكِيْمُ ﴿٢٤﴾﴾ الحشر: ٢٤
19. ﴿سَبِّحْ لِلّٰهِ مَا فِي السَّمٰوٰتِ وَمَا فِي الْاَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيْزُ الْحَكِيْمُ ﴿١﴾﴾ الصف
20. ﴿يُسَبِّحُ لِلّٰهِ مَا فِي السَّمٰوٰتِ وَمَا فِي الْاَرْضِ الْمَلِكُ الْقُدُّوسُ الْعَزِيْزُ الْحَكِيْمُ ﴿١﴾﴾ الجمعة
21. ﴿يُسَبِّحُ لِلّٰهِ مَا فِي السَّمٰوٰتِ وَمَا فِي الْاَرْضِ لَهُ الْمَلِكُ وَلَهُ الْحَمْدُ وَهُوَ عَلٰى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيْرٌ ﴿١﴾﴾ التغابن
22. ﴿فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيْمِ ﴿٥٢﴾﴾ الحاقة
23. ﴿سَبِّحْ اَسْمَ رَبِّكَ الْاَعْلٰى ﴿١﴾﴾ الأعلى
24. ﴿فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْهُ اِنَّهٗ كَانَ تَوَّابًا ﴿٢﴾﴾ النصر

و لهذه المسألة أيضا أهمية خاصة؛ لأن لفظ التسبيح (سُبْحَانَ) لازمة الإضافة في الكلام، كما سبق بيانه عند بحث استعمالاته في اللغة⁽²⁴⁷⁾، و الغالب أن تضاف إلى لفظ الجلالة، (سُبْحَانَ، أو إلى لفظ (رَبِّي)، مثل: (سُبْحَانَ رَبِّي)، أو إلى ضمير عائد إلى الله تعالى، مثل (سُبْحَانَكَ) و (سُبْحَانَكَ).

فالتسبيح حيث وقع في الكتاب فهو مضاف إلى اسم من أسماء الله تعالى أو ضمير عائد إليه سبحانه، و كثيرا ما يأتي التسبيح، مع الاسم أو الضمير المضاف إليه، مقرونا باسم آخر أو أكثر من أسماء الله تعالى الحسنى، أو مقرونا بصفة فأكثر من صفاته العليا.

و قد جاء في كتاب الله تعالى الأمر بالتسبيح باسم الله، كما قال تعالى: ﴿فَسَبِّحْ بِأَسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ﴾ [الواقعة: 74 و 96، والحاقة: 52]، و الأمر بتسبيح اسمه كما قال تعالى:

﴿سَبِّحْ أَسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى﴾ [الأعلى ١] و في هذه الآيات دليل على قرن التسبيح بأسماء الله تعالى و صفاته، غير أن العلماء مختلفون في تفسير هذه الآيات، بناء على اختلافهم في الباء من قوله:

﴿فَسَبِّحْ بِأَسْمِ رَبِّكَ﴾ هل هي أصلية أو صلة؟ حيث ذهب فريق من العلماء إلى أن الباء صلة زائدة⁽²⁴⁸⁾، و أنها داخلة على المفعول، كالباء في قوله: ﴿وَهَزَىٰ إِلَيْكَ بِجُنْعِ النَّخْلَةِ﴾ [مریم، أي: وهزى إليك جذع النخلة⁽²⁴⁹⁾].

وذهب فريق آخر من العلماء إلى أن الباء أصلية و ليست زائدة، و أنها للملابسة⁽²⁵⁰⁾،

(247) ينظر: المدخل ص 20

(248) ينظر: تفسير البغوي: 27/8، و الدعاء المأثور و آدابه، للطرطوشي: ص 164، و الجامع لأحكام القرآن، 234/17، و

أضواء البيان، للشيخ محمد الأمين الشنقيطي: 249/5.

(249) ينظر: أضواء البيان، للشيخ محمد الأمين الشنقيطي: 249/5.

(250) ينظر: الدر المصون، للسمين الحلبي: 233/10، و روح المعاني، للآلوسي: 151/14، و فتح القدير، للشوكاني:

أو المصاحبة⁽²⁵¹⁾، أو أنها للاستعانة⁽²⁵²⁾.

و قال بعضهم أنها للتعدية؛ لأن الفعل (سبح) يتعدى بنفسه تارة، كقوله: ﴿سَبِّحْ أَسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى﴾. و يتعدى بحرف الجر (الباء) تارة، كقوله: ﴿فَسَبِّحْ بِأَسْمِ رَبِّكَ﴾. كما اختلف العلماء أيضا في لفظ (اسم) في هذه الآيات: هل هو صلة لا معنى له، أو بمعنى المسمى، أو بمعنى التسمية، أو يراد به الاسم الذي هو اللفظ الدال على المسمى؟. و إذا كان بمعنى اللفظ الدال على المسمى، فهل هو للجنس، أو هو واحد مقصود؟.

و قد نتج عن هذه الاختلافات- في قوله تعالى: ﴿فَسَبِّحْ بِأَسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ﴾^(vi) الواقعة: 74 و 96، و الحاقة: 52، و قوله تعالى: ﴿سَبِّحْ أَسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى﴾^(vii) سبعة أقوال⁽²⁵³⁾:

القول الأول: أن الاسم صلة⁽²⁵⁴⁾، بمعنى أنه زائد لا معنى له⁽²⁵⁵⁾، أو ذكر لتعظيم المسمى⁽²⁵⁶⁾؛ لأن التعظيم إذا وجب للمعظم، فقد تقدم ما هو متعلق به، كما يقال: سلام على الحضرة العالية، و المجلس الكريم، و نحو ذلك من العبارات⁽²⁵⁷⁾.

فمعنى قوله: ﴿فَسَبِّحْ بِأَسْمِ رَبِّكَ﴾، وقوله: ﴿سَبِّحْ أَسْمَ رَبِّكَ﴾: سبح ربك، أي نزهه عما لا يليق به⁽²⁵⁸⁾.

و يترتب على هذا القول أن الباء و الاسم كليهما زائد، و لا معنى لهما.

(251) ينظر: تفسير التحرير و التنوير، لابن عاشور: 151/29.

(252) ينظر: روح المعاني: للآلوسي: 151/14.

(253) هذا العدد بحسب ما اطلعت عليه من الأقوال في تفسير هذه الآيات.

(254) ينظر: النكت و العيون، للماوردي: 251/6، و تفسير البغوي: 399/8، و الدعاء المأثور و آدابه، للطرطوشي: ص 164، و الجامع لأحكام القرآن، للقرطبي: 13/20، و تفسير البيضاوي: 6/1، و مجموع فتاوى شيخ

الإسلام ابن تيمية: 199/6، و التسهيل لعلوم التنزيل، لابن جزي: 562/2.

(255) ينظر: تفسير الطبري: 543/12، و مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية: 199/6.

(256) ينظر: النكت و العيون، للماوردي: 251/6، و الجامع لأحكام القرآن، للقرطبي: 20/روح المعاني: للآلوسي: 130/15.

(257) ينظر: بدائع الفوائد، لابن قيم الجوزية: 21/1.

(258) ينظر: تفسير القرطبي: 513/12، و تفسير البغوي: 399/8، و التسهيل لعلوم التنزيل، لابن جزي: 562/2.

و لا شك أن القول بزيادة الباء أهون من القول بزيادة لفظ (اسم)؛ لأن زيادة باء الجر معهودة في كلام العرب، لقصد التوكيد، و لذلك شواهد في كتاب الله تعالى⁽²⁵⁹⁾.

و أما زيادة الاسم فتفتقر إلى دليل، و الأصل عدم الزيادة، و ما استدل به بعضهم - على زيادة لفظ (اسم) في الكلام - من قول الشاعر:

" إلى الحول ثم اسم السلام عليكما ومن يبك حولا كاملا فقد اعتذر "⁽²⁶⁰⁾

لا يسلم لهم هذا الاستدلال؛ لأن للعلماء في لفظ الاسم في هذا البيت توجيهات عديدة، و كلها منافية للقول بزيادته، و لا مجال هنا لذكر هذه التوجيهات⁽²⁶¹⁾.

القول الثاني: أن الاسم بمعنى المسمى، أي: الذات⁽²⁶²⁾، فقوله: ﴿فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ﴾،

وقوله: ﴿سَبِّحْ اسْمَ رَبِّكَ﴾ بمعنى: سبح ربك⁽²⁶³⁾؛ لأن أحدا لا يقول: سبحان اسم الله، أو سبحان اسم ربنا، وإنما يقول: سبحان الله، و سبحان ربنا. فالمسبح هو المسمى، وهو الله، و ذلك دليل على أن الاسم هو المسمى، و لا فرق بينهما⁽²⁶⁴⁾.

و هذا القول فيه نظر، للأمر الآتية:

1. أن مجيء الاسم بمعنى المسمى لا يعرف له شاهد صحيح، لا من كلام فصيح و لا غير ذلك⁽²⁶⁵⁾، بل الاسم هو اللفظ الموضوع على الشيء للتمييز⁽²⁶⁶⁾، و لهذا يقال: الاسم دليل

⁽²⁵⁹⁾ ينظر: مغني اللبيب، لابن هشام الأنصاري: ص 144-150، و الاتقان في علوم القرآن، للسيوطي: 1/504-505.

⁽²⁶⁰⁾ البيت من شعر ليبيد بن ربيعة العامري، و هو في دوانه: ص 79-80، و ينظر النكت و العيون، للماوردي: 6/251، و الجامع لأحكام القرآن، للقرطبي: 13/20، و تفسير البيضاوي: 1/6، و

فتح الباري، لابن حجر العسقلاني: 11/114.

⁽²⁶¹⁾ ينظر هذه التوجيهات في: تفسير الطبري: 1/80-82، و مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية: 6/202، و بدائع

الفوائد، لابن القيم الجوزية: 1/23-24.

⁽²⁶²⁾ ينظر: الدعاء المأثور و آدابه، للطرطوشي: ص 164، و الجامع لأحكام القرآن، للقرطبي: 17/234 و 14/20، و فتح

القدر، للشوكاني: 5/231.

⁽²⁶³⁾ ينظر: تفسير البغوي: 8/399، و المحرر الوجيز، لابن عطية: 16/280، و التسهيل لعلوم التنزيل، لابن

جزري: 2/562.

⁽²⁶⁴⁾ ينظر: تفسير البغوي: 8/399، و تفسير القرآن، لابي المظفر السمعاني: 6/206، 43، و الجامع لأحكام

القرآن، للقرطبي: 14/20، و مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية: 6/190.

⁽²⁶⁵⁾ ينظر: مجموع فتوى شيخ الإسلام ابن تيمية: 6/196.

- على المسمى، و علم على المسمى، و نحو ذلك⁽²⁶⁷⁾. و يقال: ما اسم هذا؟ فيقال: زيد - مثلاً-، فيجاب باللفظ، و لا يقال: ما اسم هذا؟ فيقال: هو هو⁽²⁶⁸⁾.
2. أن لفظ(اسم)- في الآيات المذكورة - لو كان بمعنى المسمى، لكان يكفي قوله: (فسبح بربك العظيم) و(سبح ربك الأعلى)، فإن نفس الاسم عندهم هو نفس الرب، فكان هذا تكريراً من دون فائدة تذكر⁽²⁶⁹⁾.
3. أن الذي يقول: سبحان الله، و سبحان ربنا، إنما نطق بالاسم الذي هو لفظ(الله) و لفظ(ربنا)، فتسبيحه وقع على الاسم، لكن مراده هو المسمى بهذا الاسم. فهذا يبين أن المسيح ينطق باسم المسمى، و يريد به تسبيح المسمى، لا يريد به تسبيح مجرد الاسم.
- و هذا لا ريب فيه، لكن هذا لا يدل على أن لفظ(اسم) يراد به المسمى، بل يدل على أسماء الله تعالى مثل: الله، ربنا، ربي، الأعلى، و نحو ذلك- يراد بها المسمى، مع أنها في نفسها ليست هي المسمى، لكن يراد بها المسمى⁽²⁷⁰⁾.
- و تبين - بهذا - أن هؤلاء القائلين: الاسم هو المسمى، إنما يسلم لهم أن أسماء الأشياء إذا ذكرت في الكلام، أريد بها مسمياتها، و هذا لا ينافي فيه أحد من العقلاء، لا أن لفظ(اسم) هو الذات⁽²⁷¹⁾.
- "و هذا هو الذي أراده من قال من أهل السنة: إن الاسم هو المسمى⁽²⁷²⁾، فإذا قال المصلي: الله أكبر، فقد ذكر اسم ربه و مراده المسمى.
- لم يريد به أن نفس اللفظ هو الذات الموجودة في الخارج فإن فساد هذا لا يخفى على من تصوره و لو كان ذلك كذلك كان من قال: نارا احترق لسانه و بسط هذا له موضع

⁽²⁶⁶⁾ ينظر: القاموس المحيط، للفيروز آبادي: مادة(سمو): ص1672.

⁽²⁶⁷⁾ ينظر: مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية: 209/6.

⁽²⁶⁸⁾ ينظر: المصدر السابق: 192/5.

⁽²⁶⁹⁾ ينظر: المصدر السابق: 193/5.

⁽²⁷⁰⁾ ينظر المصدر نفسه: 192/6, 196-200, 197-201 و 323/16.

⁽²⁷¹⁾ ينظر المصدر نفسه: 202/6.

⁽²⁷²⁾ قال به بعض العلماء من أهل السنة بعد الأئمة، منهم: أبو القاسم الطبري، و أبو القاسم اللالكائي، و أبو محمد البغوي، و غيرهم، و ينظر مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية: 187/6-188.

القول الثالث: أن الاسم بمعنى التسمية، فقوله: ﴿فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ﴾، وقوله: ﴿سَبِّحْ

أَسْمَ رَبِّكَ﴾ بمعنى: سبح تسمية ربك أي: نزهه تسميتك ربك و ذكرك إياه أن تذكره إلا و أنت له حاشع معظم و لذكره محترم⁽²⁷⁴⁾ و المراد بالتسمية اللفظ الذي هو نفس الاسم كلفظ الجلالة الله و الرحمن و الرحيم و غيرها من أسماء الله⁽²⁷⁵⁾.

و هذا جعله هؤلاء تسمية هو الاسم عند الناس جميعهم، و ليس هو التسمية، بل التسمية: مصدر (سمى، يسمي، تسمية): إذ جعل الشيء اسماً، فالتسمية نطق بالاسم و تكلم به، و ليست هي الاسم نفسه⁽²⁷⁶⁾. و منشأ الغلط في هذا القول و الذي قبله هو الخلط بين الاسم و المسمى و التسمية، و عدم التفريق بينهما، و هي ثلاث حقائق يجب التفريق بينها. فالاسم: عبارة عن اللفظ الدال على المسمى.

و المسمى: عبارة عن الشيء الموجود في الأعيان أو الأذهان. و التسمية: عبارة عن فعل المسمى و وضعه الاسم للمسمى⁽²⁷⁷⁾. و لا سبيل إلى جعل لفظين من هذه الثلاثة مترادفين على معنى واحد، لتبيان حقائقها، و إذا جعل الاسم هو المسمى أو التسمية بطل واحد من هذه الحقائق الثلاثة و لا بد⁽²⁷⁸⁾.

القول الرابع: أن الاسم هو اللفظ، فقوله: ﴿فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ﴾، وقوله: ﴿سَبِّحْ أَسْمَ

رَبِّكَ﴾ أمر بتسبيح اسم الله، أي: تزيهه، فنفس الاسم مقصود بالذكر في هذه الآيات⁽²⁷⁹⁾، لأنه كما يجب تزيه ذاته سبحانه و صفاته عن النقائص، يجب تزيه الألفاظ الموضوعه لها عن

⁽²⁷³⁾ ينظر: مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية: 323/16.

⁽²⁷⁴⁾ ينظر: تفسير الطبري: 543/12، و تفسير البغوي: 400/8، و المحرر الوجيز لابن عطية: 281/16، و الجامع لأحكام القرآن للقرطبي: 14/20.

⁽²⁷⁵⁾

⁽²⁷⁶⁾ ينظر: مجموع فتاوى ابن تيمية: 195، 192/6.

⁽²⁷⁷⁾ ينظر: البحر المحيط، لأبي حيان: 127/1، و بدائع الفوائد، لابن القيم الجوزية: 18/1-19، و معتقد أهل السنة و الجماعة في أسماء الله الحسنى، للدكتور محمد بن خليفة التميمي: ص 249.

⁽²⁷⁸⁾ ينظر: بدائع الفوائد، لابن القيم: 20/1.

⁽²⁷⁹⁾ ينظر: التسهيل لعلوم التنزيل، لابن جزي: 562/2، و أضواء البيان، للشيخ محمد الأمين الشنقيطي: 250/5.

- سوء الأدب و عن كل ما لا يليق بها⁽²⁸⁰⁾. ثم ذكر هؤلاء لتتريه أسماء الله أوجهها، منها :
1. تتريه أسماء الله عن أن يسمى بها شيء سواه، و عن إطلاقها على غيره، بزعم أنهما فيها سواء⁽²⁸¹⁾.
 2. تتريه أسماء الله عن غير ما سمى به نفسه، و عن ذكرها في غير موضعها، و عن استعمالها في غير ما أذن في استعمالها فيه⁽²⁸²⁾.
 3. تتريه أسماء الله عن الإلحاد⁽²⁸³⁾ فيها بالتأويلات الفاسدة و المعاني الباطلة، كالتشبيه و التعطيل⁽²⁸⁴⁾⁽²⁸⁵⁾.
 4. تتريه أسماء الله عن أن تذكر في حال الغفلة دون خشوع، و عن اللهو و اللعب بها، كالتلفظ بها في حال تنافي الخشوع و الإجلال⁽²⁸⁶⁾.
 5. تتريه أسماء الله عن الأماكن غير الطاهرة، و منه صيانة الأوراق المكتوبة من الابتدال⁽²⁸⁷⁾ صونا لاسم الله تعالى⁽²⁸⁸⁾.
- فهذه أهم أوجه التتريه التي ذكرها الذين جعلوا التسبيح واقعا على الاسم نفسه في قوله: ﴿فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ﴾، وقوله: ﴿سَبِّحْ اسْمَ رَبِّكَ﴾.

- (280) ينظر: تفسير البيضاوي: 6/1، و روح المعاني، للألوسي: 14/151، وأضواء البيان، للشيخ محمد الأمين الشنقيطي: 5/250.
- (281) ينظر: تفسير الطبري: 12/542-543، و النكت و العيون، للماوردي: 7/251، و المحرر الوجيز، لابن عطية: 16/281، و نور المسرى، لابن شامة: ص41، و تفسير البيضاوي: 2/589.
- (282) ينظر: مسألة سبحان، لنفطويه: ص41، و نور المسرى، لأبي شامة، ص41، و أضواء البيان (تكملة)، للشيخ عطية سالم: 6/27.
- (283) الإلحاد: مصدر أُلْحِدَ، إلْحَادًا، أي: مال، و عدل، و مَارَى، و جادل. ينظر: القاموس المحيط، للفيروز آبادي: مادة (ألحد): ص404.
- (284) التشبيه: هو التمثيل، كما سبق في أنواع التسبيح باعتبار معناه: ص162، و التعطيل: هو نفى معاني أسماء الله و إنكار قيامها بذاته سبحانه. ينظر: 2/391 من البحث.
- (285) ينظر: تفسير البيضاوي: 2/589، و التسهيل لعلوم التنزيل، لابن جزي: 2/562، و أضواء البيان، للشيخ محمد الأمين الشنقيطي: 5/250.
- (286) ينظر: التسهيل، لابن جزي: 2/562، و أضواء البيان (تكملة) للشيخ عطية سالم: 6/27.
- (287) الابتدال: ضد الصيانة [القاموس المحيط للفيروز آبادي: مادة (بذل) ص1247].
- (288) ينظر: روح المعاني، للألوسي: 15/130، و أضواء البيان (تكملة) للشيخ عطية سالم: 6/28.

و لا شك أن هذه الأوجه المذكورة صحيحة كلها، و هي مما تستحقه أسماء الله تعالى من التثنية⁽²⁸⁹⁾، لكن هذه الأوجه تابعة للمراد الأصلي بهذه الآيات، و ليست هي المقصودة بها القصد الأول⁽²⁹⁰⁾.

القول الخامس: أن الاسم هو اللفظ، و قوله: ﴿ فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ ﴾^(٧٤) يحتمل أن يكون الاسم هنا واحدا مقصودا، و يكون (الْعَظِيمِ) صفة له، فكأنه تعالى أمر عبده أن يسبحه باسمه الأعظم، و إن كان لم ينص عليه⁽²⁹¹⁾. و هذا القول أشار إليه ابن عطية هكذا احتمالا، و لا أعلم له وجها يسانده، بل هو ضعيف؛ لأن (العظيم) ليس بمعنى (الأعظم)، وهو في الآية - صفة للرب، و ليس صفة للاسم، كما سيأتي بيانه من السنة قريبا.

القول السادس: أن الاسم هو اللفظ الدال على المسمى، و قوله تعالى: ﴿ فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ ﴾^(٧٤) و: ﴿ سَبِّحْ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى ﴾^(١) بمعنى: سبح ذاكرا اسم ربك العظيم و الأعلى ناطقا به⁽²⁹²⁾. و الاسم هنا للجنس، أي: بأسماء ربك⁽²⁹³⁾، فيعم كل ما هو معلوم من أسماء الله الحسنى.

و هذا المعنى ذكره و أشار إليه كثير من المفسرين و هو صريح في أن ذكر الله تعالى و الثناء عليه بالتسبيح يكون مقرونا بأسمائه الحسنى المتضمنة لصفاته العليا . قال ابن القيم رحمه الله تعالى: ...وقد عبر لي شيخنا أبو العباس ابن تيمية - قدس الله روحه - عن هذا المعنى بعبارة لطيفة و جيزة فقال: المعنى سبِّح ناطقا باسم ربك متكلما به

⁽²⁸⁹⁾ ينظر: مطلب (التوقير و التعظيم لأسماء الله وصفاته لفظا و معنى و ظاهرا و باطنا) في 221/2 من البحث.

⁽²⁹⁰⁾ ينظر: مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية: 6/199.

⁽²⁹¹⁾ ينظر: المحرر الوجيز، لابن عطية: 15/395.

⁽²⁹²⁾ ينظر: تفسير الطبري: 11/567 و 12/224، و المحرر الوجيز: لابن عطية: 15/395، و نور المسرى، لأبي شامة: ص41، و تفسير البيضاوي: 2/463، و التسهيل لعلوم التنزيل، لابن جزي: 2/562، و روح المعاني، للآلوسي: 14/151، و تفسير التحرير و التنوير، لابن عاشور: 29/151 و 30/272-274، و تيسير الكريم الرحمن، للشيخ عبد الرحمن السعدي: ص920.

⁽²⁹³⁾ ينظر: تفسير الطبري: 11/668، و المحرر الوجيز، لابن عطية: 15/395.

و كذا ﴿سَبِّحْ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى﴾ (١) لمعنى: سبح ربك ذاكرا اسمه (294).

القول السابع: التسبيح في قوله تعالى: ﴿فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ﴾ (٧٤) و: ﴿سَبِّحْ

اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى﴾ (١) معناه الصلاة. ولمن تبني هذا القول تعبيرات في معاني الآيات:

- الأول: صل بذكر ربك ، أي: صل وأنت ذاكر، ومنه وجل خائف (295).
- الثاني: صل بذكر ربك، فافتتح الصلاة به واذكر ربك بقلبك في نيتك للصلاة (296).
- الثالث: صل بأسماء الله، لا كما يصلي المشركون بالمكاء والتصدية (297).

والمعاني الثلاث متفقة على أن التسبيح في الآية هو الصلاة لاشتمال الصلاة على التسبيح في الركوع والسجود ولإمام ابن القيم قول متوجه فرق فيه بين قوله: (فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ) وقوله تعالى: (سَبِّحْ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى) سبب دخول الباء في الأول دون الثاني فقال: "فإن قيل: فما فائدة دخول الباء في قوله (فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ) ولم تدخل في قوله (سَبِّحْ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى).

قيل: التسبيح يراد به التزيه والذكر المحرد دون معنى آخر، ويراد به ذلك مع الصلاة، وهو ذكر وتزيه مع عمل، ولهذا تسمى الصلاة تسبيحاً.

فإذا أريد التسبيح المحرد فلا معنى للباء لأنه لا يتعدى بحرف الجر لا تقول: سبحت بالله . وإذا أردت المقرون بالفعل وهو الصلاة أدخلت الباء تنبيها على ذلك المراد، كأنك قلت : سبح مفتتحا باسم الله ، أو ناطقا باسم ربك ، كما تقول: صل مفتتحاً أو ناطقا باسمه (298).

ولما كان التسبيح بالقول لا يتأتى إلا بإجراء اسم الله على اللسان أوقع التسبيح في

(294) بدائع الفوائد: 22/1

(295) ينظر: تفسير القرآن، لأبي المظفر السمعاني: 206/6، وفتح القدير، للشوكاني: 231/5

(296) ينظر: النكت والعيون، للماوردي: 252/6

(297) ينظر: الجامع لأحكام القرآن، للقرطبي: 15/20

(298) بدائع الفوائد: 23/1

هذه الآيات على الاسم - بواسطة الباء مرة ومن غير واسطة مرة أخرى - كما أوقع الذكر على الاسم في آيات أخر وتلك حقيقة التسبيح الذي أثنى الله تعالى به على نفسه وأثنى به عليه رسوله، فإنه يكون دائما مقرونا بأسماء الله تعالى الحسنی وصفاته العليا.

و من الأمثلة على قرن التسبيح بأسماء الله تعالى و صفاته في الكتاب و السنة ما يلي:

1. قوله تعالى: ﴿ دَعَوْنَهُمْ فِيهَا سُبْحَانَكَ اللَّهُمَّ وَتَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَامٌ ۖ وَأَخِرُ دَعْوَانَهُمْ أَنِ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ ﴿١٠﴾ يونس: ١٠ ف ﴿ سُبْحَانَكَ ﴾ تسبيح مقرون بلفظ الجلالة مزيدا فيه الميم المشددة المفتوحة، و للعلماء في هذه الميم الزيدة في (اللهم) ثلاثة أقوال:

• أولها: أنها عوض عن جملة محذوفة، و التقدير: (يا الله أمني بخير) أي: اقصدنا بخير، ثم حذف الجار والمجرور (بخير)، وحذف المفعول، وهو الضمير من (أمني)، فبقي في التقدير (يا الله أم) ثم حذفوا الهمزة، لكثرة دوران هذا الاسم في الدعاء، فبقي (يا اللهم)⁽²⁹⁹⁾. وهذا القول ضعيف لفظا و معنى أما لفظا، فلأن الأصل عدم الحذف، و تقدير هذه المخلوقات الكثيرة خلاف الأصل، و لا دليل عليها، و لا يقتضيها القياس، فلا يصار إليها بغير دليل .

و أما معنى، فلأنه لا يحسن في الدعاء أن يقول العبد: اللهم أمني بكذا؛ لأن مثل هذا الكلام يقال لمن يعرض له الغلط و النسيان، فلا يقال ذلك للرب سبحانه؛ لأنه لا يضل و لا ينسى. و هناك أوجه أخرى تبين ضعف هذا القول، ذكرها ابن القيم الجوزية⁽³⁰⁰⁾.

• والثاني: أنها عوض عن حرف النداء، ف- (اللهم) معناه: (يا الله)، و لذلك لا يجمع بينهما في اختيار الكلام، فلا يقال: (يا اللهم) إلا فيما ندر، و هذا قول أقطاب اللغة⁽³⁰¹⁾.

(299) ينظر: جلاء الأفهام في فضل الصلاة و السلام على خير الأنام، لابن القيم الجوزية، تحقيق مشهور حسن آل سلمان: ص237.

(300) ينظر: المصدر السابق: ص238-239.

(301) ينظر: كتاب سيويه: 1/25 و 2/196، و معاني القرآن و إعرابه، للزجاج: 1/394، و البحر المحيط، لأبي حيان: 2/436، و جلاء الأفهام، لابن القيم: ص236.

● **والثالث:** أنها زيدت للتعظيم و التفضيم؛ لأن الميم- في كلام العرب- دالة على الجمع، مقتضية له في الغالب، فكان لحقوها في آخر لفظ الجلالة إيدانا بجمع الأسماء و الصفات، فإذا قال العبد: (اللهم إني أسألك)، كأنه قال أدعو الله الذي له الأسماء الحسنى و الصفات العليا بأسمائه و صفاته⁽³⁰²⁾.

و هذا المعنى أحسن و أولى بلفظ (اللهم) مما قبله، و قد جاء في معناه عن غير واحد من السلف، كقول الحسن البصري⁽³⁰³⁾: "اللهم مجمع الدعاء"⁽³⁰⁴⁾. و قول النظر بن شمیل⁽³⁰⁵⁾: "من قال: اللهم، فقد دعا الله بجميع أسمائه"⁽³⁰⁶⁾. و إذا علم هذا، تبين ما في صيغة (سبحانك اللهم) من المعاني و الدلالات العظيمة، ف-(سبحانك) تزيه له عن النقائص و العيوب، و الأمثال و الأنداد.

و (اللهم) إثبات لإلهيته الجامعة لأسمائه الحسنى و صفاته العليا التي تقتضي تزيهه و تعظيمه و عبادته وحده لا شريك له.

⁽³⁰²⁾ ينظر: جلاء الأفهام، لابن القيم: ص242-248، و بدائع الفوائد، له: 432/1.

⁽³⁰³⁾ هو الحسن بن أبي الحسن يسار البصري، أبو سعيد الأنصاري مولاهم، أحد الأئمة من التابعين، نشأ بالمدينة، و كان ثقة فاضلاً، فقيه النفس، كبير الشأن، مليح التذكير، بليغ الموعظة، رأساً في أنواع الخير، و توفي سنة (110هـ)، و قد قارب التسعين، رحمه الله. ينظر: تذكرة الحفاظ، للذهبي: 71/1-72، و تقريب التهذيب، لابن حجر: 166.

⁽³⁰⁴⁾ هذا الأثر نقله عبد الله القرطبي في تفسيره (الجامع لأحكام القرآن: 54/4)، و أبو حيان الأندلسي في تفسيره (البحر المحيط: 436/2)، و ابن القيم الجوزية في جلاء الأفهام: ص251.

⁽³⁰⁵⁾ هو النظر بن شمیل المازني، أبو الحسن النحوي، نزيل مرو، كان إماماً في العربية و الحديث، ثقة ثبتاً، حافظاً علامة، صاحب سنة، و ألف كتباً كثيرة لم يسبق إليها، و ولي قضاء مرو، و توفي آخر يوم من سنة (203هـ)، و دفن في أول يوم من سنة (204هـ)، رحمه الله ينظر: تذكرة الحفاظ، للذهبي: 314/1-315، و تقريب التهذيب، لابن حجر: 306/2.

⁽³⁰⁶⁾ هذا الأثر أورده أبو عبد الله القرطبي في تفسيره (الجامع لأحكام: 54/4)، و أبو حيان الأندلسي في تفسيره (البحر المحيط: 436/2)، و ابن القيم الجوزية في جلاء الأفهام: ص251.

2. و قوله تعالى: ﴿ قَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا سُبْحٰنَهُ هُوَ الْغَنِيُّ ﴾ ﴿٦٨﴾ يونس، فقرن الله تعالى التسبيح باسمه الغني، ليبرهن على تترهه عن اتخاذ الولد؛ لأن ذلك مناف لكمال غناه، فلا يتخذ أحدا ولدا إلا لنقص في غناه، و الله تعالى هو الغني الذي له الغني التام بكل اعتبار من جميع الوجوه، فلأي شيء يتخذ ولدا، و ليس به حاجة إلى شيء؟⁽³⁰⁷⁾، و كل شيء سواء فقير إليه، و هو الأحد الصمد الذي لم يلد و لم يولد و لم يكن له كفوا أحد.

3. و قوله تعالى: ﴿ لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا أَي: أَي لفسدت السموات و الأرض آلهة-أي: معبودات-يستحقون العبادة غير الله تعالى، لفسدتا، أي: أي لفسدت السموات و الأرض في ذاتهما، و فسد من فيهما من المخلوقات⁽³⁰⁸⁾. و ذلك أن قوام السموات و الأرض و الخليقة جميعا بأن تؤله الإله الحق، فلو كان فيهما إله آخر غير الله تعالى لم يكن إلهما حقا؛ لأن الإله الحق لا يكون إلا واحدا لا شريك له و لا مثل له، و لو تأهت الخليقة غيره لفسدت كل الفساد، بانتفاء ما به صلاحها، إذ صلاحها بتأله الإله الحق، كما أنها لا وجود لها إلا باستنادها إلى الرب الخالق الواحد، و يستحيل أن تستند في وجودها إلى ربين خالقين متكافئين، فكذلك يستحيل إن تستند إلى إلهين متساويين⁽³⁰⁹⁾. فجماع صلاح الخليقة و سعادتها في أن يكون الله عز وجل هو معبودها الذي تنتهي إليه إرادتهم و محبتهم، و يكون ذلك غاية الغايات و نهاية النهايات⁽³¹⁰⁾. و لهذا ختمت الآية الكريمة بتسبيح الله تعالى عما يصفه به المشركون من وجود آلهة أخرى معه، و قرن هذا التسبيح بربوبيته مضافة إلى العرش. و الروبوية تتضمن معاني ترجع إلى كونه تعالى الخالق الموجد لجميع المخلوقات، و المالك لها المتصرف فيها بمشيئته و قدرته، و أن كل شيء له و منه و إليه⁽³¹¹⁾.

⁽³⁰⁷⁾ ينظر: تيسير الكريم الرحمن، للشيخ عبد الرحمن السعدي: ص369.

⁽³⁰⁸⁾ ينظر: تفسير الطبري: 9/15، و تفسير البغوي: 5/314، و تيسير الكريم الرحمن، للشيخ عبد الرحمن السعدي: ص521.

⁽³⁰⁹⁾ ينظر: طريق المهجرتين، لابن قيم الجوزية: ص103، و الجواب الكافي، له: ص211.

⁽³¹⁰⁾ ينظر: تعارض العقل و النقل، لشيخ الإسلام ابن تيمية: 9/372-373.

⁽³¹¹⁾ ينظر: مقاييس اللغة، لابن فارس: مادة (رب): 2/381-383، و شرح العقيدة الطحاوية، لابن أبي المعز: 1/116، و

ولذا يأتي اسمه (الرب) في الغالب مضافا إلى عموم المخلوقات، مثل: (رب العالمين). أو إلى بعض المخلوقات تخصيصا و تشريفا، مثل (رب العرش). و في قوله: (فسبحان الله رب العرش عما يصفون) إشارة إلى موجب تسيحه و تزيهه عن كل نقص و عن كل شرك، لكماله و عظمته و ربوبيته لكل شيء؛ لأنه رب العرش الذي هو سقف المخلوقات و أوسعها و أعظمها، فربوبيته لما دونه من باب أولى⁽³¹²⁾.

4. و قوله تعالى: ﴿وَسُبِّحَانَ اللَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ النمل: و هنا قرن التسييح بربوبيته المضافة إلى عموم المخلوقين؛ لأن (العالمين) بمعنى المخلوقين⁽³¹³⁾، و هو كل موجود سوى الله عز وجل⁽³¹⁴⁾. و قد جاء هذا التسييح ضمن ما نادى الله تعالى به نبيه موسى عليه السلام عند كلامه تعالى معه لأول مرة، كما سيأتي بيانه - إن شاء الله - عند ذكر تسييح الله تعالى لنفسه المقدسة⁽³¹⁵⁾.

5. و قوله تعالى: ﴿فَسُبِّحَانَ الَّذِي بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ يس

و هذا تسييح مقرون بصفة من صفات الله تعالى، حيث أضيف فيه لفظ (سبحان) إلى الاسم الموصل (الذي) المقصود به الله تعالى. و صلته (بيده ملكوت كل شيء) و فيها إثبات اليد لله تعالى كما يليق بجلاله و عظمته، و إثبات ملكه تعالى لكل شيء؛ لأن (ملكوت) فعلوت من الملك، و هو مختص بملك الله تعالى⁽³¹⁶⁾، و صيغة (الفعلوت) من صيغ المبالغة⁽³¹⁷⁾. قال الحافظ ابن كثير: "و معنى قوله سبحانه و تعالى: ﴿فَسُبِّحَانَ الَّذِي بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ﴾ كقوله: ﴿قُلْ مَنْ بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ﴾ المؤمنون: ٨٨

و كقوله تعالى: ﴿تَبَارَكَ الَّذِي بِيَدِهِ الْمُلْكُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ الملك، فالملك

تجريد التوحيد المفيد، للعلامة، أحمد بن علي المقرئ، تحقيق: علي بن محمد العمران: ص 43.

⁽³¹²⁾ ينظر: تيسير الكريم الرحمن، للشيخ عبد الرحمن السعدي: ص 521.

⁽³¹³⁾ ينظر: مجاز القرآن، لأبي عبيدة: 22/1.

⁽³¹⁴⁾ ينظر: تفسير القرآن العظيم، لابن كثير: 25/1.

⁽³¹⁵⁾ ينظر: ص 99 من البحث

⁽³¹⁶⁾ ينظر: مفردات ألفاظ القرآن، للراغب الأصفهاني: ص 775.

⁽³¹⁷⁾ ينظر: النهاية في غريب الحديث، لابن الأثير: 136/1.

و الملكوت واحد في المعنى، كرحمة و رحموت، ورهبوت، و جبر و جبروت. و من الناس من زعم أن الملك هو عالم الأجسام، و الملكوت هو عالم الأرواح، و الصحيح الأول، و هو الذي عليه الجمهور من المفسرين و غيرهم" (318).

6. و قوله تعالى: ﴿سُبْحَانَ رَبِّكَ رَبِّ الْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾ ﴿١٨٠﴾ الصافات: وهذا تزيه لله تعالى عما يصفه به الخلق مما لا يليق بكماله و عظمته، و جاء التسييح هنا مقرونا باسمه تعالى (الرب) مرتين: مرة مضافا إلى ضمير المخاطب، و هو النبي ﷺ (319). و مرة إلى (العزة)، الامتناع و القوة و الغلبة، و قد كملت كلها لله تعالى من كل وجه (320). كما قال سبحانه: ﴿إِنَّ الْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا﴾ ﴿١٨٠﴾ يونس، و من تمام عزته عز وجل براءته عن كل نقص و عيب، و عن كل مثل و شريك، فإن ذلك ينافي العزة التامة (321)، و بهذا يظهر سر قرن التسييح بهذه الصفة الكريمة مع اسمه تعالى الرب في هذه الآية التي نزه الله تعالى فيها نفسه عما يصفه به الجاهلون من عباده، مما لا يليق بكماله و عظمته و عزته التامة.

7. و قوله تعالى: ﴿لَوْ أَرَادَ اللَّهُ أَنْ يَتَّخِذَ وَلَدًا لَأَصْطَفَىٰ مِمَّا يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ سُبْحَانَهُ هُوَ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ﴾ ﴿٤﴾ الزمر، و هذه الآية نقض لمقولة الذين نسبوا إلى الله تعالى اتخاذ الولد، و تزيه لله تعالى عن ذلك، قال الحافظ ابن كثير: "بين تعالى أنه لا ولد له كما يزعمه جهلة المشركين في الملائكة، و المعاندون من اليهود و النصرى في العزيز و عيسى. فقال تبارك و تعالى: ﴿لَوْ أَرَادَ اللَّهُ أَنْ يَتَّخِذَ وَلَدًا لَأَصْطَفَىٰ مِمَّا يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ سُبْحَانَهُ هُوَ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ﴾، أي: لكان الأمر على خلاف ما يزعمون، و هذا شرط لا يلزم وقوعه ولا جوازه، بل هو محال، و إنما قصد تجهيلهم فيما ادعوه و زعموه، كما قال عز وجل: ﴿لَوْ أَرَدْنَا أَنْ نَتَّخِذَ لَهْوًا لَاتَّخَذْتَهُ مِنْ لَدُنَّا إِنْ كُنَّا فَاعِلِينَ﴾ ﴿١٧﴾ الأنبياء، ﴿قُلْ إِنْ كَانَ لِلرَّحْمَنِ

(318) تفسير القرآن العظيم: 590/3.

(319) ينظر: تفسير الطبري: 543/10..

(320) ينظر: التوضيح المبين لتوحيد الأنبياء و المرسلين، للشيخ عبد الرحمن السعدي: ص 64_65، و توضيح الكافية الشافية، له: ص 119.

(321) ينظر: شفاء العليل، لابن القيم الجوزية: 66/2.

وَلَدٌ فَأَنَا أَوَّلُ الْعَبِيدِينَ ﴿٨١﴾ الزخرف، كل هذا من باب الشرط، و يجوز تعليق الشرط على المستحيل لمقصد المتكلم⁽³²²⁾.

ثم نزه الله تعالى نفسه فقال: ﴿سُبْحٰنَهُ هُوَ اللهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ﴾، و هذا تسبيح مقرون بثلاثة أسماء من أسماء الله الحسنى، قرن تعالى التسبيح بها لبيان امتناع اتخاذه للولد؛ لأنه تعالى هو الله، أي: المعبود الحق الذي يعبده كل شيء، فلو كان له ولد لم يكن له عبدا⁽³²³⁾. و هو الواحد، "أي: الواحد في ذاته و في أسمائه و في صفاته و في أفعاله، فلا شبهة له في شيء و لا مماثل، فلو كان له ولد، لأقتضي أن يكون شبيهه له في وحدته؛ لأنه بعضه و جزء منه"⁽³²⁴⁾.

و هو القاهر الذي قد قهر كل شيء بقدرته و سلطانه، فدانت له الأشياء كلها و ذلت و خضعت⁽³²⁵⁾، فلو كان له ولد لم يكن مقهورا، و لا كان له إذلال على أبيه و مناسبة منه⁽³²⁶⁾.

فألوهيته تعالى و وحدانيته و قهره تمنع أن يكون له ولد تبارك و تعالى عما يقول الجاهلون علوا كبيرا.

8. و قوله تعالى ﴿سُبْحٰنَ رَبِّ السَّمٰوٰتِ وَالْاَرْضِ رَبِّ الْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُوْنَ ﴿٨٢﴾﴾ الزخرف و هذا تسبيح مقرون باسمه (الرب) مضافا إلى السموات و الأرض، و إلى العرش، و فيه بيان لعظمة الله تعالى المقتضية لتسيحه و تزيهه عن كل ما لا يليق به مما وصفه به الظالمون الجاهلون، مما ينافي عظمته و ربوبيته و إلهيته سبحانه و تعالى.

9. و قوله تعالى: ﴿هُوَ اللهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ هُوَ الرَّحْمٰنُ الرَّحِيْمُ ﴿٢٢﴾﴾ هو الله الذي لا إله إلا هو الملك القدوس السلام المؤمن المهيم العزيز الجبار

(322) تفسير القرآن العظيم: 4/49-50.

(323) ينظر: تفسير الطبري: 10/612.

(324) مقتبس من تيسير الكريم الرحمن، للشيخ عبد الرحمن السعدي: ص719.

(325) تفسير الطبري: 10/612، تفسير القرآن العظيم، لابن كثير: 4/50.

(326) ينظر: تيسير الكريم الرحمن، للشيخ عبد الرحمن السعدي: ص719.

الْمُتَكَبِّرِ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٢٣﴾ هُوَ اللَّهُ الْخَلِيقُ الْبَارِئُ الْمُصَوِّرُ لَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى يُسَبِّحُ لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿٢٤﴾ الحشر، و في هذه الآيات الكريمات أثنى الله تعالى على نفسه بأسمائه الحسنى المتضمنة لصفاته العلية، و قرن ذلك بتسبيحه عن شرك المشركين به في قوله: ﴿سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾، و أخبر عن تسبيح ما في السموات و الأرض له، فبين بذلك سبحانه أنه مستحق للعبادة وحده دون كل ما سواه، لما له من صفات و نعوت الجلال التي ليست لغيره، و أنه تعالى مستحق للتسبيح و التقديس عن كل ما ينافي كماله و جلاله مما دلت عليه أسماؤه الحسنى التي أثنى بها على نفسه.

● قرن التسبيح بالاستغفار

ورد التسبيح مقرونا بالاستغفار في مواضع من كتاب الله تعالى ومن ذلك:

1. قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ يَجْمَلُونَ الْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيُؤْمِنُونَ بِهِ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ آمَنُوا﴾ ﴿٧﴾ غافر، و هذه الآية خبر عن تسبيح حملة العرش و استغفارهم للمؤمنين، و سيأتي -إن شاء الله- الكلام على هذه الآية عند بحث تسبيح الملائكة لله تعالى (327).
2. وقوله تعالى: ﴿فَأَصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَأَسْتَغْفِرْ لِدُنْيِكَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ بِالْعَشِيِّ وَالْإِبْكَرِ﴾ ﴿٥٥﴾ غافر، هذه الآية خطاب من الله تعالى لرسوله محمد ﷺ تضمن أمره بالاستغفار مع التسبيح.
3. وقوله تعالى: ﴿وَالْمَلَائِكَةُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِمَنْ فِي الْأَرْضِ﴾ ﴿٥٥﴾ الشورى. و في هذه الآية أيضا خبر عن تسبيح الملائكة و استغفارهم لمن في الأرض من المؤمنين، و سيأتي -إن شاء الله- بيان ذلك عند الكلام على تسبيح الملائكة (328).

(327) ينظر: ص 110

(328) ينظر: ص 112

4. و قوله تعالى: ﴿ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَأَسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُ كَانَ تَوَّابًا ﴾ ﴿٢﴾ النصر، و هذه الآية أيضا خطاب للنبي ﷺ، و فيه أمر بالتسبيح مع الاستغفار. و قد دلت هذه الآيات جميعا على مشروعية الجمع بين التسبيح و الاستغفار و أهمية ذلك، و جاءت السنة النبوية مبنية لذلك و مؤكدة له، حيث كان رسول الله ﷺ يكثر من قول: (سبحان و بحمده؛ أستغفر الله و أتوب إليه)، كما ثبت في الحديث عن عائشة أم المؤمنين (329)

و هناك مناسبة للقرن بين التسبيح و الاستغفار، فإن التسبيح فيه نفي النقائص و العيوب عن الله تعالى، و الاستغفار فيه طلب الستر لذنوب العبد و عيوبه و وقايته من شرها (330)، فإذا قرن العبد بينهما تضمن ذلك إقراره بكمال الرب عز وجل، و تترهه عن العيوب و النقائص، مع الإقرار بنقص العبد و تقصيره و افتقاره إلى ربه، و إلى ستره و وقايته و غفرانه.

و لاشك أن هذين الإقرارين من أهم الأمور التي تتحقق بها العبودية لله تعالى علما و عملا و حالا، و بهذا يعرف ما في صيغة التسبيح المقرون بالاستغفار من الدلالات العقديّة و المعاني التعبدية، و أن على العبد أن يتحقق بهذه الدلالات و المعاني و يكثر من تسبيح ربه و الاستغفار من عيوب نفسه، لينال السعادة بإذن ربه عز وجل و توفيقه.

● قرن التسبيح بالدعاء

ورد قرن التسبيح بالدعاء في قول الله تعالى

1. ﴿ الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمٰوٰتِ وَالْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هٰذَا بَطِلًا سُبْحٰنَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ ﴾ ﴿١١١﴾ آل عمران.

(329) و هذا الحديث أخرجه مسلم في صحيحه: 351/1، برقم (484).

(330) ينظر: النهاية في غريب الحديث، لابن الأثير: 373/3، و نتائج الأفكار في شرح حديث سيد الاستغفار، للسفاريني، بإشراف عبد العزيز بن سليمان الهبدان، و عبد العزيز بن إبراهيم الدخيل: ص 333.

2. ﴿ دَعْوَتُهُمْ فِيهَا سُبْحَانَكَ اللَّهُمَّ وَبِحَمْدِكَ فِيهَا سَلَامٌ وَعَآخِرُ دَعْوَتِهِمْ أَنِ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ

الْعَالَمِينَ ﴿١٠﴾ ﴿ يونس: ١٠ ، وهذا خبر صادق عن أهل الجنة بأن من حالهم في جنات الخلد هذا الدعاء المقرون بالتسبيح

3. ﴿ قَالَ تَعَالَى: ﴿ لِسْتَوْأُ عَلَى ظُهُورِهِ ثُمَّ تَذَكُّرُوا نِعْمَةَ رَبِّكُمْ إِذَا اسْتَوَيْتُمْ عَلَيْهِ وَتَقُولُوا سُبْحَانَ

الَّذِي سَخَّرَ لَنَا هَذَا وَمَا كُنَّا لَهُ مُقْرِنِينَ ﴿١٣﴾ الزخرف ، وهذا بالإجماع دعاء ركوب الدابة والحقيقة أنه ثناء على الله فلفظه ثناء والمقصود منه الدعاء.

قال الطاهر بن عاشور: " وافتتح هذا الشكر اللساني بالتسبيح لأنه جامع للثناء إذ التسبيح تزيه الله عما لا يليق ، فهو يدل على التزيه عن النقائص بالصريح ويدل ضمناً على إثبات الكمالات لله في المقام الخطابي. واستحضار الجلالة بطريق الموصولية لما يؤذن به الموصول من علة التسبيح حتى يصير الحمد الذي أفاده التسبيح شكراً لتعليه بأنه في مقابلة التسخير لنا. " (331)

ولما ذكر النعمة الناشئة عن مطلق الإيجاد ، ذكر بنعمة الراحة فيه فقال معللاً: (لِسْتَوْأُ) أي تكونوا مع الاعتدال والعلو والاستقرار والتمكن والراحة (عَلَى ظُهُورِهِ) أي ظهور كل من ذلك المفعول ، فالضمير عائد على ما جمع الظهر نظراً للمعنى تكثيراً للنعمة، وأفرد الضمير رداً على اللفظ دلالة على كمال القدرة بعظيم التصريف براً وبحراً أو تنبيهاً بالتذكير على قوة المركوب لأن الذكر أقوى من الأنثى.

ولما أتم النعمة بخلق كل ما تدعو إليه الحاجة ، وجعله على وجه دال على ما له من الصفات ، ذكر ما ينبغي أن يكون من غايتها على ما هو المتعارف بينهم من شكر المنعم ، فقال دالاً على عظيم قدر النعمة وعلو غايتها وعلو أمر الذكر بحرف التراخي : (ثُمَّ تَذَكُّرُوا) أي بقلوبكم ، وصرف القول إلى وصف التربية حثاً على تذكير إحسانه لانتهاه عن كفرانه والإقبال على شكرانه فقال : (نِعْمَةَ رَبِّكُمْ) الذي أحسن إليكم بنعمة تسخيرها لكم وما تعرفونها من غيرها.

ولما كان الاعتدال عليه أمراً خارقاً للعادة بدليل ما لا يركب من الحيوانات في البر والجوامد في البحر وإن كان قد أسقط العجب فيه كثرة إلفه ذكر به فقال : (إِذَا أَسْتَوَيْتُمْ عَلَيْهِ) ولما كان تذكر النعمة يبعث الجنان واللسان والأركان على الشكر لمن أسداها قال (وَتَقُولُوا) أي بألسنتكم جمعاً بين القلب واللسان. ولما كان الاستواء على ذلك مقتضياً لتذكر النقص بالاحتياج إليها في بلوغ ما ركبت لأجله وفي الثبات عليها وخوف العطب منها وتذكر أن من لا يزال يحسن إلى أهل العجز الذين هم في قبضته ابتداء وانتهاء من غير شيء يرجوه منهم لا يكون إلا بعيداً من صفات الدناءة وأن استواءه على عرشه ليس كهذا الاستواء المقارن لهذه النقائص وأنه ليس كمثل شيء ، كان المقام للترتبه فقال : (سُبْحَانَ الَّذِي سَخَّرَ) أي بعلمه الكامل وقدرته التامة (لَنَا هَذَا) أي الذي ركبناه سفينة كان أو دابة (وَمَا) أي والحال أنا ما (كُنَّا) ولما كان كل من الركوبين في الواقع أقوى من الركاب ، جعل عدم إطاقتهم له وقدرتهم عليه كأنه خاص به ، فقال مقدماً للجار دلالة على ذلك : { لَهُ مُقَرَّنِينَ } أي ما كان في جبلتنا إطاقة أن يكون قرناً له (332)

4. ﴿ وَذَا التُّونِ إِذْ ذَهَبَ مُغْلِظًا فَنظَرَ نَوَاحِيَهُ فَبَدَّ لَهُ ظِلْمًا فَنَادَى فِي الظُّلُمَاتِ أَنْ لَوْلَا إِلَهُ الْآلَاءِ أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ ﴾ (٨٧) الأنبياء، وتقديمه الاعتراف بالتوحيد مع التسبيح كنى به عن انفراد الله تعالى بالتدبير وقدرته على كل شيء ومعنى (سُبْحَانَكَ) تزيهاً لك من أن يعجزك شيء، إني كنت من الظالمين الذين يظلمون أنفسهم، قال الحسن وقتادة: هذا القول من يونس اعتراف بذنبه وتوبة من خطيئته، قال ذلك وهو في بطن الحوت ثم أخبر الله سبحانه بأنه استجاب له فقال : { فاستجبنا له } دعاءه الذي دعانا به في ضمن اعترافه بالذنب على أطف وجه (333) ، وهذه الآيات في بيان أوصاف المؤمنين الذين من الله تعالى عليهم بالعقل السليم والإيمان الصحيح، فرأوا ببصائر عقولهم وعيونهم عظمة ربهم وكمال صفاته وبراءته من كل نقص وعيب مناف لعظمته وكماله، ولهذا

(332) نظم الدرر في تناسب الآيات والسور، برهان الدين أبو الحسن إبراهيم بن عمر البقاعي: دار الكتب العلمية —

فهم يداومون ذكر الله تعالى في جميع أحوالهم ، و يخصصونه بالتسبيح تزيها له و تعظيما، و يتوجهون إليه وحده بالدعاء طلبا لما ينفعهم، و دفعا لما يضرهم، كما تجلى ذلك في قولهم: ﴿سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ﴾، حيث قرنوا فيه التسبيح بالدعاء، فسبحانك تسبيح و فقنا عذاب النار دعاء بالوقاية من عذاب جهنم.

الأمير عبد القادر للعطوم الإسلامية

الفصل الثاني

التسبيح باعتبار

فاعله

المبحث الأول: تسبيح الله

المبحث الثاني: تسبيح الملائكة

المبحث الثالث: تسبيح المرسلين

المبحث الرابع: تسبيح صالح العباد

المبحث الخامس: تسبيح الكائنات

المبحث السادس: تسبيح أهل الجنة

الفصل الثاني: التسبيح باعتبار فاعله

لما كان فضل التسبيح عظيماً كان مقروناً في كتاب الله بألفاظ التزويه و التقديس و التعظيم، شرفه الله جل و علا بنسبته لنفسه فسبح الله نفسه، و أضافه الله إلى ملائكة قدسه فسبحته ملائكته و أضافه الله إلى صالح عباده فسبحه أنبيائه و أتباعهم و نسبه الله إلى ما في السموات و الأرض فسبحه الكون كله و جعله الله جل و علا دعاء أهل الجنة .

و جميع هذه التسابيح ثابتة واردة في التزويل، تذكر و تفهم على حقائقها الشرعية من غير تأويل و لا تعطيل، و تثبت لفاعلها كما أثبتها الله لهم، فإذا كان ذلك كذلك دلت على دلالات عقدية و فوائد لغوية و صور بيانية، و كان تحت ذلك كله سر من أسرار البيان القرآني الذي تحدى الله جل و علا به بلغاء الناس من العرب و العجم .

و مراعاة لكثرة الأنواع نوزعها على مباحث و ذلك كما يأتي:

المبحث الأول: تسبيح الله لنفسه

المبحث الثاني: تسبيح الملائكة

المبحث الثالث: تسبيح المرسلين

المبحث الرابع: تسبيح صالح العباد

المبحث الخامس: تسبيح الكائنات كلها

المبحث السادس: تسبيح أهل الجنة

:

المبحث الأول: تسبيح الله لنفسه

وقد ورد ذلك سبعا وعشرين مرة في كتاب الله تكلمت على بعض منها في مبحث أنواع التسييح المفرد ونكتفي هنا بإيراد موطن الشاهد في نسبة الفعل لله ، وجاء هذا النوع في تسع عشرة سورة منها المكي الذي يخاطب مشركي قريش ومنها المدني الذي يخاطب أهل الكتاب، والعبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب.

وإن تُنزع في نسبة هذا التسييح في بعض الآي ففعل التسييح ثابت لله بنص الحديث الصحيح في ما رواه ابن عباس: عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: "قال الله: كذبي ابن آدم ولم يكن له ذلك وشتمني ولم يكن له ذلك. فأما تكذبه إياي فزعم أي لا أقدر أن أعيده كما كان، وأما شتمه إياي فقلوه: لي ولد فسبحاني أن أتخذ صاحبة أو ولدا" (334) و هذه المواضع هي:

1. ﴿ وَقَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا سُبْحَانَهُ بَلْ لَّهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ كُلُّ لَّهُ قَلْبُونَ ﴿١١٦﴾ ﴾ البقرة ، فقلوه: (سبحانه) تنزيه لله عن شنيع هذا القول . وفيه إشارة إلى أن الوكديّة نقص بالنسبة إلى الله تعالى وإن كانت كمالاتاً في الشاهد لأنها إنما كانت كمالاتاً في الشاهد من حيث إنها تسد بعض نقائصه عند العجز والفقر وتسد مكانه عند الاضمحلال والله منزّه عن جميع ذلك فلو كان له ولد لآذن بالحدوث وباللحاجة إليه (335).

وجاء الرد من الله تعالى مع بيان المانع مفصلاً مع الإشعار بالدليل العقلي، ولذا لزم التنويه عليه، وذلك في قوله تعالى: ﴿ وَقَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا سُبْحَانَهُ بَلْ لَّهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ كُلُّ لَّهُ قَلْبُونَ ﴿١١٦﴾ ﴾ البقرة . فهذا نص صريح فيما قالوه: (اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا). (336).

(334) أخرجه البخاري في صحيحه برقم (4482)

(335) التحرير والتنوير: ابن عاشور ،

(336) أضواء البيان: الشنقيطي، 151/9

1. ﴿يَأْهَلُ الْكِتَابِ لَا تَعْلُوا فِي دِينِكُمْ وَلَا تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ إِنَّمَا الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ اللَّهِ وَكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إِلَى مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِنْهُ فَآمَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَلَا تَقُولُوا ثَلَاثَةٌ أَنْتَهُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنَّمَا اللَّهُ إِلَهٌُ وَاحِدٌ وَكَيْفَى أَنْ يَكُونَ لَهُ وَلَدٌ لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَكَفَى بِاللَّهِ وَكِيلًا ﴿١٧١﴾ النساء

سبح الله جل وعلا نفسه في هذه الآية أيضا مترها نفسه عن أن يكون له ولد.

"وقوله : (سبحانه أن يكون له ولد) إظهار لغلطهم في أفهامهم ، وفي إطلاقاتهم لفظ الأب والابن كيفما كان محملهما لأنهما إما ضلالة وإما إيهامها ، فكلمة (سبحانه) تفيد قوة التزيه لله تعالى عن أن يكون له ولد ، والدلالة على غلط مثبته ، فإن الإلهية تنافي الكون أبا واتخاذ ابن ، لاستحالة الفناء ، والاحتياج ، والانفصال ، والمماثلة للمخلوقات عن الله تعالى . والبنوة تستلزم ثبوت هذه المستحيلات لأن النسل قانون كوني للموجودات لحكمة استبقاء النوع ، والناس يتطلبونها لذلك ، وللإعانة على لوازم الحياة ، وفيها انفصال المولود عن أبيه ، وفيها أن الابن مماثلة لأبيه فأبوه مماثل له لا محالة" (337)

فتره نفسه وعظمتها أن يكون له ولد كما تقوله النصارى ثم قال لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ فَأخبر أن ذلك ملك ليس له فيه شيء من ذاته ثم قال " لن يستنكف المسيح أن يكون عبدا لله ولا الملائكة المقربون " أي لن يستنكفوا أن يكونوا عبيدا لله تبارك وتعالى فمع ذلك البيان الواضح الجلي هل يظن ظان أن مراده بقوله وكلمته أنه إله خالق أو أنه صفة لله قائمة به؟؟؟

2. ﴿ وَجَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ الْجِنَّ وَخَلَقَهُمْ وَخَرَقُوا لَهُ بَنِينَ وَبَنَاتٍ بِغَيْرِ عِلْمٍ سُبْحَانَ اللَّهِ وَتَعَالَى عَمَّا يُصِفُونَ ﴿١٠٠﴾ الأنعام :

من المقاصد العليا للقرآن الكريم تزيه الله جل وعلا - في الربوبية والألوهية والأسماء والصفات - عن الشركاء ففي هذه الآية يعيب الله على الذين اتخذوا الشركاء من الجن وعاب الله على الذين نسبوا له البنات والبنين وأقرب معنى للتسبيح هنا هو التباعد عن ما وصفه به الكافرون لذلك قرنه هنا بصفة العلو وقد قدمت ذلك في مبحث سبق.

3. ﴿ اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهَبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ اللَّهِ وَالْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا إِلَهًا وَاحِدًا لَّا إِلَهَ إِلَّا هُوَ سُبْحٰنَهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾ (٣١) التوبة

والمسيح ابن مريم " يعني اتخذوا المسيح ربا من دون الله " وما أمروا " يقول وما أمرهم عيسى عليه السلام " إلا ليعبدوا إلهًا واحدًا لا إله إلا هو " يعني إلا قوله الله ربي وربكم ويقال " وما أمروا " في جميع الكتب إلا ليعبدوا إلهًا يعني ليوحدا الله تعالى إلهًا واحدًا ثم نزه نفسه فقال تعالى لَّا إِلَهَ إِلَّا هُوَ سُبْحٰنَهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ يعني يعبدون من دونه (338)

المقصود بـ الأرباب ، هم المعبودين بدليل آخر الآية ﴿ وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا إِلَهًا وَاحِدًا ﴾ فذكر هنا المتنازع فيه وهو العبادة وقرن بهذا النفي إثباتًا مفصلاً بمن يستحق العبودية ثم نزه نفسه عن الشرك وتبرئ منهم على وجه علو القدر والقهر والذات.

قال الإمام الطبري: "سبحانه عما يشركون يقول: تزيها وتطهيرا لله عما يشرك في طاعته وربوبيته القائلون عزيز ابن الله، والقائلون المسيح ابن الله، المتخذون أحبارهم أربابا من دون الله" (339)

4. ﴿ وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنْفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَؤُلَاءِ شَفَعُونَا عِنْدَ اللَّهِ قُلْ أَتُنَبِّئُونَ اللَّهَ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِي السَّمٰوٰتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ سُبْحٰنَهُ وَتَعَلٰى عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾ (١٨) يونس

فصرح تعالى بأن هذا النوع ، من ادعاء الشفعاء شرك بالله ، ونزه نفسه الكريمة عنه

(338) بحر العلوم :للسمرقندي، 54/2

(339) جامع البيان: الإمام الطبري 149/10

، بقوله جل وعلا (سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ)⁽³⁴⁰⁾

قال الطاهر بن عاشور: "وأعيد حرف النفي بعد العاطف لزيادة التنصيص على النفي .والاستفهام في (أتنبئون) للإنكار والتوبيخ . والإنباء : الإعلام .

وجملة : (سبحانه وتعالى إنشاء تزيه ، فهي منقطعة عن التي قبلها فلذلك فصلت .
وتقدم الكلام على نظيره عند قوله : ﴿ وَحَرِّقُوا لَهُ بَنِينَ وَبَنَاتٍ بِغَيْرِ عِلْمٍ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عَمَّا يُصِفُونَ ﴾ الأنعام و (ما) في قوله : عما يشركون (مصدرية ، أي عن إشراكهم ، أي تعالى عن أن يكون ذلك ثابتاً له .

وقرأ حمزة والكسائي وخلف⁽³⁴¹⁾ تشركون بالمشناة الفوقية على أنه من جملة المقول .
وقراه الباقون بالتحية على أنها تعقيب للخطاب بجملة (قل) . وعلى الوجهين فهي مستحقة للفصل لكمال الانقطاع وبالعة في التزيه .⁽³⁴²⁾

5. ﴿ قَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا سُبْحَانَهُ هُوَ الْغَنِيُّ لَهُ مَا فِي السَّمٰوٰتِ وَمَا فِي

الْأَرْضِ إِنَّ عِنْدَكُمْ مِّنْ سُلْطٰنٍ بِهٰذَا ؕ أَتَقُولُونَ عَلَىٰ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾^(٦٨) يونس
سُبْحَانَهُ: تزيه وتقديس له تعالى عما نسبوا إليه على ما هو الأصل في معنى سبحانه وقد يستعمل للتعجب مجازاً ويصح إرادته هنا.

والمراد التعجب من كلمتهم الحمقاء، وجمع بعضهم بين التزيه والتعجب ولعله مبني على أن التعجب معنى كنائي وأنه يصح إرادة المعنى الحقيقي في الكناية وهو أحد قولين في المسألة ، وقيل : إنه لا يلزم استفادة معنى التعجب منه باستعمال اللفظ فيه بل هو من المعاني الثواني.

⁽³⁴⁰⁾ أضواء البيان : الشنقيطي ، 6/353

⁽³⁴¹⁾ النشر في القراءات العشر: ابن الجزري، أشرف على تصحيحه ومراجعته : علي محمد الضباع - دار الفكر

وقوله سبحانه : (هُوَ الْغَنِيُّ) أي عن كل شيء في كل شيء علة لتزهره تعالى وتقدس عن ذلك وإيدان بأن اتخاذ الولد مسبب عن الحاجة وهي التقوى أو بقاء النوع مثلاً⁽³⁴³⁾.

"الضمير في قالوا عائد على من نسب إلى الله الولد ، ممن قال الملائكة بنات الله، أو عزيز ابن الله ، أو المسيح ابن الله ، وسبحانه : تزيره من اتخاذ الولد وتعجب ممن يقول ذلك، هو الغني علة لنفي الولد ، لأنَّ اتخاذ الولد إنما يكون للحاجة إليه ، والله تعالى غير محتاج إلى شيء ، فالولد منتف عنه ، وكل ما في السموات والأرض ملكه فهو غني عن اتخاذ الولد . وأنَّ نافية"⁽³⁴⁴⁾.

هذا نوع آخر من أباطيل المشركين التي كانوا يتكلمون بها ، وهو زعمهم بأن الله سبحانه اتخذ ولداً ، فردَّ ذلك عليهم بقوله : (سبحانه هُوَ الْغَنِيُّ) فتزهره جل وعلا عما نسبوه إليه من هذا الباطل البين ، وبين أنه غني عن ذلك ، وأن الولد إنما يطلب للحاجة . والغني المطلق لا حاجة له حتى يكون له ولد يقضيها ، وإذا انتفت الحاجة انتفى الولد ، وأيضاً إنما يحتاج إلى الولد من يكون بصدد الانقراض ، ليقوم الولد مقامه⁽³⁴⁵⁾.

6. ﴿أَفَىٰ أَمْرٌ أَلَّهُ فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ النحل

لما كان معظم أغراض هذه السورة زجر المشركين عن الإشراف وتوابعه وإنذارهم بسوء عاقبة ذلك ، وكان قد تكرر وعيدهم من قبل في آيات كثيرة بيوم يكون الفارق بين الحق والباطل فتزول فيه شوكتهم وتذهب شدتهم . وكانوا قد استبطئوا ذلك اليوم حتى اطمأنوا أنه غير واقع فصاروا يهزؤون بالنبي عليه الصلاة والسلام والمسلمين فيستعجلون حلول ذلك اليوم⁽³⁴⁶⁾.

وأُتبع تحقيق مجيء العذاب بتزيره الله عن الشريك فقفي ذلك بتبرئة الرسول عليه

⁽³⁴³⁾ ينظر: روح المعاني: للألوسي، 11/155، والكشاف: 2/341، وجامع البيان: 5/288

⁽³⁴⁴⁾ البحر المحيط: 5/175

⁽³⁴⁵⁾ ينظر: فتح القدير، الشوكاني: 3/398

⁽³⁴⁶⁾ التحرير والتنوير: ابن عاشور، 14/98

الصلاة والسلام من الكذب فيما يبلغه عن ربه ووصف لهم الإرسال وصفاً موجزاً . وهذا اعتراض في أثناء الاستدلال على التوحيد (347).

قال الإمام الطبري: وقوله (سبحانه) أي: تزيها لله وعلوا له عن الشرك الذي كانت قريش ومن كان من العرب على مثل ما هم عليه يدين به. واختلفت القراءة في قراءة قوله تعالى: عما يشركون .

فقرأ ذلك أهل المدينة وبعض البصريين والكوفيين: عما يشركون بالياء على الخبر عن أهل الكفر بالله وتوجيه للخطاب بالاستعجال إلى أصحاب رسول الله (ص)، وكذلك قرءوا الثانية بالياء. وقرأ ذلك عامة قراء الكوفة بالتاء على توجيه الخطاب بقوله: فلا تستعجلوه إلى أصحاب رسول الله (ص)، وبقوله تعالى: عما تشركون إلى المشركين. والقراءة بالتاء في الحرفين جميعاً على وجه الخطاب للمشركين أولى بالصواب لما بينت من التأويل أن ذلك إنما هو وعيد من الله للمشركين ابتداءً أول الآية بتهديدهم وختم آخرها بنكير فعلهم واستعظام كفرهم على وجه الخطاب لهم. (348)

قلت: القراءتان صحيحتان وحمل المعنى عليهما جميعاً أولى بل فيه فضاء لاتساع الدلالة وعمق وشمول المعنى المراد. وعلى كلتا القراءتين التزيه صادر من الله ومتعلق به.

قال الفراء: "حدثنا محمد بن الجهم قال: حدثنا الفراء قال حدثني عماد بن الصلت العُكَلِيُّ عن سَعِيدِ بْنِ مَسْرُوقِ أَبِي سَفِيَّانٍ عَنِ الرَّبِيعِ بْنِ خَيْثَمٍ أَنَّهُ قَرَأَ (سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا تُشْرِكُونَ) الْأُولَى وَالَّتِي بَعْدَهَا كِلْتَاهُمَا بِالتَّاءِ: وَتَقْرَأُ بِالْيَاءِ. فَمَنْ قَالَ بِالتَّاءِ فَكَأَنَّهُ خَاطِبُهُمْ وَمَنْ قَرَأَ بِالْيَاءِ فَكَأَنَّ الْقُرْآنَ نَزَلَ عَلَى مُحَمَّدٍ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ "ثم قال {سُبْحَانَهُ} يعجبه من كفرهم وإشراكهم. (349)

(347) تفسير القرآن العزيز، أبي عبد الله محمد بن عبد الله بن أبي زمنين: تحقيق أبو عبد الله حسين بن عكاشة - محمد بن

مصطفى الكتر، الفاروق الحديثة، 1423هـ - 2002م مصر/ القاهرة 394/2 وينظر: التحرير والتنوير: 98/14

(348) ينظر: جامع البيان، الطبري: 108/8

(349) معاني القرآن، الفراء: 438/1

7. ﴿وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ الْبَنَاتِ سُبْحَانَهُ وَلَهُمْ مَا يَشْتَهُونَ﴾ ﴿٥٧﴾ النحل

قلت: وسبحانه (مصدر نائب عن الفعل ، وهو منصوب على المفعولية المطلقة ، وهو في محل جملة معترضة وقعت جواباً عن مقالتهم السيئة التي تضمنتها حكاية) ويجعلون لله البنات (إذ جعل فيه جعل بالقول والإعتقاد ، فقوله : (سبحانه) مثل قولهم : حاش لله ومعاذ الله ، أي تزيهاً له عن أن يكون له ذلك .

قال الطاهر بن عاشور: "وإنما قدم (سبحانه) على قوله : (ولهم ما يشتهون) ليكون نصاً في أن التزيه عن هذا الجعل لذاته وهو نسبة البنوة لله ، لا عن جعلهم له خصوص البنات دون الذكور الذي هو أشدّ فظاعة ، كما دلّ عليه قوله تعالى : (ولهم ما يشتهون) ، لأن ذلك زيادة في التفضيح ، فقوله : (ولهم ما يشتهون) جملة في موضع الحال . وتقدم الخبر في الجملة للاهتمام بهم في ذلك على طريقة التهكم ."⁽³⁵⁰⁾

8. ﴿سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلًا مِنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَا

الَّذِي بَرَكْنَا حَوْلَهُ لِنُرِيَهُ مِنْ آيَاتِنَا إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ ﴿١﴾ الإسراء

قلت: سبحان هنا على ما ذهب إليه بعض المحققين مصدر سبح تسييحاً بمعنى نزه تزيهاً لا بمعنى قال سبحان الله: فبدأ بالمصدر منها (سبحان) هنا على ما ذهب إليه بعض المحققين مصدر سبح تسييحاً بمعنى نزه تزيهاً لا بمعنى قال سبحان الله و مقصود السورة ومعظم ما اشتملت عليه: تزيه الحق تعالى

قال شيخ الإسلام: "تزيه الله تعالى بقوله سبحان الله يتضمن مع نفي صفات النقص عنه إثبات ما يلزم ذلك من عظمته فكان في التسييح تعظيم له مع تبرئته من السوء ولهذا جاء التسييح عند العجائب الدالة على عظمته كقوله تعالى ﴿سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلًا﴾ سورة الإسراء"⁽³⁵¹⁾

(350) التحرير والتنوير: 182/14 و 09/15

(351) درء تعارض النقل والعقل، ابن تيمية: 123/8

لافتتاح بكلمة التسبيح من دون سبق كلام مُتضمّنٍ ما يَجِبُ تزيه الله عنه يؤذن بأن خبراً عجيباً يستقبله السامعون دالاً على عظيم القدرة من المتكلم ورفيع منزلة المتحدث عنه . فإن جملة التسبيح في الكلام الذي لم يقع فيه ما يوهم تشبيهاً أو تنقيصاً لا يليقان بجلال الله تعالى مثل (سبحان ربك رب العزة عما يصفون (الصافات : 180) يتعين أن تكون مستعملة في أكثر من التزيه ، وذلك هو التعجيب من الخبر المتحدث به كقوله ﴿ وَلَوْلَا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ قُلْتُمْ مَا يَكُونُ لَنَا أَنْ نَتَكَلَّمَ بِهَذَا سُبْحَانَكَ هَذَا بُهْتَنٌ عَظِيمٌ ﴾ (النور، وقول الأعشى:

قد قلتُ لما جاءني فخرُهُ سُبْحَانَ مِنْ عِلْقَمَةِ الْفَاخِرِ (352)

ولما كان هذا الكلام من جانب الله تعالى والتسبيح صادراً منه كان المعنى تعجيب السامعين ، مثل مجيء الرجاء في كلامه تعالى نحو ﴿ لَعَلَّكُمْ تَفْلِحُونَ ﴾ (البقرة، فيكون معنى التعجيب فيه من قبيل قولهم أتعجب من قول فلان كَيْت وكَيْت .

ووجه هذا الاستعمال أن الأصل أن يكون التسبيح عند ظهور ما يدل على إبطال ما لا يليق بالله تعالى . ولما كان ظهور ما يدل على عظيم القدرة مزيلاً للشك في قدرة الله وللاشتراك به كان من شأنه أن يُنطق المتأمل بتسبيح الله تعالى ، أي تزيهه عن العجز .

وأصل صيغ التسبيح هو كلمة سبحان الله (التي نُحِت منها السبحلة . ووقع التصرف في صيغها بالإضمار نحو سبحانك وسبحانه ، وبالموصول نحو) سبحان الذي خلق الأزواج كلها (يس : 36) ومنه هذه الآية .

والتعبير عن الذات العلية بطريق الموصول دون الاسم العلم للتنبية على ما تفيده صلة الموصول من الإيماء إلى وجه هذا التعجيب والتنويه وسببه ، وهو ذلك الحادث العظيم والعناية الكبرى . ويفيد أن حديث الإسراء أمر فشا بين القوم ، فقد آمن به المسلمون

وأكبره المشركون . (353)

أما قوله (سبحان) ففيه تأويلان:

- أحدهما : تزيه الله تعالى من السوء ، وقيل بل نزه نفسه أن يكون لغيره في إسراء عبده تأثير
- الثاني : معناه براه الله تعالى من السوء (354)

قلت: والسر في إضافة التسييح إلى الموصول وإضافة التزيه أو التزه إلى الموصول المذكور للإشعار بعلية ما في حيز الصلة للمضاف فإن ذلك من أدلة كمال قدرته وبالغ حكمته ونهاية تزهه عن صفات المخلوقين

9. ﴿سُبْحٰنَهُۥ وَتَعٰلٰى عَمَّا يَقُوْلُوْنَ عُلُوًّا كَبِيْرًا ﴿٤٣﴾﴾ الإسراء

فقد تبين أن اسمه [الأعلى] يتضمن اتصافه بجميع صفات الكمال، وتزيهه عما ينافيها من صفات النقص، وعن أن يكون له مثل، وأنه لا إله إلا هو ولا رب سواه .

والأمر بتسييحه يقتضي — أيضاً — تزيهه عن كل عيب وسوء وإثبات صفات الكمال له، فإن التسييح يقتضي التزيه والتعظيم، والتعظيم يستلزم إثبات المحامد التي يحمد عليها . فيقتضي ذلك تزيهه، وتحميده، وتكبيره، وتوحيده . (355) يسبح نفسه إذ قيل عليه البهتان.

10. ﴿مَا كَانَ لِلّٰهِ أَنْ يَتَّخِذَ مِنْ وَلَدٍ سُبْحٰنَهُۥٓ إِذَا قَضَىٰٓ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُوْلُ لَهُۥ كُنْ فَيَكُوْنُ ﴿٣٥﴾﴾

مريم

وفيها أيضا إضافة التسييح لله فعلا منه جلّ وعلا واستحقاقا لذاته العلية . وقد تقدم الكلام على الآية .

(353) التحرير والتنوير: 09/15

(354) النكت والعيون، الماوردى: 223/3

(355) تفسير ابن تيمية: 73/5

﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَا ءِالِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا فَسُبْحَانَ اللَّهِ رَبِّ الْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾^(٢٢)
الأنبياء

وُفِرَع عَلَى هَذَا الِاسْتِدْلَالِ إِتْسَاءُ تَتْرِيهِ اللّٰهُ تَعَالَى عَنِ الْمَقَالَةِ الَّتِي أَبْطَلَهَا الدَّلِيلُ بِقَوْلِهِ تَعَالَى : (فَسُبْحَانَ اللَّهِ رَبِّ الْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ) (أَي عَمَّا يَصِفُونَهُ بِهِ مِنْ وَجُودِ الشَّرِيكِ . وَإِظْهَارِ اسْمِ الْجَلَالَةِ فِي مَقَامِ الْإِضْمَارِ لِتَرْبِيَةِ الْمَهَابَةِ .

وَوَصَفَهُ هُنَا بِرَبِّ الْعَرْشِ لِتَذْكَيرٍ بِأَنَّهُ انْفَرَدَ بِخَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَهُوَ شَيْءٌ لَا يَنَازِعُونَ فِيهِ بَلْ هُوَ خَالِقُ أَعْظَمِ مِنَ السَّمَاوَاتِ وَحَاوِيهَا وَهُوَ الْعَرْشُ تَعْرِيفًا بِهِمْ بِالزَّمَامِ لَازِمٌ قَوْلُهُمْ بِانْفِرَادِهِ بِالْخَلْقِ أَنْ يَلْزَمَ انْتِفَاءُ الشَّرْكَاءِ لَهُ فِيمَا دُونَ ذَلِكَ⁽³⁵⁶⁾

11. ﴿وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَدًا سُبْحٰنَهُۥٓ بَلْ عِبَادٌ مُّكْرَمُونَ﴾^(٣٦)
الأنبياء

وَقَدْ تَقَدَّمَ هَذَا الْمَعْنَى فِي غَيْرِ مَا مَوْضِعٍ وَالْآيَةُ نَصٌّ فِي تَتْرِيهِ اللّٰهُ لِنَفْسِهِ .

قَالَ الْإِمَامُ الطَّبْرِيُّ : "...قَوْلُهُ عَزَّ وَجَلَّ : (وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَدًا) نَزَلَتْ فِي خِرَاعَةِ حَيْثُ قَالُوا : الْمَلَائِكَةُ بَنَاتُ اللَّهِ ، (سُبْحٰنَهُۥٓ) نَزَهَ نَفْسَهُ عَمَّا قَالُوا ، (بَلْ عِبَادٌ) أَي هُمْ عِبَادٌ ، يَعْنِي الْمَلَائِكَةُ ، ..."⁽³⁵⁷⁾

وَجَمِيعٌ مَا يَذْكَرُ مِنَ الْآيَةِ بَعْدَ هَذِهِ الْآيَةِ فِيهِ نَسْبَةُ التَّتْرِيهِ لِلّٰهِ .

12. ﴿مَا اتَّخَذَ اللَّهُ مِنْ وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنْ إِلَهٍ إِذًا لَذَهَبَ كُلُّ إِلَهٍ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَّ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ سُبْحٰنَ اللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾^(٩١) المؤمنون

⁽³⁵⁶⁾ التحرير والتنوير: 44/17

⁽³⁵⁷⁾ معالم التنزيل: محيي السنة ، أبو محمد الحسين بن مسعود البغوي [المتوفى 516 هـ] .حققه وخرج أحاديثه محمد

عبد الله النمر - عثمان جمعة ضميرية - سليمان مسلم الحرش. دار طيبة للنشر والتوزيع الطبعة : الرابعة ، 1417هـ -

13. ﴿ فَلَمَّا جَاءَهَا نُودِيَ أَنْ بُورِكَ مِنْ فِي النَّارِ وَمَنْ حَوْلَهَا وَسُبْحَانَ اللَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ ﴿٨﴾ النمل
14. ﴿ وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَيَخْتَارُ مَا كَانَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ سُبْحَانَ اللَّهِ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾ ﴿٦٨﴾ القصص
15. ﴿ فَسُبْحَانَ اللَّهِ حِينَ تُمْسُونَ وَحِينَ تُصْبِحُونَ ﴾ ﴿١٧﴾ الروم
16. ﴿ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَكُمْ ثُمَّ رَزَقَكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ هَلْ مِنْ شُرَكَائِكُمْ مَنْ يَفْعَلُ مِنْ ذَلِكَ مِثْلَ شَيْءٍ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾ ﴿٤٠﴾ الروم
17. ﴿ سُبْحَانَ الَّذِي خَلَقَ الْأَزْوَاجَ كُلَّهَا مِمَّا تُنْبِتُ الْأَرْضُ وَمِنْ أَنْفُسِهِمْ وَمِمَّا لَا يَعْلَمُونَ ﴾ ﴿٣٦﴾ يس
18. ﴿ فَسُبْحَانَ الَّذِي بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾ ﴿٨٣﴾ يس
19. ﴿ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُصِفُونَ ﴾ ﴿١٥٩﴾ الصافات
20. ﴿ سُبْحَانَ رَبِّكَ رَبِّ الْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴾ ﴿١٨٠﴾ الصافات
21. ﴿ لَوْ أَرَادَ اللَّهُ أَنْ يَتَّخِذَ وَلَدًا لَأَصْطَفَى مِمَّا يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ سُبْحَانَهُ هُوَ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ ﴾ ﴿٤﴾ الزمر
22. ﴿ وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ وَالْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَالسَّمَاوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾ ﴿١٧﴾ الزمر
23. ﴿ سُبْحَانَ رَبِّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبِّ الْعَرْشِ عَمَّا يُصِفُونَ ﴾ ﴿٨٤﴾ الزخرف
24. ﴿ أَمْ لَهُمْ إِلَهٌ غَيْرُ اللَّهِ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾ ﴿٤٣﴾ الطور
25. ﴿ هُوَ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْمَلِكُ الْقُدُّوسُ السَّلَامُ الْمُؤْمِنُ الْمُهَيْمِنُ الْعَزِيزُ الْجَبَّارُ الْمُتَكَبِّرُ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾ ﴿٢٣﴾ الحشر

فهذه المواضع كلها يتره الله فيها نفسه المقدسة عن كل ما وصفوه به من النقائص والعيوب في كل مقام بحسبه وببلاغة كلامه ونسبة التسييح لله فعلا منه — جلّ وعلا — لها دلالات وإشارات بيانية

دلالتها هنا في جميع المواضع هي التعظيم والتتريه والإجلال والله أحق من يعظم نفسه ويزهها وهو أحق من مدح كما قال النبي صلى الله عليه وسلم: "عَنْ عَلِيِّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ ، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ، أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كَانَ يَقُولُ فِي وَثْرِهِ : اللَّهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِرِضَاكَ مِنْ سَخَطِكَ ، وَبِمُعَافَاتِكَ مِنْ عُقُوبَتِكَ ، وَأَعُوذُ بِكَ مِنْكَ ، لَا أَحْصِي نِعْمَتَكَ ، وَلَا ثَنَاءَ عَلَيْكَ أَنْتَ كَمَا أَثْنَيْتَ عَلَيَّ نَفْسِكَ." (358)

المبحث الثاني: تسبيح الملائكة

ورد ذلك في مواطن كثيرة في كتاب الله وبصيغ متعددة وعبارات مختلفة:

1. قَالَ تَعَالَى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ عِنْدَ رَبِّكَ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِ وَيُسَبِّحُونَهُ وَلَهُ يَسْجُدُونَ

الأعراف ﴿٢٦﴾

تتنزل منزلة العلة للأمر بالذكر ، ولذلك صُدرت ب (إِنَّ) التي هي مجرد الاهتمام بالخبر، لا لرد تردد أو إنكار، لأن المخاطب متره عن أن يتردد في خير الله تعالى... والمراد بـ (إِنَّ الَّذِينَ عِنْدَ رَبِّكَ) الملائكة، ووجه جعل حال الملائكة علة لأمر النبي (ﷺ) بالذكر : أن مرتبة الرسالة تلحق صاحبها من البشر برتبة الملائكة فهذا التعليل بمنزلة أن يقال : اذكر ربك لأن الذكر هو شان قبيلك... والعندية في قوله : (عِنْدَ رَبِّكَ) عندية تشريف وكرامة وهؤلاء الملائكة هم العامرون للعالم العليا التي جعلها الله مشرفة بأنها لا يقع فيها إلا الفضيلة فكانت بذلك أشد اختصاصاً به تعالى من أماكن غيرها قصداً لتشريفها. (359)

ووجه العدول عن لفظ الملائكة إلى الموصولية : ما تؤذن به الصلة من رفعة منزلتهم ، فيتذرع بذلك إلى إيجاد المنافسة في التخلق بأحوالهم .

(ويسبحونه) أي يترهونه بالقول والاعتقاد عن صفات النقص ، وهذه الصلة هي

(358) رواه الترمذي برقم (3493)

(359) ينظر: التحرير والتنوير، الطاهر بن عاشور: 243/9

المقصودة من التعليل للأمر بالذكر .

واختيار صيغة المضارع لدلالاتها على التجديد والاستمرار ، أو كما هو المقصود وتقديم المعمول من قوله : (وله يسجدون) للدلالة على الاختصاص أي ولا يسجدون لغيره ، وهذا أيضاً تعريض بالمشركين الذين يسجدون لغيره ، والمضارع يفيد الاستمرار أيضاً (360)

2. قَالَ تَعَالَى: ﴿وَلَهُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَنْ عِنْدَهُ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِ

وَلَا يَسْتَحْسِرُونَ ﴿١٩﴾ يُسَبِّحُونَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لَا يَفْتُرُونَ ﴿٢٠﴾﴾ الأنبياء

و مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ يعم العقلاء وغيرهم وغلب اسم الموصول الغالب في العقلاء لأنهم المقصود الأول ... وجملة يُسَبِّحُونَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ بيان لجملة وَلَا يَسْتَحْسِرُونَ لأن من لا يتعب من عمل لا يتركه فهو يواظب عليه ولا يعيا منه .

والليل والنهار : ظرفان . والأصل في الظرف أن يستوعبه الواقع فيه ، أي يسبحون في جميع الليل والنهار .

وتسبيح الملائكة لا يعطلها تبليغ الوحي ولا غيره من الأقوال (361).

﴿فَإِنْ أَسْتَكْبَرُوا فَالَّذِينَ عِنْدَ رَبِّكَ يُسَبِّحُونَ لَهُ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَهُمْ لَا يَسْأَمُونَ ﴿٢٨﴾﴾

﴿٢٨﴾ فصلت ، وفيها ما لا يخفى من إثبات دوام التسبيح لهم ونفي السآمة والملل والفتور عنه

وقد تمدحت الملائكة بتسبيحهم لله كما في قول الله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ

لِلْمَلَكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ

(360) المصدر نفسه: 301/24

(361) التحرير والتنوير، الطاهر بن عاشور: 542/17

تُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَتُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٣٠﴾ البقرة وقوله

تعالى: ﴿ وَإِنَّا لَنَحْنُ الصَّافُونَ ﴿١٦٥﴾ وَإِنَّا لَنَحْنُ الْمُسَبِّحُونَ ﴿١٦٦﴾ الصافات

وجاء في القرآن الكريم الكلام عن تسبيح نوع آخر من الملائكة وهم حملة العرش ومن حوله قال تعالى:

﴿ وَتَرَى الْمَلَائِكَةَ حَافِينَ مِنْ حَوْلِ الْعَرْشِ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَقُضِيَ بَيْنَهُمْ بِالْحَقِّ وَقِيلَ

الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٧٥﴾ الزمر: ٧٥

﴿ الَّذِينَ يَمْجُلُونَ الْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيُؤْمِنُونَ بِهِ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا

رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَحْمَةً وَعِلْمًا فَاغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُوا وَاتَّبَعُوا سَبِيلَكَ وَقِهِمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ ﴿٧﴾

﴿ غَافِرٌ ﴿٨﴾ تَكَادُ السَّمَوَاتُ يَتَّقَطِرْنَ مِنْ فَوْقِهِنَّ وَالْمَلَائِكَةُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ

وَيَسْتَغْفِرُونَ لِمَنْ فِي الْأَرْضِ ۗ أَلَا وَمَا أَنْتَ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ﴿٥﴾ الشورى

وافتح الملائكة معرض كلامهم مع الله بالتسبيح وهذا أدب رفيع منهم وتعظيم لله

سبحانه قال تعالى: ﴿ قَالُوا سُبْحَانَكَ لَا عِلْمَ لَنَا إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَا إِنَّكَ أَنْتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ ﴿٣٢﴾

البقرة: ٣٢

وقال أيضا: ﴿ وَيَوْمَ يُحْشَرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ يَقُولُ لِلْمَلَائِكَةِ أَهْتُولَاءُ إِنَّا كُنَّا نَعْبُدُونَ ﴿٤٠﴾

قَالُوا سُبْحَانَكَ أَنْتَ وَلِيِّنَا مِنْ دُونِهِمْ بَلْ كَانُوا يَعْبُدُونَ الْجِنَّ أَكْثَرُهُمْ بِهِمْ مُؤْمِنُونَ ﴿٤١﴾

سبا

وأخبر عن حالهم في التسبيح فقال: ﴿ وَيُسَبِّحُ الرَّعْدُ بِحَمْدِهِ وَالْمَلَائِكَةُ مِنْ خِيفَتِهِ ﴿٤٢﴾

الرعد

يعني هيبة وإجلالا ورهبة(362)

المبحث الثالث: تسبيح المرسلين

إن نسبة التسبيح للمرسلين هي من أكثر العبادات ذكرا في القرآن الكريم

1. تسبيح يونس عليه السلام لله تعالى :

جاء ذكر تسبيح نبي الله يونس عليه السلام في موضعين من القرآن :

الموضع الأول: في قوله تعالى: ﴿ وَذَا النُّونِ إِذْ ذَهَبَ مُغْرَضًا فَظَنَّ أَنْ لَنْ نَقْدِرَ عَلَيْهِ

فَكَادَى فِي الظُّلُمَاتِ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ ﴿٨٧﴾

فَأَسْتَجِبْنَا لَهُ، وَنَجَّيْنَاهُ مِنَ الْغَمِّ، وَكَذَلِكَ نُفَجِّئُ الْمُؤْمِنِينَ ﴿٨٨﴾ الأنبياء

فإن (ذا النون) هو يونس عليه السلام (363)، وهو بمعنى: صاحب الحوت، كما قال تعالى :

﴿ فَأَصْبَرَ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلَا تَكُنْ كَصَاحِبِ الْحُوتِ إِذْ نَادَى وَهُوَ مَكْظُومٌ ﴿٤٨﴾ القلم و ذلك لأن

الحوت ابتلعه ، كما قال سبحانه- في قصته في موضع آخر: ﴿ فَالْنَقْمَةُ الْحُوتِ وَهُوَ مُلِيمٌ ﴿١٤٢﴾

الصفات

و هذا التسبيح الذي ذكر في هذه الآية إنما قاله يونس عليه السلام و هو في بطن الحوت،

وذلك معنى قوله تعالى : ﴿ فَكَادَى فِي الظُّلُمَاتِ ﴾، فإن الظلمات المذكورة هي جمع

ظلمة، و المقصود بها: ظلمات بطن الحوت الذي ابتلعه ؛لأن في كل جنياته ظلمة

، فجمعها لشدة تكاثفها، فكأنها ظلمة مع ظلمة (364).

(363) ينظر: تفسير الطبري: 73/9، و زاد المسير، لابن الجوزي: 381/5.

(364) ينظر: الجامع لأحكام القرآن، للقرطبي: 333/11، و البحر المحيط، لأبي حيان: 311/6.

و قيل المقصود بما: ظلمة بطن الحوت، و ظلمة البحر، و ظلمة الليل⁽³⁶⁵⁾. و قوله تعالى
﴿أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ﴾ تفسير لما نادى به
يونس عليه السلام في الظلمات، فـ(أن) هنا مفسرة⁽³⁶⁶⁾، و ما بعدها هو المنادى به، و الله تعالى
هو المنادى.

و المعنى كأن يونس عليه السلام نادى ربه تعالى في الظلمات بهذا القول المشتمل على
التهليل و التسبيح و الاعتراف بالذنب.

فـ(لا إله إلا أنت) تهليل، فيه أفراد الإلهية لله وحده، و ذلك يوجب أن لا يعبد إلا
إياه، و أن لا يسأل غيره⁽³⁶⁷⁾.

و (سبحانك) تسبيح، يتضمن تعظيم الرب و تزيهه عن السوء.

و المقام يقتضي هذا التزيه، فإن يونس عليه السلام كان مليماً⁽³⁶⁸⁾ عندما ابتلعه الحوت، فهو
بهذا التسبيح يتره الله تعالى عن الظلم و غيرها من المعاييب، فكأنه يقول: أنت مقدس و متره
عن ظلمي و عقوبي بغير ذنب، بل أنا الظالم لنفسي⁽³⁶⁹⁾، و لهذا قال - بعده - : ﴿إِنِّي
كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ﴾، و هذا الاعتراف يتضمن طلب المغفرة بوصف حاله⁽³⁷⁰⁾.

و قد كان التهليل و التسبيح مقدمة بين يدي هذا الاستغفار، و توسلا إلى الله جل جلاله
بتوحيده و الثناء عليه، و لهذا استجاب الله تعالى له، كما قال سبحانه: ﴿فَأَسْتَجِبْنَا لَهُ

وَنَجَّيْنَاهُ مِنَ الْغَمِّ وَكَذَلِكَ نُخَيِّجُ الْمُؤْمِنِينَ﴾

⁽³⁶⁵⁾ ينظر: تفسير الطبري 76/9-77، و تفسير القرآن العظيم، لابن كثير: 201/3.

⁽³⁶⁶⁾ ينظر: أضواء البيان، للشيخ محمد الأمين الشنقيطي: 747/4.

⁽³⁶⁷⁾ ينظر: مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية: 276/10.

⁽³⁶⁸⁾ سيأتي بيان ذلك- إن شاء الله- في الموضع الثاني.

⁽³⁶⁹⁾ ينظر: مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية: 248، 250/10.

⁽³⁷⁰⁾ ينظر: المصدر السابق: 244، 254/10.

و في الحديث عن سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: " دعوة ذي النون إذ دعا و هو في بطن الحوت: ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ﴾ ، فإنه لم يدع بها رجل مسلم في شيء قط إلا استجاب له " (371)

و الآية الكريمة شاهدة لهذا الحديث ، في قوله تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ نُنْجِي الْمُؤْمِنِينَ﴾ ، فإنه وعد و بشارة لكل مؤمن أن الله تعالى ينجيه كما أنجى يونس عليه السلام (372).

و إنما كانت هذه الدعوة بهذه المكانة؛ لأن " فيها من كمال التوحيد و التزيه للرب تعالى، و اعتراف العبد بظلمه لنفسه و ذنبه ما هو من أبلغ أدوية الكرب و الهم و الغم، و أبلغ الوسائل إلى الله سبحانه في قضاء الحوائج ، فإن التوحيد و التزيه يتضمنان إثبات كل كمال لله ، و سلب كل نقص و عيب و تمثيل عنه ، و الاعتراف بالظلم يتضمن إيمان العبد بالشرع و الثواب و العقاب ، و يوجب انكساره و رجوعه إلى الله ، و استقالته عشرته و الاعتراف بعبوديته و افتقاره إلى ربه .

فها هنا أربعة أمور قد وقع التوسل بها ك التوحيد، التزيه ، و العبودية ، و الاعتراف " (373)

الموضع الثاني: في قوله تعالى: ﴿وَإِنَّ يُونُسَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ﴾ (١٣٩) إِذْ أَبَقَ إِلَى الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ (١٤٠) فَسَاهَمَ فَكَانَ مِنَ الْمُدْحَضِينَ (١٤١) فَالْتَقَمَهُ الْحُوتُ وَهُوَ مُلِيمٌ (١٤٢) فَلَوْلَا أَنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُسَبِّحِينَ (١٤٣) لَلِئْتِ فِي بَطْنِهِ إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ (١٤٤) الصافات: ١٣٩ - ١٤٤

وقد ذكر الله في هذا الموضع ابتلاع الحوت ليونس عليه السلام ، و أنه كان مليما حينئذ، و

(371) سبق تخرجه

(372) ينظر: تيسير الكريم الرحمن، للسعدي: ص 530.

(373) مقتبس من: زاد المعاد، لابن القيم الجوزية: 208/4

ذلك في قوله تعالى: ﴿فَالنَّقْمَةُ الْحَوْتُ وَهُوَ مَلِيمٌ﴾ (١٤٤) أي: ابتلعه الحوت وحاله أنه مليم، و المليم: اسم فاعل من (ألام)، إذا أتى ما يلام عليه من الممر، و إن لم يلم (374).

ثم ذكر تعالى تسييحه، فقال: ﴿فَلَوْلَا أَنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُسَبِّحِينَ﴾ (١٤٣) لَلَيْتَ فِي بَطْنِهِ إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿١٤٤﴾. و في هذا بيان أنه عليه السلام كان يكثر التسييح لله تعالى؛ لأن الوصف باسم الفاعل (المسبحين) يدل على ذلك. و بين تعالى أن تسييحه كان سبب نجاته، و لو لا ذلك لبقى في بطن الحوت إلى يوم القيامة (375).

و الكلام السابق بين أن قوله (كان من المسبحين) يعني في بطن الحوت (376)، و أن تسييحه هذا هو المذكور في الموضع الأول الذي سبق الكلام عليه في قوله تعالى: ﴿وَذَا التَّوْنِ إِذْ ذَهَبَ مُغَضَّبًا فَظَنَّ أَنْ لَنْ نَقْدِرَ عَلَيْهِ فَنَادَى فِي الظُّلُمَاتِ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ﴾ (٨٧) فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَبَجَيْنَاهُ مِنَ الْعَذَابِ فَذَلِكِ نَسْجِ الْمُؤْمِنِينَ ﴿٨٨﴾ الأنبياء

و هذا هو الأظهر في معنى قوله تعالى (فَلَوْلَا أَنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُسَبِّحِينَ) أنه هو تسييحه عليه السلام و هو في بطن الحوت، و أنه تسييح اللسان الموافق للجنان، بقول: (لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ) (377).

و من ثم فسر بعضهم التسييح هنا بالصلاة، فعن قتادة في قوله تعالى: (فَلَوْلَا أَنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُسَبِّحِينَ)، قال: " كان كثير الصلاة في الرخاء، فنجاه الله بذلك. و قد كان يقال

(374) ينظر: تفسير الطبري: 527/10.

(375) ينظر: الجامع لأحكام القرآن، للطبري: 126/15.

(376) ينظر: تفسير البغوي: 60/7.

(377) ينظر: الجامع لأحكام القرآن، للقرطبي: 126/10.

في الحكمة: إن العمل الصالح يرفع صاحبه إذا ما عثر ، فإذا ما صرع وجد متكئا" (378).

و فسرهم بالذكر. فعن الضحاك بن قيس (379) قال: "أذكروا الله في الرخاء يذكركم في الشدة، إن يونس كان عبدا لله ذاكرا، فلما أصابته الشدة دعا الله، فقال الله ﴿فَلَوْلَا أَنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُسَبِّحِينَ ﴿١٤٣﴾ لَلَبِثَ فِي بَطْنِهِ إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿١٤٤﴾﴾ ، فذكره الله بما كان منه". قال الضحاك " أذكروا الله في الرخاء يذكركم في الشدة" (380).

و فسر التسبيح - في هذه الآية- أيضا بالعبادة و الطاعة (381).

و لا اختلاف في الحقيقة بين هذه التفسيرات ، فالصلاة متضمنة للذكر، وهما من العبادة و الطاعة، كما أن التسبيح يطلق على كل من الصلاة، الذكر، و العبادة، و سأتي بيان ذلك (382).

و كذلك لا اختلاف في الحقيقة بين القول بأن يونس عليه السلام كان من المسيحين في بطن الحوت ، و القول بأنه كان من المسيحين قبل ذلك، بل كلا القولين حق: أما كونه من المسيحين قبل إلتقام الحوت إياه، فيونس عليه السلام نبي مرسل قبل ذلك، و الأنبياء و الرسل هم - بلا ريب - أكثر الناس تسبيحا لله تعالى في جميع الأحوال و الأوقات كما سبق ذكره .

و أما كونه من المسيحين في بطن الحوت ، فقد دل عليه قوله تعالى: ﴿فَكَادَى فِي الظُّلُمَاتِ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ ﴿٨٧﴾﴾ الأنبياء ،

(378) رواه الطبري في تفسيره: 527/10.

(379) هو الضحاك بن قيس بن خالد بن وهب بن ثعلبة القرشي الفهري، أبو أنيس، مختلف في صحبته، فقيل: أدرك النبي ﷺ و سمع منه قبل البلوغ. و قيل: ولد قبل وفاة النبي ﷺ بنحو ست سنين أو أقل. شهد فتح دمشق و سكنها إلى حين وفاته، قتل رحمه الله يوم مرج راهط، سنة (64هـ). ينظر: تهذيب التهذيب: 4/448 و البداية و النهاية: 8/245-247. (380) رواه الطبري في تفسيره: 528/10. و ينظر: مسألة سبحان، لفظويه 54-55.

(381) ينظر: تفسير البغوي: 60/7. و ينظر: ما سبق في ص 103-104.

(382) ينظر: دلالة التسبيح على الذكر والدعاء ص 175 و 182

كما سبق الكلام عليه في الموضوع الأول.

و يمكن أن يكون هذا التسبيح المذكور هو المراد في قوله تعالى: ﴿فَلَوْلَا أَنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُسَبِّحِينَ﴾، و هذا هو الأظهر. و يمكن أن يراد بهذه الآية الأخيرة ما كان منه من التسبيح قبل حبسه في بطن الحوت. و لا يبعد القول بإعادة الوجهين معا في الآية⁽³⁸³⁾.

و الخلاصة من الموضوعين السابقين في قصة يونس عليه السلام أنه سبح الله التسبيح العظيم فكان تسبيحه سببا في نجاته و رفع درجاته.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية: "إن ما تضمنته قصة ذي النون مما يلام عليه كله مغفور بدله الله به حسنات، و رفع درجاته، و كان بعد خروجه من بطن الحوت و توبته أعظم درجة منه قبل أن يقع ما وقع. قال تعالى: ﴿فَأَصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلَا تَكُنْ كَصَاحِبِ الْحُوتِ إِذْ نَادَى وَهُوَ مَكْظُومٌ ﴿٤٨﴾ لَوْلَا أَنْ تَدْرَكَهُ نِعْمَةٌ مِّنْ رَبِّهِ لَنَدَّ بِالْعُرَىٰ وَهُوَ مَذْمُومٌ ﴿٤٩﴾ فَأَجْنَبَهُ رَبُّهُ فَجَعَلَهُ مِنَ الصَّالِحِينَ ﴿٥٠﴾﴾ القلم، و هذا بخلاف حال ابتلاع الحوت، فإنه قال: ﴿فَالنَّقَمَةُ الْحُوتِ وَهُوَ مُلِيمٌ ﴿١٤٤﴾﴾ الصافات، فأخبر أنه في تلك الحال مليم، و المليم: الذي فعل ما يلام عليه، فالملام تلك الحال لا في حال نبذه بالعرء و هو سقيم⁽³⁸⁴⁾، فكانت حاله بعد قوله: ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا أَنتَ سُبْحٰنَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّٰلِمِينَ﴾ أرفع من حاله قبل أن يكون ما كان، و الاعتبار بكمال النهاية لا بما جرى في البداية، و الأعمال بخواتيمها"⁽³⁸⁵⁾.

و لهذا جاء النهي في السنة المطهرة عن تفضيل أحد نفسه على يونس عليه السلام ظناً أن ما في القرآن الكريم من قصته فيها حط من مرتبته ففي الصحيح من حديث أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ أنه قال - - يعني الله تبارك و تعالى - - : لا ينبغي لعبدي أن يقول: أنا خير من

⁽³⁸³⁾ و فسر الآية بالوجهين معا السعدي رحمه الله في: تيسير الكريم الرحمن: ص707.

⁽³⁸⁴⁾ يشير إلى قوله تعالى: ﴿لَلَّيْلِ فِي بَطْنِهِ﴾ إِلَى يَوْمٍ يُبْعَثُونَ ﴿١٤٤﴾ فَبَدَّدْنَاهُ بِالْعُرَىٰ وَهُوَ سَقِيمٌ ﴿١٤٥﴾ الصافات، وهذه الآية من تكلمات قصة يونس السابق ذكرها في الموضوع الثاني.

⁽³⁸⁵⁾ مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية: 299/10.

يونس بن متى عليه السلام " (386).

و هذا اللفظ يدل على العموم، أي: لا ينبغي لأحد أن يفضل نفسه على يونس بن متى (387).

و في رواية أخرى لأبي هريرة رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: " من قال: أنا خير من يونس بن متى فقد كذب " (388).

و قال شيخ الإسلام ابن تيمية - تعليقا على هذا الحديث - : " فمن ظن أنه خير من يونس بحيث يعلم أنه ليس عليه أن يعترف بظلم نفسه، فهو كاذب، و لهذا كان سادات الخلائق لا يفضلون أنفسهم على يونس في هذا المقام (389)، بل يقولون كما قال أبوهم آدم (390)، و خاتمهم محمد صلى الله عليه وسلم (391) " (392).

و قد جاءت الإشارة إلى علة المنع من أن يظن أحد أنه خير من يونس عليه السلام فيما رواه علي رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: " قال - - يعني الله وَعَلَيْكَ - - : ليس لعبد لي أن يقول : أنا خير من يونس بن متى، قد سبح الله وَعَلَيْكَ في الظلمات " (393).

فكان في هذا الحديث بيان للمعنى الذي من أجله منع أن يفضل أحد نفسه على

(386) أخرجه مسلم في صحيحه: 4/1846، برقم (2376). و أخرجه البخاري في صحيحه - مع الفتح -

451/6، برقم (3416)، و لكن وقع عنده غير مضاف إلى الله تبارك و تعالى.

(387) مقتبس من شرح العقيدة الطحاوية، لابن أبي العز: 1/161.

(388) أخرجه البخاري في صحيحه - مع الفتح - : 8/267، برقم (4604).

(389) يعني مقام الاعتراف بظلم الإنسان نفسه.

(390) يعني قول آدم عليه السلام فيما ذكر الله تعالى: ﴿ مِنْ دُونِ اللَّهِ فَاهْدُوهُمْ إِلَى صِرَاطِ الْجَحِيمِ ﴾ (الأعراف

(391) يعني ما ثبت في حديث علي رضي الله عنه: " أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان إذا قام إلى الصلاة قال: "وجهت وجهي للذي فطر السموات و الأرض حنيفا... " ، و فيه : " أنت ربي و أنا عبدك ، ظلمت نفسي و اعترفت بذنبي فاغفر لي ذنوبي

جميعا ، إنه لا يغفر الذنوب إلا أنت " أخرجه مسلم في صحيحه: 1/534-536، برقم (771)،

(392) مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية: 10/254.

(393) أخرجه ابن أبي شيبة في مصنفه: 11/540، و أبو جعفر الطحاوي في شرح معاني الآثار: 4/316، و في شرح

مشكل الآثار، تحقيق شعيب الأرنؤوط: 3/47، برقم (1013).

يونس بن متى عليه السلام ؛ لأنه سبح الله تعالى في الظلمات بقوله : ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَانَكَ
إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ﴾ .

2. تسبيح موسى عليه السلام لله تعالى :

جاء ذكر تسبيح نبي الله و كليمه موسى عليه السلام في موضعين :

الموضع الأول : في قوله تعالى : ﴿وَلَمَّا جَاءَ مُوسَى لِمِيقَاتِنَا وَكَلَّمَهُ رَبُّهُ قَالَ رَبِّ أَرِنِي
أَنْظُرْ إِلَيْكَ قَالَ لَنْ نَرِنِّي وَلَكِنْ نُنظِرُ إِلَى الْجَبَلِ فَإِنْ اسْتَقَرَّ مَكَانَهُ فَسَوْفَ تَرِنِّي فَلَمَّا تَجَلَّى رَبُّهُ
لِلْجَبَلِ جَعَلَهُ دَكًّا وَخَرَّ مُوسَى صَعِقًا فَلَمَّا أَفَاقَ قَالَ سُبْحَانَكَ بُنْتُ إِلَيْكَ وَأَنَا أَوَّلُ
الْمُؤْمِنِينَ﴾ (١٤٣) الأعراف .

و في هذه الآية بيان أن موسى عليه السلام طمع في رؤية ربه سبحانه حين كلمه من وراء
حجاب ، و لم يعنفه الله تعالى على ذلك ؛ لأنه سأل ما يجوز⁽³⁹⁴⁾ ، و لكن الله عز وجل أراد أن
يري موسى عليه السلام من كمال عظمته و جلاله ما يعلم به أن قوة البشرية في هذه الدار الدنيا
لا تثبت لرؤيته و مشاهدته عيانا⁽³⁹⁵⁾ ، و لهذا قال له : ﴿لَنْ نَرِنِّي وَلَكِنْ نُنظِرُ إِلَى الْجَبَلِ فَإِنْ
اسْتَقَرَّ مَكَانَهُ فَسَوْفَ تَرِنِّي﴾ ، يعني أن الجبل - على صلابته و عظمته - لا يستقر
مكانه إذا تجلى الله تعالى له ، فكيف بالإنسان الضعيف؟

و قد تبين ذلك لموسى عليه السلام حين رأى الجبل قد صار دكا عندما تجلى له ربه
سبحانه أدنى جبل ، و سقط موسى مغشيا عليه من هول ما رأى ، و هذا معنى قوله تعالى
: ﴿فَلَمَّا تَجَلَّى رَبُّهُ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُ دَكًّا وَخَرَّ مُوسَى صَعِقًا﴾ (396) .

(394) ينظر : مسألة سبحان، لفظويه: ص38.

(395) ينظر: مدارج السالكين، لابن القيم: 3/99.

(396) ينظر: تفسير الطبري: 6/53-54، و تفسير القرآن العظيم، لابن كثير: 2/255، و تيسير الكريم الرحمن، للسعدي:

جاء ذكر تسبيح نبي الله داود عليه السلام في ثلاثة مواضع في القرآن الكريم

الموضع الأول: في قوله تعالى: ﴿وَسَخَّرْنَا مَعَ دَاوُدَ الْجِبَالَ يُسَبِّحْنَ وَالطَّيْرَ وَكُنَّا فَتَعِيلِينَ﴾ (٧٩) الأنبياء

وفي هذه الآية يخبر تعالى عما خص به نبيه داود عليه السلام من العجائب الدالة على صدق نبوته و على عظمة الله تعالى، و هو تسخير الجبال و الطير للتسبيح معه إذا سبح.

و ذكر بعض المفسرين في معنى تسخير الجبال و الطير للتسبيح مع داود عليه السلام أنه هو جعلها بحيث تطيعه إذا أمرها بالتسبيح (403).

و ذكر بعضهم في معنى ذلك أنه عليه السلام كان إذا قرأ سمعه الله تعالى تسبيح الجبال و الطير ، لينشط في التسبيح و يشناق إليه (404).

و الصواب في معناه: أنه عليه السلام كان إذا سبح الله تعالى و أثنى عليه ، سبحت بتسبيحه الجبال و الطير ، و جاوبنه بالذكر و الشاء على الله تبارك و تعالى (405).

الموضع الثاني: في قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا دَاوُدَ مِنَّا فَضْلًا يَجِبَالٌ أُوتِي مَعَهُ وَالطَّيْرُ﴾ (١٠) سبأ

و في هذه الآية أخبر الله تعالى أنه أعطى داود عليه السلام فضلا ، و هذا الفضل هو النبوة ، و الكتاب ، و الملك ، و الصوت الحسن ، و تسخير الجبال و الطير للتسبيح معه ، و غير ذلك مما أنعم الله عليه (406)، و لهذا قال: ﴿فَضْلًا﴾ فجعله نكرة ، للدلالة على التعظيم

(403) ينظر: الجامع لأحكام القرآن، للقرطبي: 320/11.

(404) ينظر: تفسير القرآن، لأبي المظفر السمعاني: 396/3.

(405) ينظر: تفسير القرآن العظيم، لابن كثير: 196/3، و تيسير الكريم الرحمن، للسعدي: ص528.

(406) ينظر: زاد المسير، لابن الجوزي: 435/6، و تفسير القرآن العظيم، لابن كثير: 534/3، و تفسير أبي

السعود: 124/7.

و التفخيم ، كما أن قوله : ﴿ مِنَّْا ﴾ لبيان شرف هذا الفضل بإضافته إلى الله تعالى ، و أنه وحده المنعم به على عبده و رسوله داود عليه السلام (407).

ثم قال تعالى : ﴿ يَجِبَالُ أَوْيٍ مَعَهُ ﴾ ، و هذا نداء منه تعالى للجبال (408) و أمر لها بالتأويب مع داود عليه السلام ، و التأويب : هو الترجيع (409) ، ف ﴿ أَوْيٍ ﴾ معني : رجعي (410).

و أكثر المفسرين على أن معناه هنا : سبحي و رجعي التسبيح (411) ؛ لأنه متعلق بالظرف ﴿ مَعَهُ ﴾ ، و الظمير فيه عائد إلى داود عليه السلام ، فمعني ﴿ أَوْيٍ مَعَهُ ﴾ أي : سبحي معه إذا سبح ، و رجعي التسبيح (412) . و في هذا دليل على أن داود عليه السلام كان يسبح الله تعالى ، و كانت الجبال و الطير تردد التسبيح معه بأمر الله تعالى و تسخيره (413).

و قد ذكر بعض العلماء أن الله تعالى أعطى داود عليه السلام من الصوت الحسن الذي كان إذا سبح سبحت معه الجبال الراسيات الصم الشامخات ، و وقفت له الطيور السارحات الغاديات الرائحات ، و تجاوبه بأنواع اللغات ، و ترجع بترجيعة التسبيح (414).

الموضع الثالث في قوله تعالى : ﴿ وَأَذْكُرْ عَبْدَنَا دَاوُدَ ذَا الْأَيْدِ إِنَّهُ أَوَّابٌ ﴾ (١٧) إِنَّا سَخَرْنَا الْجِبَالَ

مَعَهُ يَسْبِحْنَ بِالْعَشِيِّ وَالْإِشْرَاقِ (١٨) وَالطَّيْرَ مَحْشُورَةً كُلٌّ لَهُ أَوَّابٌ ﴾ (١٩) ص

(407) ينظر: تفسير أبي السعود: 124/7.

(408) ينظر: معاني القرآن و إعرابه، للزجاج: 243/4.

(409) ينظر: القاموس المحيط، للفيروز آبادي: مادة (أوب): ص76.

(410) ينظر: تفسير القرآن العظيم، لابن كثير: 534/3-535.

(411) ينظر: تفسير الطبري: 349/10-350، و تفسير القرآن، لأبي المظفر السمعاني: 319/4، و تفسير القرآن

العظيم، لابن كثير: 534/3.

(412) ينظر: تفسير الطبري: 349/10، و زاد المسير، لابن الجوزي: 435/6، و أضواء البيان، للشيخ محمد الأمين

الشنقيطي: 155/3.

(413) ينظر: تيسير الكريم الرحمن، للسعدي: 676.

(414) ينظر: تفسير القرآن العظيم، لابن كثير: 534/3، و البداية و النهاية، له: 11-10/2.

و لا اختلاف بين هذه المعاني المذكورة ، بل كلها صحيحة و متلازمة . و في هذه المواضع المذكورة دلالة واضحة على أن نبي الله و رسوله داود عليه السلام كان يكثر التسبيح لله تعالى و العبادة له ، و على أن الله سبحانه قد أعطاه من الفضل و النعمة ما خصه به دون غيره من عباده ، كتسخير الجبال و الطير للتسبيح معه ⁽⁴¹⁵⁾.

و سيأتي - بإذن الله - كلام أيضا على هذه الآيات السابقة ، عند بيان تسبيح الكائنات كلها لله تعالى ⁽⁴¹⁶⁾.

4. تسبيح زكريا عليه السلام لله تعالى:

تسبيح نبي الله زكريا عليه السلام مذكور في ما ذكر الله تعالى من دعائه عليه السلام بأن يهب الله ولدا ، و أن الله عز وجل بشره بالولد على لسان الملائكة ، و تمام ذلك ما حكاه تعالى من قوله : ﴿ قَالَ رَبِّ اجْعَلْ لِي آيَةً قَالِ آيَاتُكَ إِلَّا تُكَلِّمَ النَّاسَ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ إِلَّا رَمَزًا وَادَّكُرَ رَبِّكَ كَثِيرًا وَسَبِّحْ بِالْعَشِيِّ وَالْإِبْكَرِ ﴾ ^(٤١) آل عمران

ثم أمره الله تعالى بكثرة الذكر و التسبيح في هذه الحال ، فقال : ﴿ وَادَّكُرَ رَبِّكَ كَثِيرًا وَسَبِّحْ بِالْعَشِيِّ وَالْإِبْكَرِ ﴾ .

قال ابن عطية : " و قوله تعالى : ﴿ وَسَبِّحْ ﴾ معناه : قل : سبحان الله . و قال قوم معناه صل . و القول الأول أصوب ؛ لأنه يناسب الذكر ، و يستغرب مع امتناع الكلام مع الناس " اهـ ⁽⁴¹⁷⁾.

و قد أوضح الله تعالى - في موضع آخر - أن هذا التسبيح الذي أمر به نبيه زكريا عليه السلام قد أمر به زكريا قومه أيضا ، و ذلك في قوله تعالى : ﴿ فَخَرَجَ عَلَى قَوْمِهِ مِنَ الْمِحْرَابِ

⁽⁴¹⁵⁾ ينظر: روح المعاني: للألوسي: 174/23، و تيسير الكريم الرحمن، للسعدي: ص676.

⁽⁴¹⁶⁾ ينظر: ص 134 - 159 من البحث،

⁽⁴¹⁷⁾ ينظر: المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز: 81/3.

فَأَوْحَىٰ إِلَيْهِمْ أَن سَبِّحُوا بُكْرَةً وَعَشِيًّا ﴿١١﴾ ﴿١١﴾ مريم

قال الحافظ ابن كثير: ﴿فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوْمِهِ مِنَ الْمِحْرَابِ﴾ أي : الذي بشر فيه بالولد ﴿فَأَوْحَىٰ إِلَيْهِمْ﴾ أي : إشارة خفية سريعة ﴿أَن سَبِّحُوا بُكْرَةً وَعَشِيًّا﴾ أي : موافقة له فيما أمر به في هذه الأيام الثلاثة زيادة على أعماله شكرا لله على ما أولاه " اهـ (418).

و بهذا يتبين اهتمام نبي الله زكريا عليه السلام بالتسبيح ، و حثه لقومه على التسبيح .

5. تسبيح عيسى عليه السلام لله تعالى :

من تسبيح نبي الله عيسى عليه السلام لله تعالى ما جاء في قوله تعالى: ﴿اللَّهُ اللَّهُ يَكْعِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ ءَأَنْتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّي آلِهَتَيْنِ مِن دُونِ اللَّهِ قَالِ سُبْحَانَكَ مَا يَكُونُ لِي أَن أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقِّ إِنْ كُنْتُ قُلْتُهُ فَقَدْ عَلِمْتَهُ تَعَلَّمَ مَا فِي نَفْسِي وَلَا أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ إِنَّكَ أَنْتَ عَلَّمُ الْغُيُوبِ ﴿١١٦﴾ المائدة ، و هذا تقرير و توبيخ للنصارى الذين اتخذوا عيسى و أمه مريم إلهين من دون الله تعالى ، و قالوا : إن الله تعالى ثالث ثلاثة . فيقول الله تعالى هذا كلام لعيسى عليه السلام فيتبرأ عيسى منهم و من مقولتهم الكفرية، و يتره الله تعالى عن ذلك بالتسبيح له (419).

و اختلف أهل العلم في ما ورد في هذه الآية : هل هو خبر عما مضى - كما هو ظاهر اللفظ - ، أو هو خبر عما يستقبل ، و لكن عبر عنه بالماضي لتحقق وقوعه قولان :

اختار الأول منهما الإمام ابن جرير الطبري و أيده في تفسيره (420).

و اختار جمهور أهل العلم القول الثاني ، و هو أن الله تعالى يقول ذلك لعيسى عليه السلام يوم القيامة ، لتقرير النصارى و توبيخهم على رؤوس الأشهاد يوم القيامة ؛ لأنهم ادعوا أن

(418) ينظر: تفسير القرآن العظيم: 3/119.

(419) ينظر: تفسير القرآن العظيم، لابن كثير: 2/124، و تيسير الكريم الرحمن، للسعدي: ص239.

(420) ينظر: تفسير الطبري: 5/137-138.

عيسى أمرهم باتخاذها إليها (421).

و يؤيد هذا القول أن الله تعالى ذكر في السياق: ﴿ هَذَا يَوْمٌ يَنْفَعُ الصَّادِقِينَ صِدْقُهُمْ ﴾
المائدة

وأن كثيرا من أمور الغيب ذكر في القرآن بلفظ الماضي ليدل على الوقوع و
الثبوت (422) و المقصود هنا أن نبي الله عيسى استهل جوابه بالتسبيح و ذلك
لأمرين:

أحدهما: تزيهها لله تعالى عما أضيف إليه مما لا يليق به و براءة إليه سبحانه مما قالته
الكفرة من النصرارى فيه و في أمه فيعلم من كان يقول ذلك أنه إنما كان يقول باطلا .

الآخر: تعظيما لله تعالى و ثناء عليه و خضوعا له و خوفا منه لا إله غيره و لا رب
سواه (423).

و قد ظهر في هذه الآية كمال أدب عيسى عليه السلام في خطابه لربه عز وجل فلم يقل في
جوابه: لم أقل شيئا من ذلك، و إنما أخبر بكلام لازمه أن ينفي عن نفسه هذه المقالة التي تنافي
منصبه الشريف و أن هذا من الأمور المحالة و نزه ربه عز وجل عن ذلك أتم تزيهه بالتسبيح له و
رد العلم إلى عالم الغيب و الشهادة (424).

6. تسبيح خاتم النبيين محمد صلى الله عليه وآله تعالى :

معلوم أن نبينا صلى الله عليه وآله هو أعلم الناس به و أخشاهم له و هو أفضل من سبح الله تعالى و
نزه و أبلغ من دعا إلى التسبيح و نوه و قد ورد ذلك في قول الله تعالى: ﴿ قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي

(421) ينظر: تفسير القرآن، لأبي المظفر السمعاني: 82/2، و المحرر الوجيز، لابن عطية: 239/5، و زاد المسير، لابن

الجوزي: 463/2، و الجامع لأحكام القرآن، للقرطبي: 374/6.

(422) ينظر: تأويل مشكل القرآن، لابن قتيبة: ص 295.

(423) ينظر: تفسير الطبري: 137/5-138، و الجامع لأحكام القرآن، للقرطبي: 375/6.

(424) ينظر: مدارج السالكين، لابن القيم: 357/2.

أَدْعُوا إِلَى اللَّهِ عَلَى بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي وَسُبْحَانَ اللَّهِ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿١٠٨﴾ يوسف :
١٠٨

فقد جاء فيها التصريح بالتسبيح في قوله: ﴿وَسُبْحَانَ اللَّهِ﴾ و هو معطوف على قوله:
﴿هَذِهِ سَبِيلِي﴾، بمعنى: قل: هذه سبيلي، و قل: سبحان الله (425)، فهو أمر له بالتسبيح.

و يصح أن يكون معطوفا على قوله: ﴿أَدْعُوا إِلَى اللَّهِ﴾، بمعنى: ادعوا إلى الله و أسبح
الله، فيكون (سبحان) اسم مصدر جاء بدلا من الفعل أسبح للمبالغة، و تقديره: و أسبح
الله سبحانا (426).

و على هذا التقدير فهو أمر له ﷺ بأن يخبر عن نفسه أنه يسبح الله تعالى، و هو
إشارة إلى أن التسبيح من أهم وظائف الأنبياء قولا و اعتقادا و عملا .

و نظير هذه المواضع كثير في كتاب الله، فقد أمر الله ﷻ نبيه الكريم بالتسبيح في
حالات و أوقات كثيرة و مختلفة و عددها في كتاب الله خمسة عشر موضعا: في أربع عشرة
آية:

1. ﴿فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَكُن مِّنَ السَّاجِدِينَ ﴿٩٨﴾﴾ الحجر: ٩٨ الحجر
2. ﴿فَاصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ غُرُوبِهَا وَمِنْ
ءَأْنَآئِ اللَّيْلِ فَسَبِّحْ وَأَطْرَافَ النَّهَارِ لَعَلَّكَ تَرْضَىٰ ﴿١٣٠﴾﴾ طه
3. ﴿فَسَبِّحْ بِأَسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ ﴿٧٤﴾﴾ الواقعة
4. ﴿فَسَبِّحْ بِأَسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ ﴿١٦﴾﴾ الواقعة

(425) ينظر: البحر المحیط، لأبي حيان: 346/5.

(426) ينظر: تفسير التحرير و التنوير، لابن عاشور 66/13.

5. ﴿ فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ ٥٢ ﴾ الحاقة
6. ﴿ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُ كَانَ تَوَّابًا ٣ ﴾ النصر
7. ﴿ وَتَوَكَّلْ عَلَى الْحَيِّ الَّذِي لَا يَمُوتُ وَسَبِّحْ بِحَمْدِهِ وَكَفَى بِهِ بِذُنُوبِ عِبَادِهِ خَيْرًا ٥٨ ﴾ الفرقان
8. ﴿ فَأَصْبِرْ إِيَّاكَ وَعَدَّ اللَّهُ حَقًّا وَاسْتَغْفِرْ لِذَنْبِكَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ بِالْعَشِيِّ وَالْإِبْكَرِ ٥٥ ﴾ غافر
9. ﴿ فَأَصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ الْغُرُوبِ ٣٩ ﴾ ق
- ﴿ ٣٩ ﴾ ق
10. ﴿ وَأَصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ حِينَ تَقُومُ ٤٨ ﴾ الطور
11. ﴿ وَمِنَ اللَّيْلِ فَسَبِّحْهُ وَأَدْبَرَ النُّجُودِ ٤٠ ﴾ ق
12. ﴿ وَمِنَ اللَّيْلِ فَسَبِّحْهُ وَإِدْبَرَ النُّجُومِ ٤٩ ﴾ الطور
13. ﴿ وَمِنَ اللَّيْلِ فَاسْجُدْ لَهُ، وَسَبِّحْهُ لَيْلًا طَوِيلًا ٢٦ ﴾ الإنسان
14. ﴿ سَبِّحْ أَسْمَاءَ رَبِّكَ الْأَعْلَى ١ ﴾ الأعلى

المبحث الرابع : تسبيح صالحى البشر

لما كان التسبيح من هدى الأنبياء - عليهم الصلاة و السلام - الذي كثر تعبدهم لله تعالى به و دعوتهم الناس إليه ، كان أدب عباد الله المؤمنين ، و شغل أوليائه المتقين ،

إتباعاً لأنبياء الله المرسلين ، و تمسكاً بهديهم المستبين .

و قد أخبر الله تعالى عن المؤمنين و مدحهم بتسبيحهم له في مواضع من القرآن الكريم ، و منها :

1. قوله تعالى: ﴿ **إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ لِأُولِي الْأَلْبَابِ** ﴿١٩٠﴾ الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَطْلًا سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ ﴿١٩١﴾ ﴾ آل عمران

ففي هذا الموضع أخبر الله تعالى أن في خلق السموات و الأرض آيات دالة على عظمة الخالق و كمال صفاته ، لذوي العقول التامة الزكية التي تدرك الأشياء بحقائقها على تجلياتها ، و هم المؤمنون الموقنون بالله تعالى (427).

و إنما خصهم الله تعالى بذلك ؛ و بصفات كماله و نعوت جلاله (428) ، و لهذا فهم يذكرون الله تعالى في جميع أحوالهم ، بسرائرهم و ضمائرهم و ألسنتهم (429) ، و يتفكرون في مخلوقات الله تعالى تفكيراً يوصلهم إلى فهم ما فيها من الحكم الباهرة ، و الآيات الدالة على عظمة الخالق و قدرته و علمه و حكمته و اختياره و رحمته (430) ، فتلهج ألسنتهم - عندئذ بالتسبيح له عز و جل ، تعظيماً و تزيهاً له عن العيب و خلق الباطل ، و عن كل نقص أو تمثيل ، وهو قولهم : ﴿ **رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَطْلًا سُبْحَانَكَ** ﴾ و قولهم : ﴿ **فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ** ﴾ ، دعاء قرنوا به تسبيحهم ، كما سبق بيان ذلك عند الكلام على قرن

(427) ينظر: تفسير القرآن العظيم، لابن كثير: 1/447.

(428) ينظر: تفسير الكريم الرحمن، للسعدي: ص161.

(429) ينظر: تفسير الطبري: 3 / 550 ، و تفسير القرآن العظيم : لابن كثير : 1 / 337

(430) ينظر: المصدرين نفسيهما .

التسبيح بالدعاء (431) .

2- و قوله تعالى : ﴿ وَيَقُولُونَ سُبْحَانَ رَبِّنَا إِنْ كَانَ وَعَدُّ رَبِّنَا لَمَفْعُولًا ﴾ ﴿١٠٨﴾
الإسراء:

و هذا إخبار عن تسبيح مؤمني أهل الكتاب ، ابتداءه تعالى بأمر نبيه صلى الله عليه و سلم أن يقول للكفار المكذبين بالقرآن الكريم : ﴿ ءَامِنُوا بِهِ أَوْ لَا تُؤْمِنُوا ﴾ ، ((و هذا من الله عز و جل على وجه التبكيت لهم و التهديد ، لا على وجه التخيير)) (432) ، ((أي : سواء آمنت ب هـام لا — فهو حق في نفسه ، أنزله و نوه بذكره في سالف الأزمان في كتبه المتزلة علة رسله)) (433) . ثم ذكر تعالى تسبيحهم له في قوله : قَالَ تَعَالَى : ﴿ وَيَقُولُونَ سُبْحَانَ قُلِّ أَدْعُوا كَان وَعَدُّ رَبِّنَا لَمَفْعُولًا ﴾ ﴿١٠٨﴾ . أي : و يقول هؤلاء الذين أوتوا العلم من قبل يتلى عليهم : (سُبْحَانَ قُلِّ) (434) ، و هذا تسبيح تزييه لله تعالى عن تكذيب المكذبين بالقرآن (435) ، و تعظيم و توقير له ﷻ على قدرته التامة و أنه لا يخلف الميعاد، و هذا قالوا : ﴿ أَدْعُوا كَان وَعَدُّ رَبِّنَا لَمَفْعُولًا ﴾ ﴿١٠٨﴾ (436)

لأن الله ﷻ وعد أهل السنة أنبيائه و رسله المتقدمين أن يبعث في آخر الزمان نبيا عظيم الشأن ، يملأ الأرض نورا و هدى ، و يظهر دينه على الدين كله ، و ينشر دعوته في أقطار الأرض ، و على رأس أمته تقوم الساعة (437) .

و أهل الكتاب مجمعون على أن الله وعدهم بهذا النبي ، فالسعداء منهم عرفوا الحق

(431) ينظر: مبحث قرن التسبيح بالدعاء

(432) ينظر: الجامع لأحكام القرآن: 340/10.

(433) ينظر: تفسير القرآن العظيم: 72/3.

(434) ينظر: المصدر نفسه

(435) ينظر: زاد المسير: 98/5.

(436) ينظر: تفسير القرآن العظيم: 72/3.

(437) ينظر: مدارج السالكين، لابن القيم: 123/3، و هداية الحيارى، له: ص300-301.

فآمنوا بع و اتبعوه . و الأشقياء قالوا : نحن ننتظره ، و لم يبعث بعد رسولا ، و أولئك لما سمعوا القرآن من الرسول عرفوه أنه الرسول الموعود ، فخرروا سجدا لله إيمانا به و برسوله ، و تصديقا بوعده الذي أنجزه فأروه عيانا ، فقالوا : (سبحان ربنا إن كان وعد ربنا لمفعولا)⁽⁴³⁸⁾ .

3- و قوله تعالى : ﴿ فِي بُيُوتٍ أُذِنَ لِلَّهِ أَنْ تَرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا أَسْمُهُ يُسَبِّحُ لَهُ فِيهَا بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ ﴾⁽³⁶⁾ رِجَالٌ لَا نُلْهِمُهُمْ بَحْرَةَ وَلَا بَيْعَ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَإِقَامِ الصَّلَاةِ وَإِيتَاءِ الزَّكَاةِ يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ الْقُلُوبُ وَالْأَبْصَارُ ﴾⁽³⁷⁾ النور

وهذا تنويه بالمؤمنين لتسبيحهم لله تعالى ، و اعتبارهم به و بغيره من أنواع الذكر و العبادات ، و وعد من الله لهم بالجزاء على ذلك و زيادتهم من فضله بلا حساب .

فقوله : (في بيوت) يعني بها المساجد التي هي بيوت الله⁽⁴³⁹⁾ .

و قيل : يعني بها بيوت كلها⁽⁴⁴⁰⁾ ، و التحقيق أنها المساجد⁽⁴⁴¹⁾ ، لدلالة ما بعدها⁽⁴⁴²⁾ .

و في متعلق الجار و المجرور قولان :

أحدهما : أنه متعلق بقوله تعالى - في الآية قبلها - : ﴿ كَمَشْكُورٍ ﴾⁽³⁷⁾ النور ، و المعنى : مثل نوره كمشكاة فيها مصباح في بيوت⁽⁴⁴³⁾ ، و ذلك أن الله تعالى ضرب بالمشكاة لقباً للمؤمن و ما فيها من الهدى و العلم ، و ذكر محلها و هي المساجد التي هي

⁽⁴³⁸⁾ مقتبس من : هداية الحيارى : ص : 301

⁽⁴³⁹⁾ ينظر: تأويل مشكل القرآن، لابن قتيبة: ص329، و تفسير الطبري: 329/8، و تفسير القرآن العظيم: 303/3، و

تيسير الكريم الرحمن، للسعدي: ص569.

⁽⁴⁴⁰⁾ ينظر: تفسير الطبري: 330/8.

⁽⁴⁴¹⁾ ينظر: أضواء البيان: 4/116.

⁽⁴⁴²⁾ ينظر: تفسير الطبري: 330/8.

⁽⁴⁴³⁾ ينظر: معاني القرآن و إعرابه، للزجاج: 4/45، و تفسير الطبري: 329/8.

أحب البقاع إليه من الأرض ، و هي بيوته التي تعبد فيها و يوحد⁽⁴⁴⁴⁾.

و الثاني : أنه متعلق ب (يسبح) و يكون (فيها) تكريرا على التوكيد ، فيكون المعنى : يسبح لله رجال في بيوت أذن الله و وصى بأن ترفع⁽⁴⁴⁵⁾ .

و قوله تعالى:(أذن الله أن ترفع) أي : أمر الله و وصى بأن ترفع⁽⁴⁴⁶⁾ .

و في معنى (أن ترفع) قولان :

أحدهما : أن معناها : أن تبنى⁽⁴⁴⁷⁾ ، و اختار الطبري هذا المعنى .

الثاني : أن معناها : أن تعظم⁽⁴⁴⁸⁾ .

و الأولى تفسيرها بالقولين معا، فيدخل في رفعها بناؤها و عمارتها، و تطهيرها من الدنس و النجاسة و الأذى، و صونها عن اللغو و الأقوال و الأفعال التي لا تليق فيها⁽⁴⁴⁹⁾ .

و قوله تعالى : ﴿ وَيُذَكِّرْ فِيهَا أَسْمُهُ ﴾^(٣٦) النور ، معطوف على قوله (أن ترفع) ، أي ((و أذن لعباده أن يذكروا اسمه فيها))⁽⁴⁵⁰⁾ ، و ((و يدخل في ذلك الصلاة كلها فرضها و نفلها، و قراءة القرآن، و التسبيح و التهليل و غيره من أنواع الذكر، و تعلم العلم و تعليمه و المذاكرة فيها ، و الاعتكاف ، و غير ذلك من أنواع العبادات التي تفعل في المساجد))⁽⁴⁵¹⁾ .

⁽⁴⁴⁴⁾ ينظر: تفسير القرآن العظيم: 303/3.

⁽⁴⁴⁵⁾ ينظر: معاني القرآن، للفرآء: 254/2، و معاني القرآن و إعرابه، للزجاج: 45/4.

⁽⁴⁴⁶⁾ ينظر: تفسير القرآن العظيم، لابن كثير: 303/3، و تيسير الكريم الرحم، للسعدي: ص569.

⁽⁴⁴⁷⁾ ينظر: معاني القرآن، للفرآء: 254/2، و معاني القرآن و إعرابه، للزجاج: 45/4، و تفسير الطبري: 330.

⁽⁴⁴⁸⁾ ينظر: تفسير الطبري: 330/8.

⁽⁴⁴⁹⁾ ينظر: تفسير القرآن العظيم: 303-305، و تيسير الكريم الرحمن: ص569.

⁽⁴⁵⁰⁾ ينظر: تفسير الطبري: 330/8.

⁽⁴⁵¹⁾ ينظر: تيسير الكريم الرحمن: ص569.

ثم مدح الله تعالى عمارها بالعبادة ، فقال : ﴿ يُسَبِّحُ لَهُ فِيهَا بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ ﴾ (٣٦)

رِجَالٌ ﴿٤٥٢﴾

و عامة القراء قرؤوا (يُسَبِّحُ) بفتح الباء المشددة مبنيًا للفاعل، و جعله فعلا للرجال و خبرا عنهم، و ترفع به الرجال على الفاعلية .

و بعض القراء قرؤوا (يسبح) بفتح الباء الموحدة المشددة مبنيًا للمفعول، و على هذه حذف فاعل (يسبح) ، و يكون على قوله : (و الآصال) وفقا تماما ، و ابتداء بقوله : (رجال) و هو مفسر للفاعل المحذوف ، كأنه لما قال : (يسبح له فيها) ، قيل : و من يسبح له فيها ؟ قال : (رجال) ، أي : يسبح له فيها رجال ، فيكون رفع رجال هاهنا بفعل مضمر ، و يظهر بهذا اتفاق القراءتين في المعنى (453) .

و التسبيح المسند إلى الرجال في هذه الآية فسر بالصلاة (454)، و الصلاة تسمى تسبيحا كما سبق.

و فسر بالتسبيح بالقول ، و يدخل فيه التسبيح في الصلاة و غيرها .

و خص الوقتين - الغدو ، و هو أول النهار ، الآصال جمع أصيل ، و هو آخر النهار - لشرفهما و لتيسير السير فيهما إلى الله تعالى (455) .

و قوله (رجال) ((فيه إشعار بمهمهم السامية ، و نياتهم و عزائمهم العالية التي بها صاروا عمارا للمساجد التي هي بيوت الله في أرضه ، و مواطن عبادته و شكره و توحيده

(452) ينظر: المصدر السابق.

(453) معاني القرآن، للفراء: 2/253، و معاني القرآن و إعرابه، للزجاج: 4/45-46، و تفسير الطبري: 8/330-

331، و تفسير القرآن العظيم: 3/305، و أضواء البيان: 4116.

(454) ينظر: تفسير الطبري: 8/331، و تفسير القرآن العظيم: 3/305.

(455) ينظر: المصدر السابق.

المبحث الخامس: تسبيح الكائنات كلها لله تعالى:

و من أنواع التسبيح باعتبار الفاعل ما وقع في الكتاب من إسناد التسبيح إلى أصناف الكائنات المختلفة، من الحيوانات و النباتات و الجمادات العاقلة و غير العاقلة ، و الناطقة و غير الناطقة، و النامية و الجامدة، و كل ما يصدق عليه أنه شيء مما خلق الله في السماوات أو في الأرض أو في ما بينهما من المخلوقات التي لا يحيط بأنواعها و لا يحصى عددها إلا الله الخالق القدير الذي أحاط بكل شيء علما ، و أحصى كل شيء عددا .

ففي كتاب الله تعالى نحو ثلاث عشرة آية من إحدى عشرة سورة (457) أسند فيها التسبيح إلى هذه الكائنات الجملة في بعضها ، و مفصلة في بعضها الآخر.

- فأما الآيات التي اسند فيها التسبيح إلى الكائنات الجملة ، فهي :

- 1- قوله تعالى : ﴿ سَبِّحْ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾ (١) الحديد
- 2- قوله تعالى : ﴿ سَبِّحْ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾ (١) الحشر، الصف
- 3- و قوله تعالى : ﴿ هُوَ اللَّهُ الْخَلِيقُ الْبَارِئُ الْمُصَوِّرُ لَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى يُسَبِّحُ لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾ (٢٤) الحشر
- 4- و قوله تعالى : ﴿ يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ الْمَلِكِ الْقُدُّوسِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ ﴾ (١) الجمعة

(456) ينظر: تفسير القرآن العظيم: 305/3-306.

(457) هي: سورة الرعد، الآية: 13، و سورة الإسراء، الآية: 44، و سورة الأنبياء، الآية: 79، و سورة الأنبياء، الآية: 79، و سورة النور، الآية: 41، و سورة سبأ، الآية: 10، و سورة ص، الآيتان: 18، 19، و سورة الحديد، الآية: 1، و سورة الحشر: الآيتان: 1، 24، و سورة الصف، الآية: 1، و سورة الجمعة، الآية: 1، و سورة التغابن، الآية: 1.

5- و قوله تعالى : ﴿ يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ لَهُ الْمُلْكُ
وَلَهُ الْحَمْدُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ (١) التغابن

و في هذه الآيات جميعها يخبر الله ﷻ أن ما في السماوات و ما في الأرض سبح له و يسبح له.

و اللام في قوله: (لله) تقدم بيان معناها عند الكلام على تعدية التسييح، و أنها تحمل أوجهها ، أظهرها أنها للاختصاص ، أي : أنها تفيد كمال الإرادة من الفاعل المسبح ، و كمال الاستحقاق من الله المسبح تبارك و تعالى (458).

و لفظ (ما) الذي أسند إليه التسييح في هذه الآيات اسم موصول بمعنى الذي ، و يستوي فيه المذكر و المؤنث ، و المفردة و المثني و الجمع ، و يستعمل في غير العاقل غالبا ، و العاقل قليلا (459) ، و ذكر المفسرون أنه - في هذه الآيات -- متناول للعاقل و غير العاقل ، ، بتغليب غير العاقل لكثرتة (460).

كما ذكر المفسرون و غيرهم أنه من صيغ العموم (461)، فيكون إسناد تسييح إليه في هذه الآيات شاملا لكل شيء في نطاق السموات و الأرض (462)، فقوله: (ما في السموات) يعني كل ما في السموات السبع من الملائكة و غيرهم، كالشمس والقمر والنجوم ، و غير ذلك (463) .

و جاء لفظ (السموات) مجموعا في جميع هذه الآيات ؛ لأن المراد الإخبار عن تسييح

(458) ينظر:ص61من هذا البحث.

(459) ينظر:مفردات ألفاظ القرآن،للاغب:ص784،و الإتيان في علوم القرآن،للسيوطي:557/1.

(460) ينظر:أضواء البيان، الشنقيطي:252/5.

(461) ينظر:المصدر السابق:268/5.

(462) ينظر:المصدر نفسه و الموضع.

(463) ينظر:تفسير الطبري:88/12،و النكت و العيون،للماردي:468/5،و تفسير السمرقندي:321/3،و الجامع

لأحكام القرآن،للقرطبي:235/17،و تفسير الخازن:245/4.

سكانها على كثرتهم و تباين مراتبهم ، فكان لا بد من جمع محلهم (464).

و قوله (و ما في الأرض) يعني كل ما في الأرضين من الإنس و الجن ، و الأنعام و الدواب، و الجبال و الأشجار، و النبات و البحار، و غير ذلك (465).

و كرر ذكر (ما) مع (الأرض) في هذه الآيات — ما عدا آية سورة الحديد — لزيادة التقرير و التنبيه على استقلال كل من الفريقين (ما في السموات و ما في الأرض) بالتسبيح (466).

و قد ختم الله ﷻ كل آية من الآيات السابقة ببعض أسمائه الحسنی الدالة على صفاته العليا المقتضية لتسبيحه، فختم آية الحديد، و آية الحشر، و آية الصف، بقوله تعالى: ﴿الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ أي: هو الغالب الذي لا يغلبه شيء، الحكيم الذي يضع الأمور في مواضعها ، و يوقعها في مواقعها (467). فبعزته قهر كل شيء فلا يمتنع عليه شيء، و لا يستعصى عليه مستعص، و بحكمته أحسن كل شيء خلقه ، فلا يخلق شيئاً عبثاً ، و لا يشرع ما لا مصلحة فيه (468). و من تمام عزته و حكمته براءته عن كل سوء و عيب و نقص، فإن ذلك ينافي العزة التامة و الحكمة التامة (469). و ختم آية الجمعة بقوله تعالى: ﴿الْمَلِكِ الْقُدُّوسِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ﴾، فذكر مع الاسمين السابقين اسمه الملك ، و اسمه القدوس و قد تقدّم الكلام على هذين الاسمين و بيان مناسبة قرن التسبيح بهما.

و ختم آية التغابن بقوله تعالى: ﴿لَهُ الْمُلْكُ وَلَهُ الْحَمْدُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ أي: أنه سبحانه المختصّ بالملك كلّ، و الحمد كلّ، و كمال القدرة .

(464) ينظر: بدائع الفوائد، لابن القيم: 127/1.

(465) ينظر: تفسير الطبري: 88/12، و تفسير السمرقندي: 321/3، و تفسير الخازن: 245/4.

(466) ينظر: تفسير أبي السعود: 224/8.

(467) ينظر: أضواء البيان: 252/5.

(468) ينظر: تيسير الكريم الرحمن: ص 849، 945.

(469) ينظر: شفاء العليل، لابن القيم: 66/2.

فهذه الأوصاف العظيمة مما يدعو إلى تسبيحه و عبادته وحده لا شريك له (470).
و أما الآيات التي أسند فيها التسبيح إلى الكائنات مفصلة، فهي : قوله تعالى:

1. ﴿وَيُسَبِّحُ الرَّعْدُ بِحَمْدِهِ وَالْمَلَائِكَةُ مِنْ خِيفَتِهِ﴾ (١٣) الرعد

و هذه الآية سبق ذكرها في تسبيح الملائكة (471)، و ذكرت هنا بناء على ما قيل في تفسير الرعد من أنه : صوت اصطكاك الأجرام العلوية (472)، أو ريح تختنق تحت السحاب فتصاعد فيكون منه ذلك الصوت (473)، و عليه فإنما خص الرعد بالتسبيح لأنه من أعظم الأصوات (474).

2. قوله تعالى : ﴿وَسَخَّرْنَا مَعَ دَاوُدَ الْجِبَالَ يُسَبِّحْنَ وَالطَّيْرَ وَكُنَّا فَاعِلِينَ﴾ (٧٨) الأنبياء

و هذه الآية سبق ذكرها عند الكلام على تسبيح نبينا داود عليه السلام و فيها إسناد التسبيح إلى الجبال و الطير، فإن قوله ﴿يُسَبِّحْنَ﴾ ، جملة حالية من الجبال ، أي : مسبحات لله تعالى (475).

و قوله : ﴿وَالطَّيْرَ﴾ ، معطوف على الجبال ، أي : و سخرنا الطير تسبح مع داود (476). و قيل : هو مفعول معه ، أي : و سخرنا الجبال يسبحنا مع الطير (477).

و قدم تعالى ذكر الجبال على الطير ، لان تسخيرها و تسبيحها أعجب و أدخل في

(470) ينظر: تيسر الكريم الرحمن، للسعدي: ص862.

(471) ينظر: ص 110 من البحث.

(472) ينظر: تفسير القرآن، لأبي مظفر: 84/3، و مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية: 264-263/24.

(473) ينظر: تفسير الطبري: 186/1، و الجامع لأحكام القرآن، للقرطبي: 217/1.

(474) ينظر: زاد المسير، لابن الجوزي: 314/4.

(475) ينظر: البحر المحيط، لأبي حيان: 307/6، و تفسير النسفي: 131/3.

(476) ينظر: المصدرين السابقين، و أضواء البيان، للشنقيطي: 155/3.

(477) ينظر: المصادر السابقة نفسها.

الإعجاز ، لأنها جماد ، بخلاف الطير ، فإنها حيوان لها صوت (478).

و لهذا قال سبحانه : ﴿ وَكُنَّا فَاعِلِينَ ﴾ (٧٨) أي : فاعلين هذه الأعاجيب من تسخير الجبال و الطير لداود عليه السلام ، و تسبيحهن معه (479) ، ففي هذا القول تأكيد لما قبله و الموجب لذلك أن تسخير الجبال و الطير و تسبيحهن أمر عجب خارق للعادة ، مظنة لأن يكذب به الكفرة الجهلة (480) .

3. قوله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَا دَاوُدَ مِنَّا فَضْلًا يَجِبَالُ أَوِي مَعَهُ .

وَالطَّيْرُ ﴾ (١٠) سبأ ، و هذه الآية كالتي قبلها ، سبق ذكرها في تسبيح نبي الله داود عليه السلام ، و فيها أيضا بيان تسبيح الجبال و الطير لله تعالى ، فإن قوله : ﴿ يَجِبَالُ أَوِي مَعَهُ ﴾ (١٠) أمر للجبال بترجيح التسبيح مع داود عليه السلام كما سبق (481) . و قوله : ﴿ وَالطَّيْرُ ﴾ ، قرئ بالنصب و في إعرابه أوجه :

أولها: أنه معطوف على (فضلا) ، أي: و لقد آتينا داود منا فضلا و الطير، ويكون

قوله ﴿ يَجِبَالُ أَوِي مَعَهُ ﴾ ، جملة معترضة (482) . و هذا الوجه ليس بظاهر في معنى الآية .

الثاني : أنه معطوف على (جبال) و توجيهه - كما قال ابن جرير الطبري: (أن

الطير نادى الجبال ، فتكون منصوبة من أجل أنها معطوفة على مرفوع لا يحسن إعادة رافعه عليه ، فيكون كالمصدر (483) عن جهته (484) .

(478) ينظر: البحر المحيط: 308/6، و تفسير النسفي: 131/3، و البداية و النهاية، لابن كثير: 290/6.

(479) ينظر: البحر المحيط، لأبي حيان: 308/6.

(480) ينظر: أضواء البيان، للشيخ محمد الأمين الشنقيطي: 156/3.

(481) ينظر: ص: 121 من البحث.

(482) ينظر: معاني القرآن و إعرابه، للزجاج: 243/4، و روح المعاني، للآلوسي: 114/22.

(483) أي كالمصروف عن وجهه، حيث عدل به عن الرفع إلى النصب؛ لأن حرف النداء لا يدخل على الاسم المحلى ب:

أل.

(484) ينظر: تفسير الطبري: 350/10.

و وجهه غيره بأن العطف هنا على محل (جبال)، لأن كل منادي منصوب، و لكنه إذا كان معرفة غير مضاف و لا شبيها به بني على ما يرفع به في محل نصب⁽⁴⁸⁵⁾، كأنه قال:

دعون الجبال و الطير، فالطير معطوف على محل الجبال في الأصل⁽⁴⁸⁶⁾.

الثالث: أنه مفعول معه، أي: أنه نصب على معنى (مع)، كما تقول: قمت و زيدا، و أي: يا جبال أوبي معه الطير⁽⁴⁸⁷⁾. و قد اعترض على هذا الوجه بأنه يؤدي إلى تكرار لفظ (مع). و أجيب عنه بأنهما معمولان متغايران كل منهما باب على حدة⁽⁴⁸⁸⁾.

الرابع: أنه منصوب بفعل مقدر مناسب، و اختلف في هذا الفعل: فقده بعضهم (سخرنا)، يعني: و سخرنا له الطير⁽⁴⁸⁹⁾.

و قدره بعضهم (أمرنا)، أي: و أمرنا الطير أن تسبح معه⁽⁴⁹⁰⁾.

و قدره بعضهم (نادينا)، أي: و نادينا الطير لمثل ذلك من ترجيع التسبيح معه⁽⁴⁹¹⁾. و قرئ: (والطير) بالرفع، و في إعرابه أوجه أيضا:

أولها: أنه معطوف على (الجبال)، و إن لم يحسن نداؤها بحرف النداء الذي نوديت

⁽⁴⁸⁵⁾ قال ابن مالك في الألفية:

"و ابن المعرف المنادى المفردا على الذي في رفعه قد عهدا"

ألفية ابن مالك في النحو و الصرف: ص 49. و ينظر: شرح ابن عقيل على ألفية ابن مالك: 2/258.

⁽⁴⁸⁶⁾ ينظر: معاني القرآن و إعرابه، للزجاج: 4/243، و تفسير النسفي: 3/465، و روح المعاني، للألوسي: 22/243.

⁽⁴⁸⁷⁾ ينظر: معاني القرآن و إعرابه، للزجاج: 4/243.

⁽⁴⁸⁸⁾ ينظر: روح المعاني: للألوسي: 22/114.

⁽⁴⁸⁹⁾ ينظر: مجاز القرآن، لأبي عبيدة: 2/143، و تفسير الطبري: 10/350-351.

⁽⁴⁹⁰⁾ ينظر: تفسير القرآن، لأبي المظفر: 4/319.

⁽⁴⁹¹⁾ ينظر: أضواء البيان: 3/155.

به الجبال (492) .

و عند من يقول : إن (الجبال) مبني على الصم في محل نصب ، يكون العطف هنا على لفظ الجبال ، تشبيها للحركة البنائية العارضة بالحركة الإعرابية (493) .

الثاني : أنه مرفوع على البدل من منادى محذوف ، و التقدير : يا جبال و يا أيها الطير أوبي معه (494) ، فالطير بدل من (أوي) ، المنادى .

الثالث : أنه معطوف على الضمير في (أوبي) ، و هو ياء المخاطبة العائدة إلى الجبال ، و المعنى : يا جبال رجعي التسييح أنت و الطير (495) .

و هذه الأوجه الإعرابية المتعلقة و إن اختلفت إعرابا ، فهي متفقة معنى ، غير أن بعضها أظهر في الدلالة على المعنى من بعض ، فإن في كل وجه من الأوجه المذكورة بيان أن الطير مأمورة بمثل ما أمرت به الجبال من تأويب - و هو التسييح - مع داود العليلي

" و قد أشار بعض المفسرين إلى ما في هذه الآية من عظمة الإلهية ، حيث جعلت الجبال و الطير بمتلة العقلاء الذين إذا أمروا بالطاعة أطاعوا ، و إذا دعوا أحابوا ، إشعارا بأنه ما من حيوان و لا جماد إلا و هو منقاد لمشيئة الله تعالى " (496) .

4. قوله ﴿ إِنَّا سَخَرْنَا الْجِبَالَ مَعَهُ يُسَبِّحْنَ بِالْعَشِيِّ وَالْإِشْرَاقِ ﴾ (١٨) وَالطَّيْرَ مَحْشُورَةً كُلِّ

لَهُ أَوَّابٌ ﴿١٩﴾ ص

و أسند التسييح هنا أيضا إلى الجبال و الطير ، كما في الآيتين السابقتين ، و لكن قيد

(492) ينظر: تفسير الطبري: 315/10، و الوجه الثاني في قراءة النصب.

(493) تفسير النسفي: 465/3،

(494) ينظر: معاني القرآن و إعرابه: 243/4.

(495) ينظر: تفسير الطبري: 351/10، و معاني القرآن و إعرابه: 243/4، و روح المعاني: 114/22.

(496) ينظر: تفسير النسفي: 465/3.

تسبيح الجبال - هنا - بوقتي (العشي و الإشراق) أي : بآخر النهار و أوله (497).

كما اخبر عن الطير بأهما (محشورة) أي : مجموعة من كل ناحية (498).

و قيل : محبوسة في الهواء (499). و لا اختلاف بين المعنيين ، و ذلك أن داود عليه السلام كان إذا سبح الله تعالى جاوبته الجبال بالتسبيح ، و اجتمعت إليه الطير ساجدة في الهواء ، فسبحت معه ، فتكون محبوسة باجتماعها (500)، و لهذا ختم الله تعالى الآية بقوله : ﴿كُلُّ لَهْءٍ أَوَّابٌ﴾ ، و للمفسرين أقوال في بيان المراد بذلك :

فقال بعضهم : يعني بالكل : كل طير ، بضمير في (له) داود عليه السلام ، و أبواب بمعنى : مطيع رجاع إلى طاعته و أمره ، أي : كل طير لداود مطيع رجاع إلى طاعته و أمره بالتسبيح معه . (501).

و قال بعضهم : يعني بالكل : كل واحد من جبال و الطير ، و اللام في (له) تعليلية ، و الضمير لداود عليه السلام (و أبواب) بمعنى : مسبح ، أي : كل من جبال و طير منة أجل داود ، أي : لأجل تسبيحه و مسبح الرجاع إلى تسبيح ، لأنها كانت تسبح لتسبيحه ، و يرجعن التسبيح معه ، فكلما سبح داود عليه السلام سبحت الجبال و الطير معه . (502).

و من قائلين بهذا التفسير من أشار إلى أن الأبواب وضع الموضوع المسبح ، لأن الجبال و الطير كانت ترجع تسبيح مع داود عليه السلام ، و المرجع رجاع ، لأنه يرجع إلى

(497) ينظر: تفسير الطبري: 562/10، و معاني القرآن و إعرابه، للزجاج: 324/4، و البداية و النهاية، لابن كثير: 10/2.

(498) ينظر: تفسير الطبري: 562/10، و تفسير القرآن، لأبي المظفر السمعاني: 430/4، و تفسير النسفي: 56/4، و تيسير

الكريم الرحمن، للسعدي: ص711.

(499) ينظر: تفسير القرآن العظيم، لابن كثير: 33/4.

(500) ينظر: تفسير الطبري: 562/10، و تفسير القرآن العظيم، لابن كثير: 33/4.

(501) ينظر: زاد المسير، لابن الجوزي: 111/7.

(502) ينظر: معاني القرآن و إعرابه، للزجاج: 324/4، و روح المعاني، للألوسي: 176/23.

فعله و الرجوع إلى فعله رجوعاً بعد رجوع.⁽⁵⁰³⁾

أو لأن الأواب : هو التواب الكثير الرجوع إلى الله تعالى ، و من دأبه ان يكثر ذكر الله تعالى ، و يديم تسيبته و تقديسه⁽⁵⁰⁴⁾ .

و قال بعضهم : يعني بالكل : كل الطير ، و الضمير في (له) لله تعالى و (أواب) بمعنى : مسبح ، أي كل الطير لله تعالى مسبح⁽⁵⁰⁵⁾ .

و عليه فقوله : (كل له أواب) استثناء مقرر لمضمون قوله: (و الطير محشورة)، مصرح بما فهم منه إجمالاً من تسيب الطير⁽⁵⁰⁶⁾ .

و ذكر بعضهم نحو التفسير السابق ، و لكنه جعل المعنى بالكل : الجبال و الطير ، أي: كل من الجبال و الطير لله تعالى مسبح ، و هذا التفسير موافق لقوله تعالى — الآية السابقة — : ﴿يَجِبَالٌ أَوْبَىٰ مَعَهُ وَالطَّيْرُ﴾ سبأ : ١٠ ، فكل من الجبال و الطير لله تعالى مسبح أواب امتثالاً لذلك⁽⁵⁰⁷⁾ .

و آخرون من المفسرين جعلوا المعنى بالكل : داود عليه السلام ، و الجبال ، و الطير ، أي : كل من داود و الجبال و الطير لله تعالى أواب ، أي : مسبح مرجع للتسيب⁽⁵⁰⁸⁾ .

و هذه الأقوال و إن بدت متنوعة ، لكنها ليست متعارضة ، و أظهرها دلالة على معنى الآية — في نظري — التفسيران الأخيران .

و قد ظهر في الآيات الثلاث المذكورة إسناد التسيب إلى الجبال و إلى الطير، كما

⁽⁵⁰³⁾ ينظر: روح المعاني:176/23

⁽⁵⁰⁴⁾ المصدر السابق نفسه، و تفسير النسفي:57/4.

⁽⁵⁰⁵⁾ ينظر: تفسير الطبري:563/10، و زاد المسير:111/7.

⁽⁵⁰⁶⁾ ينظر: تفسير أبي السعود:219/7، و روح المعاني:176/23.

⁽⁵⁰⁷⁾ ينظر: تيسير الكريم الرحمن:ص711.

⁽⁵⁰⁸⁾ ينظر: معاني القرآن و إعرابه، للزجاج:324/4، و تفسير النسفي:57/4، و روح المعاني:176/23.

ظهر في الآية المذكورة قبل هذه الآيات إسناد التسبيح إلي الرد ، فهذا مما وقع في كتاب الله تعالى من إسناد تسبيح إلى الكائنات المفصلة .

و هناك آيتان أخريان أسند فيهما التسبيح إلى الكائنات المفصلة ، هما :

1- ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَسْجُدُ لَهُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالطَّيْرِ صَفَّتِ كُلُّ قَدِّعَمَ صَلَاتُهُ

وَسَبِّحُهُ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِمَا يَفْعَلُونَ ﴿٤١﴾ النور

ففي هذه الآية أخبر الله تعالى عن تسبيح الجميع من في السموات و الأرض له على العموم ، و عن تسبيح الطير له على الخصوص .

و قوله : (ألم تر) الهمزة فيه للتقرير ، و الرؤية : و هي الرؤية القلبية المرادفة للعلم⁽⁵⁰⁹⁾ ، أي : لم تنظر بعين القلب ، فتعلم أن الله تعالى يسبح له من في السموات و الأرض⁽⁵¹⁰⁾ و الخطاب هنا للنبي ﷺ ، و المراد به المكلفين⁽⁵¹¹⁾ .

و قوله : ﴿ أَنَّ اللَّهَ يَسْجُدُ لَهُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ﴾ فيه إسناد التسبيح إلى (من) ، و هي كـ (ما) في موصوليتها ، و استوائها في المذكر و المؤنث ، و المفرد و المثنى و الجمع . و الغالب استعمالها في العاقل عكس (ما)⁽⁵¹²⁾ ، كما سبق⁽⁵¹³⁾ .

و قال المفسرون: إن (من) هنا عامة لكل شيء ، العاقل و غير العاقل ، لكنه لما اجتمع ذلك عبر عنه بـ (من) تغليبا لمن يعقل على ما لا يعقل⁽⁵¹⁴⁾ .

فيكون قوله : (من في السموات و الأرض) متناولا لجميع الكائنات ، من الملائكة ،

⁽⁵⁰⁹⁾ ينظر: روح المعاني: 18/187.

⁽⁵¹⁰⁾ ينظر: تفسير الطبري: 9/336.

⁽⁵¹¹⁾ ينظر: روح المعاني: 18/187.

⁽⁵¹²⁾ ينظر: الإلتقان في علوم القرآن: للسيوطي: 1/565.

⁽⁵¹³⁾ ينظر: ص 155 من هذا البحث.

⁽⁵¹⁴⁾ ينظر: المحرر الوجيز: لابن عطية: 11/315، و البحر المحيط، لأبي حيان: 6/425.

و الإنس ، و الجن ، و الحيوانات ، و الجمادات ⁽⁵¹⁵⁾. و قوله تعالى : ﴿كُلُّ قَدْ عَلِمَ صَلَاتَهُ وَتَسْبِيحَهُ﴾ أي : كل من هذه المخلوقات المذكورة المصرح به — كالطير — ، و المدرج تحت عموم (من في السموات و الأرض)، و قد علم صلاته و تسبيحه ⁽⁵¹⁶⁾.

و في المعنى بالضمير المستتر في (علم)، و بالضميرين في (صَلَاتَهُ وَتَسْبِيحَهُ) ثلاثة أقوال للمفسرين:

القول الأول: أن الضمير المستتر الذي هو فاعل (علم) يعود إلى الله تعالى في قوله : (الَّذِينَ أَنْزَلَ اللَّهُ مَسِيحًا لَهُ) الآية ، و الضميران في (صَلَاتَهُ وَتَسْبِيحَهُ) يعودان إلى (كل). و على هذا فالمعنى : كل من هذه المخلوقات قد علم الله صلاة المصلي منها ، و تسبيح المسبح منها ⁽⁵¹⁷⁾. و يكون هذا إخبارا عن علم الله تعالى بعبادات كل المخلوقات ، و إن لم يعلم العباد منها إلا ما أطلعهم الله عليه ⁽⁵¹⁸⁾.

و هذا القول هو الذي رجحه ابن جرير الطبري في تفسيره ، و أبو إسحاق الزجاج في معاني القرآن و إعرابه .

القول الثاني : أن الضمير المستتر في (علم) ، و الضميرين في (صَلَاتَهُ وَتَسْبِيحَهُ) جميعا يعود إلى (كل) ، و عليه فالمعنى : كل من هذه المخلوقات قد علم صلاة نفسه و تسبيح نفسه ، أي : قد علم ما كلف من ذلك و ألزمه ، فهو يثابر عليه ⁽⁵¹⁹⁾.

⁽⁵¹⁵⁾ ينظر: تفسير الطبري: 336/9، و تفسير القرآن العظيم: 308/3، و تيسير الكريم الرحمن: ص 570.

⁽⁵¹⁶⁾ ينظر: البحر المحيط، لأبي حيان: 420/6، و روح المعاني: 188/18، تيسير الكريم الرحمن: ص 570.

⁽⁵¹⁷⁾ ينظر: تفسير الطبري: 337/9، و معاني القرآن و إعرابه، للزجاج: 48/4-49، و أحكام القرآن، للحصاص: 189/5، و المحرر الوجيز: لابن عطية: 315/11، و زاد المسير، لابن الجوزي: 51/6، و تيسير الكريم الرحمن: ص 570، و أضواء البيان: 124/4.

⁽⁵¹⁸⁾ ينظر: تيسير الكريم الرحمن: ص 570.

⁽⁵¹⁹⁾ ينظر: تفسير الطبري: 337/9، و معاني القرآن و إعرابه، 48/4، و المحرر الوجيز: 315/11، و زاد المسير: 52/6، و تفسير القرآن العظيم: لابن كثير: 308/3، و تيسير الكريم الرحمن: ص 570، و أضواء البيان: 124/4.

و على هذا المعنى يكون قوله : ﴿كُلُّ قَدْ عَلِمَ صَلَاتَهُ، وَتَسْبِيحَهُ﴾ (استثنافاً (جاء به لبيان كمال عراقه كل واحد مما ذكر من الطير و ما اندمج في عموم (مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ) في التزيه ، و رسوخ قدمه فيه بتمثيل حاله بحال من يعلم ما يصدر عنه من الأفعال ، فيفعلها عن قصد و نية ، لا عن اتفاق بلا روية) (520).

و قد رجع الشيخ محمد الأمين الشنقيطي ذلك ، و قال - في تقرير ذلك - : (و قد قدمنا في سورة النحل في الكلام على قوله تعالى : ﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِّنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ﴾ (١٧) النحل ، كلام الأصوليين في أن اللفظ إن احتمل التوكيد و التأسيس حمل على التأسيس ، و بينا أمثلة لذلك من القرآن العظيم . و إذا علمت ذلك ، فاعلم أن الأظهر - على مقتضى ما ذكرنا عن الأصوليين - أن يكون ضمير الفاعل المحذوف في قوله : ﴿كُلُّ قَدْ عَلِمَ صَلَاتَهُ، وَتَسْبِيحَهُ﴾ (٤١) . راجعاً إلى قوله : (كل) ، أي : كل من المصلين قد علم صلاة نفسه ، و كل من المسيحين قد علم تسبيح نفسه ، و على هذا القول فقوله تعالى : ﴿وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِمَا يَفْعَلُونَ﴾ (٤١) تأسيس لا تأكيد ، أما على القول بأن الضمير راجع إلى الله ، أي : قد علم الله صلته ، يكون قوله : ﴿وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِمَا يَفْعَلُونَ﴾ (٤١) ، كالتكرار مع ذلك ، فيكون من قبيل التوكيد اللفظي .

و قد تقدم أن المقرر في الأصول أن الحمل على التأسيس أرجح من الحمل على التوكيد ، كما تقدم إيضاحه (521).

القول الثالث : أن الضمير المستتر في (علم) يعود إلى (كل) ، و الضميران في

(صَلَاتَهُ، وَتَسْبِيحَهُ) يعودان إلى الله تعالى. و المعنى : كل من هذه المخلوقات قد علم صلاة الله تعالى و تسبيحه اللذين أمر بهما و هدى إليها ، أي : علم أن ذلك لله تعالى وحده (522) و هذا قوله - في نظري - ضعيف ، لأن الإضافة في (صَلَاتَهُ، وَتَسْبِيحَهُ) - بناء عليه - تكون

(520) مقتبس من: روح المعاني: 18/188.

(521) تيسير الكريم الرحمن: 570.

(522) ينظر: أضواء البيان: 4/124.

للمفعول ، و معلوم أن (صلاة) اسم مصدر فعل لازم ، و هو (صلي ، يصلي ، صلاة)
فإضافته للمفعول مشكلة في المعنى ، و يظهر أنه لضعفه قد أهمل ذكره بعض المحققين من
المفسرين فيما تحمله الآية من الأوجه .

أما القولان الأول و الثاني فقويان ، و أقواهما القول الثاني ، كما تقدم في كلام
الشنقيطي .

و ذكر بعض المفسرين في معنى قوله : (كل قد علم صلاته وتسيحه) أن الصلاة
لبنى آدم ، و التسيح لما سواهم من الخلق ، و هو مروى عن مجاهد (523) .

و قد تضمن الكلام السابق بيان معنى قوله تعالى - في ختام هذه الآية ﴿ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِمَا
يَفْعَلُونَ ﴾ (٤١) ، و قال ابن جرير الطبري : ((يقول تعالى ذكره : و الله ذو علم بما يفعل
كل مصل و مسبح منهم ، لا يخفي عليه شيء من أفعالهم ، طاعتها و معصيتها ، محيط
بذلك كله ، و هو مجازيهم على ذلك كله)) (524) .

2- قوله تعالى : ﴿ تُسَبِّحُ لَهُ السَّمَوَاتُ السَّبْعُ وَالْأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ
بِحَمْدِهِ وَلَكِنْ لَا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا ﴾ (٤٤) الإسراء : ٤٤

و في هذه الآية أخبر الله تعالى عن تسبيح الكائنات له على التفصيل و الإجمال .

فقوله : ﴿ تُسَبِّحُ لَهُ السَّمَوَاتُ السَّبْعُ ﴾ ، فيه إسناد التسبيح إلى السموات السبع ، و جاء
لفظ (السموات) في هذه الآية (مجموعة إخبارا بأنها تسبح له بذواتها و أنفسها على
اختلاف عددها ، و أكمل هذا المعنى بوصفها بالعدد ، و لم يقتصر على السموات فقط ،
بل قال : (السبع) (525) .

(523) ينظر: تفسير الطبري: 336/9-337، و معاني القرآن و إعرابه: 4/48، و الحرر الوجيز: 11/315.

(524) ينظر: تفسير الطبري: 9/337.

(525) ينظر: بدائع الفوائد: 1/128.

و قوله : (و الأرض) معطوف على (السَّمَوَاتُ السَّبْعُ) ، و فيه إسناد التسييح إلى الأرض أي : و تسيح له الأرض بذاتها كما تسيح له السماوات السبع بذواتها .

و أشار بعض العلماء إلى أن إسناد التسييح إلى السماوات و الأرض هو بما في كل منهن من أفلاك و كواكب و بروج ، أو جبال و وهاد و فجاج⁽⁵²⁶⁾ .

و قوله : (و مَنْ فِيهِنَّ) معطوف على (السَّمَوَاتُ السَّبْعُ وَالْأَرْضُ) ، و الضمير فيه يعود إلى السماوات و الأرض ، أي : و يسبح له من في السماوات و الأرض .

و ذهب بعض المفسرين إلى أن (من) في هذه الآية قصد بها العقلاء ، من الملائكة و الإنس و الجن⁽⁵²⁷⁾ .

و جعلها ابن جرير الطبري خاصة في المؤمنين منهم : فقال : (وَمَنْ فِيهِنَّ) من المؤمنين به الملائكة و الإنس و الجن⁽⁵²⁸⁾ .

و كثير من المفسرين على أن (من) هنا عامة في جميع المخلوقات ، العقلاء و غيرهم⁽⁵²⁹⁾ ، و عليه فقوله : وَمَنْ فِيهِنَّ كقوله - في الآية السابقة - : ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِشِرْكٍ مُّبِينٍ﴾^(٤١) .
النور : ٤١ .

و (من) و إن كانت للعاقل غالبا ، فإنها تستعمل للعاقل و غيره في مواضع ، منها : أن يجتمع غير العاقل مع العاقل في الحكم ، فيغلب العاقل على غير العاقل لشرفه ، كما تستعمل في هذه الحالة (ما) ، تغليباً لغير العاقل على العاقل لكثرتهم ، مثل قوله تعالى : ﴿

⁽⁵²⁶⁾ ينظر: أضواء البيان (التكملة): 268/5.

⁽⁵²⁷⁾ ينظر: المحرر الوجيز: لابن عطية: 300/10، و الجامع لأحكام القرآن، للقرطبي: 266/10.

⁽⁵²⁸⁾ ينظر: تفسير الطبري: 84/8.

⁽⁵²⁹⁾ ينظر: تفسير الطبري: 84/8، و تفسير السمرقندي: 270/2، و تفسير القرآن العظيم، لابن كثير: 45/3، و أضواء

البيان: 251/5.

سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ ﴿١﴾ الحشر: ١ و بهذا يكون إسناد التسبيح في قوله : ﴿ تَسْبِيحٌ لَهُ السَّمَوَاتُ السَّبْعُ وَالْأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ ﴾ ، شاملا للسموات و الأرض بذواتهما ، و لكل شيء فيهما ، عاقل و غير عاقل (530) ، و الله تعالى أعلم .

و قوله : ﴿ وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ ﴾ ، (إن) هنا بمعنى (ما) النافية (531) ، و (من) حرف جر صلة . و (شيء) أعم العمومات ، فيشمل السموات و الأرض ، و الملائكة و الإنس و الجن ، و الحيوانات و النباتات و الجمادات ، و الشجر و الحجر و المدر ، و الحي و الميت ، و كل مخلوق لله تعالى (532) ، و قد وصلت به (من) لتوكيد العموم (533) .

و (وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ) إثبات للتسبيح للأشياء كلها . و المعنى : و ما من شيء من المخلوقات إلا يسبح بحمد الله تعالى (534) ، يعني تسبيحا مقرونا بالحمد ، على ما سبق بيانه في صيغة القرآن للتسبيح (535) .

و هذه الآية أكثر شمولا ، و أبلغ عموما في إسناد التسبيح إلى الكائنات ، فإنها تدل بمنطوقها أن كل ما يصدق عليه أنه شيء يسبح بحمد الله جل و علا .

و لكن للمفسرين موقفان حيال هذا العموم الذي دلت عليه هذه الآية : فقد ذهب فريق منهم إلى أن الآية على عمومها ، فكل شيء يسبح ، حيا أو غير حي ، ناميا ، أو غير نام ، باقيا على أصله أو متغيرا عنه (536) .

(530) ينظر: أضواء البيان: 251، 268/5.

(531) ينظر: زاد المسير: 39/5.

(532) ينظر: تيسير الكريم الرحمن: ص459، و أضواء البيان: 268/5.

(533) ينظر: مغني اللبيب، لابن هشام: ص425.

(534) ينظر: تفسير الطبري: 8/84، و تفسير القرآن العظيم، لابن كثير: 3/45.

(535) ينظر: ص155 من هذا البحث.

(536) ينظر: تفسير الطبري: 8/84-85، و معاني القرآن و إعرابه، للزجاج: 3/242، و النكت و العيون ، للماوردي:

و ذهب فريق ، آخر من المفسرين إلى أن الآية من قبيل العام المراد به الخاص⁽⁵³⁷⁾ .
ثم اختلف هذا الفريق في الخاص المراد به على ثلاثة أقوال :

القول الأول : أنه كل شيء فيه الروح ، عنون كل شيء حي ، و أما ما لا حياة فيه فلا يسبح ، إنما يسبح ما كان فيه روح⁽⁵³⁸⁾ .

القول الثاني : أنه كل شيء حي و نام دون الجمادات ، و معنى هذا ان الحيوانات و النباتات هي التي تسبح ، و أما الجمادات فلا تسبح⁽⁵³⁹⁾ .

و استدل بعضهم لهذا القول بما رواه ابن عباس رضي الله عنه قال: مر النبي صلى الله عليه وسلم بقبرين ، فقال : (أنهما لا يعذبان ، و ما يعذبان في كبير : أما أحدهما فكان لا يستتر من البول ، و أما الآخر فكان يمشي بالنميمة) ، ثم أخذ جريدة رطبة فشققها نصفين ، فغرز في كل قبر واحد . قالوا : يا رسول الله لما فعلت هذا ؟ قال : لعله يخفف عنهما ما لم ييبسا⁽⁵⁴⁰⁾ .

قال المستدلون بهذا الحديث على القول المذكور : إن قوله صلى الله عليه وسلم : (ما لم ييبس) إشارة أنهما يسبحان ما دام رطبين ، فإذا يبس صار جمادا ، و انقطع تسيبهما⁽⁵⁴¹⁾ .

و معلوم أن الحديث ليس فيه تصريح لما قاله هؤلاء أنما هو رأي قالوه احتمالا ، و مع الاحتمال لا يقوم استدلال .

245/3، و تفسير القرآن، لأبي المظفر: 244/3، و تفسير البغوي: 96/5، و المحرر الوجيز، لابن عطية: 300/10، و زاد المسير: 39/5، و الجامع لأحكام القرآن، للقرطبي: 266/10، و تفسير القرآن العظيم، لابن كثير: 45/3.
⁽⁵³⁷⁾ ينظر: المحرر الوجيز: 300/10، و زاد المسير: 39/5.

⁽⁵³⁸⁾ ينظر: تفسير الطبري: 85/8، و النكت و العيون: 245/3، و زاد المسير: 39/5، تفسير القرآن العظيم: 46/3.
⁽⁵³⁹⁾ ينظر: المحرر الوجيز: 300/10، و زاد المسير: 39/5، و تفسير البغوي: 96/5، و الجامع لأحكام القرآن: 266/10.

⁽⁵⁴⁰⁾ أخرجه البخاري في صحيحه - مع الفتح - : 1/322، برقم (218) ، و مسلم في صحيحه: 1/240-241، برقم (292).

⁽⁵⁴¹⁾ ينظر: تفسير السمرقندي: 2/270، و شرح صحيح مسلم، للنووي: 3/202، و الجامع لأحكام القرآن، للقرطبي: 10/266، و تفسير القرآن العظيم، لابن كثير: 3/46.

القول الثالث : أنه كل شيء لم يتغير عن حاله فإذا تغير و قطع تسيبحة⁽⁵⁴²⁾ .

و يعزى في هذا إلى المقدم ابن معدي كرب⁽⁵⁴³⁾ قوله (إن التراب ليسبح ما لم يتل ، فإذا ابتل ترك التسيب ، و إن الخرزة تسبح ما لم ترفع من موضعها ، فإذا رفعت تركت التسيب ، إن الورقة لتسبح ما دامت على الشجرة ، فإذا سقطت تركت التسيب ، و إن الثوب ليسبح ما دام جديدا فإذا توسخ ترك التسيب ، و إن الماء يسبح ما دام جاريا فإذا ركذ ترك التسيب ، و إن الوحش و الطير تسبح إذا صاحت ، فإذا سكنت تركت التسيب)⁽⁵⁴⁴⁾ .

و هذه الأقوال : - كما ترى - ليس على كل شيء منها دليل يجب المصير إليه ، فلا يسوغ العدول على عموم الآية لمجرد هذه الأقوال كائنا من كان قائلها ، لاسيما مع من سبق بيانه من أن الآية جاءت بأبلغ صيغة دالة على العموم ، يبعد في مثلها أن يكون من العام المراد به الخاص .

و قد ذهب المحققون من المفسرين و غيرهم إلى الآية على عمومها في أن كل شيء يسبح بحمد الله تعالى⁽⁵⁴⁵⁾ . و قوله تعالى : ﴿ وَلَكِنْ لَا نَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ ﴾ ، استدراك عقب به تعالى الخبر عن تسيب الأشياء كلها بحمده ، لما قد ينشأ عن هذا الخبر من استغراب تسيب هذه الأشياء مما لا يفقهه الناس ، أي : لا يفهمونه و لا يعلمونه ؛ لأنه بخلاف لغاتهم

⁽⁵⁴²⁾ ينظر: تفسير السمرقندي: 270/2، و زاد المسير: 39/5.

⁽⁵⁴³⁾ هو المقدم بن معدي كرب بن عمرو بن يزيد بن معدي كرب، أبو كريمة و قيل: أبو يحيى، الكندي، صحابي، وفد على رسول الله ﷺ في وفد كندة، و عداه في أهل الشام، سكن حمص، و توفي سنة سبع و ثمانين من الهجرة، و عمره إحدى و تسعون سنة، ﷺ. ينظر: تهذيب الأسماء و اللغات، للنووي: 112/2-113، الإصابة، لابن حجر: 204/6.

⁽⁵⁴⁴⁾ ذكره ابن الجوزي في: زاد المسير: 39/5، و البغوي في تفسيره: 96/5.

⁽⁵⁴⁵⁾ ينظر: تفسير القرآن، لأبي المظفر: 244/3-245، و شرح صحيح مسلم، للنووي: 202/3، و الجامع لأحكام القرآن، للقرطبي: 268/10، و تفسير القرآن العظيم، لابن كثير: 45/3، و فتح القدير، للشوكاني: 326/3، و تيسير الكريم الرحمن، للشيخ عبد الرحمن السعدي: ص 459.

و في هذا بيان أن تسييح ما سوى ما يسبح. بمثل السنة الناس من المخلوقات لا يفقهه إلا الخالق عَلَيْهِ ، و إن شاء الله أن يعلم بعض خلقه ذلك التسييح علمه ، كما سبق في قوله تعالى :

﴿ وَسَخَّرْنَا مَعَ دَاوُدَ الْجِبَالَ يُسَبِّحْنَ وَالطَّيْرَ ﴾ (٧٨) الأنبياء ، و كما قال نبي الله سليمان عَلَيْهِ فيما ذكر الله تعالى عنه : ﴿ عَلَّمْنَا مَنَظِقَ الطَّيْرِ ﴾ (١٦) النمل ، و كما سيأتي ذكره قريبا - إن شاء الله - من تسييح الحصى في كف نبينا محمد عَلَيْهِ ، و سماع بعض الصحابة رَضِيَ تسييح الطعام ، فهذا كله مما لا يفقهه الناس ، و لكن شاء الله تعالى أن يعلنه من شاء من الناس ، و الله تعالى على كل شيء قدير .

و قوله ﴿ إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا ﴾ (٤٤) أي : إنه تعالى يعالج من عصاه بالعقوبة ، بل يؤجله و ينظره ، فإن استمر على كفره و عناده أخذه عزيز مقتدر ، و إن تاب إلى الله و رجع عن كفره و عصيانه ستر عليه ذنبه ، و أعطاه الثواب الجزيل (547).

و لهذا تجد أن الذين أكثروا الكلام في تسييح الكائنات ، و ادعوا أنه تسييح حال لا تسييح مقال ، هم من رؤوس أهل الكلام . كابن حزم (548) في فصله (549) ، و

(546) ينظر: تفسير الطبري: 85/8، و تفسير القرآن، لأبي المظفر: 244/3، و تفسير القرآن العظيم، لابن كثير: 45/3، و

أضواء البيان، للشيخ محمد الأمين الشنقيطي: 251/5.

(547) ينظر: تفسير الطبري: 85/8، و تفسير القرآن العظيم، لابن كثير: 46/3.

(548) هو علي بن أحمد بن سعيد بن حزم الفارسي الأصل الأندلسي القرطبي، أبو محمد، اليزيدي مولى الأمير يزيد ابن أبي سفيان بن حرب الأموي المعروف بيزيد الخير، رزق ذكاء مفرطا و ذهنًا سيالا، و مهر في الأدب و الأخبار و المنطق و الفلسفة، فأثرت فيه تأثيرا لبيته سلم من ذلك، و كان أيضا رأسا في الفقه، متبحرا في النقل، و من تناقضاته أنه كان في الفقه ظاهريا مفرطا، و في العقيدة جهميا جلدا، و له تصانيف كثيرة في فنون عديدة، و توفي سنة (456هـ). ينظر: سير أعلام النبلاء، للذهبي: 184/18-212.

(549) الفصل في الملل و الأهواء و النحل: 153/1-159.

كشافة (551)، و الفخر الرازي (552) في مفاتيحه (553) - ، أو ممن تأثر بهم من مؤلفين في التفسير و غيره . لكثرتة . ولما أمر الله تعالى الخلق بالتسبيح في آخر سورة الواقعة ، يعني في قوله تعالى : ﴿ فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ ١٦ ﴾ الواقعة : ٩٦ جاء في أول السورة التي تليها مباشرة بالفعل الماضي ، ليدل على أن التسبيح المأمور به قد فعله . والتزم به كل ما في السماوات والأرض

ومعلوم أن الفعل قد جاء أيضاً بصيغة المضارع كما في آخر هذه السورة : ﴿ يُسَبِّحُ لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ٢٤ ﴾ ، وفي أول سورة الجمعة : ﴿ يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ الْمَلِكُ الْقُدُّوسُ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ١ ﴾ ، وفي أول سورة التغابن : ﴿ يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ لَهُ الْمُلْكُ وَلَهُ الْحَمْدُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ١ ﴾ ، وهذه الصيغة تدل على الدوام والاستمرار .

بل جاء الفعل بصيغة الأمر : ﴿ سَبِّحْ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى ١ ﴾ الأعلى : ١ ﴿ فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ ١٦ ﴾ الواقعة : ٩٦ وجاءت المادة بالمصدر : ﴿ سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى

(550) هو محمود بن عمر بن محمد بن عمر الخوارزمي، أبو القاسم الزمخشري، شيخ العربية و الاعتزال، و صاحب المؤلفات العديدة في التفسير، و غريب الحديث، و اللغة، و النحو . كان في غاية المعرفة بفنون البلاغة و تصرف الكلام، و كان يظهر مذهب الاعتزال و يصرح بذلك في تفسيره (الكشاف)، و كانت وفاته سنة (538هـ)، ينظر: سير أعلام النبلاء، للذهبي: 151/20-156، و البداية و النهاية، لابن كثير: 235/13، و لسان الميزان، لابن حجر العسقلاني: 4/6. (551) الكشاف، بتحقيق الشيخ عادل أحمد عبد الموجود، و الشيخ علي محمد معوض: 522/3.

(552) هو محمد بن عمر بن الحسن القرشي، التيمي، البكري، الطبرستاني، المعروف بالفخر الرازي، و بابت خطيب الري، و ولد سنة (544هـ)، و كان أحد أئمة الأشاعرة الذين مزجوا المذهب بالاعتزال و الفلسفة، و له تصانيف عديدة منتشرة، و قال الذهبي: "قد بدت منه في تواليفه بلايا و عظام و انحرافات عن السنة، و الله يعفو عنه، فإنه توفي على طريقة حميدة، و الله يتولى السرائر". و كانت وفاته سنة (606هـ). ينظر: سير أعلام النبلاء، للذهبي: 501-500/21، و البداية و النهاية، لابن كثير: 61-60/13، و لسان الميزان، لابن حجر: 429-426/4.

(553) مفاتيح الغيب (التفسير الكبير): 220-218/20.

وقد جاء في القرآن الكريم ، والسنة المطهرة إثبات التسييح من كل ذلك كل على حدة

قلت: فهذا إسناد التسييح صراحة لكل هذه العوالم مفصلة ومبينة واضحة . وجاء مثل التسييح ، ونظيره وهو السجود مسنداً لعوالم أخرى وهي بقية ما في هذا الكون من أجناس وأصناف في قوله تعالى : ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَسْجُدُ لَهُ مِنْ فِي السَّمَوَاتِ حَقٌّ عَلَيْهِ الْأَرْضِ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ وَالنُّجُومُ وَالْجِبَالُ وَالشَّجَرُ وَالْدَّوَابُّ وَكَثِيرٌ مِنَ النَّاسِ ﴾ الحج : ويلاحظ هنا أنه تعالى أسند السجود أولاً لمن في السماوات ومن في الأرض و (من) هي للعقلاء أي الملائكة والإنس والجن ، ثم عطف على العقلاء غير العقلاء بأسمائهن من الشمس والقمر والنجوم والجبال والشجر والدواب ، فهذا شمول لم يبق كائن من الكائنات ولا ذرة في فلاة إلا شمله

قال جماعة من العلماء منهم ابن عباس ، إن العموم باق على عمومه ، وإن لفظ التسييح محمول على حقيقته في التزييه والتحميد .

و قد رد المحققون من العلماء و المفسرين و غيرهم على ما قال هؤلاء في حمل تسييح الكائنات على المجاز ، و بينوا باطلها و رجحوا أن تسييح الكائنات حقيقي بلسان المقال ، و ذلك لأدلة كثيرة ، وأوجه متكاثرة غزيرة هي :

أولاً : أن ظاهرة الكتاب و السنة يدل على أن التسييح فعل لهذه الكائنات التي أسند إليها التسييح في الآيات و الأحاديث ، و أن تسييحها عبادة تعبدت بها ،(و القاعدة) المقررة عند العلماء : أن نصوص الكتاب و السنة لا يجوز صرفها عن ظاهرها المتبادر منها إلا بدليل يجب الرجوع إليه .

و كون هذه الكائنات دلائل شاهدة على خالقها ليس فيه إسناد فعل إليها ، إنما هو كونها مفعولة للرب جل و علا ، و هذا معنى ثابت فيها لازم لها ، يتعلق بربوبية الرب لها . و أما كونها مسبحة فيتعلق بتأهلها و عبادتها للرب ﷻ ، فهذا غير هذا.

ثانيا : أن قوله تعالى : ﴿ وَلَكِنْ لَا نَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ ﴾ الإسراء ، نص في أن تسبيح الكائنات تسبيح غير مفقوه للبشر ، وفيه الرد الصريح على أن تسبيحها هو دلالتها على عظمة خالقها ؛ لأن تلك الدلالة يفقهها كل العقلاء ، كما صرح الله تعالى بذلك في قوله : ﴿ إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَأَخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَالْفُلْكِ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنْفَعُ النَّاسَ ءَامِنُونَ ﴾ البقرة ، إلى قوله - ﴿ لَأَيَّتِ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ءَامِنُونَ ﴾ البقرة

و أمثال ذلك من الآيات في القرآن .

و الذين زعموا أن تسبيح الكائنات هو دلالتها على عظمة خالقها زعموا أن قوله تعالى : ﴿ وَلَكِنْ لَا نَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ ﴾ ، خطاب للكفار ، أي : و لكنكم أيها الكفار. استدلو بأثر الصنعة في هذه المخلوقات ؛ لأنكم لم تستوضحوا الدلالة منها على الخالق ، و لم تستدلوا بمشاهدتها على تعظيم الله.

و هذا التفسير ليس صحيحا لأنه مبني على الزعم المذكور ، و هو فاسد الاعتبار ، لما سبق و لما يأتي من الأدلة ، و لأنه يمكن القول بأن الكفار استدلو بأثر الصنعة في هذه المخلوقات على وجود الخالق ، و إن لم يوحدهه بالألوهية.

ثالثا : أن ما أخبر الله تعالى به من تسخير الجبال مع داود يسبحن و الطير ، و من أمر الجبال بالتأويب معه و الطير ، دليل على أن تسبيح حقيقي بلسان المقال ، و لو كان تسبيحها معه تسبيح دلالة كما يقولون ، لما كان داود عليه السلام خصوصية على غيره .

رابعا : أن الله تعالى قد أثبت للكائنات غير العاقلة إدراكا و تمييزا ، فأثبت لها الخشية في قوله تعالى : ﴿ وَإِنَّ مِنَ الْحِجَارَةِ لَمَا يَفْجَرُ مِنْهُ الْأَنْهَارُ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَشَقُّ فَيَخْرُجُ مِنْهُ الْمَاءُ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ وَمَا اللَّهُ بِغَفِيلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴾ (٧٤) البقرة

و أثبت لها الإباء و الإشفاق في قوله تعالى : ﴿ حَتَّىٰ إِذَا آتَوُا عَلَىٰ وَادٍ النَّمْلِ قَالَتْ نَمْلَةٌ

يَتَأَيُّهَا أَلْتَمَلُ أَدْخُلُوا مَسْكِنَكُمْ لَا يَحْطِمَتَكُمْ سَلِيمُنْ وَجُنُودُهُ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿١٨﴾
النمل

و هناك آيات أخرى نحو هذه ، و ليس تسبيح هذه الكائنات بلسان المقال بأعجب مما أخبر الله تعالى عنها في هذه الآيات و نحوها ، فكل ذلك مما يعلمه الله ﷻ ولا يعلمه الناس .

خامسا : أنه ليس لدى من زعم أن تسبيح الكائنات هو دلالتها على عظمة خالقها حجة سوى استبعاد حصول النطق و الإدراك من هذه الكائنات ، لكون العقل و الحس لم يشهد بذلك . و هذه حجة داحضة ؛ لأن عدم شهادة العقل و الحس بحصول النطق و الإدراك من هذه الكائنات ليس دليلا على عدم حصول ذلك في الواقع ، و إنما هو دليل على عجز العقل و الحس و قصورهما عن علم ما لم يعلم الله الناس إياه ، و مصداقا لقوله تعالى : ﴿ وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِّنْ عِلْمِهِ إِلَّا بِمَا شَاءَ ﴾ ﴿٢٥٥﴾ البقرة ، ﴿ وَمَا أُوتِيتُمْ مِّنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا ﴾ ﴿٨٥﴾ الإسراء

و هنا مفترق الطرق بين العقل المؤمن و عقل المنكر ، فعقل المؤمن يفرق بين كون الشيء مستحيلا في ذاته لا يمكن تحققه ، و بين عجز العقل عن العلم به ، و عقل المنكر يجعل معرفته بالشيء دليلا على وجوه ، كما يتخذ من جهله بالشيء دليلا على عدمه ، و هذا هو عين الجهل . فمدافعه تسبيح الكائنات على الحقيقة بلسان المقال ليست من العقل و لا من الإيمان في شيء .

سادسا : أن عددا من أهل العلم قد نصوا على أن القول بأن تسبيح الكائنات تسبيح حقيقي بلسان المقال هو أشهر القولين ، و هو قول السلف و المحققين من العلماء المتأخرين .

و القول بأن تسبيح الكائنات تسبيح مجازي بلسان الحال ليس بمعتمد ، بل هو بعيد ، و هو خلاف أقاويل المفسرين، و أنه بلسان المقال و ليس بلسان الحال فحسب كما زعموا .

سابعا : أنه قد جاء في السنة القول الفصل في هذه المسألة ، و هو ما رواه عبد الله بن عمرو رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : " إن نبي الله نوحا عليه السلام لما حضرته الوفاة ، قال لابنه : إني قاص عليك الوصية ،... وأمرك ب سبحان الله و بحمده ، فإن صلاة كل شيء ، و بها يرزق كل شيء و أنفك عن الشر و الكبر "

فقوله - في هذا الحديث - : (و أمرك بسبحان الله و بحمده ، فإنها صلاة كل شيء) ، فيه تفسير قوله تعالى : ﴿ وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ ﴾ الإسراء ، و بيان أن كل شيء يتره الله تعالى بلسان المقال ، فيقول : (سبحان الله و بحمده) ، و هذا نص في محل النزاع يجب المصير إليه و الإعراض عن كل قول يخالفه .

و لا يعني هذا نفي تسبيح الكائنات بلسان حالها الذي فسر بظهور آثار الصنعة فيها ، و كونها دلائل شاهدة على عظمة خالقها و على تزيهه عن العيوب و النقائص ، فغن هذا المعنى صحيح ، و لكن الاقتصار عليه في تفسير تسبيح الكائنات ليس صحيحا ، بل الصحيح أن تسبيحها أمر زائد على ذلك ، و هو قولها : سبحان الله و بحمده ، كما سبق .

و إذ ثبت بالأدلة المذكورة أن تسبيح الكائنات تسبيح حقيقي بلسان المقال ، فهل يدخل الكفار من الإنس و الجن في عموم الكائنات المسيحة أو لا ؟

و هذا السؤال يجاب عنه بما رواه عمرو بن عبسة رضي الله عنه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال : (ما تستقل الشمس فيبقى شيء من خلق الله عز وجل إلا سبح لله بحمده ، إلا ما كان الشيطان و أعتى بني آدم) ، فسالت عن أعتى بني آدم ؟ فقال : ((شرار الخلق ، أو شرار خلق الله عز وجل)

فهذا الحديث دليل على استثناء الكفار إنسا و جنا من عموم الكائنات المسيحة بحمد الله تعالى . و مثل استثناء الكفار من تسبيح الله تعالى استثناء كثير من الناس من السجود لله جل علا في قوله تعالى : ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَسْجُدُ لَهُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ حَقَّ عَلَيْهِ الْأَرْضِ وَالسَّمْسُ وَالْقَمَرُ وَالنُّجُومُ وَالْجِبَالُ وَالشَّجَرُ وَالْدَّوَابُّ وَكَثِيرٌ مِّنَ النَّاسِ وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيْهِ الْعَذَابُ وَمَنْ يُهِنِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ مُّكْرِمٍ إِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ ﴾ الحج

فذكر تعالى - في هذه الآية - سجود جميع الكائنات له على سبيل العموم ، و أما الناس قال : ﴿ وَكَثِيرٌ مِّنَ النَّاسِ وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيْهِ الْعَذَابُ ﴾ (١٨) ، أي : و كثير من الناس يسجد لله تعالى ، و هم المؤمنون ، و كثير من الناس لا يسجد لله تعالى فحق فيه الإنس و الجن فيما ذكره طائفة من أهل العربية .

و إنما وقع الاستثناء على الإنس و الجن في التسييح و السجود دون سائر الكائنات، لأنهما كائنان اللذان وهب لهما العقل و ترك لهما الخيار ، فكان منهما فريقان : مؤمن سبيح لله تعالى و يسجد له طوعا مختارا متعبدا بذلك ، و فريق كافر امتنع عن التسييح لله تعالى و السجود له مستكبرا بذلك عن التعبد لربه و خالقه ، كما قال ﷻ ﴿ يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ لَهُ الْمُلْكُ وَلَهُ الْحَمْدُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾

و يتبين أن تسييح الكائنات على ضربين : تسييح بالاختيار ، و هو للملائكة ، و الأنبياء و الرسل - عليه الصلاة و السلام - ، و المؤمن من الإنس و الجن .

و تسييح بالتسخير ، و هو تسييح سائر الكائنات من الحيوانات و النباتات ، و الجمادات ، و غيرها مما يصدق عليه أنه شيء .

فجميع الكائنات على اختلاف أنواعها يسبح الله تعالى تسخييرا حقيقيا بلسان المقال ، كما سبق بيانه بالأدلة .

وجاء إسناد التسييح إلى هذه الكائنات في صور مختلفة ماضيا في نحو قوله تعالى : ﴿ سَبِّحْ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾ (١) الحديد ، و مضارعا في نحو قوله تعالى : ﴿ تُسَبِّحُ لَهُ السَّمَوَاتُ السَّبْعُ وَالْأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَكِنْ لَا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا ﴾ (٤٤) الإسراء ، و أمرا في نحو قوله تعالى : ﴿ فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ ﴾ (٧٤) الواقعة : - 96 - و الحاقة 52 ، و قوله تعالى : ﴿ يَجِبَالٌ أَوْبِي مَعَهُ وَالطَّيْرُ ﴾ (١٠) سبأ ، و مصدرا في نحو قوله تعالى ﴿ كُلُّ قَدَعَلِمَ صَلَاتَهُ، وَتَسْبِيحَهُ ﴾ (٤١) النور ، ليدل ذلك

كله على دوام التسبيح و استمرار من هذه الكائنات في جميع الأوقات ، و إن التسبيح هو شأنها في الماضي و الحلال و المستقبل .

والحاصل أن التسبيح وظيفة مشتركة بين جميع الكائنات ، العاقل منها و غير العاقل ، و الناطق منها و غير الناطق ، و كل منها يسبح لله تعالى بلغته الخاصة ، فلا الإنسان يفهم الحيوان و الطير و الجماد ما يقول ، و لا كيف يسبح ، و كذلك الحيوان و الطير و الجماد لا يفهم عن الإنسان ما يقول ، و لا كيف يسبح ، بل الكل متوجه بلغته الخاصة إلى خالقه يسبح بحمده ، و لا يفقه نوع منها لغة النوع الآخر ، ﴿ وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يَسْبُحُ بِحَمْدِهِ وَلَكِنْ لَا نَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ ﴾ الإسراء

المبحث السادس: تسبيح أهل الجنة فيها لله تعالى:

و مما جاء في شأن أهل الجنة في كتاب الله تعالى قوله ﷻ: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ يَهْدِيهِمْ رَبُّهُمْ بِإِيمَانِهِمْ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهِمُ الْأَنْهَارُ فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ ﴿١٠﴾ دَعْوَتُهُمْ فِيهَا سُبْحَانَكَ اللَّهُمَّ وَتَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَامٌ ۖ وَءَاخِرُ دَعْوَتُهُمْ أَنِ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٠﴾ يونس

فقوله: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ ﴾ - أي : جمعوا بين الإيمان و مقتضاه ، ففعلوا الإيمان الذي طلبه الله منهم ، و عملوا الصالحات التي شرعها لهم على وجه الإخلاص و المتابعة (556).

و قوله: ﴿ دَعْوَتُهُمْ فِيهَا سُبْحَانَكَ ﴾ بيان لحال أهل الجنة في الجنة (557) ، و أنهم فيها

(556) ينظر: فتح القدير، للشوكاني: 597/2، و تيسير الكريم الرحمن، للسعدي: ص358.

(557) ينظر: تفسير القرآن العظيم، لابن كثير: 423/2.

على تزيه الله تعالى بالتسبيح عما نزه عنه نفسه المقدسة ، كما كانوا في الدنيا⁽⁵⁵⁸⁾ ، و هذا هو الشاهد على تسبيح أهل الجنة لله تعالى في الجنة .

و ﴿ دَعَوْهُمْ ﴾ . مبتدأ⁽⁵⁵⁹⁾ ، وأكثر المفسرين على أن معناه :

دعاهم⁽⁵⁶⁰⁾ ، فإن الدعوى يكون مصدر (دعا - يدعو) ، كالشكوى مصدر (شكى ، يشكو)⁽⁵⁶¹⁾ ، و هو هنا مصدر مضاف للفاعل⁽⁵⁶²⁾ الذي هو الضمير (هم) العائد إلى ﴿ إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ ﴾ ، و الدعاء يراد الثناء و يراد به السؤال⁽⁵⁶³⁾ .

و فسر جماعة (دعواهم) بمعنى : عبادتهم⁽⁵⁶⁴⁾ ، و هذا موافق للتفسير الأول ، لأن المراد بالدعاء : دعاء العبادة .

⁽⁵⁵⁸⁾ ينظر: مسألة سبحان ، لنفطويه:ص39.

⁽⁵⁵⁹⁾ ينظر: الدر المصون، للسمين الحلبي:155/6.

⁽⁵⁶⁰⁾ ينظر: تفسير الطبري:6/535، و معاني القرآن و إعرابه، للزجاج:3/8، و زاد المسير:4/10، و الجامع لأحكام القرآن، للقرطبي:8/313، و البحر المحيط:5/132، و حادي الأرواح، لابن القيم الجوزية:ص452، و الدر المصون، للسمين الحلبي:6/155.

⁽⁵⁶¹⁾ ينظر: الجامع لأحكام القرآن:8/313.

⁽⁵⁶²⁾ ينظر: الدر المصون:6/155.

⁽⁵⁶³⁾ ينظر: حادي الأرواح، لابن القيم:ص452، و الدر المصون، للسمين الحلبي:6/155.

⁽⁵⁶⁴⁾ ينظر: البحر المحيط، لأبي حيان:5/132، و الدر المصون:6/155، و تيسير الكريم الرحمن:ص359.

و فسره بعضهم بمعنى : قولهم⁽⁵⁶⁵⁾ ، و هذا أيضا قريب من المعنيين السابقين ، لأن المقصود بالدعاء بالدعاء و العبادة القول المذكور .

و (فيها) متعلق ب (إن دعواهم)⁽⁵⁶⁶⁾ ، و الضمير يعود إلى (جنات النعيم) . و ﴿ سُبْحَانَكَ ﴾ . خبر عن (دعواهم) ، أي : دعواهم في الجنة هذا اللفظ ، فالخبر هنا هو نفس المبتدأ في المعنى⁽⁵⁶⁷⁾ ، و جيء به محكيا على نصبه لأنه من باب الإسناد اللفظي⁽⁵⁶⁸⁾ .

و جوز بعضهم أن يكون الخبر هنا من باب الإسناد المعنوي ، فلا يلزم أن قولوا هذا اللفظ فقط ، بل يقولونه و ما يؤدي معناه من الألفاظ الدالة على نزيه الله تعالى و تقديسه⁽⁵⁶⁹⁾ . و ظاهر الآية أنهم يقولون اللفظ المذكور فقط ، و (سبحانك اللهم) ، و قد تقدمت الإشارة إلى أن هذا اللفظ يفيد تزيه الله تعالى بجماع أسمائه الحسنی و صفته العليا . و للمفسرين في بيان سبب نطق أهل الجنة بهذا التسبيح في الجنة أقوال :

أولها : أنهم يقولون ذلك عندما يشتهون الشيء ، أو عندما يريدون أن يدعوا بالشيء ، فكلما اشتهى أهل الجنة شيئا ، أو أرادوا شيئا قالوا : ﴿ سُبْحَانَكَ ﴾ ، فيأتيهم ما يشتهون ، و ما يريدون⁽⁵⁷⁰⁾ .

و كأن القائلين بهذا القول قصور . بمعنى الآية ، و ليس في الآية ما يدل على ذكره ،

(565) ينظر: تفسير السمرقندي: 89/2، و تفسير القرآن، لأبي مظفر: 368/2.

(566) ينظر: الدر المصون، للسمين الحلبي: 155/6، و روح المعاني، للآلوسي: 75/11.

(567) الجملة الواقعة خيرا عن المبتدأ إما أن تكون نفس المبتدأ في المعنى، و هي التي يكون معناها متحدا مع المبتدأ، نحو: نطقى الله حسبي، فإن المراد بالنطق المنطوق به، و إما أن تكون الجملة غير المبتدأ في المعنى، نحو: (الله لا إله إلا الله). ينظر: أوضح المسالك، لابن هشام: ص26.

(568) ينظر: الدر المصون: 155/6.

(569) ينظر: المصدر السابق: 155/6.

(570) ينظر: تفسير الطبري: 535/6، و تفسير السمرقندي: 89/2، و النكت و العيون، للماوردي: 424/2، و الحرر

الوجيز، لابن عطية: 15/9، و زاد المسير، لابن الجوزي: 10/4، و تفسير القرآ، العظيم، لابن كثير: 423/2.

فلا يليق هذا القول بمعنى الآية ، كما أنه لا يليق بحال أهل الجنة (571).

الثاني : أنهم إذا أرادوا الرغبة إلى الله تعالى في دعاء يدعونه به ، كان دعاؤهم له: (سبحانك اللهم) (572) ، و وجه ذلك أن ما هم فيه من النعيم هو غايات الراغبين ، بحيث إذا أرادوا أن ينعموا بمقام دعاء ربهم الذي هو مقام القرب ، لم يجدوا أنفسهم مشتاقين لشيء يسألونه ، فاعترضوا عن السؤال بالثناء على ربهم (573).

و هذا القول لطيف جدا في بيان سبب دعاء أهل الجنة بهذا التسييح ، و إن كان لم يذكره أكثر المفسرين ، و واضح منه أن تسييح أهل الجنة للثناء على ربهم ، لا لاستدعاء ما يشتهون ، لأن جميع مشتبهاتهم حاصلة بالفعل ، فليس بهم حاجة إلى سؤال و لا استدعاء

الثالث : أنهم يقولون هذا التسييح على سبيل الابتهاج و الالتذاذ و التنعيم، و ليس على سبيل التكليف ، فإن الجنة لا تكليف فيها (574). و يقوي هذا القول ما مرّ قريبا، مما جاء في تسييح أهل الجنة ، و يقرب منه في المعنى القول الثاني المذكور قبله . و قد جاء في السنة المشرفة ما يوضح تسييح أهل الجنة لله تعالى في الجنة ، و ذلك في حديثين :

أحدهما : عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " أول زمرة تلج الجنة صورهم على صورة القمر ليلة البدر ، لا ييصقون فيها و لا يمتخطون و لا يتغوطون ، آنيتهم فيها الذهب ، و أمشاطهم (575) من الذهب و الفضة ، و مجامرهم الألوة (576) ، و رشحهم

(571) ينظر: حادي الأرواح، لابن القيم: ص452-453.

(572) ينظر: النكت و العيون: 424/2، و زاد المسير: 11/4.

(573) ينظر: تفسير التحرير و التنوير، لابن عاشور: 102/11.

(574) ينظر: مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية: 329/4-330، و البحر المحيط، لأبي حيان: 132/5، و تفسير الخازن: 430/2.

(575) الأمشاط: جمع مشط - مثلثة الميم - و هي آلة يمتشط بها ، و الامتشاط ترجيل الشعر أو اللحية. ينظر: القاموس

المحيط: مادة (مشط): ص888

(576) المجامر: جمع مجمرة، و هي المبخرة، سميت مجمرة لأنها يوضع فيها الجمر ليفوح به ما يوضع فيها من البخور [فتح

الباري، لابن حجر: 324/6. و الألوة - بفتح الهمزة، و يجوز ضمها، و بضم اللام، و تشديد الواو - : العود الذي ييخر به [فتح الباري: 324/6].

المسك ، و لكل واحد منهم زوجتان يرى مخ سوقهما من وراء اللحم من الحسن ، لا اختلاف بينهم و لا تباغض ، قلوبهم قلب واحد ، "يسبحون الله بكرة و عشيا" (577).

والآخر : عن جابر بن عبد الله رضي الله عنه قال : سمعت النبي صلى الله عليه وسلم يقول : "عن أهل الجنة يأكلون فيها و يشربون ، و لا يتلفون و لا ييلون و لا يتغوطون و لا يمتخطون" . قالوا : فما بال الطعام؟ قال: "جشاء" (578) و رشح كرشح المسك، يلهمون التسييح و التحميد، كما تلهمون النفس" (579).

(577) أخرجه البخاري في صحيحه - مع الفتح - : 318/6، برقم(3245)، و مسلم في صحيحه: 2180/4، برقم(2834).

(578) الجشاء - و مثله: التجشؤ - : تنفس المعدة، و هو صوت يخرج من الفم عند امتلاء المعدة من الطعام. ينظر: القاموس المحيط، للفيروز آبادي: مادة (جشأ) ص: 45، و المعجم الوسيط: مادة (جشأ): 1/123.

(579) أخرجه مسلم في صحيحه: 2180/4-2181، برقم(2835).

الفصل الثاني

التسبيح باعتبار

فاعله

المبحث الأول: تسبيح الله

المبحث الثاني: تسبيح الملائكة

المبحث الثالث: تسبيح المرسلين

المبحث الرابع: تسبيح صالح العباد

المبحث الخامس: تسبيح الكائنات

المبحث السادس: تسبيح أهل الجنة

الفصل الثاني: التسبيح باعتبار فاعله

لما كان فضل التسبيح عظيماً كان مقروناً في كتاب الله بألفاظ التزويه و التقديس و التعظيم، شرفه الله جل و علا بنسبته لنفسه فسبح الله نفسه، و أضافه الله إلى ملائكة قدسه فسبحته ملائكته و أضافه الله إلى صالح عباده فسبحه أنبيائه و أتباعهم و نسبه الله إلى ما في السموات و الأرض فسبحه الكون كله و جعله الله جل و علا دعاء أهل الجنة .

و جميع هذه التسابيح ثابتة واردة في التزويل، تذكر و تفهم على حقائقها الشرعية من غير تأويل و لا تعطيل، و تثبت لفاعليها كما أثبتها الله لهم، فإذا كان ذلك كذلك دلت على دلالات عقدية و فوائد لغوية و صور بيانية، و كان تحت ذلك كله سر من أسرار البيان القرآني الذي تحدى الله جل و علا به بلغاء الناس من العرب و العجم .

و مراعاة لكثرة الأنواع نوزعها على مباحث و ذلك كما يأتي:

المبحث الأول: تسبيح الله لنفسه

المبحث الثاني: تسبيح الملائكة

المبحث الثالث: تسبيح المرسلين

المبحث الرابع: تسبيح صالح العباد

المبحث الخامس: تسبيح الكائنات كلها

المبحث السادس: تسبيح أهل الجنة

:

المبحث الأول: تسبيح الله لنفسه

وقد ورد ذلك سبعا وعشرين مرة في كتاب الله تكلمت على بعض منها في مبحث أنواع التسييح المفرد ونكتفي هنا بإيراد موطن الشاهد في نسبة الفعل لله ، وجاء هذا النوع في تسع عشرة سورة منها المكي الذي يخاطب مشركي قريش ومنها المدني الذي يخاطب أهل الكتاب، والعبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب.

وإن تُنزع في نسبة هذا التسييح في بعض الآي ففعل التسييح ثابت لله بنص الحديث الصحيح في ما رواه ابن عباس: عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: "قال الله: كذبتني ابن آدم ولم يكن له ذلك وشتمني ولم يكن له ذلك. فأما تكذيبه إياي فزعم أي لا أقدر أن أعيده كما كان، وأما شتمه إياي فقلوه: لي ولد فسبحاني أن أتخذ صاحبة أو ولدا" (580) و هذه المواضع هي:

2. ﴿ وَقَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا سُبْحَانَهُ بَلْ لَّهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ كُلُّ لَّهُ قَلْبُونَ ﴿١١٦﴾ ﴾ البقرة ، فقلوه: (سبحانه) تنزيه لله عن شنيع هذا القول . وفيه إشارة إلى أن الوكديّة نقص بالنسبة إلى الله تعالى وإن كانت كمالاتاً في الشاهد لأنها إنما كانت كمالاتاً في الشاهد من حيث إنها تسد بعض نقائصه عند العجز وال فقر وتسد مكانه عند الاضمحلال والله متره عن جميع ذلك فلو كان له ولد لآذن بالحدوث وبال الحاجة إليه (581).

وجاء الرد من الله تعالى مع بيان المانع مفصلاً مع الإشعار بالدليل العقلي، ولذا لزم التنويه عليه، وذلك في قوله تعالى: ﴿ وَقَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا سُبْحَانَهُ بَلْ لَّهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ كُلُّ لَّهُ قَلْبُونَ ﴿١١٦﴾ ﴾ البقرة . فهذا نص صريح فيما قالوه: (اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا). (582).

(580) أخرجه البخاري في صحيحه برقم (4482)

(581) التحرير والتنوير: ابن عاشور ،

(582) أضواء البيان: الشنقيطي، 151/9

26. ﴿يَتَأَهَّلَ الْكُتُبَ لَا تَعْلُوا فِي دِينِكُمْ وَلَا تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ إِنَّمَا الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ اللَّهِ وَكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إِلَى مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِنْهُ فَآمَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَلَا تَقُولُوا ثَلَاثَةٌ أَنْتَهُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنَّمَا اللَّهُ إِلَهٌُ وَاحِدٌ وَكَيْفَى أَنْ يَكُونَ لَهُ وَلَدٌ لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَكَفَى بِاللَّهِ وَكِيلًا ﴿١٧١﴾ النساء

سبح الله جل وعلا نفسه في هذه الآية أيضا مترها نفسه عن أن يكون له ولد.

"وقوله : (سبحانه أن يكون له ولد) إظهار لغلطهم في أفهامهم ، وفي إطلاقهم لفظ الأب والابن كيفما كان محملهما لأنهما إمّا ضلالة وإمّا إيهامها ، فكلمة (سبحانه) تفيد قوة التزويه لله تعالى عن أن يكون له ولد ، والدلالة على غلط مثبته ، فإن الإلهية تنافي الكون أبا واتخاذ ابن ، لاستحالة الفناء ، والاحتياج ، والانفصال ، والمماثلة للمخلوقات عن الله تعالى . والبنوة تستلزم ثبوت هذه المستحيلات لأن النسل قانون كوني للموجودات لحكمة استبقاء النوع ، والناس يتطلبونها لذلك ، وللإعانة على لوازم الحياة ، وفيها انفصال المولود عن أبيه ، وفيها أن الابن مماثلة لأبيه فأبوه مماثل له لا محالة" (583)

فتره نفسه وعظمتها أن يكون له ولد كما تقوله النصارى ثم قال لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ فَأخبر أن ذلك ملك ليس له فيه شيء من ذاته ثم قال " لن يستنكف المسيح أن يكون عبدا لله ولا الملائكة المقربون " أي لن يستنكفوا أن يكونوا عبيدا لله تبارك وتعالى فمع ذلك البيان الواضح الجلي هل يظن ظان أن مراده بقوله وكلمته أنه إله خالق أو أنه صفة لله قائمة به؟؟؟

27. ﴿وَجَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ الْجِنَّ وَخَلَقَهُمْ وَخَرَقُوا لَهُ بَنِينَ وَبَنَاتٍ بِغَيْرِ عِلْمٍ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُصِفُونَ ﴿١٠٠﴾ الأنعام :

من المقاصد العليا للقرآن الكريم تزويه الله جل وعلا - في الربوبية والألوهية والأسماء والصفات - عن الشركاء ففي هذه الآية يعيب الله على الذين اتخذوا الشركاء من الجن وعاب الله على الذين نسبوا له البنات والبنين وأقرب معنى للتسبيح هنا هو التباعد عن ما وصفه به الكافرون لذلك قرنه هنا بصفة العلو وقد قدمت ذلك في مبحث سبق.

28. ﴿ اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهَبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ اللَّهِ وَالْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا إِلَهًا وَاحِدًا لَّا إِلَهَ إِلَّا هُوَ سُبْحَانَهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾ (٣١) التوبة

والمسيح ابن مريم " يعني اتخذوا المسيح ربا من دون الله " وما أمروا " يقول وما أمرهم عيسى عليه السلام " إلا ليعبدوا إلهًا واحدًا لا إله إلا هو " يعني إلا قوله الله ربي وربكم ويقال " وما أمروا " في جميع الكتب إلا ليعبدوا إلهًا يعني ليوحدا الله تعالى إلهًا واحدًا ثم نزه نفسه فقال تعالى لَّا إِلَهَ إِلَّا هُوَ سُبْحَانَهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ يعني يعبدون من دونه (584)

المقصود بـ الأرباب ، هم المعبودين بدليل آخر الآية ﴿ وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا إِلَهًا وَاحِدًا ﴾ فذكر هنا المتنازع فيه وهو العبادة وقرن بهذا النفي إثباتًا مفصلاً بمن يستحق العبودية ثم نزه نفسه عن الشرك وتبرئ منهم على وجه علو القدر والقهر والذات.

قال الإمام الطبري: "سبحانه عما يشركون يقول: تزيها وتطهيرا لله عما يشرك في طاعته وربوبيته القائلون عزيز ابن الله، والقائلون المسيح ابن الله، المتخذون أحبارهم أربابا من دون الله" (585)

29. ﴿ وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنْفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَؤُلَاءِ شَفَعُونَا عِنْدَ اللَّهِ قُلْ أَتُنَبِّئُونَ اللَّهَ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِي السَّمَوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ سُبْحَانَهُ وَتَعَلَّىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾ (١٨) يونس

فصرح تعالى بأن هذا النوع ، من ادعاء الشفعاء شرك بالله ، ونزه نفسه الكريمة عنه

(584) بحر العلوم: للسمرقندي، 54/2

(585) جامع البيان: الإمام الطبري 149/10

، بقوله جل وعلا (سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ)⁽⁵⁸⁶⁾

قال الطاهر بن عاشور: "وأعيد حرف النفي بعد العاطف لزيادة التنصيص على النفي .والاستفهام في (أتنبئون) للإنكار والتوبيخ . والإنباء : الإعلام .

وجملة : (سبحانه وتعالى إنشاء تزيه ، فهي منقطعة عن التي قبلها فلذلك فصلت .
وتقدم الكلام على نظيره عند قوله : ﴿ وَحَرِّفُوا لَهُ بَيْنَ وَبَيْنَ بَغَيْرِ عِلْمٍ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عَمَّا
يَصِفُونَ ﴾ الأنعام و (ما) في قوله : عما يشركون (مصدرية ، أي عن إشراكهم ، أي تعالى عن أن يكون ذلك ثابتاً له .

وقرأ حمزة والكسائي وخلف⁽⁵⁸⁷⁾ تشركون بالمشناة الفوقية على أنه من جملة المقول .
وقراه الباقون بالتحية على أنها تعقيب للخطاب بجملة (قل) . وعلى الوجهين فهي مستحقة للفصل لكمال الانقطاع وبالعة في التزيه .⁽⁵⁸⁸⁾

30. ﴿ قَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا سُبْحَانَهُ هُوَ الْغَنِيُّ لَهُ مَا فِي السَّمٰوٰتِ وَمَا فِي

الْأَرْضِ إِنَّ عِنْدَكُمْ مِّنْ سُلْطٰنٍ بِهٰذَا أَنْتَقُولُ ۚ عَلَىٰ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾^(٦٨) يونس
سُبْحَانَهُ: تزيه وتقديس له تعالى عما نسبوا إليه على ما هو الأصل في معنى سبحانه وقد يستعمل للتعجب مجازاً ويصح إرادته هنا.

والمراد التعجب من كلمتهم الحمقاء، وجمع بعضهم بين التزيه والتعجب ولعله مبني على أن التعجب معنى كنائي وأنه يصح إرادة المعنى الحقيقي في الكناية وهو أحد قولين في المسألة ، وقيل : إنه لا يلزم استفادة معنى التعجب منه باستعمال اللفظ فيه بل هو من المعاني الثواني.

⁽⁵⁸⁶⁾ أضواء البيان : الشنقيطي ، 6/353

⁽⁵⁸⁷⁾ النشر في القراءات العشر: ابن الجزري، أشرف على تصحيحه ومراجعته : علي محمد الضباع - دار الفكر

وقوله سبحانه : (هُوَ الْغَنِيُّ) أي عن كل شيء في كل شيء علة لتزهره تعالى وتقدس عن ذلك وإيدان بأن اتخاذ الولد مسبب عن الحاجة وهي التقوى أو بقاء النوع مثلاً⁽⁵⁸⁹⁾.

"الضمير في قالوا عائد على من نسب إلى الله الولد ، ممن قال الملائكة بنات الله، أو عزيز ابن الله ، أو المسيح ابن الله ، وسبحانه : تزيه من اتخاذ الولد وتعجب ممن يقول ذلك، هو الغني علة لنفي الولد ، لأنَّ اتخاذ الولد إنما يكون للحاجة إليه ، والله تعالى غير محتاج إلى شيء ، فالولد منتف عنه ، وكل ما في السموات والأرض ملكه فهو غني عن اتخاذ الولد . وأنَّ نافية"⁽⁵⁹⁰⁾.

هذا نوع آخر من أباطيل المشركين التي كانوا يتكلمون بها ، وهو زعمهم بأن الله سبحانه اتخذ ولداً ، فردَّ ذلك عليهم بقوله : (سبحانه هُوَ الْغَنِيُّ) فتزهره جل وعلا عما نسبوه إليه من هذا الباطل البين ، وبين أنه غني عن ذلك ، وأن الولد إنما يطلب للحاجة . والغني المطلق لا حاجة له حتى يكون له ولد يقضيها ، وإذا انتفت الحاجة انتفى الولد ، وأيضاً إنما يحتاج إلى الولد من يكون بصدد الانقراض ، ليقوم الولد مقامه⁽⁵⁹¹⁾.

31. ﴿ أَتَىٰ أَمْرُ اللَّهِ فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾ النحل

لما كان معظم أغراض هذه السورة زجر المشركين عن الإشراف وتوابعه وإنذارهم بسوء عاقبة ذلك ، وكان قد تكرر وعيدهم من قبل في آيات كثيرة بيوم يكون الفارق بين الحق والباطل فتزول فيه شوكتهم وتذهب شدتهم . وكانوا قد استبطئوا ذلك اليوم حتى اطمأنوا أنه غير واقع فصاروا يهزؤون بالنبي عليه الصلاة والسلام والمسلمين فيستعجلون حلول ذلك اليوم⁽⁵⁹²⁾.

وأُتبع تحقيق مجيء العذاب بتزيه الله عن الشريك فقفي ذلك بتبرئة الرسول عليه

⁽⁵⁸⁹⁾ ينظر: روح المعاني: للألوسي، 11/155، والكشاف: 2/341، وجامع البيان: 5/288

⁽⁵⁹⁰⁾ البحر المحيط: 5/175

⁽⁵⁹¹⁾ ينظر: فتح القدير، الشوكاني: 3/398

⁽⁵⁹²⁾ التحرير والتنوير: ابن عاشور، 14/98

الصلاة والسلام من الكذب فيما يبلغه عن ربه ووصف لهم الإرسال وصفاً موجزاً . وهذا اعتراض في أثناء الاستدلال على التوحيد (593).

قال الإمام الطبري: وقوله (سبحانه) أي: تزيها لله وعلوا له عن الشرك الذي كانت قريش ومن كان من العرب على مثل ما هم عليه يدين به. واختلفت القراء في قراءة قوله تعالى: عما يشركون .

فقراً ذلك أهل المدينة وبعض البصريين والكوفيين: عما يشركون بالياء على الخبر عن أهل الكفر بالله وتوجيه للخطاب بالاستعجال إلى أصحاب رسول الله (ص)، وكذلك قرءوا الثانية بالياء. وقرأ ذلك عامة قراء الكوفة بالتاء على توجيه الخطاب بقوله: فلا تستعجلوه إلى أصحاب رسول الله (ص)، وبقوله تعالى: عما تشركون إلى المشركين. والقراءة بالتاء في الحرفين جميعاً على وجه الخطاب للمشركين أولى بالصواب لما بينت من التأويل أن ذلك إنما هو وعيد من الله للمشركين ابتداءً أول الآية بتهديدهم وختم آخرها بنكير فعلهم واستعظام كفرهم على وجه الخطاب لهم. (594)

قلت: القراءتان صحيحتان وحمل المعنى عليهما جميعاً أولى بل فيه فضاء لاتساع الدلالة وعمق وشمول المعنى المراد. وعلى كلتا القراءتين الترتيب صادر من الله ومتعلق به.

قال الفراء: "حدثنا محمد بن الجهم قال: حدثنا الفراء قال حدثني عماد بن الصلت العُكَلِيُّ عن سَعِيدِ بْنِ مَسْرُوقِ أَبِي سَفِيَانَ عَنِ الرَّبِيعِ بْنِ خَيْثَمِ أَنَّهُ قَرَأَ (سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا تُشْرِكُونَ) الْأُولَى وَالَّتِي بَعْدَهَا كِلْتَاهُمَا بِالتَّاءِ: وَتَقْرَأُ بِالْيَاءِ. فَمَنْ قَالَ بِالتَّاءِ فَكَأَنَّهُ خَاطِبُهُمْ وَمَنْ قَرَأَ بِالْيَاءِ فَكَأَنَّ الْقُرْآنَ نَزَلَ عَلَى مُحَمَّدٍ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ "ثم قال {سُبْحَانَهُ} يَعَجِّبُهُ مِنْ كَفْرِهِمْ وَإِشْرَاكِهِمْ. (595)

(593) تفسير القرآن العزيز، أبي عبد الله محمد بن عبد الله بن أبي زمنين: تحقيق أبو عبد الله حسين بن عكاشة - محمد بن

مصطفى الكتر، الفاروق الحديثة، 1423هـ - 2002م مصر/ القاهرة 394/2 وينظر: التحرير والتنوير: 98/14

(594) ينظر: جامع البيان، الطبري: 108/8

(595) معاني القرآن، الفراء: 438/1

32. ﴿وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ الْبَنَاتِ سُبْحَانَهُ وَلَهُمْ مَا يَشْتَهُونَ﴾ ﴿٥٧﴾ النحل

قلت: وسبحانه (مصدر نائب عن الفعل ، وهو منصوب على المفعولية المطلقة ، وهو في محل جملة معترضة وقعت جواباً عن مقالتهم السيئة التي تضمنتها حكاية) ويجعلون لله البنات (إذ جعل فيه جعل بالقول والإعتقاد ، فقوله : (سبحانه) مثل قولهم : حاش لله ومعاذ الله ، أي تزيهاً له عن أن يكون له ذلك .

قال الطاهر بن عاشور: "وإنما قدم (سبحانه) على قوله : (ولهم ما يشتهون) ليكون نصاً في أن التزيه عن هذا الجعل لذاته وهو نسبة البنوة لله ، لا عن جعلهم له خصوص البنات دون الذكور الذي هو أشدّ فظاعة ، كما دلّ عليه قوله تعالى : (ولهم ما يشتهون) ، لأن ذلك زيادة في التفضيح ، فقوله : (ولهم ما يشتهون) جملة في موضع الحال . وتقديم الخبر في الجملة للاهتمام بهم في ذلك على طريقة التهكم ."⁽⁵⁹⁶⁾

33. ﴿سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلًا مِنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَا

الَّذِي بَرَكْنَا حَوْلَهُ لِنُرِيَهُ مِنْ آيَاتِنَا إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ ﴿١﴾ الإسراء

قلت: سبحان هنا على ما ذهب إليه بعض المحققين مصدر سبح تسييحاً بمعنى نزه تزيهاً لا بمعنى قال سبحان الله: فبدأ بالمصدر منها (سبحان) هنا على ما ذهب إليه بعض المحققين مصدر سبح تسييحاً بمعنى نزه تزيهاً لا بمعنى قال سبحان الله و مقصود السورة ومعظم ما اشتملت عليه: تزيه الحقّ تعالى

قال شيخ الإسلام: "تزيه الله تعالى بقوله سبحان الله يتضمن مع نفي صفات النقص عنه إثبات ما يلزم ذلك من عظمته فكان في التسييح تعظيم له مع تبرئته من السوء ولهذا جاء التسييح عند العجائب الدالة على عظمته كقوله تعالى ﴿سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلًا﴾ سورة الإسراء"⁽⁵⁹⁷⁾

⁽⁵⁹⁶⁾ التحرير والتنوير: 182/14 و 09/15

⁽⁵⁹⁷⁾ درء تعارض النقل والعقل، ابن تيمية: 123/8

لافتتاح بكلمة التسبيح من دون سبق كلام مُتضمّنٍ ما يَجِبُ تزيه الله عنه يؤذن بأن خبراً عجيباً يستقبله السامعون دالاً على عظيم القدرة من المتكلم ورفيع منزلة المتحدث عنه . فإن جملة التسبيح في الكلام الذي لم يقع فيه ما يوهم تشبيهاً أو تنقيصاً لا يليقان بجلال الله تعالى مثل (سبحان ربك رب العزة عما يصفون (الصافات : 180) يتعين أن تكون مستعملة في أكثر من التزيه ، وذلك هو التعجيب من الخبر المتحدث به كقوله ﴿ وَلَوْلَا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ قُلْتُمْ مَا يَكُونُ لَنَا أَنْ نَتَكَلَّمَ بِهَذَا سُبْحَانَكَ هَذَا بُهْتَنٌ عَظِيمٌ ﴾ (النور، وقول الأعشى:

قد قلتُ لما جاءني فخرُهُ سُبْحَانَ من علقمة الفاجرِ (598)

ولما كان هذا الكلام من جانب الله تعالى والتسبيح صادراً منه كان المعنى تعجيب السامعين ، مثل مجيء الرجاء في كلامه تعالى نحو ﴿ لَعَلَّكُمْ تَفْلِحُونَ ﴾ (البقرة، فيكون معنى التعجيب فيه من قبيل قولهم أتعجب من قول فلان كَيْت وكَيْت .

ووجه هذا الاستعمال أن الأصل أن يكون التسبيح عند ظهور ما يدل على إبطال ما لا يليق بالله تعالى . ولما كان ظهور ما يدل على عظيم القدرة مزيلاً للشك في قدرة الله وللاشراك به كان من شأنه أن يُنطق المتأمل بتسبيح الله تعالى ، أي تزيهه عن العجز .

وأصل صيغ التسبيح هو كلمة سبحان الله (التي نُحِت منها السبحلة . ووقع التصرف في صيغها بالإضمار نحو سبحانك وسبحانه ، وبالموصول نحو) سبحان الذي خلق الأزواج كلها (يس : 36) ومنه هذه الآية .

والتعبير عن الذات العلية بطريق الموصول دون الاسم العلم للتنبية على ما تفيده صلة الموصول من الإيماء إلى وجه هذا التعجيب والتنويه وسببه ، وهو ذلك الحادث العظيم والعناية الكبرى . ويفيد أن حديث الإسراء أمر فشا بين القوم ، فقد آمن به المسلمون

وأكبره المشركون . (599)

أما قوله (سبحان) ففيه تأويلان:

- أحدهما : تزيه الله تعالى من السوء ، وقيل بل نزه نفسه أن يكون لغيره في إسراء عبده تأثير
- الثاني : معناه براه الله تعالى من السوء (600)

قلت: والسر في إضافة التسييح إلى الموصول وإضافة التزيه أو التزه إلى الموصول المذكور للإشعار بعلية ما في حيز الصلة للمضاف فإن ذلك من أدلة كمال قدرته وبالغ حكمته ونهاية تزهه عن صفات المخلوقين

34. ﴿سُبْحٰنَهُۥ وَتَعٰلٰى عَمَّا يَقُوْلُوْنَ عُلُوًّا كَبِيْرًا﴾ (٤٣) الإسراء

فقد تبين أن اسمه [الأعلى] يتضمن اتصافه بجميع صفات الكمال، وتزيهه عما ينافيها من صفات النقص، وعن أن يكون له مثل، وأنه لا إله إلا هو ولا رب سواه .

والأمر بتسييحه يقتضي — أيضاً — تزيهه عن كل عيب وسوء وإثبات صفات الكمال له، فإن التسييح يقتضي التزيه والتعظيم، والتعظيم يستلزم إثبات المحامد التي يحمد عليها . فيقتضي ذلك تزيهه، وتحميده، وتكبيره، وتوحيده (601) . يسبح نفسه إذ قيل عليه البهتان.

35. ﴿مَا كَانَ لِلّٰهِ أَنْ يَتَّخِذَ مِنْ وَلَدٍ سُبْحٰنَهُۥٓ إِذَا قَضَىٰٓ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُوْلُ لَهُۥ كُنْ فَيَكُوْنُ﴾ (٣٥)

مريم

وفيها أيضا إضافة التسييح لله فعلا منه جلّ وعلا واستحقاقا لذاته العلية . وقد تقدم الكلام على الآية .

(599) التحرير والتنوير: 09/15

(600) النكت والعيون، الماوردى: 223/3

(601) تفسير ابن تيمية: 73/5

﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَا ءِالِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا فَسُبْحَانَ اللَّهِ رَبِّ الْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾^(٢٢)
الأنبياء

وُفِرَع عَلَى هَذَا الِاسْتِدْلَالِ إِتْشَاءُ تَتْرِيهِ اللَّهُ تَعَالَى عَنِ الْمَقَالَةِ الَّتِي أَبْطَلَهَا الدَّلِيلُ بِقَوْلِهِ تَعَالَى : (فَسُبْحَانَ اللَّهِ رَبِّ الْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ) (أَي عَمَّا يَصِفُونَهُ بِهِ مِنْ وَجُودِ الشَّرِيكِ . وَإِظْهَارِ اسْمِ الْجَلَالَةِ فِي مَقَامِ الْإِضْمَارِ لِتَرْبِيَةِ الْمَهَابَةِ .

وَوَصَفَهُ هُنَا بِرَبِّ الْعَرْشِ لِتَذْكَيرٍ بِأَنَّهُ انْفَرَدَ بِخَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَهُوَ شَيْءٌ لَا يَنَازِعُونَ فِيهِ بَلْ هُوَ خَالِقُ أَعْظَمِ مِنَ السَّمَاوَاتِ وَحَاوِيهَا وَهُوَ الْعَرْشُ تَعْرِيفًا بِهِمْ بِالزَّمَامِ لَزِمَ قَوْلُهُمْ بِانْفِرَادِهِ بِالْخَلْقِ أَنْ يَلْزَمَ انْتِفَاءُ الشَّرْكَاءِ لَهُ فِيمَا دُونَ ذَلِكَ⁽⁶⁰²⁾

36. ﴿وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَدًا سُبْحَانَهُ بَلْ عِبَادٌ مُكْرَمُونَ﴾^(٣٦)
الأنبياء

وَقَدْ تَقَدَّمَ هَذَا الْمَعْنَى فِي غَيْرِ مَا مَوْضِعٍ وَالآيَةُ نَصٌّ فِي تَتْرِيهِ اللَّهِ لِنَفْسِهِ .

قَالَ الْإِمَامُ الطَّبْرِيُّ : "...قَوْلُهُ عَزَّ وَجَلَّ : (وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَدًا) نَزَلَتْ فِي خِرَاعَةِ حَيْثُ قَالُوا : الْمَلَائِكَةُ بَنَاتُ اللَّهِ ، (سُبْحَانَهُ) نَزَهَ نَفْسَهُ عَمَّا قَالُوا ، (بَلْ عِبَادٌ) أَي هُمْ عِبَادٌ ، يَعْنِي الْمَلَائِكَةُ ، ..."⁽⁶⁰³⁾

وَجَمِيعُ مَا يَذْكَرُ مِنَ الْآيِ بَعْدَ هَذِهِ الْآيَةِ فِيهِ نَسْبَةُ التَّتْرِيهِ لِلَّهِ .

37. ﴿مَا اتَّخَذَ اللَّهُ مِنْ وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنْ إِلَهٍ إِذَا لَذَبَ كُلُّ إِلَهٍ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَّ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾^(٣٧) المؤمنون

⁽⁶⁰²⁾ التحرير والتنوير: 44/17

⁽⁶⁰³⁾ معالم التنزيل: محيي السنة ، أبو محمد الحسين بن مسعود البغوي [المتوفى 516 هـ] . حققه وخرج أحاديثه محمد عبد الله النمر - عثمان جمعة ضميرية - سليمان مسلم الحرش. دار طيبة للنشر والتوزيع الطبعة : الرابعة ، 1417هـ -

38. ﴿ فَلَمَّا جَاءَهَا نُودِيَ أَنْ بُورِكَ مَنْ فِي النَّارِ وَمَنْ حَوْلَهَا وَسُبْحَانَ اللَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ ﴿٨﴾ النمل
39. ﴿ وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَيَخْتَارُ مَا كَانَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ سُبْحَانَ اللَّهِ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾ ﴿٦٨﴾ القصص
40. ﴿ فَسُبْحَانَ اللَّهِ حِينَ تُمْسُونَ وَحِينَ تُصْبِحُونَ ﴾ ﴿١٧﴾ الروم
41. ﴿ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَكُمْ ثُمَّ رَزَقَكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ هَلْ مِنْ شُرَكَائِكُمْ مَنْ يَفْعَلُ مِنْ ذَلِكَ كَمَنْ شَيْءٍ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾ ﴿٤٠﴾ الروم
42. ﴿ سُبْحَانَ الَّذِي خَلَقَ الْأَزْوَاجَ كُلَّهَا مِمَّا تُنْبِتُ الْأَرْضُ وَمِنْ أَنْفُسِهِمْ وَمِمَّا لَا يَعْلَمُونَ ﴾ ﴿٣٦﴾ يس
43. ﴿ فَسُبْحَانَ الَّذِي بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾ ﴿٨٣﴾ يس
44. ﴿ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُصِفُونَ ﴾ ﴿١٥٩﴾ الصافات
45. ﴿ سُبْحَانَ رَبِّكَ رَبِّ الْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴾ ﴿١٨٠﴾ الصافات
46. ﴿ لَوْ أَرَادَ اللَّهُ أَنْ يَتَّخِذَ وَلَدًا لَأَصْطَفَى مِمَّا يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ سُبْحَانَهُ هُوَ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ ﴾ ﴿٤﴾ الزمر
47. ﴿ وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ وَالْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَالسَّمَاوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾ ﴿١٧﴾ الزمر
48. ﴿ سُبْحَانَ رَبِّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبِّ الْعَرْشِ عَمَّا يُصِفُونَ ﴾ ﴿٨٢﴾ الزخرف
49. ﴿ أَمْ لَهُمْ إِلَهٌ غَيْرُ اللَّهِ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾ ﴿٤٣﴾ الطور
50. ﴿ هُوَ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْمَلِكُ الْقُدُّوسُ السَّلَامُ الْمُؤْمِنُ الْمُهَيْمِنُ الْعَزِيزُ الْجَبَّارُ الْمُتَكَبِّرُ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾ ﴿٢٣﴾ الحشر

فهذه المواضع كلها يتره الله فيها نفسه المقدسة عن كل ما وصفوه به من النقائص والعيوب في كل مقام بحسبه وببلاغة كلامه ونسبة التسبيح لله فعلا منه — جلّ وعلا — لها دلالات وإشارات بيانية

دلالتها هنا في جميع المواضع هي التعظيم والتتريه والإجلال والله أحق من يعظم نفسه ويزهها وهو أحق من مدح كما قال النبي صلى الله عليه وسلم: "عَنْ عَلِيِّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ ، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ، أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كَانَ يَقُولُ فِي وَثْرِهِ : اللَّهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِرِضَاكَ مِنْ سَخَطِكَ ، وَبِمُعَافَاتِكَ مِنْ عُقُوبَتِكَ ، وَأَعُوذُ بِكَ مِنْكَ ، لَا أَحْصِي نِعْمَتَكَ ، وَلَا ثَنَاءَ عَلَيْكَ أَنْتَ كَمَا أَثْنَيْتَ عَلَيَّ نَفْسِكَ." (604)

المبحث الثاني: تسبيح الملائكة

ورد ذلك في مواطن كثيرة في كتاب الله وبصيغ متعددة وعبارات مختلفة:

3. قَالَ تَعَالَى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ عِنْدَ رَبِّكَ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِ وَيُسَبِّحُونَهُ، وَلَهُ يَسْجُدُونَ

الأعراف ﴿٣٦﴾

تنتزل منزلة العلة للأمر بالذكر ، ولذلك صُدرت ب (إِنَّ) التي هي مجرد الاهتمام بالخبر، لا لرد تردد أو إنكار، لأن المخاطب متره عن أن يتردد في خير الله تعالى... والمراد بـ (إِنَّ الَّذِينَ عِنْدَ رَبِّكَ) الملائكة، ووجه جعل حال الملائكة علة لأمر النبي (ﷺ) بالذكر : أن مرتبة الرسالة تلحق صاحبها من البشر برتبة الملائكة فهذا التعليل بمنزلة أن يقال : اذكر ربك لأن الذكر هو شان قبيلك... والعندية في قوله : (عِنْدَ رَبِّكَ) عندية تشريف وكرامة وهؤلاء الملائكة هم العامرون للعوالم العليا التي جعلها الله مشرفة بأنها لا يقع فيها إلا الفضيلة فكانت بذلك أشد اختصاصاً به تعالى من أماكن غيرها قصداً لتشريفها. (605)

ووجه العدول عن لفظ الملائكة إلى الموصولية : ما تؤذن به الصلة من رفعة منزلتهم ، فيتذرع بذلك إلى إيجاد المنافسة في التخلق بأحوالهم .

(ويسبحونه) أي يزهونه بالقول والاعتقاد عن صفات النقص ، وهذه الصلة هي

(604) رواه الترمذي برقم (3493)

(605) ينظر: التحرير والتنوير، الطاهر بن عاشور: 243/9

المقصودة من التعليل للأمر بالذكر .

واختيار صيغة المضارع لدلالاتها على التجديد والاستمرار ، أو كما هو المقصود وتقديم المعمول من قوله : (وله يسجدون) للدلالة على الاختصاص أي ولا يسجدون لغيره ، وهذا أيضاً تعريض بالمشركين الذين يسجدون لغيره ، والمضارع يفيد الاستمرار أيضاً (606)

4. قَالَ تَعَالَى: ﴿وَلَهُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَنْ عِنْدَهُ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِ

وَلَا يَسْتَحْسِرُونَ ﴿١٩﴾ يُسَبِّحُونَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لَا يَفْتُرُونَ ﴿٢٠﴾﴾ الأنبياء

و مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ يعم العقلاء وغيرهم وغلب اسم الموصول الغالب في العقلاء لأنهم المقصود الأول ... وجملة يُسَبِّحُونَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ بيان لجملة وَلَا يَسْتَحْسِرُونَ لأن من لا يتعب من عمل لا يتركه فهو يواظب عليه ولا يعيا منه .

والليل والنهار : ظرفان . والأصل في الظرف أن يستوعبه الواقع فيه ، أي يسبحون في جميع الليل والنهار .

وتسبيح الملائكة لا يعطلها تبليغ الوحي ولا غيره من الأقوال (607).

﴿فَإِنْ أَسْتَكْبَرُوا فَالَّذِينَ عِنْدَ رَبِّكَ يُسَبِّحُونَ لَهُ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَهُمْ لَا يَسْأَمُونَ ﴿٢٨﴾﴾

﴿٢٨﴾ فصلت ، وفيها ما لا يخفى من إثبات دوام التسبيح لهم ونفي السآمة والملل والفتور عنه

وقد تمدحت الملائكة بتسبيحهم لله كما في قول الله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ

لِلْمَلَكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ

(606) المصدر نفسه: 301/24

(607) التحرير والتنوير، الطاهر بن عاشور: 542/17

تُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَتُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٣٠﴾ البقرة وقوله

تعالى: ﴿ وَإِنَّا لَنَحْنُ الصَّافُونَ ﴿١٦٥﴾ وَإِنَّا لَنَحْنُ الْمُسَبِّحُونَ ﴿١٦٦﴾ الصافات

وجاء في القرآن الكريم الكلام عن تسبيح نوع آخر من الملائكة وهم حملة العرش ومن حوله قال تعالى:

﴿ وَتَرَى الْمَلَائِكَةَ حَافِينَ مِنْ حَوْلِ الْعَرْشِ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَقُضِيَ بَيْنَهُمْ بِالْحَقِّ وَقِيلَ

الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٧٥﴾ الزمر: ٧٥

﴿ الَّذِينَ يَمْجُلُونَ الْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيُؤْمِنُونَ بِهِءِ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا

رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَحْمَةً وَعِلْمًا فَاغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُوا وَاتَّبَعُوا سَبِيلَكَ وَقِهِمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ ﴿٧﴾

﴿ غَافِرٌ ﴿ تَكَادُ السَّمَوَاتُ يَتَّقَطُّرْنَ مِنْ فَوْقِهِنَّ وَالْمَلَائِكَةُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ

وَيَسْتَغْفِرُونَ لِمَنْ فِي الْأَرْضِ ۗ أَلَا وَمَا أَنْتَ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ﴿٥﴾ الشورى

وافتح الملائكة معرض كلامهم مع الله بالتسبيح وهذا أدب رفيع منهم وتعظيم لله

سبحانه قال تعالى: ﴿ قَالُوا سُبْحَانَكَ لَا عِلْمَ لَنَا إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَا إِنَّكَ أَنْتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ ﴿٣٢﴾

البقرة: ٣٢

وقال أيضا: ﴿ وَيَوْمَ يُحْشَرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ يَقُولُ لِلْمَلَائِكَةِ أَهْتُولَاءُ إِنَّا كُنَّا عِبَادُونَ ﴿٤٠﴾

﴿ قَالُوا سُبْحَانَكَ أَنْتَ وَلِيِّنَا مِنْ دُونِهِمْ بَلْ كَانُوا يَعْبُدُونَ الْجِنَّ أَكْثَرُهُمْ بِهِمْ مُؤْمِنُونَ ﴿٤١﴾

سبأ

وأخبر عن حالهم في التسبيح فقال: ﴿ وَيُسَبِّحُ الرَّعْدُ بِحَمْدِهِ ۗ وَالْمَلَائِكَةُ مِنْ خِيفَتِهِ ۗ

الرعد

يعني هيبة وإجلالا ورهبة(608)

المبحث الثالث: تسبيح المرسلين

إن نسبة التسبيح للمرسلين هي من أكثر العبادات ذكرا في القرآن الكريم

7. تسبيح يونس عليه السلام لله تعالى :

جاء ذكر تسبيح نبي الله يونس عليه السلام في موضعين من القرآن :

الموضع الأول: في قوله تعالى: ﴿ وَذَا النُّونِ إِذْ ذَهَبَ مُغْرَضًا فَظَنَّ أَنْ لَنْ نَقْدِرَ عَلَيْهِ

فَكَادَى فِي الظُّلُمَاتِ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ ﴿٨٧﴾

فَأَسْتَجِبْنَا لَهُ، وَبَجَيْنَاهُ مِنَ الْغَمِّ، وَكَذَلِكَ نُنْجِي الْمُؤْمِنِينَ ﴿٨٨﴾ الأنبياء

فإن (ذا النون) هو يونس عليه السلام (609)، وهو بمعنى: صاحب الحوت، كما قال تعالى :

﴿ فَأَصْبَرَ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلَا تَكُنْ كَصَاحِبِ الْحُوتِ إِذْ نَادَى وَهُوَ مَكْظُومٌ ﴿٤٨﴾ القلم و ذلك لأن

الحوت ابتلعه ، كما قال سبحانه- في قصته في موضع آخر: ﴿ فَالْنَقْمَةُ الْحُوتِ وَهُوَ مُلِيمٌ ﴿١٤٢﴾

الصفات

و هذا التسبيح الذي ذكر في هذه الآية إنما قاله يونس عليه السلام و هو في بطن الحوت،

وذلك معنى قوله تعالى : ﴿ فَكَادَى فِي الظُّلُمَاتِ ﴾، فإن الظلمات المذكورة هي جمع

ظلمة، و المقصود بها: ظلمات بطن الحوت الذي ابتلعه ؛لأن في كل جنياته ظلمة

، فجمعها لشدة تكاثفها، فكأنها ظلمة مع ظلمة (610).

(609) ينظر: تفسير الطبري: 73/9، و زاد المسير، لابن الجوزي: 381/5.

(610) ينظر: الجامع لأحكام القرآن، للقرطبي: 333/11، و البحر المحيط، لأبي حيان: 311/6.

و قيل المقصود بما: ظلمة بطن الحوت، و ظلمة البحر، و ظلمة الليل⁽⁶¹¹⁾. و قوله تعالى
﴿أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ﴾ تفسير لما نادى به
يونس عليه السلام في الظلمات، فـ(أن) هنا مفسرة⁽⁶¹²⁾، و ما بعدها هو المنادى به ، و الله تعالى
هو المنادى .

و المعنى كأن يونس عليه السلام نادى ربه تعالى في الظلمات بهذا القول المشتمل على
التهليل و التسبيح و الاعتراف بالذنب.

فـ(لا إله إلا أنت) تهليل ، فيه أفراد الإلهية لله وحده، و ذلك يوجب أن لا يعبد إلا
إياه، و أن لا يسأل غيره⁽⁶¹³⁾.

و (سبحانك) تسبيح، يتضمن تعظيم الرب و تزيهه عن السوء.

و المقام يقتضي هذا التزيه، فإن يونس عليه السلام كان مليماً⁽⁶¹⁴⁾ عندما ابتلعه الحوت ، فهو
بهذا التسبيح يتره الله تعالى عن الظلم و غيرها من المعاييب ، فكأنه يقول: أنت مقدس و متره
عن ظلمي و عقوبي بغير ذنب ، بل أنا الظالم لنفسي⁽⁶¹⁵⁾ ، و لهذا قال - بعده - : ﴿إِنِّي
كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ﴾ ، و هذا الاعتراف يتضمن طلب المغفرة بوصف حاله⁽⁶¹⁶⁾.

و قد كان التهليل و التسبيح مقدمة بين يدي هذا الاستغفار، و توسلا إلى الله جل جلاله
بتوحيده و الثناء عليه ، و لهذا استجاب الله تعالى له ، كما قال سبحانه: ﴿فَأَسْتَجِبْنَا لَهُ

وَنَجَّيْنَاهُ مِنَ الْغَمِّ وَكَذَلِكَ نُخَيِّجُ الْمُؤْمِنِينَ﴾

⁽⁶¹¹⁾ ينظر: تفسير الطبري 76/9-77، و تفسير القرآن العظيم، لابن كثير: 201/3.

⁽⁶¹²⁾ ينظر: أضواء البيان، للشيخ محمد الأمين الشنقيطي: 747/4.

⁽⁶¹³⁾ ينظر: مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية: 276/10.

⁽⁶¹⁴⁾ سيأتي بيان ذلك- إن شاء الله- في الموضع الثاني.

⁽⁶¹⁵⁾ ينظر: مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية: 248، 250/10.

⁽⁶¹⁶⁾ ينظر: المصدر السابق: 244، 254/10.

و في الحديث عن سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: " دعوة ذي النون إذ دعا و هو في بطن الحوت: ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ﴾ ، فإنه لم يدع بها رجل مسلم في شيء قط إلا استجاب له " (617)

و الآية الكريمة شاهدة لهذا الحديث ، في قوله تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ نُنْجِي الْمُؤْمِنِينَ﴾ ، فإنه وعد و بشارة لكل مؤمن أن الله تعالى ينجيه كما أنجى يونس عليه السلام (618).

و إنما كانت هذه الدعوة بهذه المكانة؛ لأن " فيها من كمال التوحيد و التزيه للرب تعالى، و اعتراف العبد بظلمه لنفسه و ذنبه ما هو من أبلغ أدوية الكرب و الهم و الغم، و أبلغ الوسائل إلى الله سبحانه في قضاء الحوائج ، فإن التوحيد و التزيه يتضمنان إثبات كل كمال لله ، و سلب كل نقص و عيب و تمثيل عنه ، و الاعتراف بالظلم يتضمن إيمان العبد بالشرع و الثواب و العقاب ، و يوجب انكساره و رجوعه إلى الله ، و استقالته عشرته و الاعتراف بعبوديته و افتقاره إلى ربه .

فها هنا أربعة أمور قد وقع التوسل بها ك التوحيد، التزيه ، و العبودية ، و الاعتراف " (619)

الموضع الثاني: في قوله تعالى: ﴿وَإِنَّ يُونُسَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ﴾ (١٣٩) إِذْ أَبَقَ إِلَى الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ (١٤٠) فَسَاهَمَ فَكَانَ مِنَ الْمُدْحَضِينَ (١٤١) فَالْتَقَمَهُ الْحُوتُ وَهُوَ مُلِيمٌ (١٤٢) فَلَوْلَا أَنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُسَبِّحِينَ (١٤٣) لَلِئْتِ فِي بَطْنِهِ إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ (١٤٤) الصافات: ١٣٩ - ١٤٤

وقد ذكر الله في هذا الموضع ابتلاع الحوت ليونس عليه السلام ، و أنه كان مليما حينئذ، و

(617) سبق تخرجه

(618) ينظر: تيسير الكريم الرحمن، للسعدي: ص 530.

(619) مقتبس من: زاد المعاد، لابن القيم الجوزية: 208/4

ذلك في قوله تعالى: ﴿فَالنِّقْمَةُ الْحَوْتُ وَهُوَ مَلِيمٌ﴾ (١٤٤) أي: ابتلعه الحوت وحاله أنه مليم، و المليم: اسم فاعل من (ألام)، إذا أتى ما يلام عليه من الـمر، و إن لم يلم (620).

ثم ذكر تعالى تسييحه، فقال: ﴿فَلَوْلَا أَنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُسَبِّحِينَ﴾ (١٤٣) لَلَيْتَ فِي بَطْنِهِ إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾ (١٤٤). و في هذا بيان أنه عليه السلام كان يكثر التسييح لله تعالى؛ لأن الوصف باسم الفاعل (المسبحين) يدل على ذلك. و بين تعالى أن تسييحه كان سبب نجاته، و لو لا ذلك لبقى في بطن الحوت إلى يوم القيامة (621).

و الكلام السابق بين أن قوله (كان من المسبحين) يعني في بطن الحوت (622)، و أن تسييحه هذا هو المذكور في الموضع الأول الذي سبق الكلام عليه في قوله تعالى: ﴿وَذَا التُّونِ إِذْ ذَهَبَ مُغَضَّبًا فَظَنَّ أَنْ لَنْ نَقْدِرَ عَلَيْهِ فَنَادَى فِي الظُّلُمَاتِ أَنْ لَوْلَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ﴾ (٨٧) فَاسْتَجَبْنَا لَهُ، وَبَجَيْنَاهُ مِنَ الْعَذَابِ، وَكَذَلِكَ نُنْجِي الْمُؤْمِنِينَ﴾ (٨٨) الأنبياء

و هذا هو الأظهر في معنى قوله تعالى (فَلَوْلَا أَنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُسَبِّحِينَ) أنه هو تسييحه عليه السلام و هو في بطن الحوت، و أنه تسييح اللسان الموافق للجنان، بقول: (لَوْلَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ) (623).

و من ثم فسر بعضهم التسييح هنا بالصلاة، فعن قتادة في قوله تعالى: (فَلَوْلَا أَنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُسَبِّحِينَ)، قال: " كان كثير الصلاة في الرخاء، فنجاه الله بذلك. و قد كان يقال

(620) ينظر: تفسير الطبري: 527/10.

(621) ينظر: الجامع لأحكام القرآن، للطبري: 126/15.

(622) ينظر: تفسير البغوي: 60/7.

(623) ينظر: الجامع لأحكام القرآن، للقرطبي: 126/10.

في الحكمة: إن العمل الصالح يرفع صاحبه إذا ما عثر ، فإذا ما صرع وجد متكئا⁽⁶²⁴⁾.

و فسرهم بالذكر. فعن الضحاك بن قيس⁽⁶²⁵⁾ قال: "أذكروا الله في الرخاء يذكركم في الشدة، إن يونس كان عبدا لله ذاكرا، فلما أصابته الشدة دعا الله، فقال الله ﴿فَلَوْلَا أَنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُسَبِّحِينَ ﴿١٤٣﴾ لَلَبِثَ فِي بَطْنِهِ إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿١٤٤﴾﴾، فذكره الله بما كان منه". قال الضحاك "أذكروا الله في الرخاء يذكركم في الشدة"⁽⁶²⁶⁾.

و فسر التسبيح - في هذه الآية- أيضا بالعبادة و الطاعة⁽⁶²⁷⁾.

و لا اختلاف في الحقيقة بين هذه التفسيرات ، فالصلاة متضمنة للذكر، وهما من العبادة و الطاعة، كما أن التسبيح يطلق على كل من الصلاة، الذكر، و العبادة، و سأتي بيان ذلك⁽⁶²⁸⁾.

و كذلك لا اختلاف في الحقيقة بين القول بأن يونس عليه السلام كان من المسيحين في بطن الحوت ، و القول بأنه كان من المسيحين قبل ذلك، بل كلا القولين حق: أما كونه من المسيحين قبل إلتقام الحوت إياه، فيونس عليه السلام نبي مرسل قبل ذلك، و الأنبياء و الرسل هم - بلا ريب - أكثر الناس تسبيحا لله تعالى في جميع الأحوال و الأوقات كما سبق ذكره .

و أما كونه من المسيحين في بطن الحوت ، فقد دل عليه قوله تعالى: ﴿فَكَادَى فِي الظُّلُمَاتِ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ ﴿٨٧﴾﴾ الأنبياء ،

⁽⁶²⁴⁾ رواه الطبري في تفسيره: 527/10.

⁽⁶²⁵⁾ هو الضحاك بن قيس بن خالد بن وهب بن ثعلبة القرشي الفهري، أبو أنيس، مختلف في صحبته، فقيل: أدرك النبي ﷺ و سمع منه قبل البلوغ. و قيل: ولد قبل وفاة النبي ﷺ بنحو ست سنين أو أقل. شهد فتح دمشق و سكنها إلى حين وفاته، قتل رحمه الله يوم مرج راهط، سنة (64هـ). ينظر: تهذيب التهذيب: 4/448 و البداية و النهاية: 8/245-247.

⁽⁶²⁶⁾ رواه الطبري في تفسيره: 528/10. و ينظر: مسألة سبحان، لفظويه 54-55.

⁽⁶²⁷⁾ ينظر: تفسير البغوي: 60/7. و ينظر: ما سبق في ص 103-104.

⁽⁶²⁸⁾ ينظر: دلالة التسبيح على الذكر والدعاء ص 175 و 182.

كما سبق الكلام عليه في الموضوع الأول.

و يمكن أن يكون هذا التسبيح المذكور هو المراد في قوله تعالى: ﴿فَلَوْلَا أَنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُسَبِّحِينَ﴾، و هذا هو الأظهر. و يمكن أن يراد بهذه الآية الأخيرة ما كان منه من التسبيح قبل حبسه في بطن الحوت. و لا يبعد القول بإرادة الوجهين معا في الآية⁽⁶²⁹⁾.

و الخلاصة من الموضوعين السابقين في قصة يونس عليه السلام أنه سبح الله التسبيح العظيم فكان تسبيحه سببا في نجاته و رفع درجاته.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية: "إن ما تضمنته قصة ذي النون مما يلام عليه كله مغفور بدله الله به حسنات، و رفع درجاته، و كان بعد خروجه من بطن الحوت و توبته أعظم درجة منه قبل أن يقع ما وقع. قال تعالى: ﴿فَأَصْبَرَ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلَا تَكُنْ كَصَاحِبِ الْحُوتِ إِذْ نَادَى وَهُوَ مَكْظُومٌ ﴿٤٨﴾ لَوْلَا أَنْ تَدْرَكَهُ نِعْمَةٌ مِّنْ رَبِّهِ لَنَدَّ بِالْعُرَاءِ وَهُوَ مَذْمُومٌ ﴿٤٩﴾ فَأَجْنَبَهُ رَبُّهُ فَجَعَلَهُ مِنَ الصَّالِحِينَ ﴿٥٠﴾﴾ القلم، و هذا بخلاف حال ابتلاع الحوت، فإنه قال: ﴿فَالنَّقَمَةُ الْحُوتِ وَهُوَ مُلِيمٌ ﴿١٤٤﴾﴾ الصافات، فأخبر أنه في تلك الحال مليم، و المليم: الذي فعل ما يلام عليه، فالملام تلك الحال لا في حال نبذه بالعرء و هو سقيم⁽⁶³⁰⁾، فكانت حاله بعد قوله: ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ﴾ أرفع من حاله قبل أن يكون ما كان، و الاعتبار بكمال النهاية لا بما جرى في البداية، و الأعمال بخواتيمها"⁽⁶³¹⁾.

و لهذا جاء النهي في السنة المطهرة عن تفضيل أحد نفسه على يونس عليه السلام ظناً أن ما في القرآن الكريم من قصته فيها حط من مرتبته ففي الصحيح من حديث أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ أنه قال - - يعني الله تبارك و تعالى - - : لا ينبغي لعبد لي أن يقول: أنا خير من

⁽⁶²⁹⁾ و فسر الآية بالوجهين معا السعدي رحمه الله في: تيسير الكريم الرحمن: ص707.

⁽⁶³⁰⁾ يشير إلى قوله تعالى: ﴿لَلْبَيْتِ فِي بَطْنِهِ﴾ إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿١٤٤﴾ فَبَدَّدْنَاهُ بِالْعُرَاءِ وَهُوَ سَقِيمٌ ﴿١٤٥﴾﴾ الصافات، وهذه الآية من تكلمات قصة يونس السابق ذكرها في الموضوع الثاني.

⁽⁶³¹⁾ مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية: 299/10.

يونس بن متى عليه السلام «(632).

و هذا اللفظ يدل على العموم، أي: لا ينبغي لأحد أن يفضل نفسه على يونس بن متى عليه السلام «(633).

و في رواية أخرى لأبي هريرة رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: " من قال: أنا خير من يونس بن متى فقد كذب " «(634).

و قال شيخ الإسلام ابن تيمية - تعليقا على هذا الحديث - : " فمن ظن أنه خير من يونس بحيث يعلم أنه ليس عليه أن يعترف بظلم نفسه، فهو كاذب، و لهذا كان سادات الخلائق لا يفضلون أنفسهم على يونس في هذا المقام ⁽⁶³⁵⁾، بل يقولون كما قال أبوهم آدم ⁽⁶³⁶⁾، و خاتمهم محمد صلى الله عليه وسلم ⁽⁶³⁷⁾ «(638).

و قد جاءت الإشارة إلى علة المنع من أن يظن أحد أنه خير من يونس عليه السلام فيما رواه علي رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: " قال - - يعني الله عز وجل - - : ليس لعبد لي أن يقول : أنا خير من يونس بن متى، قد سبح الله عز وجل في الظلمات " «(639).

فكان في هذا الحديث بيان للمعنى الذي من أجله منع أن يفضل أحد نفسه على

⁽⁶³²⁾ أخرجه مسلم في صحيحه: 4/1846، برقم (2376). و أخرجه البخاري في صحيحه - مع الفتح -

451/6، برقم (3416)، و لكن وقع عنده غير مضاف إلى الله تبارك و تعالى.

⁽⁶³³⁾ مقتبس من شرح العقيدة الطحاوية، لابن أبي العز: 1/161.

⁽⁶³⁴⁾ أخرجه البخاري في صحيحه - مع الفتح - : 8/267، برقم (4604).

⁽⁶³⁵⁾ يعني مقام الاعتراف بظلم الإنسان نفسه.

⁽⁶³⁶⁾ يعني قول آدم عليه السلام فيما ذكر الله تعالى: ﴿ مِنْ دُونِ اللَّهِ فَاهْدُوهُمْ إِلَى صِرَاطِ الْجَحِيمِ ﴾ [الأعراف

⁽⁶³⁷⁾ يعني ما ثبت في حديث علي رضي الله عنه: " أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان إذا قام إلى الصلاة قال: "وجهت وجهي للذي فطر

السموات و الأرض حنيفا... " ، و فيه : " أنت ربي و أنا عبدك ، ظلمت نفسي و اعترفت بذنبي فاغفر لي ذنوبي

جميعا ، إنه لا يغفر الذنوب إلا أنت " أخرجه مسلم في صحيحه: 1/534-536، برقم (771)،

⁽⁶³⁸⁾ مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية: 10/254.

⁽⁶³⁹⁾ أخرجه ابن أبي شيبة في مصنفه: 11/540، و أبو جعفر الطحاوي في شرح معاني الآثار: 4/316، و في شرح

مشكل الآثار، تحقيق شعيب الأرنؤوط: 3/47، برقم (1013).

يونس بن متى عليه السلام ؛ لأنه سبح الله تعالى في الظلمات بقوله : ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَانَكَ
إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ﴾ .

8. تسبيح موسى عليه السلام لله تعالى :

جاء ذكر تسبيح نبي الله و كليمه موسى عليه السلام في موضعين :

الموضع الأول : في قوله تعالى : ﴿وَلَمَّا جَاءَ مُوسَى لِمِيقَاتِنَا وَكَلَّمَهُ رَبُّهُ قَالَ رَبِّ أَرِنِي
أَنْظُرْ إِلَيْكَ قَالَ لَنْ نَرِنِّي وَلَكِنْ نُنظِرُ إِلَى الْجَبَلِ فَإِنْ اسْتَقَرَّ مَكَانَهُ فَسَوْفَ تَرِنِّي فَلَمَّا تَجَلَّى رَبُّهُ
لِلْجَبَلِ جَعَلَهُ دَكًّا وَخَرَّ مُوسَى صَعِقًا فَلَمَّا أَفَاقَ قَالَ سُبْحَانَكَ بُنْتُ إِلَيْكَ وَأَنَا أَوَّلُ
الْمُؤْمِنِينَ﴾ (١٤٣) الأعراف .

و في هذه الآية بيان أن موسى عليه السلام طمع في رؤية ربه سبحانه حين كلمه من وراء
حجاب ، و لم يعنفه الله تعالى على ذلك ؛ لأنه سأل ما يجوز⁽⁶⁴⁰⁾ ، و لكن الله عز وجل أراد أن
يري موسى عليه السلام من كمال عظمته و جلاله ما يعلم به أن قوة البشرية في هذه الدار الدنيا
لا تثبت لرؤيته و مشاهدته عيانا⁽⁶⁴¹⁾ ، و لهذا قال له : ﴿لَنْ نَرِنِّي وَلَكِنْ نُنظِرُ إِلَى الْجَبَلِ فَإِنْ
اسْتَقَرَّ مَكَانَهُ فَسَوْفَ تَرِنِّي﴾ ، يعني أن الجبل - على صلابته و عظمته - لا يستقر
مكانه إذا تجلى الله تعالى له ، فكيف بالإنسان الضعيف؟

و قد تبين ذلك لموسى عليه السلام حين رأى الجبل قد صار دكا عندما تجلى له ربه
سبحانه أدنى جبل ، و سقط موسى مغشيا عليه من هول ما رأى ، و هذا معنى قوله تعالى
: ﴿فَلَمَّا تَجَلَّى رَبُّهُ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُ دَكًّا وَخَرَّ مُوسَى صَعِقًا﴾ (642) .

(640) ينظر : مسألة سبحان ، لفظويه : ص 38 .

(641) ينظر : مدارج السالكين ، لابن القيم : 3/99 .

(642) ينظر : تفسير الطبري : 6/53-54 ، و تفسير القرآن العظيم ، لابن كثير : 2/255 ، و تيسير الكريم الرحمن ، للسعدي :

و لما أفاق موسى عليه السلام من غشيته، و تاب إليه فهمه ، قال : (سبحانك)، و هذا تسبيح من موسى عليه السلام لربه وعزك، سبحه في ذلك الموقف الهائل الذي رأى فيه من عظمة ربه و جلاله ما يستدعي التسبيح تعظيما له سبحانه ، و تزيها له عما لا يليق بكماله و عظمته ، و عن أن يقوى أحد من الخلق على رؤيته عيانا في هذه الدنيا الفانية ⁽⁶⁴³⁾، و لهذا قرن تسبيحه بقوله : ﴿ تَبَّتْ إِلَيْكَ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُؤْمِنِينَ ﴾، أي: تبت إليك من مسألتي إياك ما سألتك من الرؤية ⁽⁶⁴⁴⁾، و أنا أول المؤمنين بأنه لا يراك أحد في الدنيا إلا مات ⁽⁶⁴⁵⁾. و قيل : أول المؤمنين من قومي بما توحىه إلي ، كما أن سائر الأنبياء هم أول أقوامهم إيماناً بما يأتيهم من الوحي ، ثم يبلغون فيؤمن من يؤمن ، و يكفر من يكفر ⁽⁶⁴⁶⁾.

الموضع الثاني: في قوله تعالى - حكاية عن موسى عليه السلام : ﴿ وَأَجْعَلْ لِي وَزِيرًا مِّنْ أَهْلِي ۚ ﴾
 هَرُونَ أَخِي ﴿٣٠﴾ أَشَدُّ بِهِ أَزْرِي ﴿٣١﴾ وَأَشْرِكُهُ فِي أَمْرِي ﴿٣٢﴾ كَيْ نُسَبِّحَكَ كَثِيرًا ﴿٣٣﴾ وَنَذْكُرَكَ كَثِيرًا ﴿٣٤﴾ إِنَّكَ كُنْتَ بِنَا بَصِيرًا ﴿٣٥﴾ طه : ٢٩ - ٣٥ .

و هذا سؤال من موسى عليه السلام أن يجعل أخاه هارون عليه السلام وزيرا له يعينه ، و شريكا له في النبوة و تبليغ الرسالة ، ثم ذكر عليه السلام الفائدة في ذلك فقال : ﴿ كَيْ نُسَبِّحَكَ كَثِيرًا ﴾ ⁽⁶⁴⁷⁾، و في هذا ما يدل على أن موسى و أخاه هارون عليه السلام كانا يكثران من التسبيح و الذكر لله وعزك . كما أن في تقديم التسبيح على الذكر دليلا على مزيد اهتمامهما بالتسبيح على وجه الخصوص ، مع اهتمامهما بالذكر على وجه العموم ⁽⁶⁴⁸⁾.

9. تسبيح داود عليه السلام لله تعالى:

⁽⁶⁴³⁾ ينظر: تفسير الطبري: 55/6، و تيسير الكريم الرحمن، للسعدي: ص302.

⁽⁶⁴⁴⁾ ينظر: تفسير الطبري: 55/6.

⁽⁶⁴⁵⁾ ينظر: الرد على الزنادقة و الجهمية، للإمام أحمد بن حنبل - ضمن عقائد السلف - : ص60، و تفسير

الطبري: 55/6،

⁽⁶⁴⁶⁾ ينظر: مسألة سبحان، لنفطويه: ص38-39،

⁽⁶⁴⁷⁾ ينظر: تيسير الكريم الرحمن، للسعدي: ص505.

⁽⁶⁴⁸⁾ ينظر: ما يأتي بيانه في فضل التسبيح، في ص 425.

جاء ذكر تسبيح نبي الله داود عليه السلام في ثلاثة مواضع في القرآن الكريم

الموضع الأول: في قوله تعالى: ﴿ وَسَخَّرْنَا مَعَ دَاوُدَ الْجِبَالَ يُسَبِّحْنَ وَالطَّيْرَ وَكُنَّا فَتَعَلِينَ ﴾ (٧٩) الأنبياء

وفي هذه الآية يخبر تعالى عما خص به نبيه داود عليه السلام من العجائب الدالة على صدق نبوته و على عظمة الله تعالى، و هو تسخير الجبال و الطير للتسبيح معه إذا سبح.

و ذكر بعض المفسرين في معنى تسخير الجبال و الطير للتسبيح مع داود عليه السلام أنه هو جعلها بحيث تطيعه إذا أمرها بالتسبيح (649).

و ذكر بعضهم في معنى ذلك أنه عليه السلام كان إذا قرأ سمعه الله تعالى تسبيح الجبال و الطير ، لينشط في التسبيح و يشناق إليه (650).

و الصواب في معناه: أنه عليه السلام كان إذا سبح الله تعالى و أثنى عليه ، سبحت بتسبيحه الجبال و الطير ، و جاوبنه بالذكر و الشناء على الله تبارك و تعالى (651).

الموضع الثاني: في قوله تعالى: ﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَا دَاوُدَ مِنَّا فَضْلًا يَجِبَالٌ أُوتِي مَعَهُ وَالطَّيْرُ ﴾ (١٠) سبأ

و في هذه الآية أخبر الله تعالى أنه أعطى داود عليه السلام فضلا ، و هذا الفضل هو النبوة ، و الكتاب ، و الملك ، و الصوت الحسن ، و تسخير الجبال و الطير للتسبيح معه ، و غير ذلك مما أنعم الله عليه (652)، و لهذا قال: ﴿ فَضْلًا ﴾ فجعله نكرة ، للدلالة على التعظيم

(649) ينظر: الجامع لأحكام القرآن، للقرطبي: 320/11.

(650) ينظر: تفسير القرآن، لأبي المظفر السمعاني: 396/3.

(651) ينظر: تفسير القرآن العظيم، لابن كثير: 196/3، و تيسير الكريم الرحمن، للسعدي: ص528.

(652) ينظر: زاد المسير، لابن الجوزي: 435/6، و تفسير القرآن العظيم، لابن كثير: 534/3، و تفسير أبي

السعود: 124/7.

و التفخيم ، كما أن قوله : ﴿ مِنْهَا ﴾ لبيان شرف هذا الفضل بإضافته إلى الله تعالى ، و أنه وحده المنعم به على عبده و رسوله داود عليه السلام (653).

ثم قال تعالى : ﴿ يَجِبَالٌ أَوْبٍ مَعَهُ ﴾ ، و هذا نداء منه تعالى للجبال (654) و أمر لها بالتأويب مع داود عليه السلام ، و التأويب : هو الترجيع (655) ، ف ﴿ أَوْبٍ ﴾ بمعنى : رجعي (656).

و أكثر المفسرين على أن معناه هنا : سبحي و رجعي التسبيح (657) ؛ لأنه متعلق بالظرف ﴿ مَعَهُ ﴾ ، و الظمير فيه عائد إلى داود عليه السلام ، فمعنى ﴿ أَوْبٍ مَعَهُ ﴾ أي : سبحي معه إذا سبح ، و رجعي التسبيح (658) . و في هذا دليل على أن داود عليه السلام كان يسبح الله تعالى ، و كانت الجبال و الطير تردد التسبيح معه بأمر الله تعالى و تسخيره (659).

و قد ذكر بعض العلماء أن الله تعالى أعطى داود عليه السلام من الصوت الحسن الذي كان إذا سبح سبحت معه الجبال الراسيات الصم الشامخات ، و وقفت له الطيور السارحات الغاديات الرائحات ، و تجاوبه بأنواع اللغات ، و ترجع بترجيعة التسبيح (660).

الموضع الثالث في قوله تعالى : ﴿ وَأَذْكُرْ عَبْدَنَا دَاوُدَ ذَا الْأَيْدِ إِنَّهُ أَوَّابٌ ﴾ (١٧) إِنَّا سَخَرْنَا الْجِبَالَ

مَعَهُ يَسْبِحُنَ بِأَلْسِنَتِهِ وَالْطَّيْرُ مَحْشُورَةٌ كُلٌّ لَهُ أَوَّابٌ ﴾ (١٩) ص

(653) ينظر: تفسير أبي السعود: 124/7.

(654) ينظر: معاني القرآن و إعرابه، للزجاج: 243/4.

(655) ينظر: القاموس المحيط، للفيروز آبادي: مادة (أوب): ص76.

(656) ينظر: تفسير القرآن العظيم، لابن كثير: 534/3-535.

(657) ينظر: تفسير الطبري: 349/10-350، و تفسير القرآن، لأبي المظفر السمعاني: 319/4، و تفسير القرآن

العظيم، لابن كثير: 534/3.

(658) ينظر: تفسير الطبري: 349/10، و زاد المسير، لابن الجوزي: 435/6، و أضواء البيان، للشيخ محمد الأمين

الشنقيطي: 155/3.

(659) ينظر: تيسير الكريم الرحمن، للسعدي: 676.

(660) ينظر: تفسير القرآن العظيم، لابن كثير: 534/3، و البداية و النهاية، له: 11-10/2.

و لا اختلاف بين هذه المعاني المذكورة ، بل كلها صحيحة و متلازمة . و في هذه المواضع المذكورة دلالة واضحة على أن نبي الله و رسوله داود عليه السلام كان يكثر التسبيح لله تعالى و العبادة له ، و على أن الله سبحانه قد أعطاه من الفضل و النعمة ما خصه به دون غيره من عباده ، كتسخير الجبال و الطير للتسبيح معه ⁽⁶⁶¹⁾.

و سيأتي - بإذن الله - كلام أيضا على هذه الآيات السابقة ، عند بيان تسبيح الكائنات كلها لله تعالى ⁽⁶⁶²⁾.

10. تسبيح زكريا عليه السلام لله تعالى:

تسبيح نبي الله زكريا عليه السلام مذكور في ما ذكر الله تعالى من دعائه عليه السلام بأن يهب الله ولدا ، و أن الله عز وجل بشره بالولد على لسان الملائكة ، و تمام ذلك ما حكاه تعالى من قوله : ﴿ قَالَ رَبِّ اجْعَلْ لِي آيَةً ۗ قَالَ آيَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ النَّاسَ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ إِلَّا رَمْزًا ۗ وَاذْكُرْ رَبَّكَ كَثِيرًا وَسَبِّحْ بِالْعَشِيِّ وَالْإِبْكَرِ ﴾ ^(٤١) آل عمران

ثم أمره الله تعالى بكثرة الذكر و التسبيح في هذه الحال ، فقال : ﴿ وَاذْكُرْ رَبَّكَ كَثِيرًا وَسَبِّحْ بِالْعَشِيِّ وَالْإِبْكَرِ ﴾ .

قال ابن عطية : " و قوله تعالى : ﴿ وَسَبِّحْ ﴾ معناه : قل : سبحان الله . و قال قوم معناه صل . و القول الأول أصوب ؛ لأنه يناسب الذكر ، و يستغرب مع امتناع الكلام مع الناس " اهـ ⁽⁶⁶³⁾.

و قد أوضح الله تعالى - في موضع آخر - أن هذا التسبيح الذي أمر به نبيه زكريا عليه السلام قد أمر به زكريا قومه أيضا ، و ذلك في قوله تعالى : ﴿ فَخَرَجَ عَلَى قَوْمِهِ مِنَ الْمِحْرَابِ

⁽⁶⁶¹⁾ ينظر: روح المعاني: للألوسي: 174/23، و تيسير الكريم الرحمن، للسعدي: ص676.

⁽⁶⁶²⁾ ينظر: ص134 - 159 من البحث،

⁽⁶⁶³⁾ ينظر: المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز: 81/3.

فَأَوْحَىٰ إِلَيْهِمْ أَن سَبِّحُوا بُكْرَةً وَعَشِيًّا ﴿١١﴾ ﴿١١﴾ مريم

قال الحافظ ابن كثير: ﴿فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوْمِهِ مِنَ الْمِحْرَابِ﴾ أي : الذي بشر فيه بالولد ﴿فَأَوْحَىٰ إِلَيْهِمْ﴾ أي : إشارة خفية سريعة ﴿أَن سَبِّحُوا بُكْرَةً وَعَشِيًّا﴾ أي : موافقة له فيما أمر به في هذه الأيام الثلاثة زيادة على أعماله شكرا لله على ما أولاه " اهـ (664).

و بهذا يتبين اهتمام نبي الله زكريا عليه السلام بالتسبيح ، و حثه لقومه على التسبيح .

11. تسبيح عيسى عليه السلام لله تعالى :

من تسبيح نبي الله عيسى عليه السلام لله تعالى ما جاء في قوله تعالى: ﴿اللَّهُ اللَّهُ يَكْفِي سُبْحَانَ اللَّهِ عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ ۗ أَنْتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمَّيَ إِلَهَيْنِ مِنْ دُونِ اللَّهِ ۗ قَالَ سُبْحَانَكَ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقِّ ۗ إِنْ كُنْتُ قُلْتُهُ فَقَدْ عَلِمْتَهُ ۗ تَعَلَّمُ مَا فِي نَفْسِي وَلَا أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ ۗ إِنَّكَ أَنْتَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ ﴿١١٦﴾ المائدة ، و هذا تقرير و توبيخ للنصارى الذين اتخذوا عيسى و أمه مريم إلهين من دون الله تعالى ، و قالوا : إن الله تعالى ثالث ثلاثة . فيقول الله تعالى هذا كلام لعيسى عليه السلام فيتبرأ عيسى منهم و من مقولتهم الكفرية، و يتره الله تعالى عن ذلك بالتسبيح له (665).

و اختلف أهل العلم في ما ورد في هذه الآية : هل هو خبر عما مضى - كما هو ظاهر اللفظ - ، أو هو خبر عما يستقبل ، و لكن عبر عنه بالماضي لتحقق وقوعه قولان :

اختار الأول منهما الإمام ابن جرير الطبري و أيده في تفسيره (666).

و اختار جمهور أهل العلم القول الثاني ، و هو أن الله تعالى يقول ذلك لعيسى عليه السلام يوم القيامة ، لتقرير النصارى و توبيخهم على رؤوس الأشهاد يوم القيامة ؛ لأنهم ادعوا أن

(664) ينظر: تفسير القرآن العظيم: 3/119.

(665) ينظر: تفسير القرآن العظيم، لابن كثير: 2/124، و تيسير الكريم الرحمن، للسعدي: ص239.

(666) ينظر: تفسير الطبري: 5/137-138.

عيسى أمرهم باتخاذها إليها (667).

و يؤيد هذا القول أن الله تعالى ذكر في السياق: ﴿ هَذَا يَوْمٌ يَنْفَعُ الصَّادِقِينَ صِدْقُهُمْ ﴾
المائدة

وأن كثيرا من أمور الغيب ذكر في القرآن بلفظ الماضي ليدل على الوقوع و
الثبوت (668) و المقصود هنا أن نبي الله عيسى استهل جوابه بالتسبيح و ذلك
لأمرين:

أحدهما: تزيهها لله تعالى عما أضيف إليه مما لا يليق به و براءة إليه سبحانه مما قالته
الكفرة من النصرارى فيه و في أمه فيعلم من كان يقول ذلك أنه إنما كان يقول باطلا .

الآخر: تعظيما لله تعالى و ثناء عليه و خضوعا له و خوفا منه لا إله غيره و لا رب
سواه (669).

و قد ظهر في هذه الآية كمال أدب عيسى عليه السلام في خطابه لربه عز وجل فلم يقل في
جوابه: لم أقل شيئا من ذلك، و إنما أخبر بكلام لازمه أن ينفي عن نفسه هذه المقالة التي تنافي
منصبه الشريف و أن هذا من الأمور المحالة و نزه ربه عز وجل عن ذلك أتم تزيهه بالتسبيح له و
رد العلم إلى عالم الغيب و الشهادة (670).

12. تسبيح خاتم النبيين محمد صلى الله عليه وآله تعالى :

معلوم أن نبينا صلى الله عليه وآله هو أعلم الناس به و أحشاهم له و هو أفضل من سبح الله تعالى و
نزه و أبلغ من دعا إلى التسبيح و نوه و قد ورد ذلك في قول الله تعالى: ﴿ قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي

(667) ينظر: تفسير القرآن، لأبي المظفر السمعاني: 82/2، و المحرر الوجيز، لابن عطية: 239/5، و زاد المسير، لابن

الجوزي: 463/2، و الجامع لأحكام القرآن، للقرطبي: 374/6.

(668) ينظر: تأويل مشكل القرآن، لابن قتيبة: ص 295.

(669) ينظر: تفسير الطبري: 137/5-138، و الجامع لأحكام القرآن، للقرطبي: 375/6.

(670) ينظر: مدارج السالكين، لابن القيم: 357/2.

أَدْعُوا إِلَى اللَّهِ عَلَى بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي وَسُبْحَانَ اللَّهِ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿١٠٨﴾ يوسف :
١٠٨

فقد جاء فيها التصريح بالتسبيح في قوله: ﴿وَسُبْحَانَ اللَّهِ﴾ و هو معطوف على قوله:
﴿هَذِهِ سَبِيلِي﴾، بمعنى: قل: هذه سبيلي، و قل: سبحان الله (671)، فهو أمر له بالتسبيح.

و يصح أن يكون معطوفا على قوله: ﴿أَدْعُوا إِلَى اللَّهِ﴾، بمعنى: ادعوا إلى الله و أسبح
الله ، فيكون (سبحان) اسم مصدر جاء بدلا من الفعل أسبح للمبالغة ، و تقديره : و أسبح
الله سبحانا (672) .

و على هذا التقدير فهو أمر له ﷺ بأن يخبر عن نفسه أنه يسبح الله تعالى، و هو
إشارة إلى أن التسبيح من أهم وظائف الأنبياء قولاً و اعتقاداً و عملاً .

و نظير هذه المواضع كثير في كتاب الله ، فقد أمر الله ﷻ نبيه الكريم بالتسبيح في
حالات و أوقات كثيرة و مختلفة و عددها في كتاب الله خمسة عشر موضعا: في أربع عشرة
آية :

15 . ﴿ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَكُنْ مِنَ السَّاجِدِينَ ﴾ ﴿٩٨﴾ الحجر: ٩٨ الحجر

16 . ﴿ فَأَصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ غُرُوبِهَا وَمِنْ

ءَانَائِ اللَّيْلِ فَسَبِّحْ وَأَطْرَافَ النَّهَارِ لَعَلَّكَ تَرْضَىٰ ﴾ ﴿١٣٠﴾ طه

17 . ﴿ فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ ﴾ ﴿٧٤﴾ الواقعة

18 . ﴿ فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ ﴾ ﴿١٦﴾ الواقعة

(671) ينظر: البحر المحيط، لأبي حيان: 346/5.

(672) ينظر: تفسير التحرير و التنوير، لابن عاشور 66/13.

19. ﴿ فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ ﴿٥٢﴾ ﴾ الحاقة
20. ﴿ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُ كَانَ تَوَّابًا ﴿٣﴾ ﴾ النصر
21. ﴿ وَتَوَكَّلْ عَلَى الْحَيِّ الَّذِي لَا يَمُوتُ وَسَبِّحْ بِحَمْدِهِ وَكَفَى بِهِ بِذُنُوبِ عِبَادِهِ خَيْرًا ﴿٥٨﴾ ﴾ الفرقان
22. ﴿ فَأَصْبِرْ إِنَّا وَعَدَدُ اللَّهِ حَقٌّ وَأَسْتَغْفِرْ لِذَنْبِكَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ بِالْعَشِيِّ وَالْإِبْكَرِ ﴿٥٥﴾ ﴾ غافر
23. ﴿ فَأَصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ الْغُرُوبِ ﴿٣٩﴾ ق: ﴿ أَلَيْلٍ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ الْغُرُوبِ ﴿٣٩﴾ ق
24. ﴿ وَأَصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ حِينَ تَقُومُ ﴿٤٨﴾ ﴾ الطور
25. ﴿ وَمِنَ اللَّيْلِ فَسَبِّحْهُ وَأَدْبَرَ النُّجُودِ ﴿٤٠﴾ ﴾ ق
26. ﴿ وَمِنَ اللَّيْلِ فَسَبِّحْهُ وَإِدْبَرَ النُّجُومِ ﴿٤٩﴾ ﴾ الطور
27. ﴿ وَمِنَ اللَّيْلِ فَاسْجُدْ لَهُ وَسَبِّحْهُ لَيْلًا طَوِيلًا ﴿٢٦﴾ ﴾ الإنسان
28. ﴿ سَبِّحْ أَسْمَاءَ رَبِّكَ الْأَعْلَى ﴿١﴾ ﴾ الأعلى

المبحث الرابع : تسبيح صالحى البشر

لما كان التسبيح من هدى الأنبياء - عليهم الصلاة و السلام - الذي كثر تعبدهم لله تعالى به و دعوتهم الناس إليه ، كان أدب عباد الله المؤمنين ، و شغل أوليائه المتقين ،

إتباعاً لأنبياء الله المرسلين ، و تمسكاً بهديهم المستبين .

و قد أخبر الله تعالى عن المؤمنين و مدحهم بتسبيحهم له في مواضع من القرآن الكريم ، و منها :

2. قوله تعالى: ﴿ **إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَأَخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ لِأُولِي الْأَلْبَابِ** ﴿١٩٠﴾ الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَطْلًا سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ ﴿١٩١﴾ آل عمران

ففي هذا الموضع أخبر الله تعالى أن في خلق السموات و الأرض آيات دالة على عظمة الخالق و كمال صفاته ، لذوي العقول التامة الزكية التي تدرك الأشياء بحقائقها على تجلياتها ، و هم المؤمنون الموقنون بالله تعالى (673).

و إنما خصهم الله تعالى بذلك ؛ و بصفات كماله و نعوت جلاله (674) ، و لهذا فهم يذكرون الله تعالى في جميع أحوالهم ، بسرائرهم و ضمائرهم و ألسنتهم (675) ، و يتفكرون في مخلوقات الله تعالى تفكيراً يوصلهم إلى فهم ما فيها من الحكم الباهرة ، و الآيات الدالة على عظمة الخالق و قدرته و علمه و حكمته و اختياره و رحمته (676) ، فتلهج ألسنتهم - عندئذ بالتسبيح له عز و جل ، تعظيماً و تزيهاً له عن العيب و خلق الباطل ، و عن كل نقص أو تمثيل ، وهو قولهم : ﴿ **رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَطْلًا سُبْحَانَكَ** ﴾ و قولهم : ﴿ **فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ** ﴾ ، دعاء قرنوا به تسبيحهم ، كما سبق بيان ذلك عند الكلام على قرن

(673) ينظر: تفسير القرآن العظيم، لابن كثير: 1/447.

(674) ينظر: تفسير الكريم الرحمن، للسعدي: ص161.

(675) ينظر : تفسير الطبري : 3 / 550 ، و تفسير القرآن العظيم : لابن كثير : 1 / 337

(676) ينظر : المصدرين نفسيهما .

التسبيح بالدعاء (677) .

2- و قوله تعالى : ﴿ وَيَقُولُونَ سُبْحَانَ رَبِّنَا إِنْ كَانَ وَعَدُّ رَبِّنَا لَمَفْعُولًا ﴾ (١٠٨) الإسراء:

و هذا إخبار عن تسبيح مؤمني أهل الكتاب ، ابتداءه تعالى بأمر نبيه صلى الله عليه و سلم أن يقول للكفار المكذبين بالقرآن الكريم : ﴿ ءَامِنُوا بِهِ أَوْ لَا تُؤْمِنُوا ﴾ ، ((و هذا من الله عز و جل على وجه التبكيت لهم و التهديد ، لا على وجه التخيير)) (678) ، ((أي : سواء آمنت ب هـام لا — فهو حق في نفسه ، أنزله و نوه بذكره في سالف الأزمان في كتبه المتزلة علة رسله)) (679) . ثم ذكر تعالى تسبيحهم له في قوله : قَالَ تَعَالَى : ﴿ وَيَقُولُونَ سُبْحَانَ قَلِّ أَدْعُوا كَان وَعَدُّ رَبِّنَا لَمَفْعُولًا ﴾ (١٠٨) . أي : و يقول هؤلاء الذين أوتوا العلم من قبل يتلى عليهم : (سُبْحَانَ قَلِّ) (680) ، و هذا تسبيح تزييه لله تعالى عن تكذيب المكذبين بالقرآن (681) ، و تعظيم و توقير له ﷻ على قدرته التامة و أنه لا يخلف الميعاد، و هذا قالوا : ﴿ أَدْعُوا كَان وَعَدُّ رَبِّنَا لَمَفْعُولًا ﴾ (١٠٨) (682)

لأن الله ﷻ وعد أهل السنة أنبيائه و رسله المتقدمين أن يبعث في آخر الزمان نبيا عظيم الشأن ، يملأ الأرض نورا و هدى ، و يظهر دينه على الدين كله ، و ينشر دعوته في أقطار الأرض ، و على رأس أمته تقوم الساعة (683) .

و أهل الكتاب مجمعون على أن الله وعدهم بهذا النبي ، فالسعداء منهم عرفوا الحق

(677) ينظر: مبحث قرن التسبيح بالدعاء

(678) ينظر: الجامع لأحكام القرآن: 340/10.

(679) ينظر: تفسير القرآن العظيم: 72/3.

(680) ينظر: المصدر نفسه

(681) ينظر: زاد المسير: 98/5.

(682) ينظر: تفسير القرآن العظيم: 72/3.

(683) ينظر: مدارج السالكين، لابن القيم: 123/3، و هداية الحيارى، له: ص300-301.

فآمنوا بع و اتبعوه . و الأشقياء قالوا : نحن ننتظره ، و لم يبعث بعد رسولا ، و أولئك لما سمعوا القرآن من الرسول عرفوه أنه الرسول الموعود ، فخرروا سجدا لله إيمانا به و برسوله ، و تصديقا بوعده الذي أنجزه فأروه عيانا ، فقالوا : (سبحان ربنا إن كان وعد ربنا لمفعولا)⁽⁶⁸⁴⁾ .

3- و قوله تعالى : ﴿ فِي بُيُوتٍ أُذِنَ لِلَّهِ أَنْ تَرْفَعَ وَيُذَكِّرَ فِيهَا أَسْمُهُ يُسَبِّحُ لَهُ فِيهَا بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ ﴾⁽³⁶⁾ رِجَالٌ لَا نُلْهِمُهُمْ يَجْرَةَ وَلَا بَيْعَ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَإِقَامِ الصَّلَاةِ وَإِيتَاءِ الزَّكَاةِ يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ الْقُلُوبُ وَالْأَبْصَارُ ﴾⁽³⁷⁾ النور

وهذا تنويه بالمؤمنين لتسبيحهم لله تعالى ، و اعتبارهم به و بغيره من أنواع الذكر و العبادات ، و وعد من الله لهم بالجزاء على ذلك و زيادتهم من فضله بلا حساب .

فقوله : (في بيوت) يعني بها المساجد التي هي بيوت الله⁽⁶⁸⁵⁾ .

و قيل : يعني بها بيوت كلها⁽⁶⁸⁶⁾ ، و التحقيق أنها المساجد⁽⁶⁸⁷⁾ ، لدلالة ما بعدها⁽⁶⁸⁸⁾ .

و في متعلق الجار و المجرور قولان :

أحدهما : أنه متعلق بقوله تعالى - في الآية قبلها - : ﴿ كَمَشْكُورٍ ﴾⁽⁶⁸⁹⁾ النور ، و المعنى : مثل نوره كمشكاة فيها مصباح في بيوت⁽⁶⁸⁹⁾ ، و ذلك أن الله تعالى ضرب بالمشكاة لقباً للمؤمن و ما فيها من الهدى و العلم ، و ذكر محلها و هي المساجد التي هي

⁽⁶⁸⁴⁾ مقتبس من : هداية الحيارى : ص : 301

⁽⁶⁸⁵⁾ ينظر: تأويل مشكل القرآن، لابن قتيبة: ص329، و تفسير الطبري: 329/8، و تفسير القرآن العظيم: 303/3، و

تيسير الكريم الرحمن، للسعدي: ص569.

⁽⁶⁸⁶⁾ ينظر: تفسير الطبري: 330/8.

⁽⁶⁸⁷⁾ ينظر: أضواء البيان: 4/116.

⁽⁶⁸⁸⁾ ينظر: تفسير الطبري: 330/8.

⁽⁶⁸⁹⁾ ينظر: معاني القرآن و إعرابه، للزجاج: 4/45، و تفسير الطبري: 329/8.

أحب البقاع إليه من الأرض ، و هي بيوته التي تعبد فيها و يوحد⁽⁶⁹⁰⁾.

و الثاني : أنه متعلق ب (يسبح) و يكون (فيها) تكريرا على التوكيد ، فيكون المعنى : يسبح لله رجال في بيوت أذن الله و وصى بأن ترفع⁽⁶⁹¹⁾ .

و قوله تعالى:(أذن الله أن ترفع) أي : أمر الله و وصى بأن ترفع⁽⁶⁹²⁾ .

و في معنى (أن ترفع) قولان :

أحدهما : أن معناها : أن تبنى⁽⁶⁹³⁾ ، و اختار الطبري هذا المعنى .

الثاني : أن معناها : أن تعظم⁽⁶⁹⁴⁾ .

و الأولى تفسيرها بالقولين معا، فيدخل في رفعها بناؤها و عمارتها، و تطهيرها من الدنس و النجاسة و الأذى، و صونها عن اللغو و الأقوال و الأفعال التي لا تليق فيها⁽⁶⁹⁵⁾ .

و قوله تعالى : ﴿ وَيُذَكِّرْ فِيهَا أَسْمُهُ ﴾^(٣٦) النور ، معطوف على قوله (أن ترفع) ، أي ((و أذن لعباده أن يذكروا اسمه فيها))⁽⁶⁹⁶⁾ ، و ((و يدخل في ذلك الصلاة كلها فرضها و نفلها، و قراءة القرآن، و التسبيح و التهليل و غيره من أنواع الذكر، و تعلم العلم و تعليمه و المذاكرة فيها ، و الاعتكاف ، و غير ذلك من أنواع العبادات التي تفعل في المساجد))⁽⁶⁹⁷⁾ .

⁽⁶⁹⁰⁾ ينظر: تفسير القرآن العظيم: 303/3.

⁽⁶⁹¹⁾ ينظر: معاني القرآن، للفرآء: 254/2، و معاني القرآن و إعرابه، للزجاج: 45/4.

⁽⁶⁹²⁾ ينظر: تفسير القرآن العظيم، لابن كثير: 303/3، و تيسير الكريم الرحم، للسعدي: ص569.

⁽⁶⁹³⁾ ينظر: معاني القرآن، للفرآء: 254/2، و معاني القرآن و إعرابه، للزجاج: 45/4، و تفسير الطبري: 330.

⁽⁶⁹⁴⁾ ينظر: تفسير الطبري: 330/8.

⁽⁶⁹⁵⁾ ينظر: تفسير القرآن العظيم: 303-305، و تيسير الكريم الرحمن: ص569.

⁽⁶⁹⁶⁾ ينظر: تفسير الطبري: 330/8.

⁽⁶⁹⁷⁾ ينظر: تيسير الكريم الرحمن: ص569.

ثم مدح الله تعالى عمارها بالعبادة ، فقال : ﴿ يُسَبِّحُ لَهُ فِيهَا بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ ﴾ (٣٦)

رِجَالٌ ﴿٦٩٨﴾

و عامة القراء قرؤوا (يُسَبِّحُ) بفتح الباء المشددة مبنيًا للفاعل، و جعله فعلا للرجال و خبرا عنهم، و ترفع به الرجال على الفاعلية .

و بعض القراء قرؤوا (يسبح) بفتح الباء الموحدة المشددة مبنيًا للمفعول، و على هذه حذف فاعل (يسبح) ، و يكون على قوله : (و الآصال) وفقا تاما ، و ابتداء بقوله : (رجال) و هو مفسر للفاعل المحذوف ، كأنه لما قال : (يسبح له فيها) ، قيل : و من يسبح له فيها ؟ قال : (رجال) ، أي : يسبح له فيها رجال ، فيكون رفع رجال هاهنا بفعل مضمر ، و يظهر بهذا اتفاق القراءتين في المعنى (٦٩٩) .

و التسبيح المسند إلى الرجال في هذه الآية فسر بالصلاة (٧٠٠)، و الصلاة تسمى تسبيحا كما سبق.

و فسر بالتسبيح بالقول ، و يدخل فيه التسبيح في الصلاة و غيرها .

و خص الوقتين - الغدو ، و هو أول النهار ، الآصال جمع أصيل ، و هو آخر النهار - لشرفهما و لتيسير السير فيهما إلى الله تعالى (٧٠١).

و قوله (رجال) ((فيه إشعار بمهمهم السامية ، و نياتهم و عزائمهم العالية التي بها صاروا عمارا للمساجد التي هي بيوت الله في أرضه ، و مواطن عبادته و شكره و توحيده

(٦٩٨) ينظر: المصدر السابق.

(٦٩٩) معاني القرآن، للفراء: 2/253، و معاني القرآن و إعرابه، للزجاج: 4/45-46، و تفسير الطبري: 8/330-

331، و تفسير القرآن العظيم: 3/305، و أضواء البيان: 4116.

(٧٠٠) ينظر: تفسير الطبري: 8/331، و تفسير القرآن العظيم: 3/305.

(٧٠١) ينظر: المصدر السابق.

المبحث الخامس: تسبيح الكائنات كلها لله تعالى:

و من أنواع التسبيح باعتبار الفاعل ما وقع في الكتاب من إسناد التسبيح إلى أصناف الكائنات المختلفة، من الحيوانات و النباتات و الجمادات العاقلة و غير العاقلة ، و الناطقة و غير الناطقة، و النامية و الجامدة، و كل ما يصدق عليه أنه شيء مما خلق الله في السماوات أو في الأرض أو في ما بينهما من المخلوقات التي لا يحيط بأنواعها و لا يحصى عددها إلا الله الخالق القدير الذي أحاط بكل شيء علما ، و أحصى كل شيء عددا .

ففي كتاب الله تعالى نحو ثلاث عشرة آية من إحدى عشرة سورة (703) أسند فيها التسبيح إلى هذه الكائنات الجملة في بعضها ، و مفصلة في بعضها الآخر.

- فأما الآيات التي اسند فيها التسبيح إلى الكائنات الجملة ، فهي :

- 6- قوله تعالى : ﴿ سَبِّحْ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾ (١) الحديد
- 7- قوله تعالى : ﴿ سَبِّحْ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾ (١) الحشر، الصف
- 8- و قوله تعالى : ﴿ هُوَ اللَّهُ الْخَلِيقُ الْبَارِئُ الْمُصَوِّرُ لَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى يُسَبِّحُ لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾ (٢٤) الحشر
- 9- و قوله تعالى : ﴿ يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ الْمَلِكِ الْقُدُّوسِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ ﴾ (١) الجمعة

(702) ينظر: تفسير القرآن العظيم: 305/3-306.

(703) هي: سورة الرعد، الآية: 13، و سورة الإسراء، الآية: 44، و سورة الأنبياء، الآية: 79، و سورة الأنبياء، الآية: 79، و سورة النور، الآية: 41، و سورة سبأ، الآية: 10، و سورة ص، الآيتان: 18، 19، و سورة الحديد، الآية: 1، و سورة الحشر: الآيتان: 1، 24، و سورة الصف، الآية: 1، و سورة الجمعة، الآية: 1، و سورة التغابن، الآية: 1.

10- و قوله تعالى : ﴿ يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ لَهُ الْمُلْكُ
وَلَهُ الْحَمْدُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ (١) التغابن

و في هذه الآيات جميعها يخبر الله ﷻ أن ما في السماوات و ما في الأرض سبح له و يسبح له.

و اللام في قوله: (لله) تقدم بيان معناها عند الكلام على تعدية التسييح، و أنها تحمل أوجهها ، أظهرها أنها للاختصاص ، أي : أنها تفيد كمال الإرادة من الفاعل المسبح ، و كمال الاستحقاق من الله المسبح تبارك و تعالى (704).

و لفظ (ما) الذي أسند إليه التسييح في هذه الآيات اسم موصول بمعنى الذي ، و يستوي فيه المذكر و المؤنث ، و المفردة و المثني و الجمع ، و يستعمل في غير العاقل غالبا ، و العاقل قليلا (705) ، و ذكر المفسرون أنه - في هذه الآيات -- متناول للعاقل و غير العاقل ، بتغليب غير العاقل لكثرتة (706).

كما ذكر المفسرون و غيرهم أنه من صيغ العموم (707) ، فيكون إسناد تسييح إليه في هذه الآيات شاملا لكل شيء في نطاق السموات و الأرض (708) ، فقوله: (ما في السموات) يعني كل ما في السموات السبع من الملائكة و غيرهم، كالشمس والقمر والنجوم ، و غير ذلك (709) .

و جاء لفظ (السموات) مجموعا في جميع هذه الآيات ؛ لأن المراد الإخبار عن تسييح

(704) ينظر:ص61من هذا البحث.

(705) ينظر:مفردات ألفاظ القرآن،للاغب:ص784،و الإتيان في علوم القرآن،للسيوطي:1/557.

(706) ينظر:أضواء البيان، الشنقيطي:252/5.

(707) ينظر:المصدر السابق:268/5.

(708) ينظر:المصدر نفسه و الموضع.

(709) ينظر:تفسير الطبري:88/12،و النكت و العيون،للماردي:468/5،و تفسير السمرقندي:3/321،و الجامع

لأحكام القرآن،للقرطبي:235/17،و تفسير الخازن:4/245.

سكانها على كثرتهم و تباين مراتبهم ، فكان لا بد من جمع محلهم (710).

و قوله (و ما في الأرض) يعني كل ما في الأرضين من الإنس و الجن ، و الأنعام و الدواب، و الجبال و الأشجار، و النبات و البحار، و غير ذلك (711).

و كرر ذكر (ما) مع (الأرض) في هذه الآيات — ما عدا آية سورة الحديد — لزيادة التقرير و التنبيه على استقلال كل من الفريقين (ما في السموات و ما في الأرض) بالتسبيح (712).

و قد ختم الله ﷻ كل آية من الآيات السابقة ببعض أسمائه الحسنی الدالة على صفاته العليا المقتضية لتسبيحه، فختم آية الحديد، و آية الحشر، و آية الصف، بقوله تعالى: ﴿الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ أي: هو الغالب الذي لا يغلبه شيء، الحكيم الذي يضع الأمور في مواضعها ، و يوقعها في مواقعها (713). فبعزته قهر كل شيء فلا يمتنع عليه شيء، و لا يستعصى عليه مستعص، و بحكمته أحسن كل شيء خلقه ، فلا يخلق شيئاً عبثاً ، و لا يشرع ما لا مصلحة فيه (714). و من تمام عزته و حكمته براءته عن كل سوء و عيب و نقص، فإن ذلك ينافي العزة التامة و الحكمة التامة (715). و ختم آية الجمعة بقوله تعالى: ﴿الْمَلِكِ الْقُدُّوسِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ﴾، فذكر مع الاسمين السابقين اسمه الملك ، و اسمه القدوس و قد تقدّم الكلام على هذين الاسمين و بيان مناسبة قرن التسبيح بهما.

و ختم آية التغابن بقوله تعالى: ﴿لَهُ الْمُلْكُ وَلَهُ الْحَمْدُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ أي: أنه سبحانه المختصّ بالملك كلّ، و الحمد كلّ، و كمال القدرة .

(710) ينظر: بدائع الفوائد، لابن القيم: 127/1.

(711) ينظر: تفسير الطبري: 88/12، و تفسير السمرقندي: 321/3، و تفسير الخازن: 245/4.

(712) ينظر: تفسير أبي السعود: 224/8.

(713) ينظر: أضواء البيان: 252/5.

(714) ينظر: تيسير الكريم الرحمن: ص 849، 945.

(715) ينظر: شفاء العليل، لابن القيم: 66/2.

فهذه الأوصاف العظيمة مما يدعو إلى تسبيحه و عبادته وحده لا شريك له (716).
و أما الآيات التي أسند فيها التسبيح إلى الكائنات مفصلة، فهي : قوله تعالى:

5. ﴿وَيُسَبِّحُ الرَّعْدُ بِحَمْدِهِ وَالْمَلَائِكَةُ مِنْ خِيفَتِهِ﴾ (١٣) الرعد

و هذه الآية سبق ذكرها في تسبيح الملائكة (717)، و ذكرت هنا بناء على ما قيل في تفسير الرعد من أنه : صوت اصطكاك الأجرام العلوية (718)، أو ريح تختنق تحت السحاب فتصاعد فيكون منه ذلك الصوت (719)، و عليه فإنما خص الرعد بالتسبيح لأنه من أعظم الأصوات (720).

6. قوله تعالى : ﴿وَسَخَّرْنَا مَعَ دَاوُدَ الْجِبَالَ يُسَبِّحْنَ وَالطَّيْرَ وَكُنَّا فَاعِلِينَ﴾ (٧٨) الأنبياء

و هذه الآية سبق ذكرها عند الكلام على تسبيح نبينا داود عليه السلام و فيها إسناد التسبيح إلى الجبال و الطير، فإن قوله ﴿يُسَبِّحْنَ﴾ ، جملة حالية من الجبال ، أي : مسبحات لله تعالى (721).

و قوله : ﴿وَالطَّيْرَ﴾ ، معطوف على الجبال ، أي : و سخرنا الطير تسبح مع داود (722). و قيل : هو مفعول معه ، أي : و سخرنا الجبال يسبحنا مع الطير (723).

و قدم تعالى ذكر الجبال على الطير ، لان تسخيرها و تسبيحها أعجب و أدخل في

(716) ينظر: تيسر الكريم الرحمن، للسعدي: ص862.

(717) ينظر: ص 110 من البحث.

(718) ينظر: تفسير القرآن، لأبي مظفر: 84/3، و مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية: 264-263/24.

(719) ينظر: تفسير الطبري: 186/1، و الجامع لأحكام القرآن، للقرطبي: 217/1.

(720) ينظر: زاد المسير، لابن الجوزي: 314/4.

(721) ينظر: البحر المحيط، لأبي حيان: 307/6، و تفسير النسفي: 131/3.

(722) ينظر: المصدرين السابقين، و أضواء البيان، للشنقيطي: 155/3.

(723) ينظر: المصادر السابقة نفسها.

الإعجاز ، لأنها جماد ، بخلاف الطير ، فإنها حيوان لها صوت (724).

و لهذا قال سبحانه : ﴿ وَكُنَّا فَاعِلِينَ ﴾ (٧٨) أي : فاعلين هذه الأعاجيب من تسخير الجبال و الطير لداود عليه السلام ، و تسبيحهن معه (725) ، ففي هذا القول تأكيد لما قبله و الموجب لذلك أن تسخير الجبال و الطير و تسبيحهن أمر عجب خارق للعادة ، مظنة لأن يكذب به الكفرة الجهلة (726) .

7. قوله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَا دَاوُدَ مِنَّا فَضْلًا يَجِبَالُ أَوِيٍّ مَعَهُ .

وَالطَّيْرُ ﴾ (١٠) سبأ ، و هذه الآية كالتي قبلها ، سبق ذكرها في تسبيح نبي الله داود عليه السلام ، و فيها أيضا بيان تسبيح الجبال و الطير لله تعالى ، فإن قوله : ﴿ يَجِبَالُ أَوِيٍّ مَعَهُ ﴾ (١٠) أمر للجبال بترجيح التسبيح مع داود عليه السلام كما سبق (727) . و قوله : ﴿ وَالطَّيْرُ ﴾ ، قرئ بالنصب و في إعرابه أوجه :

أولها: أنه معطوف على (فضلا) ، أي: و لقد آتينا داود منا فضلا و الطير، ويكون

قوله ﴿ يَجِبَالُ أَوِيٍّ مَعَهُ ﴾ ، جملة معترضة (728) . و هذا الوجه ليس بظاهر في معنى الآية .

الثاني : أنه معطوف على (جبال) و توجيهه - كما قال ابن جرير الطبري: (أن

الطير نادى الجبال ، فتكون منصوبة من أجل أنها معطوفة على مرفوع لا يحسن إعادة رافعه عليه ، فيكون كالمصدر (729) عن جهته (730) .

(724) ينظر: البحر المحيط: 308/6، و تفسير النسفي: 131/3، و البداية و النهاية، لابن كثير: 290/6.

(725) ينظر: البحر المحيط، لأبي حيان: 308/6.

(726) ينظر: أضواء البيان، للشيخ محمد الأمين الشنقيطي: 156/3.

(727) ينظر: ص 121 من البحث.

(728) ينظر: معاني القرآن و إعرابه، للزجاج: 243/4، و روح المعاني، للآلوسي: 114/22.

(729) أي كالمصروف عن وجهه، حيث عدل به عن الرفع إلى النصب؛ لأن حرف النداء لا يدخل على الاسم المحلى ب:

أل.

(730) ينظر: تفسير الطبري: 350/10.

و وجهه غيره بأن العطف هنا على محل (جبال)، لأن كل منادي منصوب، و لكنه إذا كان معرفة غير مضاف و لا شبيها به بني على ما يرفع به في محل نصب⁽⁷³¹⁾، كأنه قال:

دعون الجبال و الطير، فالطير معطوف على محل الجبال في الأصل⁽⁷³²⁾.

الثالث: أنه مفعول معه، أي: أنه نصب على معنى (مع)، كما تقول: قمت و زيدا، و أي: يا جبال أوبي معه الطير⁽⁷³³⁾. و قد اعترض على هذا الوجه بأنه يؤدي إلى تكرار لفظ (مع). و أجيب عنه بأنهما معمولان متغايران كل منهما باب على حدة⁽⁷³⁴⁾.

الرابع: أنه منصوب بفعل مقدر مناسب، و اختلف في هذا الفعل: فقده بعضهم (سخرنا)، يعني: و سخرنا له الطير⁽⁷³⁵⁾.

و قدره بعضهم (أمرنا)، أي: و أمرنا الطير أن تسبح معه⁽⁷³⁶⁾.

و قدره بعضهم (نادينا)، أي: و نادينا الطير لمثل ذلك من ترجيع التسبيح معه⁽⁷³⁷⁾. و قرئ: (والطير) بالرفع، و في إعرابه أوجه أيضا:

أولها: أنه معطوف على (الجبال)، و إن لم يحسن نداؤها بحرف النداء الذي نوديت

⁽⁷³¹⁾ قال ابن مالك في الألفية:

"و ابن المعرف المنادى المفردا على الذي في رفعه قد عهدا"

ألفية ابن مالك في النحو و الصرف: ص 49. و ينظر: شرح ابن عقيل على ألفية ابن مالك: 2/258.

⁽⁷³²⁾ ينظر: معاني القرآن و إعرابه، للزجاج: 4/243، و تفسير النسفي: 3/465، و روح المعاني، للألوسي: 22/243.

⁽⁷³³⁾ ينظر: معاني القرآن و إعرابه، للزجاج: 4/243.

⁽⁷³⁴⁾ ينظر: روح المعاني: للألوسي: 22/114.

⁽⁷³⁵⁾ ينظر: مجاز القرآن، لأبي عبيدة: 2/143، و تفسير الطبري: 10/350-351.

⁽⁷³⁶⁾ ينظر: تفسير القرآن، لأبي المظفر: 4/319.

⁽⁷³⁷⁾ ينظر: أضواء البيان: 3/155.

به الجبال (738) .

و عند من يقول : إن (الجبال) مبني على الصم في محل نصب ، يكون العطف هنا على لفظ الجبال ، تشبيها للحركة البنائية العارضة بالحركة الإعرابية (739) .

الثاني : أنه مرفوع على البدل من منادى محذوف ، و التقدير : يا جبال و يا أيها الطير أوبي معه (740) ، فالطير بدل من (أوي) ، المنادى .

الثالث : أنه معطوف على الضمير في (أوبي) ، و هو ياء المخاطبة العائدة إلى الجبال ، و المعنى : يا جبال رجعي التسييح أنت و الطير (741) .

و هذه الأوجه الإعرابية المتعلقة و إن اختلفت إعرابا ، فهي متفقة معنى ، غير أن بعضها أظهر في الدلالة على المعنى من بعض ، فإن في كل وجه من الأوجه المذكورة بيان أن الطير مأمورة بمثل ما أمرت به الجبال من تأويب - و هو التسييح - مع داود عليه السلام

" و قد أشار بعض المفسرين إلى ما في هذه الآية من عظمة الإلهية ، حيث جعلت الجبال و الطير بمتلة العقلاء الذين إذا أمروا بالطاعة أطاعوا ، و إذا دعوا أحابوا ، إشعارا بأنه ما من حيوان و لا جماد إلا و هو منقاد لمشيئة الله تعالى " (742) .

8. قوله عَلَيْكَ ﴿ إِنَّا سَخَرْنَا الْجِبَالَ مَعَهُ يُسَبِّحْنَ بِالْعَشِيِّ وَالْإِشْرَاقِ ﴾ (١٨) وَالطَّيْرَ مَحْشُورَةً كُلِّ

لَهُ أَوَّابٌ ﴿١٩﴾ ص

و أسند التسييح هنا أيضا إلى الجبال و الطير ، كما في الآيتين السابقتين ، و لكن قيد

(738) ينظر: تفسير الطبري: 315/10، و الوجه الثاني في قراءة النصب.

(739) تفسير النسفي: 465/3،

(740) ينظر: معاني القرآن و إعرابه: 243/4.

(741) ينظر: تفسير الطبري: 351/10، و معاني القرآن و إعرابه: 243/4، و روح المعاني: 114/22.

(742) ينظر: تفسير النسفي: 465/3.

تسبيح الجبال - هنا - بوقتي (العشي و الإشراق) أي : بآخر النهار و أوله (743).

كما اخبر عن الطير بأهما (محشورة) أي : مجموعة من كل ناحية (744).

و قيل : محبوسة في الهواء (745). و لا اختلاف بين المعنيين ، و ذلك أن داود عليه السلام كان إذا سبح الله تعالى جاوبته الجبال بالتسبيح ، و اجتمعت إليه الطير ساجدة في الهواء ، فسبحت معه ، فتكون محبوسة باجتماعها (746)، و لهذا ختم الله تعالى الآية بقوله : ﴿كُلُّ لَهْءٍ أَوَّابٌ﴾ ، و للمفسرين أقوال في بيان المراد بذلك :

فقال بعضهم : يعني بالكل : كل طير ، بضمير في (له) داود عليه السلام ، و أبواب بمعنى : مطيع رجاع إلى طاعته و أمره ، أي : كل طير لداود مطيع رجاع إلى طاعته و أمره بالتسبيح معه . (747).

و قال بعضهم : يعني بالكل : كل واحد من جبال و الطير ، و اللام في (له) تعليلية ، و الضمير لداود عليه السلام (و أبواب) بمعنى : مسبح ، أي : كل من جبال و طير منة أجل داود ، أي : لأجل تسبيحه و مسبح الرجاع إلى تسبيح ، لأنها كانت تسبح لتسبيحه ، و يرجعن التسبيح معه ، فكلما سبح داود عليه السلام سبحت الجبال و الطير معه . (748)

و من قائلين بهذا التفسير من أشار إلى أن الأبواب وضع الموضوع المسبح ، لأن الجبال و الطير كانت ترجع تسبيح مع داود عليه السلام ، و المرجع رجاع ، لأنه يرجع إلى

(743) ينظر: تفسير الطبري: 562/10، و معاني القرآن و إعرابه، للزجاج: 324/4، و البداية و النهاية، لابن كثير: 10/2.

(744) ينظر: تفسير الطبري: 562/10، و تفسير القرآن، لأبي المظفر السمعاني: 430/4، و تفسير النسفي: 56/4، و تيسير

الكريم الرحمن، للسعدي: ص711.

(745) ينظر: تفسير القرآن العظيم، لابن كثير: 33/4.

(746) ينظر: تفسير الطبري: 562/10، و تفسير القرآن العظيم، لابن كثير: 33/4.

(747) ينظر: زاد المسير، لابن الجوزي: 111/7.

(748) ينظر: معاني القرآن و إعرابه، للزجاج: 324/4، و روح المعاني، للألوسي: 176/23.

فعله و الرجوع إلى فعله رجوعاً بعد رجوع.⁽⁷⁴⁹⁾

أو لأن الأواب : هو التواب الكثير الرجوع إلى الله تعالى ، و من دأبه ان يكثر ذكر الله تعالى ، و يديم تسيبته و تقديسه⁽⁷⁵⁰⁾ .

و قال بعضهم : يعني بالكل : كل الطير ، و الضمير في (له) لله تعالى و (أواب) بمعنى : مسبح ، أي كل الطير لله تعالى مسبح⁽⁷⁵¹⁾ .

و عليه فقوله : (كل له أواب) استثناء مقرر لمضمون قوله: (و الطير محشورة)، مصرح بما فهم منه إجمالاً من تسيب الطير⁽⁷⁵²⁾ .

و ذكر بعضهم نحو التفسير السابق ، و لكنه جعل المعنى بالكل : الجبال و الطير ، أي: كل من الجبال و الطير لله تعالى مسبح ، و هذا التفسير موافق لقوله تعالى — الآية السابقة — : ﴿يَجِبَالٌ أَوْبَىٰ مَعَهُ وَالطَّيْرُ﴾ سبأ : ١٠ ، فكل من الجبال و الطير لله تعالى مسبح أواب امتثالاً لذلك⁽⁷⁵³⁾ .

و آخرون من المفسرين جعلوا المعنى بالكل : داود عليه السلام ، و الجبال ، و الطير ، أي : كل من داود و الجبال و الطير لله تعالى أواب ، أي : مسبح مرجع للتسيب⁽⁷⁵⁴⁾ .

و هذه الأقوال و إن بدت متنوعة ، لكنها ليست متعارضة ، و أظهرها دلالة على معنى الآية — في نظري — التفسيران الأخيران .

و قد ظهر في الآيات الثلاث المذكورة إسناد التسيب إلى الجبال و إلى الطير، كما

⁽⁷⁴⁹⁾ ينظر: روح المعاني:176/23

⁽⁷⁵⁰⁾ المصدر السابق نفسه، و تفسير النسفي:57/4.

⁽⁷⁵¹⁾ ينظر: تفسير الطبري:563/10، و زاد المسير:111/7.

⁽⁷⁵²⁾ ينظر: تفسير أبي السعود:219/7، و روح المعاني:176/23.

⁽⁷⁵³⁾ ينظر: تيسير الكريم الرحمن:ص711.

⁽⁷⁵⁴⁾ ينظر: معاني القرآن و إعرابه، للزجاج:324/4، و تفسير النسفي:57/4، و روح المعاني:176/23.

ظهر في الآية المذكورة قبل هذه الآيات إسناد التسبيح إلي الرد ، فهذا مما وقع في كتاب الله تعالى من إسناد تسبيح إلى الكائنات المفصلة .

و هناك آيتان أخريان أسند فيهما التسبيح إلى الكائنات المفصلة ، هما :

3- ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُسَبِّحُ لَهُ مِنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالطَّيْرِ صَفَّاتٍ كُلِّ قَدْ عَلِمَ صَلَاتَهُ

وَسُبْحَهُ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِمَا يَفْعَلُونَ ﴿٤١﴾ النور

ففي هذه الآية أخبر الله تعالى عن تسبيح الجميع من في السموات و الأرض له على العموم ، و عن تسبيح الطير له على الخصوص .

و قوله : (ألم تر) الهمزة فيه للتقرير ، و الرؤية : و هي الرؤية القلبية المرادفة للعلم⁽⁷⁵⁵⁾ ، أي : لم تنظر بعين القلب ، فتعلم أن الله تعالى يسبح له من في السموات و الأرض⁽⁷⁵⁶⁾ و الخطاب هنا للنبي ﷺ ، و المراد به المكلفين⁽⁷⁵⁷⁾ .

و قوله : ﴿ أَنَّ اللَّهَ يُسَبِّحُ لَهُ مِنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ﴾ فيه إسناد التسبيح إلى (من) ، و هي كـ (ما) في موصوليتها ، و استوائها في المذكر و المؤنث ، و المفرد و المثنى و الجمع . و الغالب استعمالها في العاقل عكس (ما)⁽⁷⁵⁸⁾ ، كما سبق⁽⁷⁵⁹⁾ .

و قال المفسرون: إن (من) هنا عامة لكل شيء ، العاقل و غير العاقل ، لكنه لما اجتمع ذلك عبر عنه بـ (من) تغليبا لمن يعقل على ما لا يعقل⁽⁷⁶⁰⁾ .

فيكون قوله : (من في السموات و الأرض) متناولا لجميع الكائنات ، من الملائكة ،

⁽⁷⁵⁵⁾ ينظر: روح المعاني: 18/187.

⁽⁷⁵⁶⁾ ينظر: تفسير الطبري: 9/336.

⁽⁷⁵⁷⁾ ينظر: روح المعاني: 18/187.

⁽⁷⁵⁸⁾ ينظر: الإلتقان في علوم القرآن: للسيوطي: 1/565.

⁽⁷⁵⁹⁾ ينظر: ص 155 من هذا البحث.

⁽⁷⁶⁰⁾ ينظر: المحرر الوجيز: لابن عطية: 11/315، و البحر المحيط، لأبي حيان: 6/425.

و الإنس ، و الجن ، و الحيوانات ، و الجمادات ⁽⁷⁶¹⁾. و قوله تعالى : ﴿كُلُّ قَدْ عَلِمَ صَلَاتَهُ وَتَسْبِيحَهُ﴾ أي : كل من هذه المخلوقات المذكورة المصرح به — كالطير — ، و المدرج تحت عموم (من في السموات و الأرض)، و قد علم صلاته و تسبيحه ⁽⁷⁶²⁾.

و في المعنى بالضمير المستتر في (علم)، و بالضميرين في (صَلَاتَهُ وَتَسْبِيحَهُ) ثلاثة أقوال للمفسرين:

القول الأول: أن الضمير المستتر الذي هو فاعل (علم) يعود إلى الله تعالى في قوله : (الَّذِينَ أَنْزَلَ اللَّهُ مَسِيحًا لَهُ) الآية ، و الضميران في (صَلَاتَهُ وَتَسْبِيحَهُ) يعودان إلى (كل). و على هذا فالمعنى : كل من هذه المخلوقات قد علم الله صلاة المصلي منها ، و تسبيح المسبح منها ⁽⁷⁶³⁾. و يكون هذا إخبارا عن علم الله تعالى بعبادات كل المخلوقات ، و إن لم يعلم العباد منها إلا ما أطلعهم الله عليه ⁽⁷⁶⁴⁾.

و هذا القول هو الذي رجحه ابن جرير الطبري في تفسيره ، و أبو إسحاق الزجاج في معاني القرآن و إعرابه .

القول الثاني : أن الضمير المستتر في (علم) ، و الضميرين في (صَلَاتَهُ وَتَسْبِيحَهُ) جميعا يعود إلى (كل) ، و عليه فالمعنى : كل من هذه المخلوقات قد علم صلاة نفسه و تسبيح نفسه ، أي : قد علم ما كلف من ذلك و ألزمه ، فهو يثابر عليه ⁽⁷⁶⁵⁾.

⁽⁷⁶¹⁾ ينظر: تفسير الطبري: 336/9، و تفسير القرآن العظيم: 308/3، و تيسير الكريم الرحمن: ص570.

⁽⁷⁶²⁾ ينظر: البحر المحيط، لأبي حيان: 420/6، و روح المعاني: 188/18، تيسير الكريم الرحمن: ص570.

⁽⁷⁶³⁾ ينظر: تفسير الطبري: 337/9، و معاني القرآن و إعرابه، للزجاج: 48/4-49، و أحكام القرآن، للحصاص: 189/5، و المحرر الوجيز: لابن عطية: 315/11، و زاد المسير، لابن الجوزي: 51/6، و تيسير الكريم الرحمن: ص570، و أضواء البيان: 124/4.

⁽⁷⁶⁴⁾ ينظر: تيسير الكريم الرحمن: ص570.

⁽⁷⁶⁵⁾ ينظر: تفسير الطبري: 337/9، و معاني القرآن و إعرابه، 48/4، و المحرر الوجيز: 315/11، و زاد المسير: 52/6، و تفسير القرآن العظيم: لابن كثير: 308/3، و تيسير الكريم الرحمن: ص570، و أضواء البيان: 124/4.

و على هذا المعنى يكون قوله : ﴿كُلُّ قَدْ عَلِمَ صَلَاتَهُ، وَتَسْبِيحَهُ﴾ (استثنافاً) (جيء به لبيان كمال عراقه كل واحد مما ذكر من الطير و ما اندمج في عموم (مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ) في التثنيه ، و رسوخ قدمه فيه بتمثيل حاله بحال من يعلم ما يصدر عنه من الأفعال ، فيفعلها عن قصد و نية ، لا عن اتفاق بلا روية) (766).

و قد رجع الشيخ محمد الأمين الشنقيطي ذلك ، و قال - في تقرير ذلك - : (و قد قدمنا في سورة النحل في الكلام على قوله تعالى : ﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِّنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ﴾ (١٧) النحل ، كلام الأصوليين في أن اللفظ إن احتمل التوكيد و التأسيس حمل على التأسيس ، و بينا أمثلة لذلك من القرآن العظيم . و إذا علمت ذلك ، فاعلم أن الأظهر - على مقتضى ما ذكرنا عن الأصوليين - أن يكون ضمير الفاعل المحذوف في قوله : ﴿كُلُّ قَدْ عَلِمَ صَلَاتَهُ، وَتَسْبِيحَهُ﴾ (٤١) . راجعاً إلى قوله : (كل) ، أي : كل من المصلين قد علم صلاة نفسه ، و كل من المسيحين قد علم تسبيح نفسه ، و على هذا القول فقوله تعالى : ﴿وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِمَا يَفْعَلُونَ﴾ (٤١) تأسيس لا تأكيد ، أما على القول بأن الضمير راجع إلى الله ، أي : قد علم الله صلته ، يكون قوله : ﴿وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِمَا يَفْعَلُونَ﴾ (٤١) ، كالتكرار مع ذلك ، فيكون من قبيل التوكيد اللفظي .

و قد تقدم أن المقرر في الأصول أن الحمل على التأسيس أرجح من الحمل على التوكيد ، كما تقدم إيضاحه (767).

القول الثالث : أن الضمير المستتر في (علم) يعود إلى (كل) ، و الضميران في

(صَلَاتَهُ، وَتَسْبِيحَهُ) يعودان إلى الله تعالى. و المعنى : كل من هذه المخلوقات قد علم صلاة الله تعالى و تسبيحه اللذين أمر بهما و هدى إليها ، أي : علم أن ذلك لله تعالى وحده (768) و هذا قوله - في نظري - ضعيف ، لأن الإضافة في (صَلَاتَهُ، وَتَسْبِيحَهُ) - بناء عليه - تكون

(766) مقتبس من: روح المعاني: 188/18.

(767) تيسير الكريم الرحمن: 570.

(768) ينظر: أضواء البيان: 124/4.

للمفعول ، و معلوم أن (صلاة) اسم مصدر فعل لازم ، و هو (صلي ، يصلي ، صلاة)
فإضافته للمفعول مشكلة في المعنى ، و يظهر أنه لضعفه قد أهمل ذكره بعض المحققين من
المفسرين فيما تحمله الآية من الأوجه .

أما القولان الأول و الثاني فقويان ، و أقواهما القول الثاني ، كما تقدم في كلام
الشنقيطي .

و ذكر بعض المفسرين في معنى قوله : (كل قد علم صلاته وتسيحه) أن الصلاة
لبنى آدم ، و التسيح لما سواهم من الخلق ، و هو مروى عن مجاهد (769) .

و قد تضمن الكلام السابق بيان معنى قوله تعالى - في ختام هذه الآية ﴿ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِمَا
يَفْعَلُونَ ﴾ (٤١) ، و قال ابن جرير الطبري : ((يقول تعالى ذكره : و الله ذو علم بما يفعل
كل مصل و مسبح منهم ، لا يخفي عليه شيء من أفعالهم ، طاعتها و معصيتها ، محيط
بذلك كله ، و هو مجازيهم على ذلك كله)) (770) .

4- قوله تعالى : ﴿ تُسَبِّحُ لَهُ السَّمَوَاتُ السَّبْعُ وَالْأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ
بِحَمْدِهِ وَلَكِنْ لَا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا ﴾ (٤٤) الإسراء : ٤٤
و في هذه الآية أخبر الله تعالى عن تسبيح الكائنات له على التفصيل و الإجمال .

فقوله : ﴿ تُسَبِّحُ لَهُ السَّمَوَاتُ السَّبْعُ ﴾ ، فيه إسناد التسبيح إلى السموات السبع ، و جاء
لفظ (السموات) في هذه الآية (مجموعة إخبارا بأنها تسبح له بذواتها و أنفسها على
اختلاف عددها ، و أكمل هذا المعنى بوصفها بالعدد ، و لم يقتصر على السموات فقط ،
بل قال : (السبع) (771) .

(769) ينظر: تفسير الطبري: 336/9-337، و معاني القرآن و إعرابه: 4/48، و الحرر الوجيز: 315/11.

(770) ينظر: تفسير الطبري: 337/9.

(771) ينظر: بدائع الفوائد: 128/1.

و قوله : (و الأرض) معطوف على (السَّمَوَاتُ السَّبْعُ) ، و فيه إسناد التسييح إلى الأرض أي : و تسيح له الأرض بذاتها كما تسيح له السماوات السبع بذواتها .

و أشار بعض العلماء إلى أن إسناد التسييح إلى السماوات و الأرض هو بما في كل منهن من أفلاك و كواكب و بروج ، أو جبال و وهاد و فجاج⁽⁷⁷²⁾ .

و قوله : (و مَنْ فِيهِنَّ) معطوف على (السَّمَوَاتُ السَّبْعُ وَالْأَرْضُ) ، و الضمير فيه يعود إلى السماوات و الأرض ، أي : و يسبح له من في السماوات و الأرض .

و ذهب بعض المفسرين إلى أن (من) في هذه الآية قصد بها العقلاء ، من الملائكة و الإنس و الجن⁽⁷⁷³⁾ .

و جعلها ابن جرير الطبري خاصة في المؤمنين منهم : فقال : (وَمَنْ فِيهِنَّ) من المؤمنين به الملائكة و الإنس و الجن⁽⁷⁷⁴⁾ .

و كثير من المفسرين على أن (من) هنا عامة في جميع المخلوقات ، العقلاء و غيرهم⁽⁷⁷⁵⁾ ، و عليه فقوله : وَمَنْ فِيهِنَّ كقوله - في الآية السابقة - : ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبَسُوا الْحُلُمَ إِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ﴾^(٤١) .
النور : ٤١ .

و (من) و إن كانت للعاقل غالبا ، فإنها تستعمل للعاقل و غيره في مواضع ، منها : أن يجتمع غير العاقل مع العاقل في الحكم ، فيغلب العاقل على غير العاقل لشرفه ، كما تستعمل في هذه الحالة (ما) ، تغليباً لغير العاقل على العاقل لكثرتهم ، مثل قوله تعالى : ﴿

⁽⁷⁷²⁾ ينظر: أضواء البيان (التكملة): 268/5.

⁽⁷⁷³⁾ ينظر: المحرر الوجيز: لابن عطية: 300/10، و الجامع لأحكام القرآن، للقرطبي: 266/10.

⁽⁷⁷⁴⁾ ينظر: تفسير الطبري: 84/8.

⁽⁷⁷⁵⁾ ينظر: تفسير الطبري: 84/8، و تفسير السمرقندي: 270/2، و تفسير القرآن العظيم، لابن كثير: 45/3، و أضواء

البيان: 251/5.

سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ ﴿١﴾ الحشر: ١ و بهذا يكون إسناد التسبيح في قوله : ﴿ تَسْبِيحٌ لَهُ السَّمَوَاتُ السَّبْعُ وَالْأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ ﴾ ، شاملا للسموات و الأرض بذواتهما ، و لكل شيء فيهما ، عاقل و غير عاقل (776) ، و الله تعالى أعلم .

و قوله : ﴿ وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ ﴾ ، (إن) هنا بمعنى (ما) النافية (777) ، و (من) حرف جر صلة . و (شيء) أعم العمومات ، فيشمل السموات و الأرض ، و الملائكة و الإنس و الجن ، و الحيوانات و النباتات و الجمادات ، و الشجر و الحجر و المدر ، و الحي و الميت ، و كل مخلوق لله تعالى (778) ، و قد وصلت به (من) لتوكيد العموم (779) .

و (وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ) إثبات للتسبيح للأشياء كلها . و المعنى : و ما من شيء من المخلوقات إلا يسبح بحمد الله تعالى (780) ، يعني تسبيحا مقرونا بالحمد ، على ما سبق بيانه في صيغة القرآن للتسبيح (781) .

و هذه الآية أكثر شمولاً ، و أبلغ عموماً في إسناد التسبيح إلى الكائنات ، فإنها تدل بمنطوقها أن كل ما يصدق عليه أنه شيء يسبح بحمد الله جل و علا .

و لكن للمفسرين موقفان حيال هذا العموم الذي دلت عليه هذه الآية : فقد ذهب فريق منهم إلى أن الآية على عمومها ، فكل شيء يسبح ، حيا أو غير حي ، ناميا ، أو غير نام ، باقيا على أصله أو متغيرا عنه (782) .

(776) ينظر: أضواء البيان: 251، 268/5.

(777) ينظر: زاد المسير: 39/5.

(778) ينظر: تيسير الكريم الرحمن: ص459، و أضواء البيان: 268/5.

(779) ينظر: مغني اللبيب، لابن هشام: ص425.

(780) ينظر: تفسير الطبري: 8/84، و تفسير القرآن العظيم، لابن كثير: 3/45.

(781) ينظر: ص155 من هذا البحث.

(782) ينظر: تفسير الطبري: 8/84-85، و معاني القرآن و إعرابه، للزجاج: 3/242، و النكت و العيون ، للماوردي:

و ذهب فريق ، آخر من المفسرين إلى أن الآية من قبيل العام المراد به الخاص⁽⁷⁸³⁾ .
ثم اختلف هذا الفريق في الخاص المراد به على ثلاثة أقوال :

القول الأول : أنه كل شيء فيه الروح ، عنون كل شيء حي ، و أما ما لا حياة فيه فلا يسبح ، إنما يسبح ما كان فيه روح⁽⁷⁸⁴⁾ .

القول الثاني : أنه كل شيء حي و نام دون الجمادات ، و معنى هذا ان الحيوانات و النباتات هي التي تسبح ، و أما الجمادات فلا تسبح⁽⁷⁸⁵⁾ .

و استدل بعضهم لهذا القول بما رواه ابن عباس رضي الله عنهما قال: مر النبي صلى الله عليه وسلم بقبرين ، فقال : (أنهما لا يعذبان ، و ما يعذبان في كبير : أما أحدهما فكان لا يستتر من البول ، و أما الآخر فكان يمشي بالنميمة) ، ثم أخذ جريدة رطبة فشققها نصفين ، فغرز في كل قبر واحد . قالوا : يا رسول الله لما فعلت هذا ؟ قال : لعله يخفف عنهما ما لم ييبسا⁽⁷⁸⁶⁾ .

قال المستدلون بهذا الحديث على القول المذكور : إن قوله صلى الله عليه وسلم : (ما لم ييبس) إشارة أنهما يسبحان ما دام رطبين ، فإذا يبس صار جمادا ، و انقطع تسيبهما⁽⁷⁸⁷⁾ .

و معلوم أن الحديث ليس فيه تصريح لما قاله هؤلاء أنما هو رأي قالوه احتمالا ، و مع الاحتمال لا يقوم استدلال .

245/3، و تفسير القرآن، لأبي المظفر: 244/3، و تفسير البغوي: 96/5، و المحرر الوجيز، لابن عطية: 300/10، و زاد المسير: 39/5، و الجامع لأحكام القرآن، للقرطبي: 266/10، و تفسير القرآن العظيم، لابن كثير: 45/3.⁽⁷⁸³⁾ ينظر: المحرر الوجيز: 300/10، و زاد المسير: 39/5.

⁽⁷⁸⁴⁾ ينظر: تفسير الطبري: 85/8، و النكت و العيون: 245/3، و زاد المسير: 39/5، تفسير القرآن العظيم: 46/3.

⁽⁷⁸⁵⁾ ينظر: المحرر الوجيز: 300/10، و زاد المسير: 39/5، و تفسير البغوي: 96/5، و الجامع لأحكام القرآن: 266/10.

⁽⁷⁸⁶⁾ أخرجه البخاري في صحيحه - مع الفتح - : 1/322، برقم (218) ، و مسلم في صحيحه: 1/240-241، برقم (292).

⁽⁷⁸⁷⁾ ينظر: تفسير السمرقندي: 2/270، و شرح صحيح مسلم، للنووي: 3/202، و الجامع لأحكام القرآن، للقرطبي: 10/266، و تفسير القرآن العظيم، لابن كثير: 3/46.

القول الثالث : أنه كل شيء لم يتغير عن حاله فإذا تغير و قطع تسبيحه⁽⁷⁸⁸⁾ .

و يعزى في هذا إلى المقدم ابن معدي كرب⁽⁷⁸⁹⁾ قوله (إن التراب ليسبح ما لم يتل ، فإذا ابتل ترك التسبيح ، و إن الخرزة تسبح ما لم ترفع من موضعها ، فإذا رفعت تركت التسبيح ، إن الورقة لتسبح ما دامت على الشجرة ، فإذا سقطت تركت التسبيح ، و إن الثوب ليسبح ما دام جديدا فإذا توسخ ترك التسبيح ، و إن الماء يسبح ما دام جاريا فإذا ركذ ترك التسبيح ، و إن الوحش و الطير تسبح إذا صاحت ، فإذا سكنت تركت التسبيح)⁽⁷⁹⁰⁾ .

و هذه الأقوال : - كما ترى - ليس على كل شيء منها دليل يجب المصير إليه ، فلا يسوغ العدول على عموم الآية لمجرد هذه الأقوال كائنا من كان قائلها ، لاسيما مع من سبق بيانه من أن الآية جاءت بأبلغ صيغة دالة على العموم ، يبعد في مثلها أن يكون من العام المراد به الخاص .

و قد ذهب المحققون من المفسرين و غيرهم إلى الآية على عمومها في أن كل شيء يسبح بحمد الله تعالى⁽⁷⁹¹⁾ . و قوله تعالى : ﴿ وَلَكِنْ لَا نَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ ﴾ ، استدراك عقب به تعالى الخبر عن تسبيح الأشياء كلها بحمده ، لما قد ينشأ عن هذا الخبر من استغراب تسبيح هذه الأشياء مما لا يفقهه الناس ، أي : لا يفهمونه و لا يعلمونه ؛ لأنه بخلاف لغاتهم

⁽⁷⁸⁸⁾ ينظر: تفسير السمرقندي: 270/2، و زاد المسير: 39/5.

⁽⁷⁸⁹⁾ هو المقدم بن معدي كرب بن عمرو بن يزيد بن معدي كرب، أبو كريمة و قيل: أبو يحيى، الكندي، صحابي، وفد على رسول الله ﷺ في وفد كندة، و عداده في أهل الشام، سكن حمص، و توفي سنة سبع و ثمانين من الهجرة، و عمره إحدى و تسعون سنة، ﷺ. ينظر: تهذيب الأسماء و اللغات، للنووي: 112/2-113، الإصابة، لابن حجر: 204/6.

⁽⁷⁹⁰⁾ ذكره ابن الجوزي في: زاد المسير: 39/5، و البغوي في تفسيره: 96/5.

⁽⁷⁹¹⁾ ينظر: تفسير القرآن، لأبي المظفر: 244/3-245، و شرح صحيح مسلم، للنووي: 202/3، و الجامع لأحكام القرآن، للقرطبي: 268/10، و تفسير القرآن العظيم، لابن كثير: 45/3، و فتح القدير، للشوكاني: 326/3، و تيسير الكريم الرحمن، للشيخ عبد الرحمن السعدي: ص 459.

و في هذا بيان أن تسييح ما سوى ما يسبح. بمثل السنة الناس من المخلوقات لا يفقهه إلا الخالق وَعَلَيْكَ ، و إن شاء الله أن يعلم بعض خلقه ذلك التسييح علمه ، كما سبق في قوله تعالى :

﴿ وَسَخَّرْنَا مَعَ دَاوُدَ الْجِبَالَ يُسَبِّحْنَ وَالطَّيْرَ ﴾ (٧٨) الأنبياء ، و كما قال نبي الله سليمان عَلَيْهِ السَّلَامُ فيما ذكر الله تعالى عنه : ﴿ عَلَّمْنَا مَنَاطِقَ الطَّيْرِ ﴾ (١٦) النمل ، و كما سيأتي ذكره قريبا - إن شاء الله - من تسييح الحصى في كف نبينا محمد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، و سماع بعض الصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ تسييح الطعام ، فهذا كله مما لا يفقهه الناس ، و لكن شاء الله تعالى أن يعلنه من شاء من الناس ، و الله تعالى على كل شيء قدير .

و قوله ﴿ إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا ﴾ (٤٤) أي : إنه تعالى يعالج من عصاه بالعقوبة ، بل يؤجله و ينظره ، فإن استمر على كفره و عناده أخذه عزيز مقتدر ، و إن تاب إلى الله و رجع عن كفره و عصيانه ستر عليه ذنبه ، و أعطاه الثواب الجزيل (793).

و لهذا تجد أن الذين أكثروا الكلام في تسييح الكائنات ، و ادعوا أنه تسييح حال لا تسييح مقال ، هم من رؤوس أهل الكلام . كابن حزم (794) في فصله (795) ، و

(792) ينظر: تفسير الطبري: 85/8، و تفسير القرآن، لأبي المظفر: 244/3، و تفسير القرآن العظيم، لابن كثير: 45/3، و أضواء البيان، للشيخ محمد الأمين الشنقيطي: 251/5.

(793) ينظر: تفسير الطبري: 85/8، و تفسير القرآن العظيم، لابن كثير: 46/3.

(794) هو علي بن أحمد بن سعيد بن حزم الفارسي الأصل الأندلسي القرطبي، أبو محمد، البزيري مولى الأمير يزيد ابن أبي سفيان بن حرب الأموي المعروف بيزيد الخير، رزق ذكاء مفرطا و ذهنًا سيالا، و مهر في الأدب و الأخبار و المنطق و الفلسفة، فأثرت فيه تأثيرا ليته سلم من ذلك، و كان أيضا رأسا في الفقه، متبحرا في النقل، و من تناقضاته أنه كان في الفقه ظاهريا مفرطا، و في العقيدة جهميا جلدا، و له تصانيف كثيرة في فنون عديدة، و توفي سنة (456هـ). ينظر: سير أعلام النبلاء، للذهبي: 18/184-212.

(795) الفصل في الملل و الأهواء و النحل: 1/153-159.

كشافة (797)، و الفخر الرازي (798) في مفاتيحه (799) - ، أو ممن تأثر بهم من مؤلفين في التفسير و غيره . لكثرتة . ولما أمر الله تعالى الخلق بالتسبيح في آخر سورة الواقعة ، يعني في قوله تعالى : ﴿ فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ ١٦ ﴾ الواقعة : ٩٦ جاء في أول السورة التي تليها مباشرة بالفعل الماضي ، ليدل على أن التسبيح المأمور به قد فعله . والتزم به كل ما في السماوات والأرض

ومعلوم أن الفعل قد جاء أيضاً بصيغة المضارع كما في آخر هذه السورة : ﴿ يُسَبِّحُ لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ٢٤ ﴾ ، وفي أول سورة الجمعة : ﴿ يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ الْمَلِكُ الْقُدُّوسُ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ١ ﴾ ، وفي أول سورة التغابن : ﴿ يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ لَهُ الْمُلْكُ وَلَهُ الْحَمْدُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ١ ﴾ ، وهذه الصيغة تدل على الدوام والاستمرار .

بل جاء الفعل بصيغة الأمر : ﴿ سَبِّحْ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى ١ ﴾ الأعلى : ١ ﴿ فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ ١٦ ﴾ الواقعة : ٩٦ وجاءت المادة بالمصدر : ﴿ سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى

(796) هو محمود بن عمر بن محمد بن عمر الخوارزمي، أبو القاسم الزمخشري، شيخ العربية و الاعتزال، و صاحب المؤلفات العديدة في التفسير، و غريب الحديث، و اللغة، و النحو . كان في غاية المعرفة بفنون البلاغة و تصرف الكلام، و كان يظهر مذهب الاعتزال و يصرح بذلك في تفسيره (الكشاف)، و كانت وفاته سنة (538هـ)، ينظر: سير أعلام النبلاء، للذهبي: 151/20-156، و البداية و النهاية، لابن كثير: 235/13، و لسان الميزان، لابن حجر العسقلاني: 4/6. (797) الكشاف، بتحقيق الشيخ عادل أحمد عبد الموجود، و الشيخ علي محمد معوض: 522/3.

(798) هو محمد بن عمر بن الحسن القرشي، التيمي، البكري، الطبرستاني، المعروف بالفخر الرازي، و بابت خطيب الري، و ولد سنة (544هـ)، و كان أحد أئمة الأشاعرة الذين مزجوا المذهب بالاعتزال و الفلسفة، و له تصانيف عديدة منتشرة، و قال الذهبي: "قد بدت منه في تواليفه بلايا و عظام و انحرافات عن السنة، و الله يعفو عنه، فإنه توفي على طريقة حميدة، و الله يتولى السرائر". و كانت وفاته سنة (606هـ). ينظر: سير أعلام النبلاء، للذهبي: 501-500/21، و البداية و النهاية، لابن كثير: 61-60/13، و لسان الميزان، لابن حجر: 429-426/4.

(799) مفاتيح الغيب (التفسير الكبير): 220-218/20.

يَعْبُدُهُ لَيْلًا ﴿ الإسراء : ١ ﴾ ﴿ فُسِّبَحَنَّ اللَّهُ حِينَ تُمْسُونَ وَحِينَ تُصْبِحُونَ ﴾ (١٧) ﴿
الروم ليدل ذلك كله بدوام واستمرار التسبيح لله تعالى من جميع خلقه (800)

قلت: و(ما) في قوله تعالى : ﴿ سَبِّحَ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ ﴾ من صيغ العموم ، وأصل استعمالها لغير العقلاء ، وقد تستعمل للعاقل إذا نزل غير العاقل ، كما في قوله تعالى : ﴿ فَأَنْكِحُوا مَا طَابَ لَكُمْ مِنَ النِّسَاءِ مَثْنَى وَثُلَاثَ وَرُبْعَ ﴾ النساء ، ومجيئها هنا لغير العاقل تغليباً له لكثرتة كما تقدم ، فتكون شاملة للعاقل من باب أولى.

ومما يلفت النظر أن التسبيح الذي في معرض العموم كله في القرآن مسند إلى (ما) دون (من) إلا في موضع واحد ، هو قوله تعالى : ﴿ تَسْبِيحُ لَهُ السَّمَوَاتُ السَّبْعُ وَالْأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ ﴾ الإسراء ، وهذا شاهد على شمول ما وعمومها المتقدم ذكرها ، لأنه سبحانه أسند التسبيح أولاً إلى السماوات السبع والأرض صراحة بذواتهن، ثم عطف على غير العقلاء بصيغة (من) الخاصة بالعقلاء فقال : (وَمَنْ فِيهِنَّ) ، وإن كانت (من) ، قد تستعمل لغير العقلاء إذا نزلن منزلة العقلاء كما في قول الشاعر:

أَسْرَبَ الْقَطَا هَلْ مِنْ يُعِيرُ جَنَاحَهُ لَعَلِّي إِلَى مَنْ قَدْ هَوَيْتُ أُطِيرُ⁽⁸⁰¹⁾

وبهذا شمل إسناد التسبيح لكل شيء في نطاق السماوات والأرض ، عاقل وغير عاقل . وقد أكد هذا الشمول بصريح قوله تعالى : ﴿ وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ ﴾ (وكلمة) شيء (أعم العمومات ، فشملت السماوات والأرض والملائكة والإنس والجن والطيور والحيوان والنبات والشجر والمدر ، وكل مخلوق لله تعالى .

(800) ينظر: أضواء البيان، الشنقيطي: 3/8

(801) من الطويل ينسب إلى غير واحد من الشعراء، فه في ديوان مجنون ليلي ص 137، ونسبهما العيني في المقاصد /1 431 إلى العباس بن الأحنف، وهما في ديوانه ص 83. أمالي القاضي: 66/1 يتيمة الدهر: التعالي: 187/2

وقد جاء في القرآن الكريم ، والسنة المطهرة إثبات التسبيح من كل ذلك كل على حدة

قلت: فهذا إسناد التسبيح صراحة لكل هذه العوالم مفصلة ومبينة واضحة . وجاء مثل التسبيح ، ونظيره وهو السجود مسنداً لعوالم أخرى وهي بقية ما في هذا الكون من أجناس وأصناف في قوله تعالى : ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَسْجُدُ لَهُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ حَقٌّ عَلَيْهِ الْأَرْضِ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ وَالنُّجُومُ وَالْجِبَالُ وَالشَّجَرُ وَالْدَّوَابُّ وَكَثِيرٌ مِّنَ النَّاسِ ﴾ الحج : ويلاحظ هنا أنه تعالى أسند السجود أولاً لمن في السماوات ومن في الأرض و (من) هي للعقلاء أي الملائكة والإنس والجن ، ثم عطف على العقلاء غير العقلاء بأسمائهن من الشمس والقمر والنجوم والجبال والشجر والدواب ، فهذا شمول لم يبق كائن من الكائنات ولا ذرة في فلاة إلا شمله

قال جماعة من العلماء منهم ابن عباس ، إن العموم باق على عمومه ، وإن لفظ التسبيح محمول على حقيقته في التثنية والتحميد .

و قد رد المحققون من العلماء و المفسرين و غيرهم على ما قال هؤلاء في حمل تسبيح الكائنات على المجاز ، و بينوا باطلها و رجحوا أن تسبيح الكائنات حقيقي بلسان المقال ، و ذلك لأدلة كثيرة ، وأوجه متكاثرة غزيرة هي :

أولاً : أن ظاهرة الكتاب و السنة يدل على أن التسبيح فعل لهذه الكائنات التي أسند إليها التسبيح في الآيات و الأحاديث ، و أن تسبيحها عبادة تعبدت بها ،(و القاعدة) المقررة عند العلماء : أن نصوص الكتاب و السنة لا يجوز صرفها عن ظاهرها المتبادر منها إلا بدليل يجب الرجوع إليه .

و كون هذه الكائنات دلائل شاهدة على خالقها ليس فيه إسناد فعل إليها ، إنما هو كونها مفعولة للرب جل و علا ، و هذا معنى ثابت فيها لازم لها ، يتعلق بربوبية الرب لها . و أما كونها مسبحة فيتعلق بتأهلها و عبادتها للرب ﷻ ، فهذا غير هذا.

ثانيا : أن قوله تعالى : ﴿ وَلَكِنْ لَا نَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ ﴾ الإسراء ، نص في أن تسبيح الكائنات تسبيح غير مفقوه للبشر ، وفيه الرد الصريح على أن تسبيحها هو دلالتها على عظمة خالقها ؛ لأن تلك الدلالة يفقهها كل العقلاء ، كما صرح الله تعالى بذلك في قوله : ﴿ إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَأَخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَالْفُلْكِ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنْفَعُ النَّاسَ ءَامِنُونَ ﴾ البقرة ، إلى قوله - ﴿ لَأَيَّتِ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ءَامِنُونَ ﴾ البقرة

و أمثال ذلك من الآيات في القرآن .

و الذين زعموا أن تسبيح الكائنات هو دلالتها على عظمة خالقها زعموا أن قوله تعالى : ﴿ وَلَكِنْ لَا نَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ ﴾ ، خطاب للكفار ، أي : و لكنكم أيها الكفار. استدلوا بأثر الصنعة في هذه المخلوقات ؛ لأنكم لم تستوضحوا الدلالة منها على الخالق ، و لم تستدلوا بمشاهدتها على تعظيم الله.

و هذا التفسير ليس صحيحا لأنه مبني على الزعم المذكور ، و هو فاسد الاعتبار ، لما سبق و لما يأتي من الأدلة ، و لأنه يمكن القول بأن الكفار استدلوا بأثر الصنعة في هذه المخلوقات على وجود الخالق ، و إن لم يوحدهه بالألوهية.

ثالثا : أن ما أخبر الله تعالى به من تسخير الجبال مع داود يسبحن و الطير ، و من أمر الجبال بالتأويب معه و الطير ، دليل على أن تسبيح حقيقي بلسان المقال ، و لو كان تسبيحها معه تسبيح دلالة كما يقولون ، لما كان داود عليه السلام خصوصية على غيره .

رابعا : أن الله تعالى قد أثبت للكائنات غير العاقلة إدراكا و تمييزا ، فأثبت لها الخشية في قوله تعالى : ﴿ وَإِنَّ مِنَ الْحِجَارَةِ لَمَا يَفْجَرُ مِنْهُ الْأَنْهَارُ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَشَقُّ فَيَخْرُجُ مِنْهُ الْمَاءُ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ وَمَا اللَّهُ بِغَفِيلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴾ البقرة

و أثبت لها الإباء و الإشفاق في قوله تعالى : ﴿ حَتَّىٰ إِذَا اتَّوَا عَلَىٰ وَادٍ نَمِلَ قَالَتْ نَمَلَةٌ

يَتَأَيُّهَا الَّتَمَلُ ادْخُلُوا مَسَكِنَكُمْ لَا يَحْطَمَتَكُمْ سَلِيمُنْ وَجُنُودُهُ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿١٨﴾
النمل

و هناك آيات أخرى نحو هذه ، و ليس تسبيح هذه الكائنات بلسان المقال بأعجب مما أخبر الله تعالى عنها في هذه الآيات و نحوها ، فكل ذلك مما يعلمه الله ﷻ ولا يعلمه الناس .

خامسا : أنه ليس لدى من زعم أن تسبيح الكائنات هو دلالتها على عظمة خالقها حجة سوى استبعاد حصول النطق و الإدراك من هذه الكائنات ، لكون العقل و الحس لم يشهد بذلك . و هذه حجة داحضة ؛ لأن عدم شهادة العقل و الحس بحصول النطق و الإدراك من هذه الكائنات ليس دليلا على عدم حصول ذلك في الواقع ، و إنما هو دليل على عجز العقل و الحس و قصورهما عن علم ما لم يعلم الله الناس إياه ، و مصداقا لقوله تعالى : ﴿ وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِّنْ عِلْمِهِ إِلَّا بِمَا شَاءَ ﴾ ﴿٢٥٥﴾ البقرة ، ﴿ وَمَا أُوتِيتُمْ مِّنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا ﴾ ﴿٨٥﴾ الإسراء

و هنا مفترق الطرق بين العقل المؤمن و عقل المنكر ، فعقل المؤمن يفرق بين كون الشيء مستحيلا في ذاته لا يمكن تحققه ، و بين عجز العقل عن العلم به ، و عقل المنكر يجعل معرفته بالشيء دليلا على وجوه ، كما يتخذ من جهله بالشيء دليلا على عدمه ، و هذا هو عين الجهل . فمدافعه تسبيح الكائنات على الحقيقة بلسان المقال ليست من العقل و لا من الإيمان في شيء .

سادسا : أن عددا من أهل العلم قد نصوا على أن القول بأن تسبيح الكائنات تسبيح حقيقي بلسان المقال هو أشهر القولين ، و هو قول السلف و المحققين من العلماء المتأخرين .

و القول بأن تسبيح الكائنات تسبيح مجازي بلسان الحال ليس بمعتمد ، بل هو بعيد ، و هو خلاف أقاويل المفسرين، و أنه بلسان المقال و ليس بلسان الحال فحسب كما زعموا .

سابعا : أنه قد جاء في السنة القول الفصل في هذه المسألة ، و هو ما رواه عبد الله بن عمرو رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : " إن نبي الله نوحا عليه السلام لما حضرته الوفاة ، قال لابنه : إني قاص عليك الوصية ،... وأمرك ب سبحان الله و بحمده ، فإن صلاة كل شيء ، و بها يرزق كل شيء و أنفك عن الشر و الكبر "

فقوله - في هذا الحديث - : (و أمرك بسبحان الله و بحمده ، فإنها صلاة كل شيء) ، فيه تفسير قوله تعالى : ﴿ وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ ﴾ الإسراء ، و بيان أن كل شيء يتره الله تعالى بلسان المقال ، فيقول : (سبحان الله و بحمده) ، و هذا نص في محل النزاع يجب المصير إليه و الإعراض عن كل قول يخالفه .

و لا يعني هذا نفي تسبيح الكائنات بلسان حالها الذي فسر بظهور آثار الصنعة فيها ، و كونها دلائل شاهدة على عظمة خالقها و على تزيهه عن العيوب و النقائص ، فغن هذا المعنى صحيح ، و لكن الإقتصار عليه في تفسير تسبيح الكائنات ليس صحيحا ، بل الصحيح أن تسبيحها أمر زائد على ذلك ، و هو قولها : سبحان الله و بحمده ، كما سبق .

و إذ ثبت بالأدلة المذكورة أن تسبيح الكائنات تسبيح حقيقي بلسان المقال ، فهل يدخل الكفار من الإنس و الجن في عموم الكائنات المسيحة أو لا ؟

و هذا السؤال يجاب عنه بما رواه عمرو بن عبسة رضي الله عنه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال : (ما تستقل الشمس فيبقى شيء من خلق الله عز وجل إلا سبح لله بحمده ، إلا ما كان الشيطان و أعتى بني آدم) ، فسالت عن أعتى بني آدم ؟ فقال : ((شرار الخلق ، أو شرار خلق الله عز وجل)

فهذا الحديث دليل على استثناء الكفار إنسا و جنا من عموم الكائنات المسيحة بحمد الله تعالى . و مثل استثناء الكفار من تسبيح الله تعالى استثناء كثير من الناس من السجود لله جل علا في قوله تعالى : ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَسْجُدُ لَهُ مِنْ فِي السَّمَوَاتِ حَقَّ عَلَيْهِ الْأَرْضُ وَالسَّمْسُ وَالْقَمَرُ وَالنُّجُومُ وَالْجِبَالُ وَالشَّجَرُ وَالْدَّوَابُّ وَكَثِيرٌ مِنَ النَّاسِ وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيْهِ الْعَذَابُ وَمَنْ يُهِنِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ مُكْرِمٍ إِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ ﴾ الحج

فذكر تعالى - في هذه الآية - سجود جميع الكائنات له على سبيل العموم ، و أما الناس قال : ﴿ وَكَثِيرٌ مِّنَ النَّاسِ وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيْهِ الْعَذَابُ ﴾ (١٨) ، أي : و كثير من الناس يسجد لله تعالى ، و هم المؤمنون ، و كثير من الناس لا يسجد لله تعالى فحق فيه الإنس و الجن فيما ذكره طائفة من أهل العربية .

و إنما وقع الاستثناء على الإنس و الجن في التسييح و السجود دون سائر الكائنات، لأنهما كائنان اللذان وهب لهما العقل و ترك لهما الخيار ، فكان منهما فريقان : مؤمن سبيح لله تعالى و يسجد له طوعا محتارا متعبدا بذلك ، و فريق كافر امتنع عن التسييح لله تعالى و السجود له مستكبرا بذلك عن التعبد لربه و خالقه ، كما قال ﷺ ﴿ يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ لَهُ الْمُلْكُ وَلَهُ الْحَمْدُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾

و يتبين أن تسييح الكائنات على ضربين : تسييح بالاختيار ، و هو للملائكة ، و الأنبياء و الرسل - عليه الصلاة و السلام - ، و المؤمن من الإنس و الجن .

و تسييح بالتسخير ، و هو تسييح سائر الكائنات من الحيوانات و النباتات ، و الجمادات ، و غيرها مما يصدق عليه أنه شيء .

فجميع الكائنات على اختلاف أنواعها يسبح الله تعالى تسخيرا حقيقيا بلسان المقال ، كما سبق بيانه بالأدلة .

وجاء إسناد التسييح إلى هذه الكائنات في صور مختلفة ماضيا في نحو قوله تعالى : ﴿ سَبِّحْ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾ (١) الحديد ، و مضارعا في نحو قوله تعالى : ﴿ تُسَبِّحُ لَهُ السَّمَوَاتُ السَّبْعُ وَالْأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَكِنْ لَا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا ﴾ (٤٤) الإسراء ، و أمرا في نحو قوله تعالى : ﴿ فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ ﴾ (٧٤) الواقعة : - 96 - و الحاقة 52 ، و قوله تعالى : ﴿ يَجِبَالٌ أَوْبِي مَعَهُ وَالطَّيْرُ ﴾ (١٠) سبأ ، و مصدرا في نحو قوله تعالى ﴿ كُلُّ قَدِّعَلِمَ صَلَاتَهُ، وَتَسْبِيحَهُ ﴾ (٤١) النور ، ليدل ذلك

كله على دوام التسبيح و استمرار من هذه الكائنات في جميع الأوقات ، و إن التسبيح هو شأنها في الماضي و الحلال و المستقبل .

والحاصل أن التسبيح وظيفة مشتركة بين جميع الكائنات ، العاقل منها و غير العاقل ، و الناطق منها و غير الناطق ، و كل منها يسبح لله تعالى بلغته الخاصة ، فلا الإنسان يفهم الحيوان و الطير و الجماد ما يقول ، و لا كيف يسبح ، و كذلك الحيوان و الطير و الجماد لا يفهم عن الإنسان ما يقول ، و لا كيف يسبح ، بل الكل متوجه بلغته الخاصة إلى خالقه يسبح بحمده ، و لا يفقه نوع منها لغة النوع الآخر ، ﴿ وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يَسْبُحُ بِحَمْدِهِ وَلَكِنْ لَا نَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ ﴾ الإسراء

المبحث السادس: تسبيح أهل الجنة فيها لله تعالى:

و مما جاء في شأن أهل الجنة في كتاب الله تعالى قوله ﷻ: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ يَهْدِيهِمْ رَبُّهُمْ بِإِيمَانِهِمْ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهِمُ الْأَنْهَارُ فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ ﴿١٠﴾ دَعْوَتُهُمْ فِيهَا سُبْحَانَكَ اللَّهُمَّ وَتَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَامٌ ۖ وَأَخْرَجُوا مِنْهَا دَعْوَتَهُمْ أَنْ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ يونس

فقوله: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ ﴾ - أي : جمعوا بين الإيمان و مقتضاه ، ففعلوا الإيمان الذي طلبه الله منهم ، و عملوا الصالحات التي شرعها لهم على وجه الإخلاص و المتابعة (802).

و قوله: ﴿ دَعْوَتُهُمْ فِيهَا سُبْحَانَكَ ﴾ بيان لحال أهل الجنة في الجنة (803) ، و أنهم فيها

(802) ينظر: فتح القدير، للشوكاني: 597/2، و تيسير الكريم الرحمن، للسعدي: ص358.

(803) ينظر: تفسير القرآن العظيم، لابن كثير: 423/2.

على تزيه الله تعالى بالتسبيح عما نزه عنه نفسه المقدسة ، كما كانوا في الدنيا⁽⁸⁰⁴⁾ ، و هذا هو الشاهد على تسبيح أهل الجنة لله تعالى في الجنة .

و ﴿ دَعَوْنَهُمْ ﴾ . مبتدأ⁽⁸⁰⁵⁾ ، وأكثر المفسرين على أن معناه :

دعواؤهم⁽⁸⁰⁶⁾ ، فإن الدعوى يكون مصدر (دعا - يدعو) ، كالشكوى مصدر (شكا ، يشكو)⁽⁸⁰⁷⁾ ، و هو هنا مصدر مضاف للفاعل⁽⁸⁰⁸⁾ الذي هو الضمير (هم) العائد إلى ﴿ إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ ﴾ ، و الدعاء يراد الثناء و يراد به السؤال⁽⁸⁰⁹⁾ .

و فسر جماعة (دعواهم) بمعنى : عبادتكم⁽⁸¹⁰⁾ ، و هذا موافق للتفسير الأول ، لأن المراد بالدعاء : دعاء العبادة .

⁽⁸⁰⁴⁾ ينظر: مسألة سبحان ، لنفظويه:ص39.

⁽⁸⁰⁵⁾ ينظر: الدر المصون، للسمين الحلبي:155/6.

⁽⁸⁰⁶⁾ ينظر: تفسير الطبري:535/6، و معاني القرآن و إعرابه، للزجاج:8/3، و زاد المسير:10/4، و الجامع لأحكام القرآن، للقرطبي:313/8، و البحر المحيط:132/5، و حادي الأرواح، لابن القيم الجوزية:ص452، و الدر المصون، للسمين الحلبي:155/6.

⁽⁸⁰⁷⁾ ينظر: الجامع لأحكام القرآن:313/8.

⁽⁸⁰⁸⁾ ينظر: الدر المصون:155/6.

⁽⁸⁰⁹⁾ ينظر: حادي الأرواح، لابن القيم:ص452، و الدر المصون، للسمين الحلبي:155/6.

⁽⁸¹⁰⁾ ينظر: البحر المحيط، لأبي حيان:132/5، و الدر المصون:155/6، و تيسير الكريم الرحمن:ص359.

و فسره بعضهم بمعنى : قولهم⁽⁸¹¹⁾، و هذا أيضا قريب من المعنيين السابقين ، لأن المقصود بالدعاء بالدعاء و العبادة القول المذكور .

و (فيها) متعلق ب (إن دعواهم)⁽⁸¹²⁾، و الضمير يعود إلى (جنات النعيم) . و ﴿ سُبْحَانَكَ ﴾ . خبر عن (دعواهم) ، أي : دعواهم في الجنة هذا اللفظ ، فالخبر هنا هو نفس المبتدأ في المعنى⁽⁸¹³⁾، و جيء به محكيا على نصبه لأنه من باب الإسناد اللفظي⁽⁸¹⁴⁾ .

و جوز بعضهم أن يكون الخبر هنا من باب الإسناد المعنوي ، فلا يلزم أن قولوا هذا اللفظ فقط ، بل يقولونه و ما يؤدي معناه من الألفاظ الدالة على نزيه الله تعالى و تقديسه⁽⁸¹⁵⁾ . و ظاهر الآية أنهم يقولون اللفظ المذكور فقط ، و (سبحانك اللهم) ، و قد تقدمت الإشارة إلى أن هذا اللفظ يفيد تزيه الله تعالى بجماع أسمائه الحسنی و صفته العليا . و للمفسرين في بيان سبب نطق أهل الجنة بهذا التسبيح في الجنة أقوال :

أولها : أنهم يقولون ذلك عندما يشتهون الشيء ، أو عندما يريدون أن يدعوا بالشيء ، فكلما اشتهى أهل الجنة شيئا ، أو أرادوا شيئا قالوا : ﴿ سُبْحَانَكَ ﴾ ، فيأتيهم ما يشتهون ، و ما يريدون⁽⁸¹⁶⁾ .

و كأن القائلين بهذا القول قصور . بمعنى الآية ، و ليس في الآية ما يدل على ذكره ،

(811) ينظر: تفسير السمرقندي: 89/2، و تفسير القرآن، لأبي مظفر: 368/2.

(812) ينظر: الدر المصون، للسمين الحلبي: 155/6، و روح المعاني، للآلوسي: 75/11.

(813) الجملة الواقعة خيرا عن المبتدأ إما أن تكون نفس المبتدأ في المعنى، و هي التي يكون معناها متحدا مع المبتدأ، نحو: نطقى الله حسبي، فإن المراد بالنطق المنطوق به، و إما أن تكون الجملة غير المبتدأ في المعنى، نحو: (الله لا إله إلا الله). ينظر: أوضح المسالك، لابن هشام: ص26.

(814) ينظر: الدر المصون: 155/6.

(815) ينظر: المصدر السابق: 155/6.

(816) ينظر: تفسير الطبري: 535/6، و تفسير السمرقندي: 89/2، و النكت و العيون، للماوردي: 424/2، و الحرر

الوجيز، لابن عطية: 15/9، و زاد المسير، لابن الجوزي: 10/4، و تفسير القرآ، العظيم، لابن كثير: 423/2.

فلا يليق هذا القول بمعنى الآية ، كما أنه لا يليق بحال أهل الجنة (817).

الثاني : أنهم إذا أرادوا الرغبة إلى الله تعالى في دعاء يدعونه به ، كان دعاؤهم له: (سبحانك اللهم) (818) ، و وجه ذلك أن ما هم فيه من النعيم هو غايات الراغبين ، بحيث إذا أرادوا أن ينعموا بمقام دعاء ربهم الذي هو مقام القرب ، لم يجدوا أنفسهم مشتاقين لشيء يسألونه ، فاعترضوا عن السؤال بالثناء على ربهم (819).

و هذا القول لطيف جدا في بيان سبب دعاء أهل الجنة بهذا التسييح ، و إن كان لم يذكره أكثر المفسرين ، و واضح منه أن تسييح أهل الجنة للثناء على ربهم ، لا لاستدعاء ما يشتهون ، لأن جميع مشتبهاتهم حاصلة بالفعل ، فليس بهم حاجة إلى سؤال و لا استدعاء

الثالث : أنهم يقولون هذا التسييح على سبيل الابتهاج و الالتذاد و التنعيم، و ليس على سبيل التكليف ، فإن الجنة لا تكليف فيها (820). و يقوي هذا القول ما مرّ قريبا، مما جاء في تسييح أهل الجنة ، و يقرب منه في المعنى القول الثاني المذكور قبله . و قد جاء في السنة المشرفة ما يوضح تسييح أهل الجنة لله تعالى في الجنة ، و ذلك في حديثين :

أحدهما : عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلوات الله عليه : " أول زمرة تلج الجنة صورهم على صورة القمر ليلة البدر ، لا ييصقون فيها و لا يمتخطون و لا يتغوطون ، آنيتهم فيها الذهب ، و أمشاطهم (821) من الذهب و الفضة ، و مجامرهم الألوة (822) ، و رشحهم

(817) ينظر: حادي الأرواح، لابن القيم: ص452-453.

(818) ينظر: النكت و العيون: 424/2، و زاد المسير: 11/4.

(819) ينظر: تفسير التحرير و التنوير، لابن عاشور: 102/11.

(820) ينظر: مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية: 329/4-330، و البحر المحيط، لأبي حيان: 132/5، و تفسير الخازن: 430/2.

(821) الأمشاط: جمع مشط - مثلثة الميم - و هي آلة يمتشط بها ، و الامتشاط ترجيل الشعر أو اللحية. ينظر: القاموس

المحيط: مادة (مشط): ص888

(822) الجامر: جمع مجمرة، و هي المبخرة، سميت مجمرة لأنها يوضع فيها الجمر ليفوح به ما يوضع فيها من البخور [فتح

الباري، لابن حجر: 324/6. و الألوة - بفتح الهمزة، و يجوز ضمها، و بضم اللام، و تشديد الواو - : العود الذي يبخر

به [فتح الباري: 324/6].

المسك ، و لكل واحد منهم زوجتان يرى مخ سوقهما من وراء اللحم من الحسن ، لا اختلاف بينهم و لا تباغض ، قلوبهم قلب واحد ، "يسبحون الله بكرة و عشيا" (823).

والآخر : عن جابر بن عبد الله رضي الله عنه قال : سمعت النبي صلى الله عليه وسلم يقول : "عن أهل الجنة يأكلون فيها و يشربون ، و لا يتلفون و لا ييلون و لا يتغوطون و لا يمتخطون" . قالوا : فما بال الطعام؟ قال: "جشاء" (824) و رشح كرشح المسك، يلهمون التسييح و التحميد، كما تلهمون النفس" (825).

(823) أخرجه البخاري في صحيحه - مع الفتح - : 318/6، برقم(3245)، و مسلم في صحيحه: 2180/4، برقم(2834).

(824) الجشاء - و مثله: التجشؤ - : تنفس المعدة، و هو صوت يخرج من الفم عند امتلاء المعدة من الطعام. ينظر: القاموس المحيط، للفيروز آبادي: مادة (جشأ) ص: 45، و المعجم الوسيط: مادة (جشأ): 1/123.

(825) أخرجه مسلم في صحيحه: 2180/4-2181، برقم(2835).

الفصل الثاني

التسبيح باعتبار

فاعله

المبحث الأول: تسبيح الله

المبحث الثاني: تسبيح الملائكة

المبحث الثالث: تسبيح المرسلين

المبحث الرابع: تسبيح صالح العباد

المبحث الخامس: تسبيح الكائنات

المبحث السادس: تسبيح أهل الجنة

الفصل الثاني: التسبيح باعتبار فاعله

لما كان فضل التسبيح عظيماً كان مقروناً في كتاب الله بألفاظ التزويه و التقديس و التعظيم، شرفه الله جل و علا بنسبته لنفسه فسبح الله نفسه، و أضافه الله إلى ملائكة قدسه فسبحته ملائكته و أضافه الله إلى صالح عباده فسبحه أنبيائه و أتباعهم و نسبه الله إلى ما في السموات و الأرض فسبحه الكون كله و جعله الله جل و علا دعاء أهل الجنة .

و جميع هذه التسابيح ثابتة واردة في التزويل، تذكر و تفهم على حقائقها الشرعية من غير تأويل و لا تعطيل، و تثبت لفاعلها كما أثبتها الله لهم، فإذا كان ذلك كذلك دلت على دلالات عقدية و فوائد لغوية و صور بيانية، و كان تحت ذلك كله سر من أسرار البيان القرآني الذي تحدى الله جل و علا به بلغاء الناس من العرب و العجم .

و مراعاة لكثرة الأنواع نوزعها على مباحث و ذلك كما يأتي:

المبحث الأول: تسبيح الله لنفسه

المبحث الثاني: تسبيح الملائكة

المبحث الثالث: تسبيح المرسلين

المبحث الرابع: تسبيح صالح العباد

المبحث الخامس: تسبيح الكائنات كلها

المبحث السادس: تسبيح أهل الجنة

:

المبحث الأول: تسبيح الله لنفسه

وقد ورد ذلك سبعا وعشرين مرة في كتاب الله تكلمت على بعض منها في مبحث أنواع التسييح المفرد ونكتفي هنا بإيراد موطن الشاهد في نسبة الفعل لله ، وجاء هذا النوع في تسع عشرة سورة منها المكي الذي يخاطب مشركي قريش ومنها المدني الذي يخاطب أهل الكتاب، والعبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب.

وإن تُنزع في نسبة هذا التسييح في بعض الآي ففعل التسييح ثابت لله بنص الحديث الصحيح في ما رواه ابن عباس: عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: "قال الله: كذبي ابن آدم ولم يكن له ذلك وشتمني ولم يكن له ذلك. فأما تكذبه إياي فزعم أي لا أقدر أن أعيده كما كان، وأما شتمه إياي فقلوه: لي ولد فسبحاني أن أتخذ صاحبة أو ولدا" (826) و هذه المواضع هي:

3. ﴿ وَقَالُوا أَخَذَ اللَّهُ وَلَدًا سُبْحَانَهُ بَلْ لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ كُلُّ لَهٗ قَلْبُونٌ ﴾ البقرة ، فقلوه: (سبحانه) تنزيه لله عن شنيع هذا القول . وفيه إشارة إلى أن الوكديّة نقص بالنسبة إلى الله تعالى وإن كانت كمالاتاً في الشاهد لأنها إنما كانت كمالاتاً في الشاهد من حيث إنها تسد بعض نقائصه عند العجز والفقر وتسد مكانه عند الاضمحلال والله منزّه عن جميع ذلك فلو كان له ولد لآذن بالحدوث وباللحاجة إليه (827).

وجاء الرد من الله تعالى مع بيان المانع مفصلاً مع الإشعار بالدليل العقلي، ولذا لزم التنويه عليه، وذلك في قوله تعالى: ﴿ وَقَالُوا أَخَذَ اللَّهُ وَلَدًا سُبْحَانَهُ بَلْ لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ كُلُّ لَهٗ قَلْبُونٌ ﴾ البقرة . فهذا نص صريح فيما قالوه: (أَخَذَ اللَّهُ وَلَدًا). (828).

(826) أخرجه البخاري في صحيحه برقم (4482)

(827) التحرير والتنوير: ابن عاشور ،

(828) أضواء البيان: الشنقيطي، 151/9

51. ﴿يَتَأَهَّلَ الْكُتُبَ لَا تَعْلُوا فِي دِينِكُمْ وَلَا تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ إِنَّمَا الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ اللَّهِ وَكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إِلَى مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِنْهُ فَآمَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَلَا تَقُولُوا ثَلَاثَةٌ أَنْتَهُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنَّمَا اللَّهُ إِلَهٌُ وَاحِدٌ وَكَيْفَى أَنْ يَكُونَ لَهُ وَلَدٌ لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَكَفَى بِاللَّهِ وَكِيلًا ﴿١٧١﴾ النساء

سبح الله جل وعلا نفسه في هذه الآية أيضا مترها نفسه عن أن يكون له ولد.

"وقوله : (سبحانه أن يكون له ولد) إظهار لغلطهم في أفهامهم ، وفي إطلاقاتهم لفظ الأب والابن كيفما كان محملهما لأنهما إما ضلالة وإما إيهامها ، فكلمة (سبحانه) تفيد قوة التزيه لله تعالى عن أن يكون له ولد ، والدلالة على غلط مثبته ، فإن الإلهية تنافي الكون أبا واتخاذ ابن ، لاستحالة الفناء ، والاحتياج ، والانفصال ، والمماثلة للمخلوقات عن الله تعالى . والبنوة تستلزم ثبوت هذه المستحيلات لأن النسل قانون كوني للموجودات لحكمة استبقاء النوع ، والناس يتطلبونها لذلك ، وللإعانة على لوازم الحياة ، وفيها انفصال المولود عن أبيه ، وفيها أن الابن مماثلة لأبيه فأبوه مماثل له لا محالة" (829)

فتره نفسه وعظمتها أن يكون له ولد كما تقوله النصارى ثم قال لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ فَأخبر أن ذلك ملك ليس له فيه شيء من ذاته ثم قال " لن يستنكف المسيح أن يكون عبدا لله ولا الملائكة المقربون " أي لن يستنكفوا أن يكونوا عبيدا لله تبارك وتعالى فمع ذلك البيان الواضح الجلي هل يظن ظان أن مراده بقوله وكلمته أنه إله خالق أو أنه صفة لله قائمة به؟؟؟

52. ﴿وَجَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ الْجِنَّ وَخَلَقَهُمْ وَخَرَقُوا لَهُ بَنِينَ وَبَنَاتٍ بِغَيْرِ عِلْمٍ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُصِفُونَ ﴿١٠٠﴾ الأنعام :

من المقاصد العليا للقرآن الكريم تزيه الله جل وعلا - في الربوبية والألوهية والأسماء والصفات - عن الشركاء ففي هذه الآية يعيب الله على الذين اتخذوا الشركاء من الجن وعاب الله على الذين نسبوا له البنات والبنين وأقرب معنى للتسبيح هنا هو التباعد عن ما وصفه به الكافرون لذلك قرنه هنا بصفة العلو وقد قدمت ذلك في مبحث سبق.

53. ﴿ اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهَبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ اللَّهِ وَالْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا إِلَهًا وَاحِدًا لَّا إِلَهَ إِلَّا هُوَ سُبْحَانَهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾ (٣١) التوبة

والمسيح ابن مريم " يعني اتخذوا المسيح ربا من دون الله " وما أمروا " يقول وما أمرهم عيسى عليه السلام " إلا ليعبدوا إلهًا واحدًا لا إله إلا هو " يعني إلا قوله الله ربي وربكم ويقال " وما أمروا " في جميع الكتب إلا ليعبدوا إلهًا يعني ليوحداوا الله تعالى إلهًا واحدًا ثم نزه نفسه فقال تعالى لَّا إِلَهَ إِلَّا هُوَ سُبْحَانَهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ يعني يعبدون من دونه (830)

المقصود بـ الأرباب ، هم المعبودين بدليل آخر الآية ﴿ وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا إِلَهًا وَاحِدًا ﴾ فذكر هنا المتنازع فيه وهو العبادة وقرن بهذا النفي إثباتًا مفصلاً بمن يستحق العبودية ثم نزه نفسه عن الشرك وتبرئ منهم على وجه علو القدر والقهر والذات.

قال الإمام الطبري: "سبحانه عما يشركون يقول: تزيها وتطهيرا لله عما يشرك في طاعته وربوبيته القائلون عزيز ابن الله، والقائلون المسيح ابن الله، المتخذون أحبارهم أربابا من دون الله" (831)

54. ﴿ وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنْفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَؤُلَاءِ شَفَعُونَا عِنْدَ اللَّهِ قُلْ أَتُنَبِّئُونَ اللَّهَ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِي السَّمَوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ سُبْحَانَهُ وَتَعَلَّىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾ (١٨) يونس

فصرح تعالى بأن هذا النوع ، من ادعاء الشفعاء شرك بالله ، ونزه نفسه الكريمة عنه

(830) بحر العلوم: للسمرقندي، 54/2

(831) جامع البيان: الإمام الطبري 149/10

، بقوله جل وعلا (سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ)⁽⁸³²⁾

قال الطاهر بن عاشور: "وأعيد حرف النفي بعد العاطف لزيادة التنصيص على النفي .والاستفهام في (أتنبئون) للإنكار والتوبيخ . والإنباء : الإعلام .

وجملة : (سبحانه وتعالى إنشاء تزيه ، فهي منقطعة عن التي قبلها فلذلك فصلت .
وتقدم الكلام على نظيره عند قوله : ﴿ وَحَرِّقُوا لَهُ بَنِينَ وَبَنَاتٍ بِغَيْرِ عِلْمٍ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عَمَّا يُصِفُونَ ﴾ الأنعام و (ما) في قوله : عما يشركون (مصدرية ، أي عن إشراكهم ، أي تعالى عن أن يكون ذلك ثابتاً له .

وقرأ حمزة والكسائي وخلف⁽⁸³³⁾ تشركون بالمشناة الفوقية على أنه من جملة المقول .
وقراه الباقون بالتحية على أنها تعقيب للخطاب بجملة (قل) . وعلى الوجهين فهي مستحقة للفصل لكمال الانقطاع وبالعة في التزيه .⁽⁸³⁴⁾

55. ﴿ قَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا سُبْحَانَهُ هُوَ الْغَنِيُّ لَهُ مَا فِي السَّمٰوٰتِ وَمَا فِي

الْأَرْضِ إِنْ عِنْدَكُمْ مِنْ سُلْطٰنٍ بِهٰذَا أُنْقُلُوْكُمْ عَلَىٰ اللّٰهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾^(٦٨) يونس
سُبْحَانَهُ: تزيه وتقديس له تعالى عما نسبوا إليه على ما هو الأصل في معنى سبحانه وقد يستعمل للتعجب مجازاً ويصح إرادته هنا.

والمراد التعجب من كلمتهم الحمقاء، وجمع بعضهم بين التزيه والتعجب ولعله مبني على أن التعجب معنى كنائي وأنه يصح إرادة المعنى الحقيقي في الكناية وهو أحد قولين في المسألة ، وقيل : إنه لا يلزم استفادة معنى التعجب منه باستعمال اللفظ فيه بل هو من المعاني الثواني.

⁽⁸³²⁾ أضواء البيان : الشنقيطي ، 6/353

⁽⁸³³⁾ النشر في القراءات العشر: ابن الجزري، أشرف على تصحيحه ومراجعته : علي محمد الضباع - دار الفكر

وقوله سبحانه : (هُوَ الْغَنِيُّ) أي عن كل شيء في كل شيء علة لتزهره تعالى وتقدس عن ذلك وإيدان بأن اتخاذ الولد مسبب عن الحاجة وهي التقوى أو بقاء النوع مثلاً⁽⁸³⁵⁾.

"الضمير في قالوا عائد على من نسب إلى الله الولد ، ممن قال الملائكة بنات الله، أو عزيز ابن الله ، أو المسيح ابن الله ، وسبحانه : تزيه من اتخاذ الولد وتعجب ممن يقول ذلك، هو الغني علة لنفي الولد ، لأنّ اتخاذ الولد إنما يكون للحاجة إليه ، والله تعالى غير محتاج إلى شيء ، فالولد منتف عنه ، وكل ما في السموات والأرض ملكه فهو غني عن اتخاذ الولد . وأنّ نافية"⁽⁸³⁶⁾.

هذا نوع آخر من أباطيل المشركين التي كانوا يتكلمون بها ، وهو زعمهم بأن الله سبحانه اتخذ ولداً ، فردّ ذلك عليهم بقوله : (سبحانه هُوَ الْغَنِيُّ) فتزّه جل وعلا عما نسبوه إليه من هذا الباطل البين ، وبين أنه غنيّ عن ذلك ، وأن الولد إنما يطلب للحاجة . والغنيّ المطلق لا حاجة له حتى يكون له ولد يقضيها ، وإذا انتفت الحاجة انتفى الولد ، وأيضاً إنما يحتاج إلى الولد من يكون بصدد الانقراض ، ليقوم الولد مقامه⁽⁸³⁷⁾.

56. ﴿أَفَىٰ أَمْرٌ أََلَّهُ فَلَا تُسْتَعَجِلُوهُ سَبِّحْنَاهُ وَتَعَلَّىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿١﴾﴾ النحل

لما كان معظم أغراض هذه السورة زجر المشركين عن الإشراف وتوابعه وإنذارهم بسوء عاقبة ذلك ، وكان قد تكرّر وعيدهم من قبل في آيات كثيرة بيوم يكون الفارق بين الحق والباطل فتزول فيه شوكتهم وتذهب شدّتهم . وكانوا قد استبطئوا ذلك اليوم حتى اطمأنوا أنه غير واقع فصاروا يهزؤون بالنبي عليه الصلاة والسلام والمسلمين فيستعجلون حلول ذلك اليوم⁽⁸³⁸⁾.

وأُتبع تحقيق مجيء العذاب بتزيه الله عن الشريك فقفي ذلك بتبرئة الرسول عليه

⁽⁸³⁵⁾ ينظر: روح المعاني: للألوسي، 155/11، والكشاف: 341/2، وجامع البيان: 288/5

⁽⁸³⁶⁾ البحر المحيط: 175/5

⁽⁸³⁷⁾ ينظر: فتح القدير، الشوكاني: 398/3

⁽⁸³⁸⁾ التحرير والتنوير: ابن عاشور، 98/ 14

الصلاة والسلام من الكذب فيما يبلغه عن ربه ووصف لهم الإرسال وصفاً موجزاً . وهذا اعتراض في أثناء الاستدلال على التوحيد (839).

قال الإمام الطبري: وقوله (سبحانه) أي: تزيها لله وعلوا له عن الشرك الذي كانت قريش ومن كان من العرب على مثل ما هم عليه يدين به. واختلفت القراء في قراءة قوله تعالى: عما يشركون .

فقراً ذلك أهل المدينة وبعض البصريين والكوفيين: عما يشركون بالياء على الخبر عن أهل الكفر بالله وتوجيه للخطاب بالاستعجال إلى أصحاب رسول الله (ص)، وكذلك قرءوا الثانية بالياء. وقرأ ذلك عامة قراء الكوفة بالتاء على توجيه الخطاب بقوله: فلا تستعجلوه إلى أصحاب رسول الله (ص)، وبقوله تعالى: عما تشركون إلى المشركين. والقراءة بالتاء في الحرفين جميعاً على وجه الخطاب للمشركين أولى بالصواب لما بينت من التأويل أن ذلك إنما هو وعيد من الله للمشركين ابتداءً أول الآية بتهديدهم وختم آخرها بنكير فعلهم واستعظام كفرهم على وجه الخطاب لهم. (840)

قلت: القراءتان صحيحتان وحمل المعنى عليهما جميعاً أولى بل فيه فضاء لاتساع الدلالة وعمق وشمول المعنى المراد. وعلى كلتا القراءتين التزيه صادر من الله ومتعلق به.

قال الفراء: "حدثنا محمد بن الجهم قال: حدثنا الفراء قال حدثني عماد بن الصلت العكلى عن سعيد بن مسروق أبي سفيان عن الربيع بن خيثم أنه قرأ (سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا تُشْرِكُونَ) الأولى والتي بعدها كلتاها بالتاء: وتقرأ بالياء. فمن قال بالتاء فكأنه خاطبهم ومن قرأ بالياء فكأن القرآن نزل على محمد صلى الله عليه وسلم ثم قال {سُبْحَانَهُ} يعجبه من كفرهم وإشراكهم. (841)

(839) تفسير القرآن العزيز، أبي عبد الله محمد بن عبد الله بن أبي زمنين: تحقيق أبو عبد الله حسين بن عكاشة - محمد بن

مصطفى الكتر، الفاروق الحديثة، 1423هـ - 2002م مصر/ القاهرة 394/2 وينظر: التحرير والتنوير: 98/14

(840) ينظر: جامع البيان، الطبري: 108/8

(841) معاني القرآن، الفراء: 438/1

57. ﴿وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ الْبَنَاتِ سُبْحَانَهُ وَلَهُمْ مَا يَشْتَهُونَ﴾ ﴿٥٧﴾ النحل

قلت: وسبحانه (مصدر نائب عن الفعل ، وهو منصوب على المفعولية المطلقة ، وهو في محل جملة معترضة وقعت جواباً عن مقالتهم السيئة التي تضمنتها حكاية) ويجعلون لله البنات (إذ جعل فيه جعل بالقول والإعتقاد ، فقوله : (سبحانه) مثل قولهم : حاش لله ومعاذ الله ، أي تزيهاً له عن أن يكون له ذلك .

قال الطاهر بن عاشور: "وإنما قدم (سبحانه) على قوله : (ولهم ما يشتهون) ليكون نصاً في أن التزيه عن هذا الجعل لذاته وهو نسبة البنوة لله ، لا عن جعلهم له خصوص البنات دون الذكور الذي هو أشدّ فظاعة ، كما دلّ عليه قوله تعالى : (ولهم ما يشتهون) ، لأن ذلك زيادة في التفضيح ، فقوله : (ولهم ما يشتهون) جملة في موضع الحال . وتقدم الخبر في الجملة للاهتمام بهم في ذلك على طريقة التهكم ."⁽⁸⁴²⁾

58. ﴿سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلًا مِنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَا

الَّذِي بَرَكْنَا حَوْلَهُ لِنُرِيَهُ مِنْ آيَاتِنَا إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ ﴿١﴾ الإسراء

قلت: سبحان هنا على ما ذهب إليه بعض المحققين مصدر سبح تسييحاً بمعنى نزه تزيهاً لا بمعنى قال سبحان الله: فبدأ بالمصدر منها (سبحان) هنا على ما ذهب إليه بعض المحققين مصدر سبح تسييحاً بمعنى نزه تزيهاً لا بمعنى قال سبحان الله و مقصود السورة ومعظم ما اشتملت عليه: تزيه الحق تعالى

قال شيخ الإسلام: "تزيه الله تعالى بقوله سبحان الله يتضمن مع نفي صفات النقص عنه إثبات ما يلزم ذلك من عظمته فكان في التسييح تعظيم له مع تبرئته من السوء ولهذا جاء التسييح عند العجائب الدالة على عظمته كقوله تعالى ﴿سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلًا﴾ سورة الإسراء"⁽⁸⁴³⁾

(842) التحرير والتنوير: 182/14 و 09/15

(843) درء تعارض النقل والعقل، ابن تيمية: 123/8

لافتتاح بكلمة التسبيح من دون سبق كلام مُتضمّنٍ ما يَجِبُ تزيه الله عنه يؤذن بأن خبراً عجيباً يستقبله السامعون دالاً على عظيم القدرة من المتكلم ورفيع منزلة المتحدث عنه . فإن جملة التسبيح في الكلام الذي لم يقع فيه ما يوهم تشبيهاً أو تنقيصاً لا يليقان بجلال الله تعالى مثل (سبحان ربك رب العزة عما يصفون (الصافات : 180) يتعين أن تكون مستعملة في أكثر من التزيه ، وذلك هو التعجيب من الخبر المتحدث به كقوله ﴿ وَلَوْلَا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ قُلْتُمْ مَا يَكُونُ لَنَا أَنْ نَتَكَلَّمَ بِهَذَا سُبْحَانَكَ هَذَا بُهْتَنٌ عَظِيمٌ ﴾ (النور، وقول الأعشى:

قد قلتُ لما جاءني فخره سُبْحَانَ من علقمة الفاجر⁽⁸⁴⁴⁾

ولما كان هذا الكلام من جانب الله تعالى والتسبيح صادراً منه كان المعنى تعجيب السامعين ، مثل مجيء الرجاء في كلامه تعالى نحو ﴿ لَعَلَّكُمْ تَفْلِحُونَ ﴾ (البقرة، فيكون معنى التعجيب فيه من قبيل قولهم أتعجب من قول فلان كَيْت وكَيْت .

ووجه هذا الاستعمال أن الأصل أن يكون التسبيح عند ظهور ما يدل على إبطال ما لا يليق بالله تعالى . ولما كان ظهور ما يدل على عظيم القدرة مزيلاً للشك في قدرة الله وللاشراك به كان من شأنه أن يُنطق المتأمل بتسبيح الله تعالى ، أي تزيهه عن العجز .

وأصل صيغ التسبيح هو كلمة سبحان الله (التي نُحِت منها السبحلة . ووقع التصرف في صيغها بالإضمار نحو سبحانك وسبحانه ، وبالموصول نحو) سبحان الذي خلق الأزواج كلها (يس : 36) ومنه هذه الآية .

والتعبير عن الذات العلية بطريق الموصول دون الاسم العلم للتنبية على ما تفيده صلة الموصول من الإيماء إلى وجه هذا التعجيب والتنويه وسببه ، وهو ذلك الحادث العظيم والعناية الكبرى . ويفيد أن حديث الإسراء أمر فشا بين القوم ، فقد آمن به المسلمون

وأكبره المشركون . (845)

أما قوله (سبحان) ففيه تأويلان:

- أحدهما : تزيه الله تعالى من السوء ، وقيل بل نزه نفسه أن يكون لغيره في إسراء عبده تأثير
- الثاني : معناه براه الله تعالى من السوء (846)

قلت: والسر في إضافة التسييح إلى الموصول وإضافة التزيه أو التزه إلى الموصول المذكور للإشعار بعلية ما في حيز الصلة للمضاف فإن ذلك من أدلة كمال قدرته وبالغ حكمته ونهاية تزهه عن صفات المخلوقين

59. ﴿سُبْحٰنَهُۥ وَتَعٰلٰى عَمَّا يَقُوْلُوْنَ عُلُوًّا كَبِيْرًا﴾ (٤٣) الإسراء

فقد تبين أن اسمه [الأعلى] يتضمن اتصافه بجميع صفات الكمال، وتزيهه عما ينافيها من صفات النقص، وعن أن يكون له مثل، وأنه لا إله إلا هو ولا رب سواه .

والأمر بتسييحه يقتضي — أيضاً — تزيهه عن كل عيب وسوء وإثبات صفات الكمال له، فإن التسييح يقتضي التزيه والتعظيم، والتعظيم يستلزم إثبات المحامد التي يحمد عليها . فيقتضي ذلك تزيهه، وتحميده، وتكبيره، وتوحيده . (847) يسبح نفسه إذ قيل عليه البهتان.

60. ﴿مَا كَانَ لِلّٰهِ أَنْ يَتَّخِذَ مِنْ وَلَدٍ سُبْحٰنَهُۥٓ إِذَا قُضِيَٰٓ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُوْلُ لَهُۥ كُنْ فَيَكُوْنُ﴾ (٣٥)

مريم

وفيها أيضا إضافة التسييح لله فعلا منه جلّ وعلا واستحقاقا لذاته العلية . وقد تقدم الكلام على الآية .

(845) التحرير والتنوير: 09/15

(846) النكت والعيون، الماوردى: 223/3

(847) تفسير ابن تيمية: 73/5

﴿لَوْ كَانَ فِيهَا إِلَهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا فَسُبْحَانَ اللَّهِ رَبِّ الْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾^(٢٢)
الأنبياء

وُفِرَع عَلَى هَذَا الِاسْتِدْلَالِ إِتْشَاءُ تَتْرِيهِ اللَّهُ تَعَالَى عَنِ الْمَقَالَةِ الَّتِي أَبْطَلَهَا الدَّلِيلُ بِقَوْلِهِ تَعَالَى : (فَسُبْحَانَ اللَّهِ رَبِّ الْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ) (أَي عَمَّا يَصِفُونَهُ بِهِ مِنْ وَجُودِ الشَّرِيكِ . وَإِظْهَارِ اسْمِ الْجَلَالَةِ فِي مَقَامِ الْإِضْمَارِ لِتَرْبِيَةِ الْمَهَابَةِ .

وَوَصَفَهُ هُنَا بِرَبِّ الْعَرْشِ لِتَذْكَيرٍ بِأَنَّهُ انْفَرَدَ بِخَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَهُوَ شَيْءٌ لَا يَنَازِعُونَ فِيهِ بَلْ هُوَ خَالِقُ أَعْظَمِ مِنَ السَّمَاوَاتِ وَحَاوِيهَا وَهُوَ الْعَرْشُ تَعْرِيفًا بِهِمْ بِالزَّمَامِ لَزِمَ قَوْلُهُمْ بِانْفِرَادِهِ بِالْخَلْقِ أَنْ يَلْزَمَ انْتِفَاءُ الشَّرْكَاءِ لَهُ فِيمَا دُونَ ذَلِكَ⁽⁸⁴⁸⁾

61. ﴿وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَدًا سُبْحَانَهُ بَلْ عِبَادٌ مُكْرَمُونَ﴾^(٦٦)
الأنبياء

وَقَدْ تَقَدَّمَ هَذَا الْمَعْنَى فِي غَيْرِ مَا مَوْضِعٍ وَالْآيَةُ نَصٌّ فِي تَتْرِيهِ اللَّهِ لِنَفْسِهِ .

قَالَ الْإِمَامُ الطَّبْرِيُّ : "...قَوْلُهُ عَزَّ وَجَلَّ : (وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَدًا) نَزَلَتْ فِي خِزَاعَةِ حَيْثُ قَالُوا : الْمَلَائِكَةُ بَنَاتُ اللَّهِ ، (سُبْحَانَهُ) نَزَهَ نَفْسَهُ عَمَّا قَالُوا ، (بَلْ عِبَادٌ) أَي هُمْ عِبَادٌ ، يَعْنِي الْمَلَائِكَةُ ، ..."⁽⁸⁴⁹⁾

وَجَمِيعُ مَا يَذْكَرُ مِنَ الْآيَةِ بَعْدَ هَذِهِ الْآيَةِ فِيهِ نَسْبَةُ التَّتْرِيهِ لِلَّهِ .

62. ﴿مَا اتَّخَذَ اللَّهُ مِنْ وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنْ إِلَهٍ إِذَا لَذَبَ كُلُّ إِلَهٍ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَّ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾^(٩١) المؤمنون

⁽⁸⁴⁸⁾ التحرير والتنوير: 44/17

⁽⁸⁴⁹⁾ معالم التنزيل: محيي السنة ، أبو محمد الحسين بن مسعود البغوي [المتوفى 516 هـ] . حققه وخرج أحاديثه محمد عبد الله النمر - عثمان جمعة ضميرية - سليمان مسلم الحرش. دار طيبة للنشر والتوزيع الطبعة : الرابعة ، 1417هـ -

63. ﴿ فَلَمَّا جَاءَهَا نُودِيَ أَنْ بُورِكَ مِنْ فِي النَّارِ وَمَنْ حَوْلَهَا وَسُبْحَانَ اللَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٨﴾ ﴾

النمل

64. ﴿ وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَيَخْتَارُ مَا كَانَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ سُبْحَانَ اللَّهِ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾

يُشْرِكُونَ ﴿٦٨﴾ القصص

65. ﴿ فَسُبْحَانَ اللَّهِ حِينَ تُمْسُونَ وَحِينَ تُصْبِحُونَ ﴿١٧﴾ ﴾ الروم

66. ﴿ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَكُمْ ثُمَّ رَزَقَكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ هَلْ مِنْ شُرَكَائِكُمْ مَنْ

يَفْعَلُ مِنْ ذَلِكَ مِمَّنْ شَيْءٌ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٤٠﴾ ﴾ الروم

67. ﴿ سُبْحَانَ الَّذِي خَلَقَ الْأَزْوَاجَ كُلَّهَا مِمَّا تُنْبِتُ الْأَرْضُ وَمِنْ أَنْفُسِهِمْ وَمِمَّا لَا

يَعْلَمُونَ ﴿٣٦﴾ يس

68. ﴿ فَسُبْحَانَ الَّذِي بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٨٣﴾ ﴾ يس

69. ﴿ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُصِفُونَ ﴿١٥٩﴾ ﴾ الصافات

70. ﴿ سُبْحَانَ رَبِّكَ رَبِّ الْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿١٨٠﴾ ﴾ الصافات

71. ﴿ لَوْ أَرَادَ اللَّهُ أَنْ يَتَّخِذَ وَلَدًا لَأَصْطَفَى مِمَّا يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ سُبْحَانَهُ هُوَ اللَّهُ

الْوَحِيدُ الْقَهَّارُ ﴿٤﴾ الزمر

72. ﴿ وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ وَالْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَالسَّمَاوَاتُ

مَطْوِيَّاتٌ يَمِينَهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿١٧﴾ ﴾ الزمر

73. ﴿ سُبْحَانَ رَبِّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبِّ الْعَرْشِ عَمَّا يُصِفُونَ ﴿٨٢﴾ ﴾ الزخرف

74. ﴿ أَمْ لَهُمْ إِلَهٌ غَيْرُ اللَّهِ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٤٣﴾ ﴾ الطور

75. ﴿ هُوَ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْمَلِكُ الْقُدُّوسُ السَّلَامُ الْمُؤْمِنُ الْمُهَيْمِنُ

الْعَزِيزُ الْجَبَّارُ الْمُتَكَبِّرُ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٢٣﴾ ﴾ الحشر

فهذه المواضع كلها يتره الله فيها نفسه المقدسة عن كل ما وصفوه به من النقائص

والعيوب في كل مقام بحسبه وببلاغة كلامه ونسبة التسييح لله فعلا منه — جلّ وعلا — لها

دلالات وإشارات بيانية

دلالتها هنا في جميع المواضع هي التعظيم والتتريه والإجلال والله أحق من يعظم نفسه ويترها وهو أحق من مدح كما قال النبي صلى الله عليه وسلم: "عَنْ عَلِيِّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ ، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ، أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كَانَ يَقُولُ فِي وَثْرِهِ : اللَّهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِرِضَاكَ مِنْ سَخَطِكَ ، وَبِمُعَافَاتِكَ مِنْ عُقُوبَتِكَ ، وَأَعُوذُ بِكَ مِنْكَ ، لَا أَحْصِي نِعْمَتَكَ ، وَلَا ثَنَاءَ عَلَيْكَ أَنْتَ كَمَا أَثْنَيْتَ عَلَيَّ نَفْسِكَ." (850)

المبحث الثاني: تسبيح الملائكة

ورد ذلك في مواطن كثيرة في كتاب الله وبصيغ متعددة وعبارات مختلفة:

5. قَالَ تَعَالَى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ عِنْدَ رَبِّكَ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِ وَيُسَبِّحُونَهُ وَلَهُ يَسْجُدُونَ

الأعراف ﴿٢٦﴾

تتنزل منزلة العلة للأمر بالذكر ، ولذلك صُدرت ب (إِنَّ) التي هي مجرد الاهتمام بالخبر، لا لرد تردد أو إنكار، لأن المخاطب متره عن أن يتردد في خير الله تعالى... والمراد بـ (إِنَّ الَّذِينَ عِنْدَ رَبِّكَ) الملائكة، ووجه جعل حال الملائكة علة لأمر النبي (ﷺ) بالذكر : أن مرتبة الرسالة تلحق صاحبها من البشر برتبة الملائكة فهذا التعليل بمنزلة أن يقال : اذكر ربك لأن الذكر هو شان قبيلك... والعندية في قوله : (عِنْدَ رَبِّكَ) عندية تشريف وكرامة وهؤلاء الملائكة هم العامرون للعالم العليا التي جعلها الله مشرفة بأنها لا يقع فيها إلا الفضيلة فكانت بذلك أشد اختصاصاً به تعالى من أماكن غيرها قصداً لتشريفها. (851)

ووجه العدول عن لفظ الملائكة إلى الموصولية : ما تؤذن به الصلة من رفعة منزلتهم ، فيتذرع بذلك إلى إيجاد المنافسة في التخلق بأحوالهم .

(ويسبحونه) أي يترهونه بالقول والاعتقاد عن صفات النقص ، وهذه الصلة هي

(850) رواه الترمذي برقم (3493)

(851) ينظر: التحرير والتنوير، الطاهر بن عاشور: 243/9

المقصودة من التعليل للأمر بالذكر .

واختيار صيغة المضارع لدلالاتها على التجديد والاستمرار ، أو كما هو المقصود وتقديم المعمول من قوله : (وله يسجدون) للدلالة على الاختصاص أي ولا يسجدون لغيره ، وهذا أيضاً تعريض بالمشركين الذين يسجدون لغيره ، والمضارع يفيد الاستمرار أيضاً (852)

6. قَالَ تَعَالَى: ﴿وَلَهُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَنْ عِنْدَهُ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِ

وَلَا يَسْتَحْسِرُونَ ﴿١٩﴾ يُسَبِّحُونَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لَا يَفْتُرُونَ ﴿٢٠﴾﴾ الأنبياء

و مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ يعم العقلاء وغيرهم وغلب اسم الموصول الغالب في العقلاء لأنهم المقصود الأول ... وجملة يُسَبِّحُونَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ بيان لجملة وَلَا يَسْتَحْسِرُونَ لأن من لا يتعب من عمل لا يتركه فهو يواظب عليه ولا يعيا منه .

والليل والنهار : ظرفان . والأصل في الظرف أن يستوعبه الواقع فيه ، أي يسبحون في جميع الليل والنهار .

وتسبيح الملائكة لا يعطلها تبليغ الوحي ولا غيره من الأقوال (853).

﴿فَإِنْ أَسْتَكْبَرُوا فَالَّذِينَ عِنْدَ رَبِّكَ يُسَبِّحُونَ لَهُ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَهُمْ لَا يَسْأَمُونَ ﴿٢٨﴾﴾

﴿٢٨﴾ فصلت ، وفيها ما لا يخفى من إثبات دوام التسبيح لهم ونفي السآمة والملل والفتور عنه

وقد تمدحت الملائكة بتسبيحهم لله كما في قول الله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ

لِلْمَلَكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ

(852) المصدر نفسه: 301/24

(853) التحرير والتنوير، الطاهر بن عاشور: 542/17

تُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَتُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٣٠﴾ البقرة وقوله

تعالى: ﴿ وَإِنَّا لَنَحْنُ الصَّافُونَ ﴿١٦٥﴾ وَإِنَّا لَنَحْنُ الْمُسَبِّحُونَ ﴿١٦٦﴾ الصافات

وجاء في القرآن الكريم الكلام عن تسبيح نوع آخر من الملائكة وهم حملة العرش
ومن حوله قال تعالى:

﴿ وَتَرَى الْمَلَائِكَةَ حَافِينَ مِنْ حَوْلِ الْعَرْشِ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَقُضِيَ بَيْنَهُم بِالْحَقِّ وَقِيلَ

الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٧٥﴾ الزمر: ٧٥

﴿ الَّذِينَ يَمْجُلُونَ الْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيُؤْمِنُونَ بِهِءِ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا

رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَحْمَةً وَعِلْمًا فَاغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُوا وَاتَّبَعُوا سَبِيلَكَ وَقِهِمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ ﴿٧﴾

﴿ غَافِرٌ ﴿٨﴾ تَكَادُ السَّمَوَاتُ يَتَّقَطِرْنَ مِنْ فَوْقِهِنَّ وَالْمَلَائِكَةُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ

وَيَسْتَغْفِرُونَ لِمَنْ فِي الْأَرْضِ ۗ أَلَا وَمَا أَنْتَ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ﴿٥﴾ الشورى

وافتح الملائكة معرض كلامهم مع الله بالتسبيح وهذا أدب رفيع منهم وتعظيم لله

سبحانه قال تعالى: ﴿ قَالُوا سُبْحَانَكَ لَا عِلْمَ لَنَا إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَا إِنَّكَ أَنْتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ ﴿٣٢﴾

البقرة: ٣٢

وقال أيضا: ﴿ وَيَوْمَ يُحْشَرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ يَقُولُ لِلْمَلَائِكَةِ أَهْتُولَاءُ إِنَّا كُنَّا نَعْبُدُونَ ﴿٤٠﴾

﴿ قَالُوا سُبْحَانَكَ أَنْتَ وَلِيِّنَا مِنْ دُونِهِمْ بَلْ كَانُوا يَعْبُدُونَ الْجِنَّ أَكْثَرُهُمْ بِهِمْ مُؤْمِنُونَ ﴿٤١﴾

سبا

وأخبر عن حالهم في التسبيح فقال: ﴿ وَيُسَبِّحُ الرَّعْدُ بِحَمْدِهِ ۗ وَالْمَلَائِكَةُ مِنْ خِيفَتِهِ ۗ ﴿٤١﴾

الرعد

يعني هيبة وإجلالا ورهبة⁽⁸⁵⁴⁾

المبحث الثالث: تسبيح المرسلين

إن نسبة التسبيح للمرسلين هي من أكثر العبادات ذكرا في القرآن الكريم

13. تسبيح يونس عليه السلام لله تعالى :

جاء ذكر تسبيح نبي الله يونس عليه السلام في موضعين من القرآن :

الموضع الأول: في قوله تعالى: ﴿ وَذَا النُّونِ إِذْ ذَهَبَ مُغْرَضًا فَظَنَّ أَنْ لَنْ نَقْدِرَ عَلَيْهِ

فَكَادَى فِي الظُّلُمَاتِ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ ﴿٨٧﴾

فَأَسْتَجِبْنَا لَهُ، وَنَجَّيْنَاهُ مِنَ الْغَمِّ، وَكَذَلِكَ نُفَجِّئُ الْمُؤْمِنِينَ ﴿٨٨﴾ الأنبياء

فإن (ذا النون) هو يونس عليه السلام (855)، وهو بمعنى: صاحب الحوت، كما قال تعالى :

﴿ فَأَصْبَرَ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلَا تَكُنْ كَصَاحِبِ الْحُوتِ إِذْ نَادَى وَهُوَ مَكْظُومٌ ﴿٤٨﴾ القلم و ذلك لأن

الحوت ابتلعه ، كما قال سبحانه- في قصته في موضع آخر: ﴿ فَالْنَقْمَةُ الْحُوتِ وَهُوَ مُلِيمٌ ﴿١٤٢﴾

الصفات

و هذا التسبيح الذي ذكر في هذه الآية إنما قاله يونس عليه السلام و هو في بطن الحوت،

وذلك معنى قوله تعالى : ﴿ فَكَادَى فِي الظُّلُمَاتِ ﴾، فإن الظلمات المذكورة هي جمع

ظلمة، و المقصود بها: ظلمات بطن الحوت الذي ابتلعه ؛لأن في كل جنياته ظلمة

، فجمعها لشدة تكاثفها، فكأنها ظلمة مع ظلمة (856).

(855) ينظر: تفسير الطبري: 73/9، و زاد المسير، لابن الجوزي: 381/5.

(856) ينظر: الجامع لأحكام القرآن، للقرطبي: 333/11، و البحر المحيط، لأبي حيان: 311/6.

و قيل المقصود بما: ظلمة بطن الحوت، و ظلمة البحر، و ظلمة الليل⁽⁸⁵⁷⁾. و قوله تعالى
﴿أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ﴾ تفسير لما نادى به
يونس عليه السلام في الظلمات، فـ(أن) هنا مفسرة⁽⁸⁵⁸⁾، و ما بعدها هو المنادى به ، و الله تعالى
هو المنادى .

و المعنى كأن يونس عليه السلام نادى ربه تعالى في الظلمات بهذا القول المشتمل على
التهليل و التسبيح و الاعتراف بالذنب.

فـ(لا إله إلا أنت) تهليل ، فيه إفراد الإلهية لله وحده، و ذلك يوجب أن لا يعبد إلا
إياه، و أن لا يسأل غيره⁽⁸⁵⁹⁾.

و (سبحانك) تسبيح، يتضمن تعظيم الرب و تزيهه عن السوء.

و المقام يقتضي هذا التزيه، فإن يونس عليه السلام كان مليماً⁽⁸⁶⁰⁾ عندما ابتلعه الحوت ، فهو
بهذا التسبيح يتره الله تعالى عن الظلم و غيرها من المعاييب ، فكأنه يقول: أنت مقدس و متره
عن ظلمي و عقوبي بغير ذنب ، بل أنا الظالم لنفسي⁽⁸⁶¹⁾ ، و لهذا قال - بعده - : ﴿إِنِّي
كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ﴾ ، و هذا الاعتراف يتضمن طلب المغفرة بوصف حاله⁽⁸⁶²⁾.

و قد كان التهليل و التسبيح مقدمة بين يدي هذا الاستغفار، و توسلا إلى الله جل جلاله
بتوحيده و الثناء عليه ، و لهذا استجاب الله تعالى له ، كما قال سبحانه: ﴿فَأَسْتَجِبْنَا لَهُ

وَنَجَّيْنَاهُ مِنَ الْغَمِّ وَكَذَلِكَ نُخَيِّجُ الْمُؤْمِنِينَ﴾

⁽⁸⁵⁷⁾ ينظر: تفسير الطبري 76/9-77، و تفسير القرآن العظيم، لابن كثير: 201/3.

⁽⁸⁵⁸⁾ ينظر: أضواء البيان، للشيخ محمد الأمين الشنقيطي: 747/4.

⁽⁸⁵⁹⁾ ينظر: مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية: 276/10.

⁽⁸⁶⁰⁾ سيأتي بيان ذلك- إن شاء الله- في الموضع الثاني.

⁽⁸⁶¹⁾ ينظر: مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية: 248، 250/10.

⁽⁸⁶²⁾ ينظر: المصدر السابق: 244، 254/10.

و في الحديث عن سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: " دعوة ذي النون إذ دعا و هو في بطن الحوت: ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ﴾ ، فإنه لم يدع بها رجل مسلم في شيء قط إلا استجاب له " (863)

و الآية الكريمة شاهدة لهذا الحديث ، في قوله تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ نُنْجِي الْمُؤْمِنِينَ﴾ ، فإنه وعد و بشارة لكل مؤمن أن الله تعالى ينجيه كما أنجى يونس عليه السلام (864).

و إنما كانت هذه الدعوة بهذه المكانة؛ لأن " فيها من كمال التوحيد و التزيه للرب تعالى، و اعتراف العبد بظلمه لنفسه و ذنبه ما هو من أبلغ أدوية الكرب و الهم و الغم، و أبلغ الوسائل إلى الله سبحانه في قضاء الحوائج ، فإن التوحيد و التزيه يتضمنان إثبات كل كمال لله ، و سلب كل نقص و عيب و تمثيل عنه ، و الاعتراف بالظلم يتضمن إيمان العبد بالشرع و الثواب و العقاب ، و يوجب انكساره و رجوعه إلى الله ، و استقالته عشرته و الاعتراف بعبوديته و افتقاره إلى ربه .

فهاهنا أربعة أمور قد وقع التوسل بها ك التوحيد، التزيه ، و العبودية ، و الاعتراف " (865)

الموضع الثاني: في قوله تعالى: ﴿وَإِنَّ يُونُسَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ﴾ (١٣٩) إِذْ أَبَقَ إِلَى الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ (١٤٠) فَسَاهَمَ فَكَانَ مِنَ الْمُدْحَضِينَ (١٤١) فَالْتَقَمَهُ الْحُوتُ وَهُوَ مُلِيمٌ (١٤٢) فَلَوْلَا أَنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُسَبِّحِينَ (١٤٣) لَلَبِثَ فِي بَطْنِهِ إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ (١٤٤) ﴿ الصافات: ١٣٩ - ١٤٤

وقد ذكر الله في هذا الموضع ابتلاع الحوت ليونس عليه السلام ، و أنه كان مليما حينئذ، و

(863) سبق تخرجه

(864) ينظر: تيسير الكريم الرحمن، للسعدي: ص 530.

(865) مقتبس من: زاد المعاد، لابن القيم الجوزية: 208/4

ذلك في قوله تعالى: ﴿فَالنِّقْمَةُ الْحَوْتُ وَهُوَ مَلِيمٌ﴾ (١٤٤) أي: ابتلعه الحوت وحاله أنه مليم، و المليم: اسم فاعل من (ألام)، إذا أتى ما يلام عليه من السم، و إن لم يلم (866).

ثم ذكر تعالى تسييحه، فقال: ﴿فَلَوْلَا أَنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُسَبِّحِينَ﴾ (١٤٣) لَلَيْتَ فِي بَطْنِهِ إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿١٤٤﴾. و في هذا بيان أنه عليه السلام كان يكثر التسييح لله تعالى؛ لأن الوصف باسم الفاعل (المسبحين) يدل على ذلك. و بين تعالى أن تسييحه كان سبب نجاته، و لو لا ذلك لبقى في بطن الحوت إلى يوم القيامة (867).

و الكلام السابق بين أن قوله (كان من المسبحين) يعني في بطن الحوت (868)، و أن تسييحه هذا هو المذكور في الموضع الأول الذي سبق الكلام عليه في قوله تعالى: ﴿وَذَا التُّونِ إِذْ ذَهَبَ مُغَضَّبًا فَظَنَّ أَنْ لَنْ نَقْدِرَ عَلَيْهِ فَنَادَى فِي الظُّلُمَاتِ أَنْ لَوْلَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ﴾ (٨٧) فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَبَجَيْنَاهُ مِنَ الْعَذَابِ فَذَلِكِ نَسِجِ الْمُؤْمِنِينَ ﴿٨٨﴾ الأنبياء

و هذا هو الأظهر في معنى قوله تعالى (فَلَوْلَا أَنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُسَبِّحِينَ) أنه هو تسييحه عليه السلام و هو في بطن الحوت، و أنه تسييح اللسان الموافق للجنان، بقول: (لَوْلَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ) (869).

و من ثم فسر بعضهم التسييح هنا بالصلاة، فعن قتادة في قوله تعالى: (فَلَوْلَا أَنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُسَبِّحِينَ)، قال: " كان كثير الصلاة في الرخاء، فنجاه الله بذلك. و قد كان يقال

(866) ينظر: تفسير الطبري: 527/10.

(867) ينظر: الجامع لأحكام القرآن، للطبري: 126/15.

(868) ينظر: تفسير البغوي: 60/7.

(869) ينظر: الجامع لأحكام القرآن، للقرطبي: 126/10.

في الحكمة: إن العمل الصالح يرفع صاحبه إذا ما عثر ، فإذا ما صرع وجد متكئا" (870).

و فسرهم بالذكر. فعن الضحاك بن قيس (871) قال: "أذكروا الله في الرخاء يذكركم في الشدة، إن يونس كان عبدا لله ذاكرا، فلما أصابته الشدة دعا الله، فقال الله ﴿فَلَوْلَا أَنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُسَبِّحِينَ ﴿١٤٣﴾ لَلَبِثَ فِي بَطْنِهِ إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿١٤٤﴾﴾ ، فذكره الله بما كان منه". قال الضحاك " أذكروا الله في الرخاء يذكركم في الشدة" (872).

و فسر التسبيح - في هذه الآية- أيضا بالعبادة و الطاعة (873).

و لا اختلاف في الحقيقة بين هذه التفسيرات ، فالصلاة متضمنة للذكر، وهما من العبادة و الطاعة، كما أن التسبيح يطلق على كل من الصلاة، الذكر، و العبادة، و سأتي بيان ذلك (874).

و كذلك لا اختلاف في الحقيقة بين القول بأن يونس عليه السلام كان من المسيحين في بطن الحوت ، و القول بأنه كان من المسيحين قبل ذلك، بل كلا القولين حق: أما كونه من المسيحين قبل إلتقام الحوت إياه، فيونس عليه السلام نبي مرسل قبل ذلك، و الأنبياء و الرسل هم -بلا ريب - أكثر الناس تسبيحا لله تعالى في جميع الأحوال و الأوقات كما سبق ذكره .

و أما كونه من المسيحين في بطن الحوت ، فقد دل عليه قوله تعالى: ﴿فَكَادَى فِي الظُّلُمَاتِ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ ﴿٨٧﴾﴾ الأنبياء ،

(870) رواه الطبري في تفسيره: 527/10.

(871) هو الضحاك بن قيس بن خالد بن وهب بن ثعلبة القرشي الفهري، أبو أنيس، مختلف في صحبته، فقيل: أدرك النبي ﷺ و سمع منه قبل البلوغ. و قيل: ولد قبل وفاة النبي ﷺ بنحو ست سنين أو أقل. شهد فتح دمشق و سكنها إلى حين وفاته، قتل رحمه الله يوم مرج راهط، سنة (64هـ). ينظر: تهذيب التهذيب: 4/448 و البداية و النهاية: 8/245-247.

(872) رواه الطبري في تفسيره: 528/10. و ينظر: مسألة سبحان، لفظويه 54-55.

(873) ينظر: تفسير البغوي: 60/7. و ينظر: ما سبق في ص 103-104.

(874) ينظر: دلالة التسبيح على الذكر والدعاء ص 175 و 182.

كما سبق الكلام عليه في الموضوع الأول.

و يمكن أن يكون هذا التسبيح المذكور هو المراد في قوله تعالى: ﴿فَلَوْلَا أَنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُسَبِّحِينَ﴾، و هذا هو الأظهر. و يمكن أن يراد بهذه الآية الأخيرة ما كان منه من التسبيح قبل حبسه في بطن الحوت. و لا يبعد القول بإرادة الوجهين معا في الآية⁽⁸⁷⁵⁾.

و الخلاصة من الموضوعين السابقين في قصة يونس عليه السلام أنه سبح الله التسبيح العظيم فكان تسبيحه سببا في نجاته و رفع درجاته.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية: "إن ما تضمنته قصة ذي النون مما يلام عليه كله مغفور بدله الله به حسنات، و رفع درجاته، و كان بعد خروجه من بطن الحوت و توبته أعظم درجة منه قبل أن يقع ما وقع. قال تعالى: ﴿فَأَصْبَرَ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلَا تَكُن كَصَاحِبِ الْحُوتِ إِذْ نَادَى وَهُوَ مَكْظُومٌ ﴿٤٨﴾ لَوْلَا أَنْ تَدْرَكُهُ نِعْمَةٌ مِّنْ رَبِّهِ لَنَدَّ بِالْعُرَاءِ وَهُوَ مَذْمُومٌ ﴿٤٩﴾ فَأَجْنَبَهُ رَبُّهُ فَجَعَلَهُ مِنَ الصَّالِحِينَ ﴿٥٠﴾﴾ القلم، و هذا بخلاف حال ابتلاع الحوت، فإنه قال: ﴿فَالنَّقَمَةُ الْحُوتِ وَهُوَ مُلِيمٌ ﴿١٤٤﴾﴾ الصافات، فأخبر أنه في تلك الحال مليم، و المليم: الذي فعل ما يلام عليه، فالملام تلك الحال لا في حال نبذه بالعرء و هو سقيم⁽⁸⁷⁶⁾، فكانت حاله بعد قوله: ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ﴾ أرفع من حاله قبل أن يكون ما كان، و الاعتبار بكمال النهاية لا بما جرى في البداية، و الأعمال بخواتيمها"⁽⁸⁷⁷⁾.

و لهذا جاء النهي في السنة المطهرة عن تفضيل أحد نفسه على يونس عليه السلام ظناً أن ما في القرآن الكريم من قصته فيها حط من مرتبته ففي الصحيح من حديث أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال - - يعني الله تبارك و تعالى - - : لا ينبغي لعبد لي أن يقول: أنا خير من

⁽⁸⁷⁵⁾ و فسر الآية بالوجهين معا السعدي رحمه الله في: تيسير الكريم الرحمن: ص707.

⁽⁸⁷⁶⁾ يشير إلى قوله تعالى: ﴿لَلْبَيْتِ فِي بَطْنِهِ﴾ إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿١٤٤﴾ فَبَدَّنَهُ بِالْعُرَاءِ وَهُوَ سَقِيمٌ ﴿١٤٥﴾ الصافات، وهذه الآية من تكلمات قصة يونس السابق ذكرها في الموضوع الثاني.

⁽⁸⁷⁷⁾ مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية: 299/10.

يونس بن متى عليه السلام " (878).

و هذا اللفظ يدل على العموم، أي: لا ينبغي لأحد أن يفضل نفسه على يونس بن متى (879).

و في رواية أخرى لأبي هريرة رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: " من قال: أنا خير من يونس بن متى فقد كذب " (880).

و قال شيخ الإسلام ابن تيمية - تعليقا على هذا الحديث - : " فمن ظن أنه خير من يونس بحيث يعلم أنه ليس عليه أن يعترف بظلم نفسه، فهو كاذب، و لهذا كان سادات الخلائق لا يفضلون أنفسهم على يونس في هذا المقام (881)، بل يقولون كما قال أبوهم آدم (882)، و خاتمهم محمد صلى الله عليه وسلم (883) " (884).

و قد جاءت الإشارة إلى علة المنع من أن يظن أحد أنه خير من يونس عليه السلام فيما رواه علي رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: " قال - - يعني الله وَعَلَيْكَ - - : ليس لعبد لي أن يقول : أنا خير من يونس بن متى، قد سبح الله وَعَلَيْكَ في الظلمات " (885).

فكان في هذا الحديث بيان للمعنى الذي من أجله منع أن يفضل أحد نفسه على

(878) أخرجه مسلم في صحيحه: 4/1846، برقم (2376). و أخرجه البخاري في صحيحه - مع الفتح -

451/6، برقم (3416)، و لكن وقع عنده غير مضاف إلى الله تبارك و تعالى.

(879) مقتبس من شرح العقيدة الطحاوية، لابن أبي العز: 1/161.

(880) أخرجه البخاري في صحيحه - مع الفتح - : 8/267، برقم (4604).

(881) يعني مقام الاعتراف بظلم الإنسان نفسه.

(882) يعني قول آدم عليه السلام فيما ذكر الله تعالى: ﴿ مِنْ دُونِ اللَّهِ فَاهْدُوهُمْ إِلَى صِرَاطِ الْجَحِيمِ ﴾ (الأعراف

(883) يعني ما ثبت في حديث علي رضي الله عنه: " أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان إذا قام إلى الصلاة قال: "وجهت وجهي للذي فطر

السموات و الأرض حنيفا... " ، و فيه : " أنت ربي و أنا عبدك ، ظلمت نفسي و اعترفت بذنبي فاغفر لي ذنوبي

جميعا ، إنه لا يغفر الذنوب إلا أنت " أخرجه مسلم في صحيحه: 1/534-536، برقم (771)،

(884) مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية: 10/254.

(885) أخرجه ابن أبي شيبة في مصنفه: 11/540، و أبو جعفر الطحاوي في شرح معاني الآثار: 4/316، و في شرح

مشكل الآثار، تحقيق شعيب الأرنؤوط: 3/47، برقم (1013).

يونس بن متى عليه السلام ؛ لأنه سبح الله تعالى في الظلمات بقوله: ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَانَكَ
إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ﴾.

14. تسبيح موسى عليه السلام لله تعالى :

جاء ذكر تسبيح نبي الله و كليمه موسى عليه السلام في موضعين :

الموضع الأول: في قوله تعالى: ﴿وَلَمَّا جَاءَ مُوسَى لِمِيقَاتِنَا وَكَلَّمَهُ رَبُّهُ قَالَ رَبِّ أَرِنِي
أَنْظُرْ إِلَيْكَ قَالَ لَنْ نَرِنِّي وَلَكِنْ نُنظِرُ إِلَى الْجَبَلِ فَإِنْ اسْتَقَرَّ مَكَانَهُ فَسَوْفَ تَرِنِّي فَلَمَّا تَجَلَّى رَبُّهُ
لِلْجَبَلِ جَعَلَهُ دَكًّا وَخَرَّ مُوسَى صَعِقًا فَلَمَّا أَفَاقَ قَالَ سُبْحَانَكَ بُنْتُ إِلَيْكَ وَأَنَا أَوَّلُ
الْمُؤْمِنِينَ﴾ (١٤٣) الأعراف.

و في هذه الآية بيان أن موسى عليه السلام طمع في رؤية ربه سبحانه حين كلمه من وراء
حجاب ، و لم يعنفه الله تعالى على ذلك ؛ لأنه سأل ما يجوز⁽⁸⁸⁶⁾، و لكن الله عز وجل أراد أن
يري موسى عليه السلام من كمال عظمته و جلاله ما يعلم به أن قوة البشرية في هذه الدار الدنيا
لا تثبت لرؤيته و مشاهدته عيانا⁽⁸⁸⁷⁾، و لهذا قال له: ﴿لَنْ نَرِنِّي وَلَكِنْ نُنظِرُ إِلَى الْجَبَلِ فَإِنْ
اسْتَقَرَّ مَكَانَهُ فَسَوْفَ تَرِنِّي﴾ ، يعني أن الجبل - على صلابته و عظمته - لا يستقر
مكانه إذا تجلى الله تعالى له ، فكيف بالإنسان الضعيف؟

و قد تبين ذلك لموسى عليه السلام حين رأى الجبل قد صار دكا عندما تجلى له ربه
سبحانه أدنى جبل ، و سقط موسى مغشيا عليه من هول ما رأى ، و هذا معنى قوله تعالى
: ﴿فَلَمَّا تَجَلَّى رَبُّهُ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُ دَكًّا وَخَرَّ مُوسَى صَعِقًا﴾ (888).

(886) ينظر: مسألة سبحان، لفظويه: ص38.

(887) ينظر: مدارج السالكين، لابن القيم: 3/99.

(888) ينظر: تفسير الطبري: 6/53-54، و تفسير القرآن العظيم، لابن كثير: 2/255، و تيسير الكريم الرحمن، للسعدي:

و لما أفاق موسى عليه السلام من غشيته، و تاب إليه فهمه ، قال : (سبحانك)، و هذا تسبيح من موسى عليه السلام لربه وعزك، سبحه في ذلك الموقف الهائل الذي رأى فيه من عظمة ربه و جلاله ما يستدعي التسبيح تعظيما له سبحانه ، و تزيها له عما لا يليق بكماله و عظمته ، و عن أن يقوى أحد من الخلق على رؤيته عيانا في هذه الدنيا الفانية (889) ، و لهذا قرن تسبيحه بقوله : ﴿ تَبَّتْ إِلَيْكَ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ ، أي: تبت إليك من مسألتي إياك ما سألتك من الرؤية (890) ، و أنا أول المؤمنين بأنه لا يراك أحد في الدنيا إلا مات (891) . و قيل : أول المؤمنين من قومي بما توحىه إلي ، كما أن سائر الأنبياء هم أول أقوامهم إيماناً بما يأتيهم من الوحي ، ثم يبلغون فيؤمن من يؤمن ، و يكفر من يكفر (892) .

الموضع الثاني: في قوله تعالى - حكاية عن موسى عليه السلام : ﴿ وَأَجْعَلْ لِي وَزِيرًا مِّنْ أَهْلِي ﴾ (٢٩)
هَرُونَ أَخِي (٣٠) أَشَدُّ بِهِ أَزْرِي (٣١) وَأَشْرِكُهُ فِي أَمْرِي (٣٢) كَيْ تُسِحَّكَ كَثِيرًا (٣٣) وَتَذُكَّرَكَ كَثِيرًا (٣٤) إِنَّكَ كُنْتَ بِنَا بَصِيرًا (٣٥) طه : ٢٩ - ٣٥ .

و هذا سؤال من موسى عليه السلام أن يجعل أخاه هارون عليه السلام وزيرا له يعينه ، و شريكا له في النبوة و تبليغ الرسالة ، ثم ذكر عليه السلام الفائدة في ذلك فقال : ﴿ كَيْ تُسِحَّكَ كَثِيرًا ﴾ (٣٣) و تذكرك كثيرا (٣٤) ، و في هذا ما يدل على أن موسى و أخاه هارون عليه السلام كانا يكثران من التسبيح و الذكر لله وعزك . كما أن في تقديم التسبيح على الذكر دليلا على مزيد اهتمامهما بالتسبيح على وجه الخصوص ، مع اهتمامهما بالذكر على وجه العموم (894) .

15. تسبيح داود عليه السلام لله تعالى:

(889) ينظر: تفسير الطبري: 55/6، و تيسير الكريم الرحمن، للسعدي: ص302.

(890) ينظر: تفسير الطبري: 55/6.

(891) ينظر: الرد على الزنادقة و الجهمية، للإمام أحمد بن حنبل - ضمن عقائد السلف - : ص60، و تفسير

الطبري: 55/6،

(892) ينظر: مسألة سبحان، لنفطويه: ص38-39،

(893) ينظر: تيسير الكريم الرحمن، للسعدي: ص505.

(894) ينظر: ما يأتي بيانه في فضل التسبيح، في ص 425.

جاء ذكر تسبيح نبي الله داود عليه السلام في ثلاثة مواضع في القرآن الكريم

الموضع الأول: في قوله تعالى: ﴿وَسَخَّرْنَا مَعَ دَاوُدَ الْجِبَالَ يُسَبِّحْنَ وَالطَّيْرَ وَكُنَّا فَتَعِيلِينَ﴾ (٧٩) الأنبياء

وفي هذه الآية يخبر تعالى عما خص به نبيه داود عليه السلام من العجائب الدالة على صدق نبوته و على عظمة الله تعالى، و هو تسخير الجبال و الطير للتسبيح معه إذا سبح.

و ذكر بعض المفسرين في معنى تسخير الجبال و الطير للتسبيح مع داود عليه السلام أنه هو جعلها بحيث تطيعه إذا أمرها بالتسبيح (895).

و ذكر بعضهم في معنى ذلك أنه عليه السلام كان إذا قرأ سمعه الله تعالى تسبيح الجبال و الطير ، لينشط في التسبيح و يشناق إليه (896).

و الصواب في معناه: أنه عليه السلام كان إذا سبح الله تعالى و أثنى عليه ، سبحت بتسبيحه الجبال و الطير ، و جاوبنه بالذكر و الشاء على الله تبارك و تعالى (897).

الموضع الثاني: في قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا دَاوُدَ مِنَّا فَضْلًا يَجِبَالٌ أُوتِي مَعَهُ وَالطَّيْرُ﴾ (١٠) سبأ

و في هذه الآية أخبر الله تعالى أنه أعطى داود عليه السلام فضلا ، و هذا الفضل هو النبوة ، و الكتاب ، و الملك ، و الصوت الحسن ، و تسخير الجبال و الطير للتسبيح معه ، و غير ذلك مما أنعم الله عليه (898)، و لهذا قال: ﴿فَضْلًا﴾ فجعله نكرة ، للدلالة على التعظيم

(895) ينظر: الجامع لأحكام القرآن، للقرطبي: 320/11.

(896) ينظر: تفسير القرآن، لأبي المظفر السمعاني: 396/3.

(897) ينظر: تفسير القرآن العظيم، لابن كثير: 196/3، و تيسير الكريم الرحمن، للسعدي: ص528.

(898) ينظر: زاد المسير، لابن الجوزي: 435/6، و تفسير القرآن العظيم، لابن كثير: 534/3، و تفسير أبي

السعود: 124/7.

و التفخيم ، كما أن قوله : ﴿ مِنَّْا ﴾ لبيان شرف هذا الفضل بإضافته إلى الله تعالى ، و أنه وحده المنعم به على عبده و رسوله داود عليه السلام (899).

ثم قال تعالى : ﴿ يَجِبَالُ أَوِي مَعَهُ ﴾ ، و هذا نداء منه تعالى للجبال (900) و أمر لها بالتأويب مع داود عليه السلام ، و التأويب : هو الترجيع (901) ، ف ﴿ أَوِي ﴾ بمعنى : رجعي (902).

و أكثر المفسرين على أن معناه هنا : سبحي و رجعي التسبيح (903) ؛ لأنه متعلق بالظرف ﴿ مَعَهُ ﴾ ، و الظمير فيه عائد إلى داود عليه السلام ، فمعنى ﴿ أَوِي مَعَهُ ﴾ أي : سبحي معه إذا سبح ، و رجعي التسبيح (904) . و في هذا دليل على أن داود عليه السلام كان يسبح الله تعالى ، و كانت الجبال و الطير تردد التسبيح معه بأمر الله تعالى و تسخيره (905).

و قد ذكر بعض العلماء أن الله تعالى أعطى داود عليه السلام من الصوت الحسن الذي كان إذا سبح سبحت معه الجبال الراسيات الصم الشامخات ، و وقفت له الطيور السارحات الغاديات الرائحات ، و تجاوبه بأنواع اللغات ، و ترجع بترجيعة التسبيح (906).

الموضع الثالث في قوله تعالى : ﴿ وَأَذْكُرْ عَبْدَنَا دَاوُدَ ذَا الْأَيْدِ إِنَّهُ أَوَّابٌ ﴾ (١٧) إِنَّا سَخَرْنَا الْجِبَالَ

مَعَهُ يَسْبِحْنَ بِالْعَشِيِّ وَالْإشْرَاقِ (١٨) وَالطَّيْرَ مَحْشُورَةً كُلٌّ لَهُ أَوَّابٌ ﴾ (١٩) ص

(899) ينظر: تفسير أبي السعود: 124/7.

(900) ينظر: معاني القرآن و إعرابه، للزجاج: 243/4.

(901) ينظر: القاموس المحيط، للفيروز آبادي: مادة (أوب): ص76.

(902) ينظر: تفسير القرآن العظيم، لابن كثير: 534/3-535.

(903) ينظر: تفسير الطبري: 349/10-350، و تفسير القرآن، لأبي المظفر السمعاني: 319/4، و تفسير القرآن

العظيم، لابن كثير: 534/3.

(904) ينظر: تفسير الطبري: 349/10، و زاد المسير، لابن الجوزي: 435/6، و أضواء البيان، للشيخ محمد الأمين

الشنقيطي: 155/3.

(905) ينظر: تيسير الكريم الرحمن، للسعدي: 676.

(906) ينظر: تفسير القرآن العظيم، لابن كثير: 534/3، و البداية و النهاية، له: 11-10/2.

و لا اختلاف بين هذه المعاني المذكورة ، بل كلها صحيحة و متلازمة . و في هذه المواضع المذكورة دلالة واضحة على أن نبي الله و رسوله داود عليه السلام كان يكثر التسبيح لله تعالى و العبادة له ، و على أن الله سبحانه قد أعطاه من الفضل و النعمة ما خصه به دون غيره من عباده ، كتسخير الجبال و الطير للتسبيح معه ⁽⁹⁰⁷⁾.

و سيأتي - بإذن الله - كلام أيضا على هذه الآيات السابقة ، عند بيان تسبيح الكائنات كلها لله تعالى ⁽⁹⁰⁸⁾.

16. تسبيح زكريا عليه السلام لله تعالى:

تسبيح نبي الله زكريا عليه السلام مذكور في ما ذكر الله تعالى من دعائه عليه السلام بأن يهب الله ولدا ، و أن الله عز وجل بشره بالولد على لسان الملائكة ، و تمام ذلك ما حكاه تعالى من قوله : ﴿ قَالَ رَبِّ اجْعَلْ لِي آيَةً ۗ قَالَ آيَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ النَّاسَ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ إِلَّا رَمْزًا ۗ وَاذْكُرْ رَبَّكَ كَثِيرًا وَسَبِّحْ بِالْعَشِيِّ وَالْإِبْكَرِ ﴾ ^(٤١) آل عمران

ثم أمره الله تعالى بكثرة الذكر و التسبيح في هذه الحال ، فقال : ﴿ وَاذْكُرْ رَبَّكَ كَثِيرًا وَسَبِّحْ بِالْعَشِيِّ وَالْإِبْكَرِ ﴾ .

قال ابن عطية : " و قوله تعالى : ﴿ وَسَبِّحْ ﴾ معناه : قل : سبحان الله . و قال قوم معناه صل . و القول الأول أصوب ؛ لأنه يناسب الذكر ، و يستغرب مع امتناع الكلام مع الناس " اهـ ⁽⁹⁰⁹⁾.

و قد أوضح الله تعالى - في موضع آخر - أن هذا التسبيح الذي أمر به نبيه زكريا عليه السلام قد أمر به زكريا قومه أيضا ، و ذلك في قوله تعالى : ﴿ فَخَرَجَ عَلَى قَوْمِهِ مِنَ الْمِحْرَابِ

⁽⁹⁰⁷⁾ ينظر: روح المعاني: للألوسي: 174/23، و تيسير الكريم الرحمن، للسعدي: ص676.

⁽⁹⁰⁸⁾ ينظر: ص 134 - 159 من البحث،

⁽⁹⁰⁹⁾ ينظر: المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز: 81/3.

فَأَوْحَىٰ إِلَيْهِمْ أَن سَبِّحُوا بُكْرَةً وَعَشِيًّا ﴿١١﴾ ﴿١١﴾ مريم

قال الحافظ ابن كثير: ﴿فَخَرَجَ عَلَى قَوْمِهِ مِنَ الْمِحْرَابِ﴾ أي : الذي بشر فيه بالولد ﴿فَأَوْحَىٰ إِلَيْهِمْ﴾ أي : إشارة خفية سريعة ﴿أَن سَبِّحُوا بُكْرَةً وَعَشِيًّا﴾ أي : موافقة له فيما أمر به في هذه الأيام الثلاثة زيادة على أعماله شكرا لله على ما أولاه " اهـ (910).

و بهذا يتبين اهتمام نبي الله زكريا عليه السلام بالتسبيح ، و حثه لقومه على التسبيح .

17. تسبيح عيسى عليه السلام لله تعالى :

من تسبيح نبي الله عيسى عليه السلام لله تعالى ما جاء في قوله تعالى: ﴿اللَّهُ اللَّهُ يَكْفِي أَبْنَ مَرْيَمَ ءَأَنْتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّي آلِهَتَيْنِ مِنْ دُونِ اللَّهِ قَالِ سُبْحَانَكَ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقِّ إِنْ كُنْتُ قُلْتُهُ فَقَدْ عَلِمْتَهُ تَعَلَّمَ مَا فِي نَفْسِي وَلَا أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ إِنَّكَ أَنْتَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ ﴿١٣٦﴾ المائدة ، و هذا تقرير و توبيخ للنصارى الذين اتخذوا عيسى و أمه مريم إلهين من دون الله تعالى ، و قالوا : إن الله تعالى ثالث ثلاثة . فيقول الله تعالى هذا كلام لعيسى عليه السلام فيتبرأ عيسى منهم و من مقولتهم الكفرية، و يتره الله تعالى عن ذلك بالتسبيح له (911).

و اختلف أهل العلم في ما ورد في هذه الآية : هل هو خبر عما مضى - كما هو ظاهر اللفظ - ، أو هو خبر عما يستقبل ، و لكن عبر عنه بالماضي لتحقق وقوعه قولان :

اختار الأول منهما الإمام ابن جرير الطبري و أيده في تفسيره (912).

و اختار جمهور أهل العلم القول الثاني ، و هو أن الله تعالى يقول ذلك لعيسى عليه السلام يوم القيامة ، لتقرير النصارى و توبيخهم على رؤوس الأشهاد يوم القيامة ؛ لأنهم ادعوا أن

(910) ينظر: تفسير القرآن العظيم: 3/119.

(911) ينظر: تفسير القرآن العظيم، لابن كثير: 2/124، و تيسير الكريم الرحمن، للسعدي: ص239.

(912) ينظر: تفسير الطبري: 5/137-138.

عيسى أمرهم باتخاذها إليها (913).

و يؤيد هذا القول أن الله تعالى ذكر في السياق: ﴿ هَذَا يَوْمٌ يَنْفَعُ الصَّادِقِينَ صِدْقُهُمْ ﴾
المائدة

وأن كثيرا من أمور الغيب ذكر في القرآن بلفظ الماضي ليدل على الوقوع و
الثبوت (914) و المقصود هنا أن نبي الله عيسى استهل جوابه بالتسبيح و ذلك
لأمرين:

أحدهما: تزيهها لله تعالى عما أضيف إليه مما لا يليق به و براءة إليه سبحانه مما قالته
الكفرة من النصرارى فيه و في أمه فيعلم من كان يقول ذلك أنه إنما كان يقول باطلا .

الآخر: تعظيما لله تعالى و ثناء عليه و خضوعا له و خوفا منه لا إله غيره و لا رب
سواه (915).

و قد ظهر في هذه الآية كمال أدب عيسى عليه السلام في خطابه لربه ﷻ فلم يقل في
جوابه: لم أقل شيئا من ذلك، و إنما أخبر بكلام لازمه أن ينفي عن نفسه هذه المقالة التي تنافي
منصبه الشريف و أن هذا من الأمور المحالة و نزه ربه ﷻ عن ذلك أتم تزيهه بالتسبيح له و
رد العلم إلى عالم الغيب و الشهادة (916).

18. تسبيح خاتم النبيين محمد ﷺ لله تعالى :

معلوم أن نبينا ﷺ هو أعلم الناس به و أحشاهم له و هو أفضل من سبح الله تعالى و
نزه و أبلغ من دعا إلى التسبيح و نوه و قد ورد ذلك في قول الله تعالى: ﴿ قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي

(913) ينظر: تفسير القرآن، لأبي المظفر السمعاني: 82/2، و المحرر الوجيز، لابن عطية: 239/5، و زاد المسير، لابن

الجوزي: 463/2، و الجامع لأحكام القرآن، للقرطبي: 374/6.

(914) ينظر: تأويل مشكل القرآن، لابن قتيبة: ص 295.

(915) ينظر: تفسير الطبري: 137/5-138، و الجامع لأحكام القرآن، للقرطبي: 375/6.

(916) ينظر: مدارج السالكين، لابن القيم: 357/2.

أَدْعُوا إِلَى اللَّهِ عَلَى بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعْتِ وَسُبْحَانَ اللَّهِ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿١٠٨﴾ يوسف :
١٠٨

فقد جاء فيها التصريح بالتسبيح في قوله: ﴿وَسُبْحَانَ اللَّهِ﴾ و هو معطوف على قوله:
﴿هَذِهِ سَبِيلِي﴾، بمعنى: قل: هذه سبيلي، و قل: سبحان الله (917)، فهو أمر له بالتسبيح.

و يصح أن يكون معطوفا على قوله: ﴿أَدْعُوا إِلَى اللَّهِ﴾، بمعنى: ادعوا إلى الله و أسبح
الله ، فيكون (سبحان) اسم مصدر جاء بدلا من الفعل أسبح للمبالغة ، و تقديره : و أسبح
الله سبحانا (918) .

و على هذا التقدير فهو أمر له ﷺ بأن يخبر عن نفسه أنه يسبح الله تعالى، و هو
إشارة إلى أن التسبيح من أهم وظائف الأنبياء قولا و اعتقادا و عملا .

و نظير هذه المواضع كثير في كتاب الله ، فقد أمر الله ﷻ نبيه الكريم بالتسبيح في
حالات و أوقات كثيرة و مختلفة و عددها في كتاب الله خمسة عشر موضعا: في أربع عشرة
آية :

29 . ﴿ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَكُن مِّنَ السَّاجِدِينَ ﴾ ﴿٩٨﴾ الحجر: ٩٨ الحجر

30 . ﴿ فَأَصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ غُرُوبِهَا وَمِنْ

ءَانَائِ اللَّيْلِ فَسَبِّحْ وَأَطْرَافَ النَّهَارِ لَعَلَّكَ تَرْضَىٰ ﴾ ﴿١٣٠﴾ طه

31 . ﴿ فَسَبِّحْ بِأَسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ ﴾ ﴿٧٤﴾ الواقعة

32 . ﴿ فَسَبِّحْ بِأَسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ ﴾ ﴿١٦﴾ الواقعة

(917) ينظر: البحر المحيط، لأبي حيان: 346/5.

(918) ينظر: تفسير التحرير و التنوير، لابن عاشور 66/13.

33. ﴿ فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ ﴿٥٢﴾ ﴾ الحاقة
34. ﴿ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُ كَانَ تَوَّابًا ﴿٣﴾ ﴾ النصر
35. ﴿ وَتَوَكَّلْ عَلَى الْحَيِّ الَّذِي لَا يَمُوتُ وَسَبِّحْ بِحَمْدِهِ وَكَفَى بِهِ بِذُنُوبِ عِبَادِهِ خَيْرًا ﴿٥٨﴾ ﴾ الفرقان
36. ﴿ فَأَصْبِرْ إِيَّاكَ وَعَدَّ اللَّهُ حَقًّا وَاسْتَغْفِرْ لِذَنبِكَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ بِالْعَشِيِّ وَالْإِبْكَرِ ﴿٥٥﴾ ﴾ غافر
37. ﴿ فَأَصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ الْغُرُوبِ ﴿٣٩﴾ ق: ﴿ أَلَيْلَ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ الْغُرُوبِ ﴿٣٩﴾ ق
38. ﴿ وَأَصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ حِينَ تَقُومُ ﴿٤٨﴾ ﴾ الطور
39. ﴿ وَمِنَ اللَّيْلِ فَسَبِّحْهُ وَأَدْبَرَ النُّجُودِ ﴿٤٠﴾ ﴾ ق
40. ﴿ وَمِنَ اللَّيْلِ فَسَبِّحْهُ وَإِدْبَرَ النُّجُومِ ﴿٤١﴾ ﴾ الطور
41. ﴿ وَمِنَ اللَّيْلِ فَاسْجُدْ لَهُ، وَسَبِّحْهُ لَيْلًا طَوِيلًا ﴿٢٦﴾ ﴾ الإنسان
42. ﴿ سَبِّحْ أَسْمَاءَ رَبِّكَ الْأَعْلَى ﴿١﴾ ﴾ الأعلى

المبحث الرابع : تسبيح صالحى البشر

لما كان التسبيح من هدى الأنبياء - عليهم الصلاة و السلام - الذي كثر تعبدهم لله تعالى به و دعوتهم الناس إليه ، كان أدب عباد الله المؤمنين ، و شغل أوليائه المتقين ،

إتباعاً لأنبياء الله المرسلين ، و تمسكاً بهديهم المستبين .

و قد أخبر الله تعالى عن المؤمنين و مدحهم بتسبيحهم له في مواضع من القرآن الكريم ، و منها :

3. قوله تعالى: ﴿ **إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ لِأُولِي الْأَلْبَابِ** ﴿١٩٠﴾ الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَطْلًا سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ ﴿١٩١﴾ آل عمران

ففي هذا الموضع أخبر الله تعالى أن في خلق السموات و الأرض آيات دالة على عظمة الخالق و كمال صفاته ، لذوي العقول التامة الزكية التي تدرك الأشياء بحقائقها على تجلياتها ، و هم المؤمنون الموقنون بالله تعالى ⁽⁹¹⁹⁾.

و إنما خصهم الله تعالى بذلك ؛ و بصفات كماله و نعوت جلاله ⁽⁹²⁰⁾ ، و لهذا فهم يذكرون الله تعالى في جميع أحوالهم ، بسرائرهم و ضمائرهم و ألسنتهم ⁽⁹²¹⁾ ، و يتفكرون في مخلوقات الله تعالى تفكيراً يوصلهم إلى فهم ما فيها من الحكم الباهرة ، و الآيات الدالة على عظمة الخالق و قدرته و علمه و حكمته و اختياره و رحمته ⁽⁹²²⁾ ، فتلهج ألسنتهم - عندئذ بالتسبيح له عز و جل ، تعظيماً و تزيهاً له عن العيب و خلق الباطل ، و عن كل نقص أو تمثيل ، وهو قولهم : ﴿ **رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَطْلًا سُبْحَانَكَ** ﴾ و قولهم : ﴿ **فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ** ﴾ ، دعاء قرنوا به تسبيحهم ، كما سبق بيان ذلك عند الكلام على قرن

⁽⁹¹⁹⁾ ينظر: تفسير القرآن العظيم، لابن كثير: 447/1.

⁽⁹²⁰⁾ ينظر: تفسير الكريم الرحمن، للسعدي: ص161.

⁽⁹²¹⁾ ينظر : تفسير الطبري : 3 / 550 ، و تفسير القرآن العظيم : لابن كثير : 1 / 337

⁽⁹²²⁾ ينظر : المصدرين نفسيهما .

التسبيح بالدعاء (923) .

2- و قوله تعالى : ﴿ وَيَقُولُونَ سُبْحَانَ رَبِّنَا إِنْ كَانَ وَعَدُّ رَبِّنَا لَمَفْعُولًا ﴾ ﴿١٠٨﴾
الإسراء:

و هذا إخبار عن تسبيح مؤمني أهل الكتاب ، ابتداءه تعالى بأمر نبيه صلى الله عليه و سلم أن يقول للكفار المكذبين بالقرآن الكريم : ﴿ ءَامِنُوا بِهِۦٓ أَوْ لَا تُوْمِنُوْا ﴾ ، ((و هذا من الله عز و جل على وجه التبكيت لهم و التهديد ، لا على وجه التخيير)) (924) ، ((أي : سواء آمنت ب هـام لا — فهو حق في نفسه ، أنزله و نوه بذكره في سالف الأزمان في كتبه المتزلة علة رسله)) (925) . ثم ذكر تعالى تسبيحهم له في قوله : قَالَ تَعَالَى : ﴿ وَيَقُولُونَ سُبْحَانَ رَبِّنَا إِنْ كَانَ وَعَدُّ رَبِّنَا لَمَفْعُولًا ﴾ ﴿١٠٨﴾ . أي : و يقول هؤلاء الذين أتوا العلم من قبل يتلى عليهم : (سُبْحَانَ رَبِّنَا) (926) ، و هذا تسبيح تزييه لله تعالى عن تكذيب المكذبين بالقرآن (927) ، و تعظيم و توقير له ﷻ على قدرته التامة و أنه لا يخلف الميعاد، و هذا قالوا : ﴿ اُدْعُوا كَمَا كَانُوا يَدْعُونَ رَبَّنَا لَمَفْعُولًا ﴾ ﴿١٠٨﴾ (928)

لأن الله ﷻ وعد أهل السنة أنبيائه و رسله المتقدمين أن يبعث في آخر الزمان نبيا عظيم الشأن ، يملأ الأرض نورا و هدى ، و يظهر دينه على الدين كله ، و ينشر دعوته في أقطار الأرض ، و على رأس أمته تقوم الساعة (929) .

و أهل الكتاب مجمعون على أن الله وعدهم بهذا النبي ، فالسعداء منهم عرفوا الحق

(923) ينظر: مبحث قرن التسبيح بالدعاء

(924) ينظر: الجامع لأحكام القرآن: 340/10.

(925) ينظر: تفسير القرآن العظيم: 72/3.

(926) ينظر: المصدر نفسه

(927) ينظر: زاد المسير: 98/5.

(928) ينظر: تفسير القرآن العظيم: 72/3.

(929) ينظر: مدارج السالكين، لابن القيم: 123/3، و هداية الحيارى، له: ص300-301.

فآمنوا بع و اتبعوه . و الأشقياء قالوا : نحن ننتظره ، و لم يبعث بعد رسولا ، و أولئك لما سمعوا القرآن من الرسول عرفوه أنه الرسول الموعود ، فخرروا سجدا لله إيمانا به و برسوله ، و تصديقا بوعده الذي أنجزه فأروه عيانا ، فقالوا : (سبحان ربنا إن كان وعد ربنا لمفعولا)⁽⁹³⁰⁾ .

3- و قوله تعالى : ﴿ فِي بُيُوتٍ أُذِنَ لِلَّهِ أَنْ تَرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا أَسْمُهُ يُسَبِّحُ لَهُ فِيهَا بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ ﴾⁽³⁶⁾ رِجَالٌ لَا نُلْهِمُهُمْ يَجْرَةَ وَلَا بَيْعَ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَإِقَامِ الصَّلَاةِ وَإِيتَاءِ الزَّكَاةِ يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ الْقُلُوبُ وَالْأَبْصَارُ ﴾⁽³⁷⁾ النور

وهذا تنويه بالمؤمنين لتسبيحهم لله تعالى ، و اعتبارهم به و بغيره من أنواع الذكر و العبادات ، و وعد من الله لهم بالجزاء على ذلك و زيادتهم من فضله بلا حساب .

فقوله : (في بيوت) يعني بها المساجد التي هي بيوت الله⁽⁹³¹⁾ .

و قيل : يعني بها بيوت كلها⁽⁹³²⁾ ، و التحقيق أنها المساجد⁽⁹³³⁾ ، لدلالة ما بعدها⁽⁹³⁴⁾ .

و في متعلق الجار و المجرور قولان :

أحدهما : أنه متعلق بقوله تعالى - في الآية قبلها - : ﴿ كَمَشْكُورٍ ﴾⁽⁹³⁵⁾ النور ، و المعنى : مثل نوره كمشكاة فيها مصباح في بيوت⁽⁹³⁵⁾ ، و ذلك أن الله تعالى ضرب بالمشكاة لقباً للمؤمن و ما فيها من الهدى و العلم ، و ذكر محلها و هي المساجد التي هي

⁽⁹³⁰⁾ مقتبس من : هداية الحيارى : ص : 301

⁽⁹³¹⁾ ينظر: تأويل مشكل القرآن، لابن قتيبة: ص329، و تفسير الطبري: 329/8، و تفسير القرآن العظيم: 303/3، و

تيسير الكريم الرحمن، للسعدي: ص569.

⁽⁹³²⁾ ينظر: تفسير الطبري: 330/8.

⁽⁹³³⁾ ينظر: أضواء البيان: 4/116.

⁽⁹³⁴⁾ ينظر: تفسير الطبري: 330/8.

⁽⁹³⁵⁾ ينظر: معاني القرآن و إعرابه، للزجاج: 4/45، و تفسير الطبري: 329/8.

أحب البقاع إليه من الأرض ، و هي بيوته التي تعبد فيها و يوحد⁽⁹³⁶⁾ .

و الثاني : أنه متعلق ب (يسبح) و يكون (فيها) تكريرا على التوكيد ، فيكون المعنى : يسبح لله رجال في بيوت أذن الله و وصى بأن ترفع⁽⁹³⁷⁾ .

و قوله تعالى:(أذن الله أن ترفع) أي : أمر الله و وصى بأن ترفع⁽⁹³⁸⁾ .

و في معنى (أن ترفع) قولان :

أحدهما : أن معناها : أن تبنى⁽⁹³⁹⁾ ، و اختار الطبري هذا المعنى .

الثاني : أن معناها : أن تعظم⁽⁹⁴⁰⁾ .

و الأولى تفسيرها بالقولين معا، فيدخل في رفعها بناؤها و عمارتها، و تطهيرها من الدنس و النجاسة و الأذى، و صونها عن اللغو و الأقوال و الأفعال التي لا تليق فيها⁽⁹⁴¹⁾ .

و قوله تعالى : ﴿ وَيُذَكِّرْ فِيهَا أَسْمُهُ ﴾^(٣٦) النور ، معطوف على قوله (أن ترفع) ، أي ((و أذن لعباده أن يذكروا اسمه فيها))⁽⁹⁴²⁾ ، و ((و يدخل في ذلك الصلاة كلها فرضها و نفلها، و قراءة القرآن، و التسبيح و التهليل و غيره من أنواع الذكر، و تعلم العلم و تعليمه و المذاكرة فيها ، و الاعتكاف ، و غير ذلك من أنواع العبادات التي تفعل في المساجد))⁽⁹⁴³⁾ .

⁽⁹³⁶⁾ ينظر: تفسير القرآن العظيم: 303/3.

⁽⁹³⁷⁾ ينظر: معاني القرآن، للفرآء: 254/2، و معاني القرآن و إعرابه، للزجاج: 45/4.

⁽⁹³⁸⁾ ينظر: تفسير القرآن العظيم، لابن كثير: 303/3، و تيسير الكريم الرحم، للسعدي: ص569.

⁽⁹³⁹⁾ ينظر: معاني القرآن، للفرآء: 254/2، و معاني القرآن و إعرابه، للزجاج: 45/4، و تفسير الطبري: 330.

⁽⁹⁴⁰⁾ ينظر: تفسير الطبري: 330/8.

⁽⁹⁴¹⁾ ينظر: تفسير القرآن العظيم: 303-305، و تيسير الكريم الرحمن: ص569.

⁽⁹⁴²⁾ ينظر: تفسير الطبري: 330/8.

⁽⁹⁴³⁾ ينظر: تيسير الكريم الرحمن: ص569.

ثم مدح الله تعالى عمارها بالعبادة ، فقال : ﴿ يُسَبِّحُ لَهُ فِيهَا بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ ﴾ (٣٦)

رَجَالٌ (944)

و عامة القراء قرؤوا (يُسَبِّحُ) بفتح الباء المشددة مبنيًا للفاعل، و جعله فعلا للرجال و خبرا عنهم، و ترفع به الرجال على الفاعلية .

و بعض القراء قرؤوا (يسبح) بفتح الباء الموحدة المشددة مبنيًا للمفعول، و على هذه حذف فاعل (يسبح) ، و يكون على قوله : (و الآصال) وفقا تماما ، و ابتداء بقوله : (رجال) و هو مفسر للفاعل المحذوف ، كأنه لما قال : (يسبح له فيها) ، قيل : و من يسبح له فيها ؟ قال : (رجال) ، أي : يسبح له فيها رجال ، فيكون رفع رجال هاهنا بفعل مضمر ، و يظهر بهذا اتفاق القراءتين في المعنى (945) .

و التسبيح المسند إلى الرجال في هذه الآية فسر بالصلاة (946)، و الصلاة تسمى تسبيحا كما سبق.

و فسر بالتسبيح بالقول ، و يدخل فيه التسبيح في الصلاة و غيرها .

و خص الوقتين - الغدو ، و هو أول النهار ، الآصال جمع أصيل ، و هو آخر النهار - لشرفهما و لتيسير السير فيهما إلى الله تعالى (947) .

و قوله (رجال) ((فيه إشعار بمهمهم السامية ، و نياتهم و عزائمهم العالية التي بها صاروا عمارا للمساجد التي هي بيوت الله في أرضه ، و مواطن عبادته و شكره و توحيده

(944) ينظر: المصدر السابق.

(945) معاني القرآن، للفراء: 2/253، و معاني القرآن و إعرابه، للزجاج: 4/45-46، و تفسير الطبري: 8/330-

331، و تفسير القرآن العظيم: 3/305، و أضواء البيان: 4116.

(946) ينظر: تفسير الطبري: 8/331، و تفسير القرآن العظيم: 3/305.

(947) ينظر: المصدر السابق.

المبحث الخامس: تسبيح الكائنات كلها لله تعالى:

و من أنواع التسبيح باعتبار الفاعل ما وقع في الكتاب من إسناد التسبيح إلى أصناف الكائنات المختلفة، من الحيوانات و النباتات و الجمادات العاقلة و غير العاقلة ، و الناطقة و غير الناطقة، و النامية و الجامدة، و كل ما يصدق عليه أنه شيء مما خلق الله في السماوات أو في الأرض أو في ما بينهما من المخلوقات التي لا يحيط بأنواعها و لا يحصى عددها إلا الله الخالق القدير الذي أحاط بكل شيء علما ، و أحصى كل شيء عددا .

ففي كتاب الله تعالى نحو ثلاث عشرة آية من إحدى عشرة سورة (949) أسند فيها التسبيح إلى هذه الكائنات المجلدة في بعضها ، و مفصلة في بعضها الآخر.

- فأما الآيات التي اسند فيها التسبيح إلى الكائنات المجلدة ، فهي :

- 11- قوله تعالى : ﴿ سَبِّحْ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾ (١) الحديد
- 12- قوله تعالى : ﴿ سَبِّحْ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾ (١) الحشر ، الصف
- 13- و قوله تعالى : ﴿ هُوَ اللَّهُ الْخَلِيقُ الْبَارِئُ الْمُصَوِّرُ لَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى يُسَبِّحُ لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾ (٢٤) الحشر
- 14- و قوله تعالى : ﴿ يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ الْمَلِكِ الْقُدُّوسِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ ﴾ (١) الجمعة

(948) ينظر: تفسير القرآن العظيم: 305/3-306.

(949) هي: سورة الرعد، الآية: 13، و سورة الإسراء، الآية: 44، و سورة الأنبياء، الآية: 79، و سورة الأنبياء، الآية: 79، و سورة النور، الآية: 41، و سورة سبأ، الآية: 10، و سورة ص، الآيتان: 18، 19، و سورة الحديد، الآية: 1، و سورة الحشر: الآيتان: 1، 24، و سورة الصف، الآية: 1، و سورة الجمعة، الآية: 1، و سورة التغابن، الآية: 1.

15- و قوله تعالى : ﴿ يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ لَهُ الْمُلْكُ

وَلَهُ الْحَمْدُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ (١) التغابن

و في هذه الآيات جميعها يخبر الله ﷻ أن ما في السماوات و ما في الأرض سبح له و يسبح له.

و اللام في قوله: (لله) تقدم بيان معناها عند الكلام على تعدية التسييح، و أنها تحمل أوجهها ، أظهرها أنها للاختصاص ، أي : أنها تفيد كمال الإرادة من الفاعل المسبح ، و كمال الاستحقاق من الله المسبح تبارك و تعالى (950).

و لفظ (ما) الذي أسند إليه التسييح في هذه الآيات اسم موصول بمعنى الذي ، و يستوي فيه المذكر و المؤنث ، و المفردة و المثني و الجمع ، و يستعمل في غير العاقل غالبا ، و العاقل قليلا (951) ، و ذكر المفسرون أنه - في هذه الآيات -- متناول للعاقل و غير العاقل ، ، بتغليب غير العاقل لكثرتة (952).

كما ذكر المفسرون و غيرهم أنه من صيغ العموم (953) ، فيكون إسناد تسييح إليه في هذه الآيات شاملا لكل شيء في نطاق السموات و الأرض (954) ، فقوله: (ما في السموات) يعني كل ما في السموات السبع من الملائكة و غيرهم، كالشمس والقمر والنجوم ، و غير ذلك (955) .

و جاء لفظ (السموات) مجموعا في جميع هذه الآيات ؛ لأن المراد الإخبار عن تسييح

(950) ينظر:ص61من هذا البحث.

(951) ينظر:مفردات ألفاظ القرآن،للاغب:ص784،و الإتيان في علوم القرآن،للسيوطي:1/557.

(952) ينظر:أضواء البيان، الشنقيطي:252/5.

(953) ينظر:المصدر السابق:268/5.

(954) ينظر:المصدر نفسه و الموضع.

(955) ينظر:تفسير الطبري:88/12،و النكت و العيون،للماردي:468/5،و تفسير السمرقندي:3/321،و الجامع

لأحكام القرآن،للقرطبي:235/17،و تفسير الخازن:245/4.

سكانها على كثرتهم و تباين مراتبهم ، فكان لا بد من جمع محلهم (956).

و قوله (و ما في الأرض) يعني كل ما في الأرضين من الإنس و الجن ، و الأنعام و الدواب، و الجبال و الأشجار، و النبات و البحار، و غير ذلك (957).

و كرر ذكر (ما) مع (الأرض) في هذه الآيات — ما عدا آية سورة الحديد — لزيادة التقرير و التنبيه على استقلال كل من الفريقين (ما في السموات و ما في الأرض) بالتسبيح (958).

و قد ختم الله ﷻ كل آية من الآيات السابقة ببعض أسمائه الحسنی الدالة على صفاته العليا المقتضية لتسبيحه، فختم آية الحديد، و آية الحشر، و آية الصف، بقوله تعالى: ﴿الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ أي: هو الغالب الذي لا يغلبه شيء، الحكيم الذي يضع الأمور في مواضعها ، و يوقعها في مواقعها (959). فبعزته قهر كل شيء فلا يمتنع عليه شيء، و لا يستعصى عليه مستعص، و بحكمته أحسن كل شيء خلقه ، فلا يخلق شيئاً عبثاً ، و لا يشرع ما لا مصلحة فيه (960). و من تمام عزته و حكمته براءته عن كل سوء و عيب و نقص، فإن ذلك ينافي العزة التامة و الحكمة التامة (961). و ختم آية الجمعة بقوله تعالى: ﴿الْمَلِكِ الْقُدُّوسِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ﴾، فذكر مع الاسمين السابقين اسمه الملك ، و اسمه القدوس و قد تقدّم الكلام على هذين الاسمين و بيان مناسبة قرن التسبيح بهما.

و ختم آية التغابن بقوله تعالى: ﴿لَهُ الْمُلْكُ وَلَهُ الْحَمْدُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ أي: أنه سبحانه المختص بالملك كله، و الحمد كله، و كمال القدرة .

(956) ينظر: بدائع الفوائد، لابن القيم: 127/1.

(957) ينظر: تفسير الطبري: 88/12، و تفسير السمرقندي: 321/3، و تفسير الخازن: 245/4.

(958) ينظر: تفسير أبي السعود: 224/8.

(959) ينظر: أضواء البيان: 252/5.

(960) ينظر: تيسير الكريم الرحمن: ص 849، 945.

(961) ينظر: شفاء العليل، لابن القيم: 66/2.

فهذه الأوصاف العظيمة مما يدعو إلى تسبيحه و عبادته وحده لا شريك له (962).
و أما الآيات التي أسند فيها التسبيح إلى الكائنات مفصلة، فهي : قوله تعالى:

9. ﴿وَيُسَبِّحُ الرَّعْدُ بِحَمْدِهِ وَالْمَلَائِكَةُ مِنْ خِيفَتِهِ﴾ (١٣) الرعد

و هذه الآية سبق ذكرها في تسبيح الملائكة (963)، و ذكرت هنا بناء على ما قيل في تفسير الرعد من أنه : صوت اصطكاك الأجرام العلوية (964)، أو ريح تختنق تحت السحاب فتصاعد فيكون منه ذلك الصوت (965)، و عليه فإنما خص الرعد بالتسبيح لأنه من أعظم الأصوات (966).

10. قوله تعالى : ﴿وَسَخَّرْنَا مَعَ دَاوُدَ الْجِبَالَ يُسَبِّحْنَ وَالطَّيْرَ وَكُنَّا فَاعِلِينَ﴾ (٧٨)

﴿ الأنبياء ﴾

و هذه الآية سبق ذكرها عند الكلام على تسبيح نبينا داود عليه السلام و فيها إسناد التسبيح إلى الجبال و الطير، فإن قوله ﴿ يُسَبِّحْنَ ﴾ ، جملة حالية من الجبال ، أي : مسبحات لله تعالى (967).

و قوله : ﴿ وَالطَّيْرَ ﴾ ، معطوف على الجبال ، أي : و سخرنا الطير تسبح مع داود (968). و قيل : هو مفعول معه ، أي : و سخرنا الجبال يسبحنا مع الطير (969).

و قدم تعالى ذكر الجبال على الطير ، لان تسخيرها و تسبيحها أعجب و أدخل في

(962) ينظر: تيسر الكريم الرحمن، للسعدي: ص862.

(963) ينظر: ص 110 من البحث.

(964) ينظر: تفسير القرآن، لأبي مظفر: 84/3، و مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية: 264-263/24.

(965) ينظر: تفسير الطبري: 186/1، و الجامع لأحكام القرآن، للقرطبي: 217/1.

(966) ينظر: زاد المسير، لابن الجوزي: 314/4.

(967) ينظر: البحر المحيط، لأبي حيان: 307/6، و تفسير النسفي: 131/3.

(968) ينظر: المصدرين السابقين، و أضواء البيان، للشنقيطي: 155/3.

(969) ينظر: المصادر السابقة نفسها.

الإعجاز ، لأنها جماد ، بخلاف الطير ، فإنها حيوان لها صوت (970).

و لهذا قال سبحانه : ﴿ وَكُنَّا فَاعِلِينَ ﴾ (٧٨) أي : فاعلين هذه الأعاجيب من تسخير الجبال و الطير لداود عليه السلام ، و تسبيحهن معه (971) ، ففي هذا القول تأكيد لما قبله و الموجب لذلك أن تسخير الجبال و الطير و تسبيحهن أمر عجب خارق للعادة ، مظنة لأن يكذب به الكفرة الجهلة (972) .

11. قوله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَا دَاوُدَ مِنَّا فَضْلًا يَجِبَالُ أَوِي مَعَهُ .

وَالطَّيْرُ ﴾ (١٠) سبأ ، و هذه الآية كالتي قبلها ، سبق ذكرها في تسبيح نبي الله داود عليه السلام ، و فيها أيضا بيان تسبيح الجبال و الطير لله تعالى ، فإن قوله : ﴿ يَجِبَالُ أَوِي مَعَهُ ﴾ (١٠) أمر للجبال بترجيح التسبيح مع داود عليه السلام كما سبق (973) . و قوله : ﴿ وَالطَّيْرُ ﴾ ، قرئ بالنصب و في إعرابه أوجه :

أولها: أنه معطوف على (فضلا) ، أي: و لقد آتينا داود منا فضلا و الطير، ويكون

قوله ﴿ يَجِبَالُ أَوِي مَعَهُ ﴾ ، جملة معترضة (974) . و هذا الوجه ليس بظاهر في معنى الآية .

الثاني : أنه معطوف على (جبال) و توجيهه - كما قال ابن جرير الطبري: (أن

الطير نادى الجبال ، فتكون منصوبة من أجل أنها معطوفة على مرفوع لا يحسن إعادة رافعه عليه ، فيكون كالمصدر (975) عن جهته (976) .

(970) ينظر: البحر المحيط: 308/6، و تفسير النسفي: 131/3، و البداية و النهاية، لابن كثير: 290/6.

(971) ينظر: البحر المحيط، لأبي حيان: 308/6.

(972) ينظر: أضواء البيان، للشيخ محمد الأمين الشنقيطي: 156/3.

(973) ينظر: ص: 121 من البحث.

(974) ينظر: معاني القرآن و إعرابه، للزجاج: 243/4، و روح المعاني، للآلوسي: 114/22.

(975) أي كالمصروف عن وجهه، حيث عدل به عن الرفع إلى النصب؛ لأن حرف النداء لا يدخل على الاسم المحلى ب:

أل.

(976) ينظر: تفسير الطبري: 350/10.

و وجهه غيره بأن العطف هنا على محل (جبال)، لأن كل منادي منصوب، و لكنه إذا كان معرفة غير مضاف و لا شبيها به بني على ما يرفع به في محل نصب⁽⁹⁷⁷⁾، كأنه قال:

دعون الجبال و الطير، فالطير معطوف على محل الجبال في الأصل⁽⁹⁷⁸⁾.

الثالث: أنه مفعول معه، أي: أنه نصب على معنى (مع)، كما تقول: قمت و زيدا، و أي: يا جبال أوبي معه الطير⁽⁹⁷⁹⁾. و قد اعترض على هذا الوجه بأنه يؤدي إلى تكرار لفظ (مع). و أجيب عنه بأنهما معمولان متغايران كل منهما باب على حدة⁽⁹⁸⁰⁾.

الرابع: أنه منصوب بفعل مقدر مناسب، و اختلف في هذا الفعل: فقده بعضهم (سخرنا)، يعني: و سخرنا له الطير⁽⁹⁸¹⁾.

و قدره بعضهم (أمرنا)، أي: و أمرنا الطير أن تسبح معه⁽⁹⁸²⁾.

و قدره بعضهم (نادينا)، أي: و نادينا الطير لمثل ذلك من ترجيع التسبيح معه⁽⁹⁸³⁾. و قرئ: (و الطير) بالرفع، و في إعرابه أوجه أيضا:

أولها: أنه معطوف على (الجبال)، و إن لم يحسن نداؤها بحرف النداء الذي نوديت

⁽⁹⁷⁷⁾ قال ابن مالك في الألفية:

"و ابن المعرف المنادى المفردا على الذي في رفعه قد عهدا"

ألفية ابن مالك في النحو و الصرف: ص49. و ينظر: شرح ابن عقيل على ألفية ابن مالك: 2/258.

⁽⁹⁷⁸⁾ ينظر: معاني القرآن و إعرابه، للزجاج: 4/243، و تفسير النسفي: 3/465، و روح المعاني، للألوسي: 22/243.

⁽⁹⁷⁹⁾ ينظر: معاني القرآن و إعرابه، للزجاج: 4/243.

⁽⁹⁸⁰⁾ ينظر: روح المعاني: للألوسي: 22/114.

⁽⁹⁸¹⁾ ينظر: مجاز القرآن، لأبي عبيدة: 2/143، و تفسير الطبري: 10/350-351.

⁽⁹⁸²⁾ ينظر: تفسير القرآن، لأبي المظفر: 4/319.

⁽⁹⁸³⁾ ينظر: أضواء البيان: 3/155.

به الجبال (984) .

و عند من يقول : إن (الجبال) مبني على الصم في محل نصب ، يكون العطف هنا على لفظ الجبال ، تشبيها للحركة البنائية العارضة بالحركة الإعرابية (985).

الثاني : أنه مرفوع على البدل من منادى محذوف ، و التقدير : يا جبال و يا أيها الطير أوبي معه (986) ، فالطير بدل من (أوي) ، المنادى .

الثالث : أنه معطوف على الضمير في (أوبي) ، و هو ياء المخاطبة العائدة إلى الجبال ، و المعنى : يا جبال رجعي التسييح أنت و الطير (987).

و هذه الأوجه الإعرابية المتعلقة و إن اختلفت إعرابا ، فهي متفقة معنى ، غير أن بعضها أظهر في الدلالة على المعنى من بعض ، فإن في كل وجه من الأوجه المذكورة بيان أن الطير مأمورة بمثل ما أمرت به الجبال من تأويب - و هو التسييح - مع داود عليه السلام

" و قد أشار بعض المفسرين إلى ما في هذه الآية من عظمة الإلهية ، حيث جعلت الجبال و الطير بمتلة العقلاء الذين إذا أمروا بالطاعة أطاعوا ، و إذا دعوا أحابوا ، إشعارا بأنه ما من حيوان و لا جماد إلا و هو منقاد لمشيئة الله تعالى " (988).

12. قوله عَلَيْكَ ﴿ إِنَّا سَخَرْنَا الْجِبَالَ مَعَهُ يُسَبِّحْنَ بِالْعَشِيِّ وَالْإِشْرَاقِ ﴾ (١٨) وَالطَّيْرَ مَحْشُورَةً كُلِّ

لَهُ أَوَّابٌ ﴿١٩﴾ ص

و أسند التسييح هنا أيضا إلى الجبال و الطير ، كما في الآيتين السابقتين ، و لكن قيد

(984) ينظر: تفسير الطبري: 315/10، و الوجه الثاني في قراءة النصب.

(985) تفسير النسفي: 465/3،

(986) ينظر: معاني القرآن و إعرابه: 243/4.

(987) ينظر: تفسير الطبري: 351/10، و معاني القرآن و إعرابه: 243/4، و روح المعاني: 114/22.

(988) ينظر: تفسير النسفي: 465/3.

تسبيح الجبال - هنا - بوقتي (العشي و الإشراق) أي : بآخر النهار و أوله (989).

كما اخبر عن الطير بأهما (محشورة) أي : مجموعة من كل ناحية (990).

و قيل : محبوسة في الهواء (991). و لا اختلاف بين المعنيين ، و ذلك أن داود عليه السلام كان إذا سبح الله تعالى جاوبته الجبال بالتسبيح ، و اجتمعت إليه الطير ساجدة في الهواء ، فسبحت معه ، فتكون محبوسة باجتماعها (992)، و لهذا ختم الله تعالى الآية بقوله : ﴿كُلُّ لَهْءٍ أَوَّابٌ﴾ ، و للمفسرين أقوال في بيان المراد بذلك :

فقال بعضهم : يعني بالكل : كل طير ، بضمير في (له) داود عليه السلام ، و أبواب بمعنى : مطيع رجاع إلى طاعته و أمره ، أي : كل طير لداود مطيع رجاع إلى طاعته و أمره بالتسبيح معه . (993).

و قال بعضهم : يعني بالكل : كل واحد من جبال و الطير ، و اللام في (له) تعليلية ، و الضمير لداود عليه السلام (و أبواب) بمعنى : مسبح ، أي : كل من جبال و طير منة أجل داود ، أي : لأجل تسبيحه و مسبح الرجاع إلى تسبيح ، لأنها كانت تسبح لتسبيحه ، و يرجعن التسبيح معه ، فكلما سبح داود عليه السلام سبحت الجبال و الطير معه . (994).

و من قائلين بهذا التفسير من أشار إلى أن الأبواب وضع الموضوع المسبح ، لأن الجبال و الطير كانت ترجع تسبيح مع داود عليه السلام ، و المرجع رجاع ، لأنه يرجع إلى

(989) ينظر: تفسير الطبري: 562/10، و معاني القرآن و إعرابه، للزجاج: 324/4، و البداية و النهاية، لابن كثير: 10/2.

(990) ينظر: تفسير الطبري: 562/10، و تفسير القرآن، لأبي المظفر السمعاني: 430/4، و تفسير النسفي: 56/4، و تيسير

الكريم الرحمن، للسعدي: ص711.

(991) ينظر: تفسير القرآن العظيم، لابن كثير: 33/4.

(992) ينظر: تفسير الطبري: 562/10، و تفسير القرآن العظيم، لابن كثير: 33/4.

(993) ينظر: زاد المسير، لابن الجوزي: 111/7.

(994) ينظر: معاني القرآن و إعرابه، للزجاج: 324/4، و روح المعاني، للألوسي: 176/23.

فعله و الرجوع إلى فعله رجوعاً بعد رجوع.⁽⁹⁹⁵⁾

أو لأن الأواب : هو التواب الكثير الرجوع إلى الله تعالى ، و من دأبه ان يكثر ذكر الله تعالى ، و يديم تسيبته و تقديسه⁽⁹⁹⁶⁾ .

و قال بعضهم : يعني بالكل : كل الطير ، و الضمير في (له) لله تعالى و (أواب) بمعنى : مسبح ، أي كل الطير لله تعالى مسبح⁽⁹⁹⁷⁾ .

و عليه فقوله : (كل له أواب) استئنافاً مقرر لمضمون قوله: (و الطير محشورة)، مصرح بما فهم منه إجمالاً من تسيب الطير⁽⁹⁹⁸⁾ .

و ذكر بعضهم نحو التفسير السابق ، و لكنه جعل المعنى بالكل : الجبال و الطير ، أي: كل من الجبال و الطير لله تعالى مسبح ، و هذا التفسير موافق لقوله تعالى — الآية السابقة — : ﴿يَجِبَالٌ أَوْبَى مَعَهُ وَالطَّيْرُ﴾ سبأ : ١٠ ، فكل من الجبال و الطير لله تعالى مسبح أواب امتثالاً لذلك⁽⁹⁹⁹⁾ .

و آخرون من المفسرين جعلوا المعنى بالكل : داود عليه السلام ، و الجبال ، و الطير ، أي : كل من داود و الجبال و الطير لله تعالى أواب ، أي : مسبح مرجع للتسيب⁽¹⁰⁰⁰⁾ .

و هذه الأقوال و إن بدت متنوعة ، لكنها ليست متعارضة ، و أظهرها دلالة على معنى الآية — في نظري — التفسيران الأخيران .

و قد ظهر في الآيات الثلاث المذكورة إسناد التسيب إلى الجبال و إلى الطير، كما

⁽⁹⁹⁵⁾ ينظر: روح المعاني:176/23

⁽⁹⁹⁶⁾ المصدر السابق نفسه، و تفسير النسفي:57/4.

⁽⁹⁹⁷⁾ ينظر: تفسير الطبري:563/10، و زاد المسير:111/7.

⁽⁹⁹⁸⁾ ينظر: تفسير أبي السعود:219/7، و روح المعاني:176/23.

⁽⁹⁹⁹⁾ ينظر: تيسير الكريم الرحمن:ص711.

⁽¹⁰⁰⁰⁾ ينظر: معاني القرآن و إعرابه، للزجاج:324/4، و تفسير النسفي:57/4، و روح المعاني:176/23.

ظهر في الآية المذكورة قبل هذه الآيات إسناد التسبيح إلي الرد ، فهذا مما وقع في كتاب الله تعالى من إسناد تسبيح إلى الكائنات المفصلة .

و هناك آيتان أخريان أسند فيهما التسبيح إلى الكائنات المفصلة ، هما :

5- ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُسَبِّحُ لَهُ مِنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالطَّيْرِ صَفَّاتٍ كُلِّ قَدْ عَلِمَ صَلَاتَهُ

وَسُبْحَهُ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِمَا يَفْعَلُونَ ﴿٤١﴾ النور

ففي هذه الآية أخبر الله تعالى عن تسبيح الجميع من في السموات و الأرض له على العموم ، و عن تسبيح الطير له على الخصوص .

و قوله : (ألم تر) الهمزة فيه للتقرير ، و الرؤية : و هي الرؤية القلبية المرادفة للعلم⁽¹⁰⁰¹⁾ ، أي : لم تنظر بعين القلب ، فتعلم أن الله تعالى يسبح له من في السموات و الأرض⁽¹⁰⁰²⁾ و الخطاب هنا للنبي ﷺ ، و المراد به المكلفين⁽¹⁰⁰³⁾ .

و قوله : ﴿ أَنَّ اللَّهَ يُسَبِّحُ لَهُ مِنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ﴾ فيه إسناد التسبيح إلى (من) ، و هي كـ (ما) في موصوليتها ، و استوائها في المذكر و المؤنث ، و المفرد و المثنى و الجمع . و الغالب استعمالها في العاقل عكس (ما)⁽¹⁰⁰⁴⁾ ، كما سبق⁽¹⁰⁰⁵⁾ .

و قال المفسرون: إن (من) هنا عامة لكل شيء ، العاقل و غير العاقل ، لكنه لما اجتمع ذلك عبر عنه بـ (من) تغليبا لمن يعقل على ما لا يعقل⁽¹⁰⁰⁶⁾ .

فيكون قوله : (من في السموات و الأرض) متناولا لجميع الكائنات ، من الملائكة ،

⁽¹⁰⁰¹⁾ ينظر: روح المعاني: 187/18.

⁽¹⁰⁰²⁾ ينظر: تفسير الطبري: 336/9.

⁽¹⁰⁰³⁾ ينظر: روح المعاني: 187/18.

⁽¹⁰⁰⁴⁾ ينظر: الإتيان في علوم القرآن: للسيوطي: 565/1.

⁽¹⁰⁰⁵⁾ ينظر: ص: 155 من هذا البحث.

⁽¹⁰⁰⁶⁾ ينظر: المحرر الوجيز: لابن عطية: 315/11، و البحر المحيط، لأبي حيان: 425/6.

و الإنس ، و الجن ، و الحيوانات ، و الجمادات ⁽¹⁰⁰⁷⁾. و قوله تعالى : ﴿كُلُّ قَدِّ عِلْمٍ صَلَاتُهُ وَتَسْبِيحُهُ﴾ أي : كل من هذه المخلوقات المذكورة المصرح به — كالطير — ، و المدرج تحت عموم (من في السموات و الأرض)، و قد علم صلاته و تسبيحه ⁽¹⁰⁰⁸⁾.

و في المعنى بالضمير المستتر في (علم)، و بالضميرين في (صَلَاتُهُ وَتَسْبِيحُهُ) ثلاثة أقوال للمفسرين:

القول الأول: أن الضمير المستتر الذي هو فاعل (علم) يعود إلى الله تعالى في قوله : (الَّذِينَ أَنْزَلَ اللَّهُ مَسِيحًا لَهُ) الآية ، و الضميران في (صَلَاتُهُ وَتَسْبِيحُهُ) يعودان إلى (كل). و على هذا فالمعنى : كل من هذه المخلوقات قد علم الله صلاة المصلي منها ، و تسبيح المسبح منها ⁽¹⁰⁰⁹⁾. و يكون هذا إخباراً عن علم الله تعالى بعبادات كل المخلوقات ، و إن لم يعلم العباد منها إلا ما أطلعهم الله عليه ⁽¹⁰¹⁰⁾.

و هذا القول هو الذي رجحه ابن جرير الطبري في تفسيره ، و أبو إسحاق الزجاج في معاني القرآن و إعرابه .

القول الثاني : أن الضمير المستتر في (علم) ، و الضميرين في (صَلَاتُهُ وَتَسْبِيحُهُ) جميعاً يعود إلى (كل) ، و عليه فالمعنى : كل من هذه المخلوقات قد علم صلاة نفسه و تسبيح نفسه ، أي : قد علم ما كلف من ذلك و ألزمه ، فهو يثابر عليه ⁽¹⁰¹¹⁾.

⁽¹⁰⁰⁷⁾ ينظر: تفسير الطبري: 336/9، و تفسير القرآن العظيم: 308/3، و تيسير الكريم الرحمن: ص570.

⁽¹⁰⁰⁸⁾ ينظر: البحر المحيط، لأبي حيان: 420/6، و روح المعاني: 188/18، تيسير الكريم الرحمن: ص570.

⁽¹⁰⁰⁹⁾ ينظر: تفسير الطبري: 337/9، و معاني القرآن و إعرابه، للزجاج: 48/4-49، و أحكام القرآن، للحصاص: 189/5، و المحرر الوجيز: لابن عطية: 315/11، و زاد المسير، لابن الجوزي: 51/6، و تيسير الكريم الرحمن: ص570، و أضواء البيان: 124/4.

⁽¹⁰¹⁰⁾ ينظر: تيسير الكريم الرحمن: ص570.

⁽¹⁰¹¹⁾ ينظر: تفسير الطبري: 337/9، و معاني القرآن و إعرابه، 48/4، و المحرر الوجيز: 315/11، و زاد المسير: 52/6، و تفسير القرآن العظيم: لابن كثير: 308/3، و تيسير الكريم الرحمن: ص570، و أضواء البيان: 124/4.

و على هذا المعنى يكون قوله : ﴿كُلُّ قَدْ عَلِمَ صَلَاتَهُ، وَتَسْبِيحَهُ﴾ (استثنافاً) (جيء به لبيان كمال عراقه كل واحد مما ذكر من الطير و ما اندمج في عموم (مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ) في التثنيه ، و رسوخ قدمه فيه بتمثيل حاله بحال من يعلم ما يصدر عنه من الأفعال ، فيفعلها عن قصد و نية ، لا عن اتفاق بلا روية) (1012).

و قد رجع الشيخ محمد الأمين الشنقيطي ذلك ، و قال- في تقرير ذلك-: (و قد قدمنا في سورة النحل في الكلام على قوله تعالى : ﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِّنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ﴾ (٩٧) النحل ، كلام الأصوليين في أن اللفظ إن احتمل التوكيد و التأسيس حمل على التأسيس ، و بينا أمثلة لذلك من القرآن العظيم . و إذا علمت ذلك ، فاعلم أن الأظهر - على مقتضى ما ذكرنا عن الأصوليين - أن يكون ضمير الفاعل المحذوف في قوله : ﴿كُلُّ قَدْ عَلِمَ صَلَاتَهُ، وَتَسْبِيحَهُ﴾ (٤١) . راجعاً إلى قوله : (كل) ، أي : كل من المصلين قد علم صلاة نفسه ، و كل من المسيحين قد علم تسبيح نفسه ، و على هذا القول فقوله تعالى : ﴿وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِمَا يَفْعَلُونَ﴾ (٤١) تأسيس لا تأكيد ، أما على القول بأن الضمير راجع إلى الله ، أي : قد علم الله صلواته ، يكون قوله : ﴿وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِمَا يَفْعَلُونَ﴾ (٤١) ، كالتكرار مع ذلك ، فيكون من قبيل التوكيد اللفظي.

و قد تقدم أن المقرر في الأصول أن الحمل على التأسيس أرجح من الحمل على التوكيد ، كما تقدم إيضاحه (1013).

القول الثالث : أن الضمير المستتر في (علم) يعود إلى (كل) ، و الضميران في

(صَلَاتَهُ، وَتَسْبِيحَهُ) يعودان إلى الله تعالى. و المعنى : كل من هذه المخلوقات قد علم صلاة الله تعالى و تسبيحه اللذين أمر بهما و هدى إليها ، أي : علم أن ذلك لله تعالى وحده (1014) و هذا قوله - في نظري - ضعيف ، لأن الإضافة في (صَلَاتَهُ، وَتَسْبِيحَهُ) - بناء عليه - تكون

(1012) مقتبس من: روح المعاني: 188/18.

(1013) تيسير الكريم الرحمن: 570.

(1014) ينظر: أضواء البيان: 124/4.

للمفعول ، و معلوم أن (صلاة) اسم مصدر فعل لازم ، و هو (صلي ، يصلي ، صلاة)
فإضافته للمفعول مشكلة في المعنى ، و يظهر أنه لضعفه قد أهمل ذكره بعض المحققين من
المفسرين فيما تحمله الآية من الأوجه .

أما القولان الأول و الثاني فقويان ، و أقواهما القول الثاني ، كما تقدم في كلام
الشنقيطي .

و ذكر بعض المفسرين في معنى قوله : (كل قد علم صلاته وتسيحه) أن الصلاة
لبنى آدم ، و التسيح لما سواهم من الخلق ، و هو مروى عن مجاهد (1015).

و قد تضمن الكلام السابق بيان معنى قوله تعالى - في ختام هذه الآية ﴿ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِمَا
يَفْعَلُونَ ﴾ (٤١) ، و قال ابن جرير الطبري : ((يقول تعالى ذكره : و الله ذو علم بما يفعل
كل مصل و مسبح منهم ، لا يخفي عليه شيء من أفعالهم ، طاعتها و معصيتها ، محيط
بذلك كله ، و هو مجازيهم على ذلك كله)) (1016) .

6- قوله تعالى : ﴿ تُسَبِّحُ لَهُ السَّمَوَاتُ السَّبْعُ وَالْأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ
بِحَمْدِهِ وَلَكِنْ لَا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا ﴾ (٤٤) الإسراء : ٤٤
و في هذه الآية أخبر الله تعالى عن تسبيح الكائنات له على التفصيل و الإجمال .

فقوله : ﴿ تُسَبِّحُ لَهُ السَّمَوَاتُ السَّبْعُ ﴾ ، فيه إسناد التسبيح إلى السموات السبع ، و جاء
لفظ (السموات) في هذه الآية (مجموعة إخبارا بأنها تسبح له بذواتها و أنفسها على
اختلاف عددها ، و أكمل هذا المعنى بوصفها بالعدد ، و لم يقتصر على السموات فقط ،
بل قال : (السبع) (1017) .

(1015) ينظر: تفسير الطبري: 336/9-337، و معاني القرآن و إعرابه: 48/4، و المحرر الوجيز: 315/11.

(1016) ينظر: تفسير الطبري: 337/9.

(1017) ينظر: بدائع الفوائد: 128/1.

و قوله : (و الأرض) معطوف على (السَّمَوَاتُ السَّبْعُ) ، و فيه إسناد التسبيح إلى الأرض أي : و تسبح له الأرض بذاتها كما تسبح له السماوات السبع بذواتها .

و أشار بعض العلماء إلى أن إسناد التسبيح إلى السماوات و الأرض هو بما في كل منهن من أفلاك و كواكب و بروج ، أو جبال و وهاد و فجاج⁽¹⁰¹⁸⁾ .

و قوله : (و مَنْ فِيهِنَّ) معطوف على (السَّمَوَاتُ السَّبْعُ وَالْأَرْضُ) ، و الضمير فيه يعود إلى السماوات و الأرض ، أي : و يسبح له من في السماوات و الأرض .

و ذهب بعض المفسرين إلى أن (من) في هذه الآية قصد بها العقلاء ، من الملائكة و الإنس و الجن⁽¹⁰¹⁹⁾ .

و جعلها ابن جرير الطبري خاصة في المؤمنين منهم : فقال : (وَمَنْ فِيهِنَّ) من المؤمنين به الملائكة و الإنس و الجن⁽¹⁰²⁰⁾ .

و كثير من المفسرين على أن (من) هنا عامة في جميع المخلوقات ، العقلاء و غيرهم⁽¹⁰²¹⁾ ، و عليه فقوله : وَمَنْ فِيهِنَّ كقوله - في الآية السابقة - : ﴿الْمُرْتَدَّ أَنْ اللَّهُ يُسَبِّحُ لَهُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالطَّيْرِ صَفَّاتٍ كُلِّ قَدْ عَلِمَ صَلَاتَهُ وَتَسْبِيحَهُ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِمَا يَفْعَلُونَ﴾^(٤١) النور : ٤١ .

و (من) و إن كانت للعاقل غالبا ، فإنها تستعمل للعاقل و غيره في مواضع ، منها : أن يجتمع غير العاقل مع العاقل في الحكم ، فيغلب العاقل على غير العاقل لشرفه ، كما تستعمل في هذه الحالة (ما) ، تغليباً لغير العاقل على العاقل لكثرتهم، مثل قوله تعالى : ﴿

⁽¹⁰¹⁸⁾ ينظر: أضواء البيان (التكملة): 268/5.

⁽¹⁰¹⁹⁾ ينظر: المحرر الوجيز: لابن عطية: 300/10، و الجامع لأحكام القرآن، للقرطبي: 266/10.

⁽¹⁰²⁰⁾ ينظر: تفسير الطبري: 84/8.

⁽¹⁰²¹⁾ ينظر: تفسير الطبري: 84/8، و تفسير السمرقندي: 270/2، و تفسير القرآن العظيم، لابن كثير: 45/3، و أضواء

سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ ﴿١﴾ الحشر: ١ و بهذا يكون إسناد التسبيح في قوله : ﴿ تَسْبِيحٌ لَهُ السَّمَوَاتُ السَّبْعُ وَالْأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ ﴾ ، شاملا للسموات و الأرض بذواتهما ، و لكل شيء فيهما ، عاقل و غير عاقل (1022) ، و الله تعالى أعلم .

و قوله : ﴿ وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ ﴾ ، (إن) هنا بمعنى (ما) النافية (1023) ، و (من) حرف جر صلة . و (شيء) أعم العمومات ، فيشمل السموات و الأرض ، و الملائكة و الإنس و الجن ، و الحيوانات و النباتات و الجمادات ، و الشجر و الحجر و المدر ، و الحي و الميت ، و كل مخلوق لله تعالى (1024) ، و قد وصلت به (من) لتوكيد العموم (1025) .

و (وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ) إثبات للتسبيح للأشياء كلها . و المعنى : و ما من شيء من المخلوقات إلا يسبح بحمد الله تعالى (1026) ، يعني تسبيحا مقرونا بالحمد ، على ما سبق بيانه في صيغة القرآن للتسبيح (1027) .

و هذه الآية أكثر شمولاً ، و أبلغ عموما في إسناد التسبيح إلى الكائنات ، فإنها تدل بمنطوقها أن كل ما يصدق عليه أنه شيء يسبح بحمد الله جل و علا .

و لكن للمفسرين موقفان حيال هذا العموم الذي دلت عليه هذه الآية : فقد ذهب فريق منهم إلى أن الآية على عمومها ، فكل شيء يسبح ، حيا أو غير حي ، ناميا ، أو غير نام ، باقيا على أصله أو متغيرا عنه (1028) .

(1022) ينظر: أضواء البيان: 5/268، 251.

(1023) ينظر: زاد المسير: 5/39.

(1024) ينظر: تيسير الكريم الرحمن: ص459، و أضواء البيان: 5/268.

(1025) ينظر: مغني اللبيب، لابن هشام: ص425.

(1026) ينظر: تفسير الطبري: 8/84، و تفسير القرآن العظيم، لابن كثير: 3/45.

(1027) ينظر: ص155 من هذا البحث.

(1028) ينظر: تفسير الطبري: 8/84-85، و معاني القرآن و إعرابه، للزجاج: 3/242، و النكت و العيون ، للماوردي:

و ذهب فريق ، آخر من المفسرين إلى أن الآية من قبيل العام المراد به الخاص⁽¹⁰²⁹⁾ .
ثم اختلف هذا الفريق في الخاص المراد به على ثلاثة أقوال :

القول الأول : أنه كل شيء فيه الروح ، عنون كل شيء حي ، و أما ما لا حياة فيه فلا يسبح ، إنما يسبح ما كان فيه روح⁽¹⁰³⁰⁾ .

القول الثاني : أنه كل شيء حي و نام دون الجمادات ، و معنى هذا ان الحيوانات و النباتات هي التي تسبح ، و أما الجمادات فلا تسبح⁽¹⁰³¹⁾ .

و استدل بعضهم لهذا القول بما رواه ابن عباس رضي الله عنهما قال: مر النبي صلى الله عليه وسلم بقبرين ، فقال : (أنهما لا يعذبان ، و ما يعذبان في كبير : أما أحدهما فكان لا يستتر من البول ، و أما الآخر فكان يمشي بالنميمة) ، ثم أخذ جريدة رطبة فشققها نصفين ، فغرز في كل قبر واحد . قالوا : يا رسول الله لما فعلت هذا ؟ قال : لعله يخفف عنهما ما لم ييبسا⁽¹⁰³²⁾ .

قال المستدلون بهذا الحديث على القول المذكور : إن قوله صلى الله عليه وسلم : (ما لم ييبس) إشارة أنهما يسبحان ما دام رطبين ، فإذا يبس صار جمادا ، و انقطع تسيبهما⁽¹⁰³³⁾ .

و معلوم أن الحديث ليس فيه تصريح لما قاله هؤلاء إنما هو رأي قالوه احتمالا ، و مع الاحتمال لا يقوم استدلال .

245/3، و تفسير القرآن، لأبي المظفر: 244/3، و تفسير البغوي: 96/5، و المحرر الوجيز، لابن عطية: 300/10، و زاد المسير: 39/5، و الجامع لأحكام القرآن، للقرطبي: 266/10، و تفسير القرآن العظيم، لابن كثير: 45/3.
⁽¹⁰²⁹⁾ ينظر: المحرر الوجيز: 300/10، و زاد المسير: 39/5.

⁽¹⁰³⁰⁾ ينظر: تفسير الطبري: 85/8، و النكت و العيون: 245/3، و زاد المسير: 39/5، تفسير القرآن العظيم: 46/3.
⁽¹⁰³¹⁾ ينظر: المحرر الوجيز: 300/10، و زاد المسير: 39/5، و تفسير البغوي: 96/5، و الجامع لأحكام القرآن: 266/10.

⁽¹⁰³²⁾ أخرجه البخاري في صحيحه - مع الفتح - 322/1، برقم (218) ، و مسلم في صحيحه: 240/1-241، برقم (292).

⁽¹⁰³³⁾ ينظر: تفسير السمرقندي: 270/2، و شرح صحيح مسلم، للنووي: 202/3، و الجامع لأحكام القرآن، للقرطبي: 266/10، و تفسير القرآن العظيم، لابن كثير: 46/3.

القول الثالث : أنه كل شيء لم يتغير عن حاله فإذا تغير و قطع تسبيحه⁽¹⁰³⁴⁾ .

و يعزى في هذا إلى المقدم ابن معدي كرب⁽¹⁰³⁵⁾ قوله (إن التراب ليسبح ما لم يتل ، فإذا ابتل ترك التسبيح ، و إن الخرزة تسبح ما لم ترفع من موضعها ، فإذا رفعت تركت التسبيح ، إن الورقة لتسبح ما دامت على الشجرة ، فإذا سقطت تركت التسبيح ، و إن الثوب ليسبح ما دام جديدا فإذا توسخ ترك التسبيح ، و إن الماء يسبح ما دام جاريا فإذا ركذ ترك التسبيح ، و إن الوحش و الطير تسبح إذا صاحت ، فإذا سكنت تركت التسبيح)⁽¹⁰³⁶⁾ .

و هذه الأقوال : - كما ترى - ليس على كل شيء منها دليل يجب المصير إليه ، فلا يسوغ العدول على عموم الآية لمجرد هذه الأقوال كائنا من كان قائلها ، لاسيما مع من سبق بيانه من أن الآية جاءت بأبلغ صيغة دالة على العموم ، يبعد في مثلها أن يكون من العام المراد به الخاص .

و قد ذهب المحققون من المفسرين و غيرهم إلى الآية على عمومها في أن كل شيء يسبح بحمد الله تعالى⁽¹⁰³⁷⁾ . و قوله تعالى : ﴿وَلَكِنْ لَا نَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ﴾ ، استدراك عقب به تعالى الخبر عن تسبيح الأشياء كلها بحمده ، لما قد ينشأ عن هذا الخبر من استغراب تسبيح هذه الأشياء مما لا يفقهه الناس ، أي : لا يفهمونه و لا يعلمونه ؛ لأنه بخلاف لغاتهم

⁽¹⁰³⁴⁾ ينظر: تفسير السمرقندي: 270/2، و زاد المسير: 39/5.

⁽¹⁰³⁵⁾ هو المقدم بن معدي كرب بن عمرو بن يزيد بن معدي كرب، أبو كريمة و قيل: أبو يحيى، الكندي، صحابي، وفد على رسول الله ﷺ في وفد كندة، و عداة في أهل الشام، سكن حمص، و توفي سنة سبع و ثمانين من الهجرة، و عمره إحدى و تسعون سنة، ﷺ. ينظر: تهذيب الأسماء و اللغات، للنووي: 112/2-113، الإصابة، لابن حجر: 204/6.

⁽¹⁰³⁶⁾ ذكره ابن الجوزي في: زاد المسير: 39/5، و البغوي في تفسيره: 96/5.

⁽¹⁰³⁷⁾ ينظر: تفسير القرآن، لأبي المظفر: 244-245/3، و شرح صحيح مسلم، للنووي: 202/3، و الجامع لأحكام القرآن، للقرطبي: 268/10، و تفسير القرآن العظيم، لابن كثير: 45/3، و فتح القدير، للشوكاني: 326/3، و تيسير الكريم الرحمن، للشليخ عبد الرحمن السعدي: ص 459.

و في هذا بيان أن تسييح ما سوى ما يسبح. يمثل السنة الناس من المخلوقات لا يفقهه إلا الخالق وَعَلَىٰ ، و إن شاء الله أن يعلم بعض خلقه ذلك التسييح علمه ، كما سبق في قوله تعالى :

﴿ وَسَخَّرْنَا مَعَ دَاوُدَ الْجِبَالَ يُسَبِّحْنَ وَالطَّيْرَ ﴾ (٧٨) الأنبياء ، و كما قال نبي الله سليمان عَلَيْهِ السَّلَامُ فيما ذكر الله تعالى عنه : ﴿ عَلِمْنَا مَنْطِقَ الطَّيْرِ ﴾ (١٦) النمل ، و كما سيأتي ذكره قريبا - إن شاء الله - من تسييح الحصى في كف نبينا محمد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، و سماع بعض الصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ تسييح الطعام ، فهذا كله مما لا يفقهه الناس ، و لكن شاء الله تعالى أن يعلنه من شاء من الناس ، و الله تعالى على كل شيء قدير .

و قوله ﴿ إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا ﴾ (٤٤) أي : إنه تعالى يعالج من عصاه بالعقوبة ، بل يؤجله و ينظره ، فإن استمر على كفره و عناده أخذه عزيز مقتدر ، و إن تاب إلى الله و رجع عن كفره و عصيانه ستر عليه ذنبه ، و أعطاه الثواب الجزيل (1039).

و لهذا تجد أن الذين أكثروا الكلام في تسييح الكائنات ، و ادعوا أنه تسييح حال لا تسييح مقال ، هم من رؤوس أهل الكلام . كابن حزم (1040) في فصله (1041) ، و

(1038) ينظر: تفسير الطبري: 85/8، و تفسير القرآن، لأبي المظفر: 244/3، و تفسير القرآن العظيم، لابن كثير: 45/3، و أضواء البيان، للشيخ محمد الأمين الشنقيطي: 251/5.

(1039) ينظر: تفسير الطبري: 85/8، و تفسير القرآن العظيم، لابن كثير: 46/3.

(1040) هو علي بن أحمد بن سعيد بن حزم الفارسي الأصل الأندلسي القرطبي، أبو محمد، اليزيدي مولى الأمير يزيد ابن أبي سفيان بن حرب الأموي المعروف بيزيد الخير، رزق ذكاء مفرطا و ذهنًا سيالا، و مهر في الأدب و الأخبار و المنطق و الفلسفة، فأثرت فيه تأثيرا ليته سلم من ذلك، و كان أيضا رأسا في الفقه، متبحرا في النقل، و من تناقضاته أنه كان في الفقه ظاهريا مفرطا، و في العقيدة جهميا جلدا، و له تصانيف كثيرة في فنون عديدة، و توفي سنة (456هـ). ينظر: سير أعلام النبلاء، للذهبي: 184/18-212.

(1041) الفصل في الملل و الأهواء و النحل: 159-153/1.

كشافة⁽¹⁰⁴³⁾، و الفخر الرازي⁽¹⁰⁴⁴⁾ في مفاتيحه⁽¹⁰⁴⁵⁾ - ، أو ممن تأثر بهم من مؤلفين في التفسير وغيره . لكثرتة . ولما أمر الله تعالى الخلق بالتسبيح في آخر سورة الواقعة ، يعني في قوله تعالى : ﴿ فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ ﴾ الواقعة : ٩٦ جاء في أول السورة التي تليها مباشرة بالفعل الماضي ، ليدل على أن التسبيح المأمور به قد فعله . والتزم به كل ما في السماوات والأرض

ومعلوم أن الفعل قد جاء أيضاً بصيغة المضارع كما في آخر هذه السورة : ﴿ يُسَبِّحُ لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾ ، وفي أول سورة الجمعة : ﴿ يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ الْمَلِكُ الْقُدُّوسُ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾ ، وفي أول سورة التغابن : ﴿ يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ لَهُ الْمُلْكُ وَلَهُ الْحَمْدُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ ، وهذه الصيغة تدل على الدوام والاستمرار .

بل جاء الفعل بصيغة الأمر : ﴿ سَبِّحْ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى ﴾ الأعلى : ١ ﴿ فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ ﴾ الواقعة : ٩٦ وجاءت المادة بالمصدر : ﴿ سَبَّحَنَ الَّذِي أَسْرَى

(1042) هو محمود بن عمر بن محمد بن عمر الخوارزمي، أبو القاسم الزمخشري، شيخ العربية و الاعتزال، و صاحب المؤلفات العديدة في التفسير، و غريب الحديث، و اللغة، و النحو . كان في غاية المعرفة بفنون البلاغة و تصرف الكلام، و كان يظهر مذهب الاعتزال و يصرح بذلك في تفسيره (الكشاف)، و كانت وفاته سنة (538هـ)، ينظر: سير أعلام النبلاء، للذهبي: 151/20-156، و البداية و النهاية، لابن كثير: 235/13، و لسان الميزان، لابن حجر العسقلاني: 4/6. (1043) الكشاف، بتحقيق الشيخ عادل أحمد عبد الموجود، و الشيخ علي محمد معوض: 522/3. (1044) هو محمد بن عمر بن الحسن القرشي، التيمي، البكري، الطبرستاني، المعروف بالفخر الرازي، و بابن خطيب الري، و ولد سنة (544هـ)، و كان أحد أئمة الأشاعرة الذين مزجوا المذهب بالاعتزال و الفلسفة، و له تصانيف عديدة منتشرة، و قال الذهبي: "قد بدت منه في تواليفه بلايا و عظام و انحرافات عن السنة، و الله يعفو عنه، فإنه توفي على طريقة حميدة، و الله يتولى السرائر". و كانت وفاته سنة (606هـ). ينظر: سير أعلام النبلاء، للذهبي: 501-500/21، و البداية و النهاية، لابن كثير: 61-60/13، و لسان الميزان، لابن حجر: 429-426/4. (1045) مفاتيح الغيب (التفسير الكبير): 220-218/20.

يَعْبُدُهُ لَيْلًا ﴿ الإسراء : ١ ﴾ ﴿ فُسَبِّحَنَّ اللَّهُ حِينَ تُمْسُونَ وَحِينَ تُصْبِحُونَ ﴿١٧﴾ ﴿
الروم ليدل ذلك كله بدوام واستمرار التسبيح لله تعالى من جميع خلقه (1046)

قلت: و(ما) في قوله تعالى: ﴿ سَبِّحَ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ ﴾ من صيغ العموم، وأصل استعمالها لغير العقلاء، وقد تستعمل للعاقل إذا نزل غير العاقل، كما في قوله تعالى: ﴿ فَأَنْكِحُوا مَا طَابَ لَكُمْ مِنَ النِّسَاءِ مَثْنَى وَثُلَاثَ وَرُبْعَ ﴾ النساء، ومجيئها هنا لغير العاقل تغليياً له لكثرتة كما تقدم، فتكون شاملة للعاقل من باب أولى.

ومما يلفت النظر أن التسبيح الذي في معرض العموم كله في القرآن مسند إلى (ما) دون (من) إلا في موضع واحد، هو قوله تعالى: ﴿ تُسَبِّحُ لَهُ السَّمَوَاتُ السَّبْعُ وَالْأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ ﴾ الإسراء، وهذا شاهد على شمول ما وعمومها المتقدم ذكرها، لأنه سبحانه أسند التسبيح أولاً إلى السماوات السبع والأرض صراحة بذواتهن، ثم عطف على غير العقلاء بصيغة (من) الخاصة بالعقلاء فقال: (وَمَنْ فِيهِنَّ)، وإن كانت (من)، قد تستعمل لغير العقلاء إذا نزلن منزلة العقلاء كما في قول الشاعر:

أَسْرَبَ الْقَطَا هَلْ مِنْ يُعِيرُ جَنَاحَهُ لَعَلِّي إِلَى مَنْ قَدْ هَوَيْتُ أُطِيرُ (1047)

وبهذا شمل إسناد التسبيح لكل شيء في نطاق السماوات والأرض، عاقل وغير عاقل. وقد أكد هذا الشمول بصريح قوله تعالى: ﴿ وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ ﴾ (وكلمة) شيء (أعم العمومات، فشملت السماوات والأرض والملائكة والإنس والجن والطيور والحيوان والنبات والشجر والمدر، وكل مخلوق لله تعالى).

(1046) ينظر: أضواء البيان، الشنقيطي: 3/8

(1047) من الطويل ينسب إلى غير واحد من الشعراء، فه في ديوان مجنون ليلى ص 137، ونسبهما العيني في المقاصد 431 / 1 إلى العباس بن الأحنف، وهما في ديوانه ص 83. أمالي القالي: 66/1 بيتمة الدهر: الثعالبي: 187/2

وقد جاء في القرآن الكريم ، والسنة المطهرة إثبات التسييح من كل ذلك كل على حدة

قلت: فهذا إسناد التسييح صراحة لكل هذه العوالم مفصلة ومبينة واضحة . وجاء مثل التسييح ، ونظيره وهو السجود مسنداً لعوالم أخرى وهي بقية ما في هذا الكون من أجناس وأصناف في قوله تعالى : ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَسْجُدُ لَهُ مِنْ فِي السَّمَوَاتِ حَقٌّ عَلَيْهِ الْأَرْضِ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ وَالنُّجُومُ وَالْجِبَالُ وَالشَّجَرُ وَالْدَّوَابُّ وَكَثِيرٌ مِنَ النَّاسِ ﴾ الحج : ويلاحظ هنا أنه تعالى أسند السجود أولاً لمن في السماوات ومن في الأرض و (من) هي للعقلاء أي الملائكة والإنس والجن ، ثم عطف على العقلاء غير العقلاء بأسمائهن من الشمس والقمر والنجوم والجبال والشجر والدواب ، فهذا شمول لم يبق كائن من الكائنات ولا ذرة في فلاة إلا شمله

قال جماعة من العلماء منهم ابن عباس ، إن العموم باق على عمومه ، وإن لفظ التسييح محمول على حقيقته في التزيه والتحميد .

و قد رد المحققون من العلماء و المفسرين و غيرهم على ما قال هؤلاء في حمل تسييح الكائنات على المجاز ، و بينوا باطلها و رجحوا أن تسييح الكائنات حقيقي بلسان المقال ، و ذلك لأدلة كثيرة ، وأوجه متكاثرة غزيرة هي :

أولاً : أن ظاهرة الكتاب و السنة يدل على أن التسييح فعل لهذه الكائنات التي أسند إليها التسييح في الآيات و الأحاديث ، و أن تسييحها عبادة تعبدت بها ،(و القاعدة) المقررة عند العلماء : أن نصوص الكتاب و السنة لا يجوز صرفها عن ظاهرها المتبادر منها إلا بدليل يجب الرجوع إليه .

و كون هذه الكائنات دلائل شاهدة على خالقها ليس فيه إسناد فعل إليها ، إنما هو كونها مفعولة للرب جل و علا ، و هذا معنى ثابت فيها لازم لها ، يتعلق بربوبية الرب لها . و أما كونها مسبحة فيتعلق بتأهلها و عبادتها للرب ﷻ ، فهذا غير هذا.

ثانيا : أن قوله تعالى : ﴿ وَلَكِنْ لَا نَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ ﴾ الإسراء ، نص في أن تسبيح الكائنات تسبيح غير مفقوه للبشر ، وفيه الرد الصريح على أن تسبيحها هو دلالتها على عظمة خالقها ؛ لأن تلك الدلالة يفقهها كل العقلاء ، كما صرح الله تعالى بذلك في قوله : ﴿ إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَأَخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَالْفُلْكِ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنْفَعُ النَّاسَ ءَامِنُونَ ﴾ البقرة ، إلى قوله - ﴿ لَأَيَّتِ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ءَامِنُونَ ﴾ البقرة

و أمثال ذلك من الآيات في القرآن .

و الذين زعموا أن تسبيح الكائنات هو دلالتها على عظمة خالقها زعموا أن قوله تعالى : ﴿ وَلَكِنْ لَا نَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ ﴾ ، خطاب للكفار ، أي : و لكنكم أيها الكفار. استدلو بأثر الصنعة في هذه المخلوقات ؛ لأنكم لم تستوضحوا الدلالة منها على الخالق ، و لم تستدلوا بمشاهدتها على تعظيم الله.

و هذا التفسير ليس صحيحا لأنه مبني على الزعم المذكور ، و هو فاسد الاعتبار ، لما سبق و لما يأتي من الأدلة ، و لأنه يمكن القول بأن الكفار استدلو بأثر الصنعة في هذه المخلوقات على وجود الخالق ، و إن لم يوحده بالألوهية.

ثالثا : أن ما أخبر الله تعالى به من تسخير الجبال مع داود يسبحن و الطير ، و من أمر الجبال بالتأويب معه و الطير ، دليل على أن تسبيح حقيقي بلسان المقال ، و لو كان تسبيحها معه تسبيح دلالة كما يقولون ، لما كان داود عليه السلام خصوصية على غيره .

رابعا : أن الله تعالى قد أثبت للكائنات غير العاقلة إدراكا و تمييزا ، فأثبت لها الخشية في قوله تعالى : ﴿ وَإِنَّ مِنَ الْحِجَارَةِ لَمَا يَفْجَرُ مِنْهُ الْأَنْهَارُ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَشْقُقُ فَيَخْرُجُ مِنْهُ الْمَاءُ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ وَمَا اللَّهُ بِغَفِيلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴾ (٧٤) البقرة

و أثبت لها الإباء و الإشفاق في قوله تعالى : ﴿ حَتَّىٰ إِذَا اتَوْا عَلَىٰ وَادٍ النَّمْلِ قَالَتْ نَمْلَةٌ ﴾

يَتَأَيُّهَا الَّتَمَلُ ادْخُلُوا مَسْكِنَكُمْ لَا يَحْطِمَتَكُمْ سَلِيمُنْ وَجُنُودُهُ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿١٨﴾
النمل

و هناك آيات أخرى نحو هذه ، و ليس تسبيح هذه الكائنات بلسان المقال بأعجب مما أخبر الله تعالى عنها في هذه الآيات و نحوها ، فكل ذلك مما يعلمه الله ﷻ ولا يعلمه الناس .

خامسا : أنه ليس لدى من زعم أن تسبيح الكائنات هو دلالتها على عظمة خالقها حجة سوى استبعاد حصول النطق و الإدراك من هذه الكائنات ، لكون العقل و الحس لم يشهد بذلك . و هذه حجة داحضة ؛ لأن عدم شهادة العقل و الحس بحصول النطق و الإدراك من هذه الكائنات ليس دليلا على عدم حصول ذلك في الواقع ، و إنما هو دليل على عجز العقل و الحس و قصورهما عن علم ما لم يعلم الله الناس إياه ، و مصداقا لقوله تعالى : ﴿ وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِّنْ عِلْمِهِ إِلَّا بِمَا شَاءَ ﴾ ﴿٢٥٥﴾ البقرة ، ﴿ وَمَا أُوتِيتُمْ مِّنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا ﴾ ﴿٨٥﴾ الإسراء

و هنا مفترق الطرق بين العقل المؤمن و عقل المنكر ، فعقل المؤمن يفرق بين كون الشيء مستحيلا في ذاته لا يمكن تحققه ، و بين عجز العقل عن العلم به ، و عقل المنكر يجعل معرفته بالشيء دليلا على وجوه ، كما يتخذ من جهله بالشيء دليلا على عدمه ، و هذا هو عين الجهل . فمدافعه تسبيح الكائنات على الحقيقة بلسان المقال ليست من العقل و لا من الإيمان في شيء .

سادسا : أن عددا من أهل العلم قد نصوا على أن القول بأن تسبيح الكائنات تسبيح حقيقي بلسان المقال هو أشهر القولين ، و هو قول السلف و المحققين من العلماء المتأخرين .

و القول بأن تسبيح الكائنات تسبيح مجازي بلسان الحال ليس بمعتمد ، بل هو بعيد ، و هو خلاف أقاويل المفسرين، و أنه بلسان المقال و ليس بلسان الحال فحسب كما زعموا .

سابعا : أنه قد جاء في السنة القول الفصل في هذه المسألة ، و هو ما رواه عبد الله بن عمرو رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : " إن نبي الله نوحا عليه السلام لما حضرته الوفاة ، قال لابنه : إني قاص عليك الوصية ،... وأمرك ب سبحان الله و بحمده ، فإن صلاة كل شيء ، و بها يرزق كل شيء و أنفك عن الشر و الكبر "

فقوله - في هذا الحديث - : (و أمرك بسبحان الله و بحمده ، فإنها صلاة كل شيء) ، فيه تفسير قوله تعالى : ﴿ وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ ﴾ الإسراء ، و بيان أن كل شيء يتره الله تعالى بلسان المقال ، فيقول : (سبحان الله و بحمده) ، و هذا نص في محل النزاع يجب المصير إليه و الإعراض عن كل قول يخالفه .

و لا يعني هذا نفي تسبيح الكائنات بلسان حالها الذي فسر بظهور آثار الصنعة فيها ، و كونها دلائل شاهدة على عظمة خالقها و على تزيهه عن العيوب و النقائص ، فغن هذا المعنى صحيح ، و لكن الإقتصار عليه في تفسير تسبيح الكائنات ليس صحيحا ، بل الصحيح أن تسبيحها أمر زائد على ذلك ، و هو قولها : سبحان الله و بحمده ، كما سبق .

و إذ ثبت بالأدلة المذكورة أن تسبيح الكائنات تسبيح حقيقي بلسان المقال ، فهل يدخل الكفار من الإنس و الجن في عموم الكائنات المسيحة أو لا ؟

و هذا السؤال يجاب عنه بما رواه عمرو بن عبسة رضي الله عنه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال : (ما تستقل الشمس فيبقى شيء من خلق الله عز وجل إلا سبح لله بحمده ، إلا ما كان الشيطان و أعتى بني آدم) ، فسالت عن أعتى بني آدم ؟ فقال : ((شرار الخلق ، أو شرار خلق الله عز وجل)

فهذا الحديث دليل على استثناء الكفار إنسا و جنا من عموم الكائنات المسيحة بحمد الله تعالى . و مثل استثناء الكفار من تسبيح الله تعالى استثناء كثير من الناس من السجود لله جل علا في قوله تعالى : ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَسْجُدُ لَهُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ حَقَّ عَلَيْهِ الْأَرْضِ وَالسَّمْسُ وَالْقَمَرُ وَالنُّجُومُ وَالْجِبَالُ وَالشَّجَرُ وَالْدَّوَابُّ وَكَثِيرٌ مِّنَ النَّاسِ وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيْهِ الْعَذَابُ وَمَنْ يُهِنِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ مُّكْرِمٍ إِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ ﴾ الحج

فذكر تعالى - في هذه الآية - سجود جميع الكائنات له على سبيل العموم ، و أما الناس قال : ﴿ وَكَثِيرٌ مِّنَ النَّاسِ وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيْهِ الْعَذَابُ ﴾ (١٨) ، أي : و كثير من الناس يسجد لله تعالى ، و هم المؤمنون ، و كثير من الناس لا يسجد لله تعالى فحق فيه الإنس و الجن فيما ذكره طائفة من أهل العربية .

و إنما وقع الاستثناء على الإنس و الجن في التسييح و السجود دون سائر الكائنات، لأنهما كائنان اللذان وهب لهما العقل و ترك لهما الخيار ، فكان منهما فريقان : مؤمن سبيح لله تعالى و يسجد له طوعا مختارا متعبدا بذلك ، و فريق كافر امتنع عن التسييح لله تعالى و السجود له مستكبرا بذلك عن التعبد لربه و خالقه ، كما قال ﷺ ﴿ يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ لَهُ الْمُلْكُ وَلَهُ الْحَمْدُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾

و يتبين أن تسييح الكائنات على ضربين : تسييح بالاختيار ، و هو للملائكة ، و الأنبياء و الرسل - عليه الصلاة و السلام - ، و المؤمن من الإنس و الجن .

و تسييح بالتسخير ، و هو تسييح سائر الكائنات من الحيوانات و النباتات ، و الجمادات ، و غيرها مما يصدق عليه أنه شيء .

فجميع الكائنات على اختلاف أنواعها يسبح الله تعالى تسخييرا حقيقيا بلسان المقال ، كما سبق بيانه بالأدلة .

وجاء إسناد التسييح إلى هذه الكائنات في صور مختلفة ماضيا في نحو قوله تعالى : ﴿ سَبِّحْ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾ (١) الحديد ، و مضارعا في نحو قوله تعالى : ﴿ تُسَبِّحُ لَهُ السَّمَوَاتُ السَّبْعُ وَالْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا ﴾ (٤٤) الإسراء ، و أمرا في نحو قوله تعالى : ﴿ فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ ﴾ (٧٤) الواقعة : - 96 - و الحاقة 52 ، و قوله تعالى : ﴿ يَجِبَالٌ أَوْبِي مَعَهُ وَالطَّيْرُ ﴾ (١٠) سبأ ، و مصدرا في نحو قوله تعالى ﴿ كُلُّ قَدِّعَلِمَ صَلَاتَهُ، وَتَسْبِيحَهُ ﴾ (٤١) النور ، ليدل ذلك

كله على دوام التسبيح و استمرار من هذه الكائنات في جميع الأوقات ، و إن التسبيح هو شأنها في الماضي و الحلال و المستقبل .

والحاصل أن التسبيح وظيفة مشتركة بين جميع الكائنات ، العاقل منها و غير العاقل ، و الناطق منها و غير الناطق ، و كل منها يسبح لله تعالى بلغته الخاصة ، فلا الإنسان يفهم الحيوان و الطير و الجماد ما يقول ، و لا كيف يسبح ، و كذلك الحيوان و الطير و الجماد لا يفهم عن الإنسان ما يقول ، و لا كيف يسبح ، بل الكل متوجه بلغته الخاصة إلى خالقه يسبح بحمده ، و لا يفقه نوع منها لغة النوع الآخر ، ﴿ وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَكِنْ لَا نَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ ﴾ الإسراء

المبحث السادس: تسبيح أهل الجنة فيها لله تعالى:

و مما جاء في شأن أهل الجنة في كتاب الله تعالى قوله ﷻ: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ يَهْدِيهِمْ رَبُّهُمْ بِإِيمَانِهِمْ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهِمُ الْأَنْهَارُ فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ ﴿١٠﴾ دَعْوَاهُمْ فِيهَا سُبْحَانَكَ اللَّهُمَّ وَتَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَامٌ ۖ وَأَخْرَجُوا مِنْهَا دَعْوَاهُمْ أَنْ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٠﴾ يونس

فقوله : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ ﴾ - أي : جمعوا بين الإيمان و مقتضاه ، ففعلوا الإيمان الذي طلبه الله منهم ، و عملوا الصالحات التي شرعها لهم على وجه الإخلاص و المتابعة (1048).

و قوله : ﴿ دَعْوَاهُمْ فِيهَا سُبْحَانَكَ ﴾ بيان لحال أهل الجنة في الجنة (1049) ، و أنهم فيها

(1048) ينظر: فتح القدير، للشوكاني: 597/2، و تيسير الكريم الرحمن، للسعدي: ص358.

(1049) ينظر: تفسير القرآن العظيم، لابن كثير: 423/2.

على تزيه الله تعالى بالتسبيح عما نزه عنه نفسه المقدسة ، كما كانوا في الدنيا⁽¹⁰⁵⁰⁾ ، و هذا هو الشاهد على تسبيح أهل الجنة لله تعالى في الجنة .

و ﴿ دَعَوَهُمْ ﴾ . مبتدأ⁽¹⁰⁵¹⁾ ، وأكثر المفسرين على أن معناه :

دعأوهم⁽¹⁰⁵²⁾ ، فإن الدعوى يكون مصدر (دعا - يدعو) ، كالشكوى مصدر (شكا ، يشكو)⁽¹⁰⁵³⁾ ، و هو هنا مصدر مضاف للفاعل⁽¹⁰⁵⁴⁾ الذي هو الضمير (هم) العائد إلى ﴿ إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ ﴾ ، و الدعاء يراد الثناء و يراد به السؤال⁽¹⁰⁵⁵⁾ .

و فسر جماعة (دعواهم) بمعنى : عبادتهم⁽¹⁰⁵⁶⁾ ، و هذا موافق للتفسير الأول ، لأن المراد بالدعاء : دعاء العبادة .

⁽¹⁰⁵⁰⁾ ينظر: مسألة سبحان، لفظويه: ص39.

⁽¹⁰⁵¹⁾ ينظر: الدر المصون، للسمين الحلبي: 155/6.

⁽¹⁰⁵²⁾ ينظر: تفسير الطبري: 535/6، و معاني القرآن و إعرابه، للزجاج: 8/3، و زاد المسير: 10/4، و الجامع لأحكام القرآن، للقرطبي: 313/8، و البحر المحيط: 132/5، و حادي الأرواح، لابن القيم الجوزية: ص452، و الدر المصون، للسمين الحلبي: 155/6.

⁽¹⁰⁵³⁾ ينظر: الجامع لأحكام القرآن: 313/8.

⁽¹⁰⁵⁴⁾ ينظر: الدر المصون: 155/6.

⁽¹⁰⁵⁵⁾ ينظر: حادي الأرواح، لابن القيم: ص452، و الدر المصون، للسمين الحلبي: 155/6.

⁽¹⁰⁵⁶⁾ ينظر: البحر المحيط، لأبي حيان: 132/5، و الدر المصون: 155/6، و تيسير الكريم الرحمن: ص359.

و فسره بعضهم بمعنى : قولهم⁽¹⁰⁵⁷⁾ ، و هذا أيضا قريب من المعنيين السابقين ، لأن المقصود بالدعاء بالدعاء و العبادة القول المذكور .

و (فيها) متعلق ب (إن دعواهم)⁽¹⁰⁵⁸⁾ ، و الضمير يعود إلى (جنات النعيم) .
و ﴿سُبْحَانَكَ﴾ . خبر عن (دعواهم) ، أي : دعواهم في الجنة هذا اللفظ ، فالخبر هنا هو نفس المبتدأ في المعنى⁽¹⁰⁵⁹⁾ ، و جيء به محكيا على نصبه لأنه من باب الإسناد اللفظي⁽¹⁰⁶⁰⁾ .

و جوز بعضهم أن يكون الخبر هنا من باب الإسناد المعنوي ، فلا يلزم أن قولوا هذا اللفظ فقط ، بل يقولونه و ما يؤدي معناه من الألفاظ الدالة على نزيه الله تعالى و تقديسه⁽¹⁰⁶¹⁾ . و ظاهر الآية أنهم يقولون اللفظ المذكور فقط ، و (سبحانك اللهم) ، و قد تقدمت الإشارة إلى أن هذا اللفظ يفيد تزيه الله تعالى بجماع أسمائه الحسنی و صفته العليا . و للمفسرين في بيان سبب نطق أهل الجنة بهذا التسييح في الجنة أقوال :

أولها : أنهم يقولون ذلك عندما يشتهون الشيء ، أو عندما يريدون أن يدعوا بالشيء ، فكلما انتهى أهل الجنة شيئا ، أو أرادوا شيئا قالوا : ﴿سُبْحَانَكَ﴾ ، فيأتيهم ما يشتهون ، و ما يريدون⁽¹⁰⁶²⁾ .

و كأن القائلين بهذا القول قصور . بمعنى الآية ، و ليس في الآية ما يدل على ذكره ،

⁽¹⁰⁵⁷⁾ ينظر: تفسير السمرقندي: 89/2، و تفسير القرآن، لأبي مظفر: 368/2.

⁽¹⁰⁵⁸⁾ ينظر: الدر المصون، للسمين الحلبي: 155/6، و روح المعاني، للألوسي: 75/11.

⁽¹⁰⁵⁹⁾ الجملة الواقعة خبرا عن المبتدأ إما أن تكون نفس المبتدأ في المعنى، و هي التي يكون معناها متحدا مع المبتدأ، نحو: نطقي الله حسبي، فإن المراد بالنطق المنطوق به، و إما أن تكون الجملة غير المبتدأ في المعنى، نحو: (الله لا إله إلا الله). ينظر: أوضح المسالك، لابن هشام: ص26.

⁽¹⁰⁶⁰⁾ ينظر: الدر المصون: 155/6.

⁽¹⁰⁶¹⁾ ينظر: المصدر السابق: 155/6.

⁽¹⁰⁶²⁾ ينظر: تفسير الطبري: 535/6، و تفسير السمرقندي: 89/2، و النكت و العيون، للماوردي: 424/2، و الحرر

الوجيز، لابن عطية: 15/9، و زاد المسير، لابن الجوزي: 10/4، و تفسير القرآ، العظيم، لابن كثير: 423/2.

فلا يليق هذا القول بمعنى الآية ، كما أنه لا يليق بحال أهل الجنة⁽¹⁰⁶³⁾.

الثاني : أنهم إذا أرادوا الرغبة إلى الله تعالى في دعاء يدعونه به ، كان دعاؤهم له: (سبحانك اللهم)⁽¹⁰⁶⁴⁾ ، و وجه ذلك أن ما هم فيه من النعيم هو غايات الراغبين ، بحيث إذا أرادوا أن ينعموا بمقام دعاء ربهم الذي هو مقام القرب ، لم يجدوا أنفسهم مشتاقين لشيء يسألونه ، فاعترضوا عن السؤال بالثناء على ربهم⁽¹⁰⁶⁵⁾.

و هذا القول لطيف جدا في بيان سبب دعاء أهل الجنة بهذا التسييح ، و إن كان لم يذكره أكثر المفسرين ، و واضح منه أن تسييح أهل الجنة للثناء على ربهم ، لا لاستدعاء ما يشتهون ، لأن جميع مشتبهاتهم حاصلة بالفعل ، فليس بهم حاجة إلى سؤال و لا استدعاء

الثالث : أنهم يقولون هذا التسييح على سبيل الابتهاج و الالتذاد و التنعيم، و ليس على سبيل التكليف ، فإن الجنة لا تكليف فيها⁽¹⁰⁶⁶⁾. و يقوي هذا القول ما مرّ قريبا، مما جاء في تسييح أهل الجنة ، و يقرب منه في المعنى القول الثاني المذكور قبله . و قد جاء في السنة المشرفة ما يوضح تسييح أهل الجنة لله تعالى في الجنة ، و ذلك في حديثين :

أحدهما : عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : " أول زمرة تلج الجنة صورهم على صورة القمر ليلة البدر ، لا ييصقون فيها و لا يمتخطون و لا يتغوطون ، آنيتهم فيها الذهب ، و أمشاطهم⁽¹⁰⁶⁷⁾ من الذهب و الفضة ، و مجامرهم الألوة⁽¹⁰⁶⁸⁾ ، و رشحهم

⁽¹⁰⁶³⁾ ينظر: حادي الأرواح، لابن القيم: ص452-453.

⁽¹⁰⁶⁴⁾ ينظر: النكت و العيون: 2/424، و زاد المسير: 4/11.

⁽¹⁰⁶⁵⁾ ينظر: تفسير التحرير و التنوير، لابن عاشور: 11/102.

⁽¹⁰⁶⁶⁾ ينظر: مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية: 4/329-330، و البحر المحيط، لأبي حيان: 5/132، و تفسير الخازن: 2/430.

⁽¹⁰⁶⁷⁾ الأمشاط: جمع مشط - مثلثة الميم - و هي آلة يمتشط بها ، و الامتشاط ترجيل الشعر أو اللحية. ينظر: القاموس

المحيط: مادة (مشط): ص888

⁽¹⁰⁶⁸⁾ الجامر: جمع مجمرة، و هي المبخرة، سميت مجمرة لأنها يوضع فيها الجمر ليفوح به ما يوضع فيها من البخور [فتح

الباري، لابن حجر: 6/324. و الألوة - بفتح الهمزة، و يجوز ضمها، و بضم اللام، و تشديد الواو - : العود الذي يسخر

به [فتح الباري: 6/324].

المسك ، و لكل واحد منهم زوجتان يرى مخ سوقهما من وراء اللحم من الحسن ، لا اختلاف بينهم و لا تباغض ، قلوبهم قلب واحد ، "يسبحون الله بكرة و عشيا" (1069).

والآخر : عن جابر بن عبد الله رضي الله عنه قال : سمعت النبي صلى الله عليه وسلم يقول : "عن أهل الجنة يأكلون فيها و يشربون ، و لا يتلفون و لا يبلون و لا يتغوطون و لا يمتخطون" . قالوا : فما بال الطعام؟ قال: "جشأ" (1070) و رشح كرشح المسك، يلهمون التسييح و التحميد، كما تلهمون النفس" (1071).

عبد القادر للعطوم الإسلامية

(1069) أخرجه البخاري في صحيحه - مع الفتح - : 318/6، برقم(3245)، و مسلم في صحيحه: 2180/4، برقم(2834).

(1070) الجشأ - و مثله: التجشؤ - : تنفس المعدة، و هو صوت يخرج من الفم عند امتلاء المعدة من الطعام. ينظر: القاموس المحيط، للفيروز آبادي: مادة (جشأ) ص: 45، و المعجم الوسيط: مادة (جشأ): 123/1.

(1071) أخرجه مسلم في صحيحه: 2180/4-2181، برقم(2835).

الفصل الثالث

دلالات التسبيح

المبحث الأول: دلالة التسبيح على التعظيم والتثنية

المبحث الثاني: دلالة التسبيح على الذكر

المبحث الثالث: دلالة التسبيح على الاستثناء

المبحث الرابع: دلالة التسبيح على العبادة

المبحث الخامس: دلالة التسبيح على الدعاء

الفصل الثالث: دلالات التسبيح

يعتبر مفهوم مفردة التسبيح في الشرع أوسع منها في اللغة ذلك أن دلالتها في القرآن

الكريم أوسع من معهود لغة العرب في الاستعمال الضيق لها وهذا سر من أسرار استعمال

المفردة القرآنية.

المبحث الأول: دلالة التسبيح على التعظيم والتثنية

وفي بيان دلالة التسييح على التعظيم قال شيخ الإسلام ابن تيمية- بعد كلام له:-
و المقصود هنا أن صفات الكمال إنما هي في الأمور الموجودة ، و الصفات السلبية إنما
تكون كمالات إذا تضمنت أموراً الموجودة ، و الصفات السلبية إنما تكون كمالات إذا تضمنت
أموراً وجودية ، و لهذا كان تسييح الرب يتضمن تزيه الله و براءته و تعظيمه جميعاً ، فقول
العبد : (سبحان الله) يتضمن تزيه الله و براءته من سوء ، و هذا المعنى يتضمن عظمته في
نفسه ، ليس هو عدماً محضاً لا يتضمن وجوداً فعلياً هذا لا مدح فيه و لا تعظيم و كذلك
سائر ما تزهه الرب عنه من الشركاء ، و الأولاد ، و غير ذلك ، كقوله تعالى:

﴿ أَفَأَصْفَكَ رَبُّكُمْ بِالْبَنِينَ وَاتَّخَذَ مِنَ الْمَلَائِكَةِ إِنْتِثًا إِنَّكُمْ لَنَقُولُونَ قَوْلًا عَظِيمًا ٤٠ ﴾ إلى قوله ﴿
إِذَا لَابَنَعُوا إِلَى ذِي الْعَرْشِ سَبِيلًا ٤٢﴾ سُبْحٰنَهُ وَتَعَالَىٰ عَمَّا يُقُولُونَ عَلَوًا كَبِيرًا ٤٣﴾ تَسْبِيحٌ لَهُ السَّمٰوٰتِ السَّبْعُ
وَالْأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَكِنْ لَا نَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا ٤٤﴾
الإسراء، و قوله تعالى ﴿ سُبْحٰنَ رَبِّكَ رَبِّ الْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ ١٨٠﴾ وَسَلٰمٌ عَلَى الْمُرْسَلِينَ ١٨١﴾
الصفات، و غير ذلك اهـ (1072)

و لشيخ الإسلام ابن تيمية كلام في هذه المسألة في مواضع متعددة، بين فيها أن
التسييح يتضمن مع نفي صفات النقص عن الله تعالى إثبات ما يلزم من عظمته جل و علا
ففي التسييح تزيه الله من العيوب و النقائص، و فيه تعظيمه ﷻ (1073).

فأمر ﷻ بتعظيم الرب ﷻ في الركوع ، و جاء في أحاديث أخرى ما يبين أن هذا
التعظيم يكون بالتسييح ، لأنه هو المشروع في الركوع لا غير، كما سيأتي بيانه في موضعه

(1072) مجموع فتاوى ابن تيمية: 143/17-144.

(1073) ينظر: المصدر السابق: 112/17، و درء تعارض العقل و النقل، له أيضا: 6/177.

إنشاء الله تعالى (1074).

- و أثر عبد الله بن بريدة⁽¹⁰⁷⁵⁾: أن رجلا سأل عليا عليه السلام عن (سبحن الله)، فقال: (تعظيم جلال الله)⁽¹⁰⁷⁶⁾.

- وأثر النضر بن عربي⁽¹⁰⁷⁷⁾، فقال: سأل رجل ميمون بن مهران⁽¹⁰⁷⁸⁾، عن (سبحان الله) فقال (اسم يعظم به، و يحاشى به من سوء)⁽¹⁰⁷⁹⁾-وفي رواية، قال: (سبحان الله): تعظيم الله و حاشا⁽¹⁰⁸⁰⁾.

- و قول الزجاج: (و التسييح في اللغة: تعظيم الله و تزيهه عن سوء) و قوله أيضا: (التسييح: تمجيد الله و تزيهه من سوء)⁽¹⁰⁸¹⁾.

- و قوله ابن دريد⁽¹⁰⁸²⁾: (سبح الرجل تسييحا: عظم الله و مجده).

⁽¹⁰⁷⁴⁾ و ينظر شرح صحيح مسلم، للنووي: 197/4.
⁽¹⁰⁷⁵⁾ هو عبد الله بن بريدة بن الحبيب الأسلمي، أبو سهل المروزي، قاضيا، ثقة، توفي سنة (105هـ)، و قيل: سنة (115هـ)، رحمه الله، ينظر: تقريب التهذيب، لابن حجر العسقلاني: 1/ 383-384.
⁽¹⁰⁷⁶⁾ أخرجه الطبراني في كتاب الدعاء: 1593/3-1594، برقم (1762)، و رجال إسناده ثقات غير محمد بن دينار، فهو صدوق سعي الحفظ، كما في تقريب التهذيب، لابن حجر: 169/2.
⁽¹⁰⁷⁷⁾ هو النضر بن عربي الباهلي مولاهم، أبو روح، و يقال: أبو عمر، الحارثي، لا بأس به، و توفي سنة (168هـ) رحمه الله، ينظر: ميزان الاعتدال، للذهبي: 261/4، و تقريب التهذيب، لابن حجر العسقلاني: 307/2.
⁽¹⁰⁷⁸⁾ هو ميمون بن مهران الجزري، أبو أيوب الرقي، كوفي الأصل، ثقة فقيه من أجلاء التابعين و زهادهم، ولي الجزيرة لعمر بن عبد العزيز، و توفي سنة (117هـ) رحمه الله، ينظر: سير أعلام النبلاء، للذهبي: 72-71/5، و تقريب التهذيب، لابن حجر: 296/2.
⁽¹⁰⁷⁹⁾ رواه ابن أبي حاتم في تفسيره (تفسير القرآن العظيم)، جمع أسعد محمد الطيب: 4/ 1124، برقم (6315)، و إسناده حسن.

⁽¹⁰⁸⁰⁾ رواه الطبراني في كتاب الدعاء: 1594/3، برقم (1764)، و إسناده حسن.

⁽¹⁰⁸¹⁾ المصدر السابق: 121/5.

⁽¹⁰⁸²⁾ هو محمد بن الحسن بن دريد بن عتاهية الأزدي، أبو بكر البصري، اللغوي، النحوي، الشاعر، و ولد سنة (223هـ)، و كان من أعلم الناس في زمانه باللغة و الشعر و أيام العرب و أنسابها، و من مصنفاته: جمهرة اللغة، و غيره، و توفي سنة (321هـ)، رحمه الله، ينظر: ميزان الاعتدال، للذهبي: 3/ 520، و البداية و النهاية، للحافظ ابن

- و قول نفطويه: و معنى (سبحان): التزويه و التعظيم و التكبير و الإبعاد⁽¹⁰⁸³⁾.

- و قول الماوردي⁽¹⁰⁸⁴⁾: التسبيح (و هو من السبح في التعظيم، و هو الجري فيه إلى أبعد

الغايات)⁽¹⁰⁸⁵⁾، و معنى قوله هذا: أن المسيح لله تعالى جار في تعظيمه إلى أبعد الغايات.

- و قول أبي المظفر السمعاني⁽¹⁰⁸⁶⁾: (سبحان : تزويه الله من كل سوء ، و حقيقته: تعظيم الله بوصف المبالغة، و وصفة البراءة من كل نقص)⁽¹⁰⁸⁷⁾. و قوله أيضا : تسبيح الله تعظيم له على وجه ينفي عنه كل سوء⁽¹⁰⁸⁸⁾. و قوله كذلك (التسبيح: هو الثناء على الله بالتبرئة و التزويه من العيوب)⁽¹⁰⁸⁹⁾.

كثير: 188/11، و معجم الأدباء، لياقوت الحموي: 127/18.

⁽¹⁰⁸³⁾ مسألة سبحان: ص 29.

⁽¹⁰⁸⁴⁾ هو علي بن حبيب البصري، أبو الحسن الماوردي، القاضي، شيخ الشافعية في وقته، كان صدوقا في نفسه، و لكنه وافق المعتزلة في بعض المسائل فاقم بالاعتزال. و له تصانيف كثيرة، منها: الحاوي الكبير في فقه الشافعية، و الأحكام السلطانية، و أدب الدين و الدنيا، و غيرها، و توفي سنة (450هـ)، رحمه الله، ينظر: سير أعلام النبلاء، للذهبي: 64/18-68، و ميزان الاعتدال، له: 155/3، و البداية و النهاية، لابن كثير: 85/12-86.

⁽¹⁰⁸⁵⁾ المصدر السابق: 224/3.

⁽¹⁰⁸⁶⁾ هو منصور بن محمد بن عبد الجبار بن أحمد التميمي، أبو المظفر السمعاني، المروزي، الحنفي ثم الشافعي، كان وحيد عصره فضلا و طريقة وزهدا، انتصر لأهل السنة و كان شوكا في أعين المخالفين، من مصنفاته: تفسير القرآن و قواطع الأدلة، توفي سنة (489هـ)، رحمه الله، ينظر: سير أعلام النبلاء، للذهبي: 114/19، و البداية و النهاية، لابن كثير: 164/12.

⁽¹⁰⁸⁷⁾ تفسير القرآن، ابن كثير، تحقيق أبي تميم ياسر بن إبراهيم، و أبي بلال غنيم بن عباس: 212/3.

⁽¹⁰⁸⁸⁾ المصدر نفسه: 338/4.

⁽¹⁰⁸⁹⁾ المصدر نفسه: 156/3.

- و قول ابن قيم الجوزية : و معنى هذه الكلمة - يعني (سبحان الله) - تزيه الرب تعالى و تعظيمه و إجلاله عما لا يليق به ⁽¹⁰⁹⁰⁾. و قوله أيضا : ((التسبيح : ثناء عليه سبحانه يتضمن التعظيم و التزيه ⁽¹⁰⁹¹⁾ .

فهذه مما جاء في بيان دلالة التسبيح على التعظيم و المدح و الثناء في حق الله تعالى من الأحاديث و الآثار و أقوال العلماء

وفي الحديث الذي رواه مسلم عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: " بينما النبي صلى الله عليه و سلم في نفر من الأنصار إذ رمى بنجم فاستنار فقال ﷺ: ما كنتم تقولون لمثل هذا في الجاهلية إذا رأيتموه؟ قالوا: كنا نقول: يموت عظيم أو يولد عظيم قال رسول الله صلى الله عليه و سلم: فإنه لا يرمى بها لموت أحد ولا لحياته ولكن ربنا تبارك و تعالى إذا قضى أمرا سبح حملة العرش ثم سبح أهل السماء الذين يلونهم ثم الذين يلونهم حتى يبلغ التسبيح أهل هذه السماء ثم يسأل أهل السماء السابعة حملة العرش: ماذا قال ربنا؟ فيخبرونهم ثم يستخير أهل كل سماء حتى يبلغ الخبر أهل السماء الدنيا و تخطف الشياطين السمع فيرمون فيقذفونه إلى أوليائهم فما جاؤوا به على وجهه فهو حق ولكنهم يزيدون" ⁽¹⁾ كما أنه إذا سبح لله و ذكره فهو مسبح لله و ذاكر له بقدر ما في قلبه من معرفته و عبادته ولذلك جاء التسبيح تارة لاسم الله كما في قوله: (سبح اسم ربك الأعلى). و تارة كما في قوله: (و سبحوه بكرة وأصيلا) وكذلك الذكر كما في قوله: (و اذكر اسم ربك بكرة وأصيلا)، مع قوله: (اذكروا الله ذكرا كثيرا). فحيث عظم العبد ربه بتسبيح اسمه أو الحلف

⁽¹⁰⁹⁰⁾ حادي الأرواح إلى بلاد الأفراح، تحقيق الدكتور السيد الجميلي: ص452.

⁽¹⁰⁹¹⁾ ينظر: مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية: 142/17.

⁽¹⁾ أولياء الرحمن: ابن تيمية: 129/1

به أو الاستعاذة به فهو مسبح له بتوسط المثل الأعلى الذي في قلبه من معرفته وعبادته وعظمته ومحبته. (2)1092

والمقصود أن في هذا التسبيح من صفات الكمال ونعوت الجلال ما يوجب أن يكون أفضل من غيره وأنه لو وزن غيره به لوزنه وزاد عليه

وهذا بعض ما في هذه الكلمات من المعرفة بالله والثناء عليه بالتزويه والتعظيم مع اقترانه

بالحمد المتضمن لثلاثة أصول :

أحدها: إثبات صفات الكمال له سبحانه والثناء عليه

الثاني: محبته والرضا به

الثالث: فإذا انضاف هذا الحمد إلى التسبيح والتزويه على أكمل الوجوه وأعظمها قدرا وأكثرها عددا وأجزؤها وصفا واستحضر العبد ذلك عند التسبيح وقام بقلبه معناه كان له من المزية والفضل ما ليس لغيره .

والله سبحانه يقرن بين تسييحه لنفسه وسلامه عليهم وبين حمده لنفسه وسلامه عليهم أما الأول فقال تعالى: "سُبْحَانَ رَبِّكَ رَبِّ الْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ وَسَلَامٌ عَلَى الْمُرْسَلِينَ" وقد ذكر تزويجه لنفسه عما لا يليق بجلاله ثم سلامه على رسله وفي اقتران السلام عليهم بتسييحه لنفسه سر عظيم من أسرار القرآن يتضمن الرد على كل مبطل ومبتدع فإنه نزه نفسه تزويها مطلقا كما نزه نفسه عما يقول خلقه فيه ثم سلم على المرسلين وهذا يقتضي سلامتهم من كل ما يقول المكذبون لهم المخالفون لهم وإذا سلموا من كل ما رماهم به أعداؤهم لزم سلامة كل ما جاءوا به من الكذب والفساد وأعظم ما جاءوا به التوحيد

(2) ينظر: إقامة الدليل على إبطال التحليل: ابن تيمية، 202/5

ومعرفة الله ووصفه بما يليق بجلاله مما وصف به نفسه على ألسنتهم وإذا سلم ذلك من الكذب والمحال والفساد فهو الحق المحض وما خالفه هو الباطل والكذب المحال.

المبحث الثاني: دلالة التسبيح على الصلاة

و من الدلالات التي يراد بها لفظ التسبيح في الشرع : تسمية الصلاة تسبيحا .

وقوله: (وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ) (طه: من الآية 130).

قد فسرها كثير من المفسرين: أي فصل بحمد ربك والثناء عليه لم يذكر ابن الجوزي

غير هذا القول، قال: (وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ) أي صل له بالحمد له والثناء عليه .

وتفسير "التسبيح" بالصلاة فيه أحاديث صحيحة وآثار كثيرة، مثل حديث جرير

وأما قوله: (بِحَمْدِ رَبِّكَ) فقد فسروه أي: بحمد ربك، وشكر ربك، وطاعة

ربك، وعبادة ربك.

أي: بذكر ربك وشكر ربك وطاعتك ربك وعبادة ربك.

ولا ريب أن حمد الرب والثناء عليه ركن في الصلاة، فإنها لا تتم إلا بالفاتحة التي

نصفها الأول حمد لله وثناء عليه وتحميد له، وقد شرع قبل ذلك الاستفتاح، وشرع الحمد

عند الرفع من الركوع، وهو متضمن لحمد الله تعالى.

وذكر طائفة من المفسرين كالثعلبي وغيره قولين:

- قالوا: (وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ) أي: صل بأمر ربك .

- وقيل: صل له بالحمد له والثناء عليه.

فهذا القول الأول الذي ذكره البغوي هو مأثور عن أبي مالك أحد التابعين الذين أخذ

عنهم السدي التفسير من أصحاب ابن عباس.

وروى ابن أبي حاتم عن أسباط عن السدي عن أبي مالك: قوله: (بِحَمْدِ) يعني:

بأمر .

وتوجيه هذا: أن قوله (بِحَمْدِ) أي بكونه محمودا، كما قد قيل في قول القائل:
"سبحان الله وبحمده" قيل: سبحان الله ومع حمده أسبحه، أو أسبحه بحمدي له. وقد يكون
القائل الذي قال: (وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ) أي: بأمره، أراد المأمور به، أي: سبحه بما أمرك أن
تسبحه به.

فيكون المعنى: سبح التسبيح الذي أمرك به، كالصلاة التي أمرك بها.

وقولنا "صليت بأمر الله" و"سبحت بأمر الله" يتناول هذا وهذا، يتناول أنه أمر
بذلك ففعلته بأمره لم أبتدعه، وإني فعلت بما أمرني به لم أبتدع.

فأما هذه الآية: ﴿ فَأَصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ غُرُوبِهَا وَمِنْ آنَاءِ
الْأَيْلِ فَسَبِّحْ وَأَطْرَافَ النَّهَارِ لَعَلَّكَ تَرْضَىٰ ﴾ (١٣٠) طه . فلم يذكر البغوي وابن الجوزي إلا أنه الصلاة كما
ذكرنا. وكذلك آية "ق"

قال ابن الجوزي: (وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ) أي: صل بالثناء على ربك والتزيره عما يقول
المبطلون، فذكر الثناء والتزيره عما يقول المبطلون تفسيرا للحمد .

قال: "فصل حمدا لله" ، وهو ينقل ما ذكره الثعلبي في "تفسيره" في مثل هذه
المواضع، والثعلبي يذكر ما قاله غيره، سواء أقاله ذاكرا أم آثرا، ما يكاد هو ينشئ من عنده
عبارة.

وهذه عبارة طائفة، قالوا: (وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ): صل حمدا لله، جعل نفس الصلاة
حمدا، كما يقال: أفعل هذا حمدا لله، أي: شكرا.

﴿ فَسَبِّحْ لِلَّهِ فَلَا وَكُنْ مِنَ السَّاجِدِينَ ﴾ (٩٨) الحجر

التسبيح : هو ذكر الله تعالى بما هو عليه من صفات الجلال والتعظيم ، بالقلب

اعتقاداً ، وباللسان قولاً .

قوله تعالى : ﴿ وَمِنَ اللَّيْلِ فَسَبِّحْهُ وَإِدْبَرَ النُّجُومِ ﴾ (٤٩) الطور، ﴿ وَمِنَ اللَّيْلِ فَسَبِّحْهُ وَأَدْبَرَ

السُّجُودِ ﴾ (٤٠) ق، فيه أربعة أقوال :

الأول: هو تسبيح الله في الليل.

الثاني : أنها صلاة الليل.

الثالث : أنها ركعتا الفجر.

الرابع: أنها صلاة العشاء الأخيرة.

وأما من قال : إنها صلاة الليل فإن الصلاة تسمى تسبيحا لما فيها من تسبيح الله، ومنه سبحة الضحى وأما من قال إنها صلاة الفجر و العشاء فلأنهما من صلاة الليل، والعشاء أوضحه .

فقد كثر في القرآن الكريم و في الحديث النبوي إطلاق التسبيح على الصلاة، و أما القرآن ففي الأثر عن ابن عباس رضي الله عنه قال: (كل تسبيح في القرآن هو الصلاة). و عن سعيد بن جبير مثله .

و من إطلاق التسبيح على الصلاة في القرآن :

1. قول الله تعالى : ﴿ فَأَصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ غُرُوبِهَا

وَمِنْ عَآئِنِ اللَّيْلِ فَسَبِّحْ وَأَطْرَافَ النَّهَارِ لَعَلَّكَ تَرْضَىٰ ﴾ (١٣٠) طه، قال ابن العربي⁽¹⁰⁹³⁾: (لا خلاف

(1093) هو محمد بن عبد الله بن محمد الإشبيلي، المعروف بابن العربي، العلامة الحافظ القاضي المالكي، كان من حفاظ علماء الأندلس، و بقي يفتي أربعين سنة، و له تأليف كثيرة دالة على سعة علمه، منها: أحكام القرآن، و عارضة الأحوذى في شرح جامع الترمذي، و العواصم من القواصم، و غيرها، و توفي سنة (543هـ)، رحمه الله. ينظر: تذكرة

أن المراد بقوله تعالى ها هنا - : ﴿ وَسَبِّحْ ﴾ . : صلّ ، لأنه غاية التسييح و أشرفه)
اهـ (1094)

وقالت فرقة (ءَأَنَائِيَّ اللَّيْلِ) المغرب والعشاء ، (وَأَطْرَافَ النَّهَارِ) الظهر وحدها ،
ويحتمل اللفظ أن يراد قول سبحان الله وبجمده من بعد صلاة الصبح إلى ركعتي الضحى
وقبل غروب الشمس فقد قال صلى الله عليه وسلم : « من سبح قبل غروب الشمس سبعين
تسييحة غربت بذنوبه » ع وسمى الطرفين أطرافاً على أحد وجهين إما على نحو فقد صغت
قلوبكما : وإما على أن يجعل النهار للجنس ، فلكل يوم طرف وهي التي جمع ، وأما من
قال: (وَأَطْرَافَ النَّهَارِ) لصلاة الظهر وحدها فلا بد له من أن يتمسك بأن يكون النهار
للجنس كما قلنا أو نقول إن النهار ينقسم قسمين فصلهما الزوال ولكل قسم طرفان فعند
الزوال طرفان الآخر من القسم الأول والأول من القسم الآخر فقال عن الطرفين أطرافاً على
نحو (فقد صغت قلوبكما) ، وأشار إلى هذا النظر ابن فورك في المشكل والآناء جمع أنى وهي
الساعة من الليل .

وقالت فرقة في الآية إشارة إلى نوافل ، فمنها وَمِنْ ءَأَنَائِيَّ اللَّيْلِ وَأَطْرَافَ النَّهَارِ لَعَلَّكَ
تَرْضَى وركعتا الفجر والمغرب (وَأَطْرَافَ النَّهَارِ) ، وقرأ الجمهور لَعَلَّكَ تَرْضَى بفتح التاء أي
لعلك تثاب على هذه الأعمال بما ترضى به ، وقرأ الكسائي وأبو بكر عن عاصم لَعَلَّكَ تَرْضَى
أي بالضم لعلك تُعطى ما يرضيك (1).

الحفاظ، للذهبي: 1294/4-1297، و شجرة النور الزكية، للشيخ محمد مخلوف: ص136-138.

(1094) أحكام القرآن، تحقيق محمد عبد القادر عطا: 260/3.

(1) المحرر الوجيز: ابن عطية 4/433

و يؤيد كون المراد بالتسبيح - في هذه الآية - الصلاة حديث جرير بن عبد الله (1095) قال (كنا عند النبي ﷺ ، إذا نظر إلى القمر ليلو البدر ، فقال : ((أما إنكم سترون ربكم كما ترون هذا القمر لا تضامون⁽¹⁰⁹⁶⁾ في رؤيته ، فإن استطعتم أن لا تغلبوا على صلاة قبل طلوع الشمس و قبل غروبها فافعلوا). ثم قرأ ﴿ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ غُرُوبِهَا ﴾ - طه⁽¹⁰⁹⁷⁾

و في رواية زيادة: "يعني العصر و الفجر"⁽¹⁰⁹⁸⁾.

و تعددت أقوال المفسرين في الصلاة المعنية بهذا التسبيح في الآية، فقال بعضهم: إن الآية في بيان الصلوات المكتوبة.

و قال آخرون : إنها في بيان الصلوات النافلة.

و قال غيرهم : إنها في بيان المكتوبات و النوافل⁽¹⁰⁹⁹⁾.

و كون الآية في بيان النوافل فقط دون المكتوبات بعيد، لما جاء من التصريح بإرادة العصر و الفجر في بعض روايات الحديث السابق.

⁽¹⁰⁹⁵⁾ هو جرير بن عبد الله بن جابر البجلي الأحمسي، أبو عمرو، و قيل: أبو عبد الله، اليماني، الكوفي، صحابي مشهور، توفي سنة (51هـ)، و قيل بعدها ﷺ، ينظر: تهذيب الأسماء و اللغات، للنووي: 1/147، و تقريب التهذيب، لابن حجر العسقلاني: 1/132.

⁽¹⁰⁹⁶⁾ لا تضامون: يروى بتشديد الميم و تخفيفها. فبالتشديد معناه: لا ينظم بعضكم إلى بعض و تزدحمون وقت النظر إليه. و يجوز في التاء الضم و الفتح، على (تفاعلون) و (تتفاعلون). و بتخفيف الميم معناه: لا ينالكم ضيم في رؤيته، فيراه بعضكم دون بعض. و الضيم: الظلم. ينظر: النهاية في غريب الحديث، لابن الأثير: 3/101.

⁽¹⁰⁹⁷⁾ أخرجه البخاري في صحيحه — مع الفتح — : 2/52، برقم (573) و مسلم في صحيحه: 1/439، برقم (633).

⁽¹⁰⁹⁸⁾ هذه الزيادة عند مسلم في روايته المشار إليها.

⁽¹⁰⁹⁹⁾ ينظر: هذه الأقوال في: تفسير الطبري: 8/477-488، و تفسير القرآن، لأبي المظفر السمعاني: 3/363، و أحكام القرآن، لأبن العربي: 3/260، و المحرر الوجيز، لابن عطية: 11/115-116، و زاد المسير في علم التفسير، لابن الجوزي: 5/333-334، و تفسير القرآن العظيم، لابن كثير: 3/178-179.

و قوله تعالى : ﴿ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ الْغُرُوبِ ﴾ (٣٩) وَمِنْ أَيْلٍ

فَسَبِّحْهُ وَأَدْبَرَ السُّجُودِ ﴿٤٠﴾ ق

2. ﴿ فَخَرَجَ عَلَى قَوْمِهِ مِنَ الْمِحْرَابِ فَأَوْحَى إِلَيْهِمْ أَنْ سَبِّحُوا بُكْرَةً وَعَشِيًّا ﴾ (١١) ﴿ مريم

وقيل كتب في الأرض (أَنْ سَبِّحُوا) أي صلوا (بُكْرَةً وَعَشِيًّا) : صلاة الفجر وصلاة العصر، ولعلها كانت صلاتهم. أو : نزهوا ربكم طرفي النهار ، ولعله أمر أن يُسبح فيها شكراً ، ويأمر قومه بذلك. (1100).

وقوله " أَنْ سَبِّحُوا " " أن " مفسرة بمعنى أي و " سَبِّحُوا " قال قتادة معناه صلوا والسبحة الصلاة وقالت فرقة بل أمرهم بذكر الله وقول سبحان الله وقرأ طلحة أن سبحوه بضمير وباقي الآية بين ويقال وحى وأوحى بمعنى واحد (1101)

"أَنْ سَبِّحُوا " يعني صلوا لله تعالى " بكرة وعشيا " يعني غدوة وعشيا فعرف عند ذلك أنه آية الولد (1102)

والجمهور على أن المعنى (أَنْ سَبِّحُوا) صلوا. وقيل أمرهم بذكر الله والتسبيح. قال المفسرون كان يخرج على قومه بكرة وعشيا فيأمرهم بالصلاة إشارة . قال صاحب التحرير والتحبير وعندني في هذا معنى لطيف وهو أنه إنما خص بالتسبيح بالذكر لأن العادة جارية أن كل من رأى أمراً عجب منه أو رأى فيه بديع صنعة أو غريب حكمة يقول : سبحان الله سبحان الخالق ، فلما رأى حصول الولد من شيخ وعافر عجب من ذلك فسبح وأمر

(1100) البحر المديد: 305/4

(1101) المحرر الوجيز: 8/4

(1102) بحر العلوم: 370/2

3. قوله تعالى : ﴿ فَسُبِّحْنَ اللَّهُ حِينَ تُمَسُّونَ وَحِينَ تُصْبِحُونَ ﴾ (١٧) وَلَهُ الْحَمْدُ فِي

السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَعَشِيًّا وَحِينَ تُظْهِرُونَ ﴾ (١٨) الروم

جاء في الأثر أن نافع بن الأزرق (1104) سأل ابن عباس رضي الله عنهما: (هل تجد الصلوات

الخمس في القرآن؟) ، فقال ابن عباس رضي الله عنهما : (نعم، ثم قرأ عليه) ﴿ فَسُبِّحْنَ اللَّهُ حِينَ

تُمَسُّونَ ﴾ ، قال: صلاة المغرب ﴿ وَحِينَ تُصْبِحُونَ ﴾ ، قال: صلاة الصبح

﴿ وَعَشِيًّا ﴾ ، قال: صلاة العصر، ﴿ وَحِينَ تُظْهِرُونَ ﴾ قال: صلاة الظهر. ثم قرأ ﴿ وَمِنْ

بَعْدِ صَلَاةِ الْعِشَاءِ ثَلَاثُ عَوْرَاتٍ لَكُمْ ﴾ (٥٨) النور (1105).

و جاء في أثر آخر عن ابن عباس رضي الله عنهما أيضا قال: (جمعت هاتان الآيتان مواقيت

الصلاة ﴿ فَسُبِّحْنَ اللَّهُ حِينَ تُمَسُّونَ ﴾ . قال: المغرب والعشاء. ﴿ وَحِينَ تُصْبِحُونَ ﴾ .

الفجر . ﴿ وَعَشِيًّا ﴾ ، العصر . ﴿ وَحِينَ تُظْهِرُونَ ﴾ . (الظهر) (((1106).

وجاءت الأحاديث مفسرة لذلك و من ذلك :

(1103) البحر المحيط: 667/6. و ينظر تفسير النسفي: 263/2 و تنوير المقباس: 254/1 و جامع البيان: 86/10

ومعاني القرآن للنحاس: 314/4.

(1104) هو نافع بن الأزرق الحروري، من رؤوس الخوارج، قتل سنة(65هـ). ينظر: ميزان الاعتدال، للذهبي: 241/4، و

البداية و النهاية، لابن كثير: 264/8.

(1105) رواه عبد الرزاق الصنعاني في تفسيره، بتحقيق الدكتور مصطفى مسلم محمد: 103/2، و ابن جرير الطبري في

تفسيره: 174/10، و الحاكم في المستدرک: 445/2، برقم(3541) و صححه، و وافقه الذهبي.

(1106) رواه ابن جرير الطبري في تفسيره: 174/10.

1- حديث عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم (لعلكم ستدركون أقواما يصلون الصلاة لغير وقتها ، فإن أدر كتموهم فصلوا الصلاة لوقتها ، وصلوا معهم واجعلوها سبحة) (1107) .

و في رواية : قال لي رسول الله صلى الله عليه وسلم : (كيف بكم إذا أتت عليكم أمراء يصلون الصلاة لغير ميقاتها ؟) قلت : فما تأمرني إن أدر كني ذلك ، يا رسول ؟ قال : ((صل الصلاة لميقاتها ، و اجعل صلاتك معهم سبحة) (1108) .

2- و حديث عبد الله بن عمر رضي الله عنه قال : (كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يسبح على الراحلة قبل أي وجه توجه ، و يوتر عليها غير أنه لا يصلي عليها المكتوبة) (1109) . ووجه تسمية الصلاة تسبيحا لأسباب :

أحدهما : أن الصلاة سميت تسبيحا من باب تسمية الشيء باسم جزئه ، أو من باب اسم البعض على الكل ، تنبيها على فضل ذلك الجزء أو البعض و أهميته ، لاشتمال الصلاة على التسبيح في الركوع و السجود ، و في غيرهما (1110) .

(1107) أخرجه النسائي في سننه: 410/2، برقم(778)، و ابن ماجه في سننه: 398/1، برقم (1255)، و هو صحيح، كما في صحيح سنن النسائي، للألباني: 258/1، برقم(778). و أخرجه مسلم في صحيحه — بنحوه مطولا — : 378-379، برقم(534)، و ليس فيه تصريح برفعه إلى النبي صلى الله عليه وسلم .

(1108) أخرجه أبو داود في سننه: 300/1، برقم(432)، و هو صحيح، كما في صحيح سنن أبي داود، للألباني: 127/1-128 برقم(432) .

(1109) أخرجه البخاري في صحيحه — مع الفتح — : 575/2، برقم(1098)، و مسلم في صحيحه: 487/1، برقم(700) .

(1110) ينظر: تفسير الماوردي(النكت و العيون): 303/4، و نور المسرى، لأبي شامة المقدسي: ص38، و الجامع لأحكام القرآن، للقرطبي: 15/14، و إحكام الأحكام على عمدة الأحكام، لابن دقيق العيد، بحاشيته العدة للصنعاني: 2/195، و عمدة الحفاظ، للسمين الحلبي: ص229، و الإعلام بفوائد عمدة الأحكام، لابن الملقن، تحقيق عبد العزيز بن أحمد المشيقح: 478-479، و فتح الباري، لابن حجر العسقلاني: 2/575 .

ثانيها : أن الصلاة سميت تسبيحا لأن التسبيح : تعظيم الله تعالى و تبرئته من
السوء ، و الصلاة يوحد الله ﷻ فيها ، و يحمد و يعظم ، و يوصف بكل ما يبرئه من سوء
، فسميت لذلك سبحة و تسبيحا⁽¹¹¹¹⁾.

ثالثها : أن الصلاة سميت تسبيحا لأن المصلي متره لله تعالى بإخلاص العبادة له
وحده، و التسبيح : التزويه، فسميت الصلاة به ، لما يلزم من الصلاة المخلصة لله وحده من
التزويه⁽¹¹¹²⁾.

رابعها : أن الصلاة سميت تسبيحا لأن المصلي معظم لله تعالى بصلاته و خضوعه و
خشوعه فيها لله ﷻ ، فهو مسبح لله بصورة حاله⁽¹¹¹³⁾.

و هذه الأقوال و إن بدت مختلفة في عباراتها ، فهي متفقة في معانيها ، و كلها
تشترك في بيان الوجه المصحح لإطلاق التسبيح على الصلاة ، و في إظهار المناسبة بين
الصلاة و التسبيح ، ليعلم العبد حقيقة الصلاة الشرعية ، و أنها تتضمن غاية التزويه، و منتهى
التعظيم لله رب العالمين⁽¹¹¹⁴⁾.

المبحث الثاني: دلالة التسبيح على الذكر

فالتسبيح - بمعنى قوله قول: سبحان الله- واحد من الألفاظ التي يراد بها لفظ الذكر
في الكتاب و السنة.

⁽¹¹¹¹⁾ ينظر: معاني القرآن و إعرابه، للزجاج: 409/1، و أحكام القرآن، للحصاص: 293/5-294، و مشارق
الأنوار على صحاح الآثار، للقاضي عياض اليحصبي: 203/1، و الجامع لأحكام القرآن، للقرطبي: 82/4.

⁽¹¹¹²⁾ ينظر: أحكام الأحكام، لابن دقيق العيد، بحاشيته العدة: 196/2، و الإعلام بفوائد عمدة الأحكام، لابن
الملقن: 479/2، و فتح الباري، لابن حجر العسقلاني: 142/2.

⁽¹¹¹³⁾ ينظر: نور المسرى، لأبي شامة: ص39، و تهذيب الأسماء و اللغات، للنووي: 142/3.

⁽¹¹¹⁴⁾ ينظر: أضواء البيان، الشنقيطي: 111/2.

و قد يطلق التسبيح و يراد به جميع ألفاظ الذكر التي سبق بيانها⁽¹¹¹⁵⁾، و ذلك من

باب تسمية العام باسم الخاص .

قال الأخفش⁽¹¹¹⁶⁾: (لأن الذكر كله تسبيح و صلاة، تقول: قضيت سبحتي من الذكر والصلاة)⁽¹¹¹⁷⁾ .

و قال يقول الإمام ابن جرير الطبري : ((و كل ذكر لله عند العرب فتسبيح و صلاة يقول الرجل منهم : قضيت سبحتي من الذكر و الصلاة))⁽¹¹¹⁸⁾ .

وقال الشيخ الإسلام ابن تيمية : ((و يراد بالتسبيح جنس ذكر الله تعالى . يقال: فلان يسبح ، إذا كان يذكر الله ، و يدخل في ذلك التهليل و التحميد ، و منه سميت السباحة للأصبع التي يشير بها ، و إن كان يشير بها في التوحيد)) اهـ⁽¹¹¹⁹⁾ .

و من شواهد التسبيح .معنى الذكر في القرآن الكريم : قول الله تعالى - في قصة نبيه زكريا عليه السلام - :

﴿ فَخَرَجَ عَلَى قَوْمِهِ مِنَ الْمِحْرَابِ فَأَوْحَى إِلَيْهِمْ أَنْ سَبِّحُوا بُكْرَةً وَعَشِيًّا ۗ ﴾ مريم

قال الإمام ابن جرير الطبري - في تفسير هذه الآية - : (و قد يجوز في هذا الموضع أن يكون عنى به التسبيح الذي هو ذكر الله ، فيكون أمرهم بالفراغ لذكر الله في طرفي النهار بالتسبيح . و يجوز أن يكون عنى به الصلاة ، فيكون أمرهم بالصلاة في هذين

⁽¹¹¹⁵⁾ ينظر: النهاية في غريب الحديث، لابن الأثير: 331/2، وفتح الباري، لابن حجر: 206/11.

⁽¹¹¹⁶⁾ هو سعيد بن مسعدة البلخي الحاشعي ولاء، أبو الحسن، المعروف بالأخفش الأوسط، كان عالماً بالنحو و اللغة والعروض، و من مصنفاته: معاني القرآن، و كتاب العروض، و كتاب القوافي. توفي سنة (210هـ) أو (215هـ).

⁽¹¹¹⁷⁾ معاني القرآن، تحقيق الدكتور عبد الأمير محمد أمين الورد: 219/1.

⁽¹¹¹⁸⁾ تفسير الطبري: 247/1.

⁽¹¹¹⁹⁾ قاعدة حسنة في الباقيات الصالحات: ص54.

الوقتين) (1120) .

و قال نفطويه - في معنى الآية : أي اذكروا الله بأسمائه (1121) .

و من شواهد ذلك في الحديث : حديث عبد الله بن عمرو رضي الله عنه قال : (رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم يعقد التسبيح (1122) (1123) .

فالمراد بالتسبيح هنا ألفاظ الذكر ، لا خصوص لفظ التسبيح ، فقد جاء في رواية أخرى عنه صلى الله عليه وسلم ذكر التسبيح و التحميد و التكبير في دبر كل صلاة و إنما ساغ إطلاق التسبيح على الذكر كله ، لأن التسبيح - كما سبق - : تزيه الله صلى الله عليه وسلم على وجه التعظيم و الثناء الحسن، فكان كل لفظ تضمن تزيه الله تعالى و تعظيمه و الثناء عليه بما هو أهله تسبيحا و تقديسا ، و كان كل ذكر الله سبحانه بما ورد من ألفاظ الذكر المشروعة مسبحا لله تبارك و تعالى .

قال نفطويه : (فكل من عظم الله و كبره، و دعاه بأسمائه الحسنى، فهو مسبح له) (1124) .

و قال الواحدي : (كل من أثنى على الله و بعده عن السوء فقد سبح الله) (1125) .

و قال أبو بكر الطرطوشي (1126): (فإذا ثبت أن التسبيح هو التزيه، و قد أمر الله

(1120) تفسير الطبري: 314/8.

(1121) مسألة سبحان: ص46.

(1122) يعقد التسبيح، أي: يحسب التسبيح و يضبط عدده بيده. ينظر: القاموس المحيط، للفيروز آبادي: مادة (عقد): ص383، و حاشية السندي بهامش سنن النسائي: 3/83.

(1123) أخرجه أبو داود في سننه: 2/170، برقم (1502)، و الترميذي في سننه: 5/446، برقم (3411)، و النسائي في سننه: 3/88، برقم (1354). قال الترميذي: "هذا حديث حسن غريب"، و صححه الذهبي في تلخيص المستدرک. ينظر: مستدرک الحاكم — مع التلخيص —: 1/731-732، برقم (2005)، و كذا صححه الألباني في صحيح سنن أبي داود: 1/411، برقم (1502).

(1124) مسألة سبحان: ص51.

(1125) الوسيط في تفسير القرآن المجيد: 1/115.

(1126) هو محمد بن الوليد بن خلف القرشي الفهري، أبو بكر الأندلسي، المعروف بابن رندقة، أو أبي رندقة

سبحانه عباده بالتسبيح ، فكل كلام تضمن تزيه الله سبحانه و تقديسه عما لا يجوز في صفته فهو تسبيح الله سبحانه .

فإذا قلت : (لا إله إلا الله) ، نفيت ما لا يجوز في صفته من شريك في عبادته ن مع القرار بأنه الإله وحده ، فهذا من أعظم التسبيح لله سبحانه

وقال الإمام ابن قيم الجوزية : (فكل صفة عليا و اسم حسن و ثناء جميل ، و كل حمد و مدح و تسبيح و تزيه و تقديس و جلال و إكرام ، فهو لله وَعَبَّكَ على أكمل الوجوه و أتمها و أدومها و جميع ما يوصف به و يذكر به و ينخر عنه فهو محامد له و ثناء و تسبيح و تقديس) اهـ (1127) .

المبحث الثالث: دلالة التسبيح على الاستثناء

و من المعاني التي ورد بها لفظ التسبيح في القرآن الكريم : الاستثناء (1128) ، و هو تعليق الأمر بمشيئة الله تعالى ، و بقوله: إن شاء الله مثلا (1129) . و الأصل في ورود التسبيح بمعنى الاستثناء قوله تعالى: ﴿ إِنَّا بَلَوْنَهُمْ كَمَا بَلَوْنَا أَصْحَابَ الْجَنَّةِ إِذْ أَقْسَمُوا لَبَصَرُهَا مَصْبِحِينَ ﴿١٧﴾ وَلَا يَسْتَنْوْنَ

الطرطوشي، العلامة، شيخ المالكية، كان عالما فاضلا، و إماما زاهدا، له تأليف مفيدة، منها: البدع والحوادث، و كتاب الزهد، و العمدة في الأصول، و غيرها. توفي سنة (521هـ) أو التي قبلها، رحمه الله. ينظر: سير أعلام النبلاء، للذهبي: 490/19-496، و شجرة النور الزكية، لحمد مخلوف: ص124.

(1127) طريق المهجرتين و باب السعادتين، ضبط و تعليق عمر بن محمود أبو عمر: ص230-231.

(1128) ينظر: تفسير الطبري: 3/8، و الزاهر في معاني كلمات الناس، لأبي بكر الأنباري: 1/144، و تهذيب الأسماء و اللغات، للنووي: 3/142.

(1129) قال الراغب الأصفهاني: "الاستثناء: إيراد لفظ يقتضي رفع بعض ما يوجبه عموم لفظ متقدم، أو يقتضي رفع حكم اللفظ عما هو،

﴿ ١٨ ﴾، إلى قوله سبحانه: ﴿ قَالَ أَوْسَطُهُمْ أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ لَوْلَا تُسَبِّحُونَ ﴾ ﴿ ٢٨ ﴾ قَالُوا سُبْحَانَ رَبِّنَا إِنْ أَنَا كُنَّا

ظَالِمِينَ ﴿ ٢٩ ﴾ القلم

فقوله: ﴿ لَوْلَا تُسَبِّحُونَ ﴾ قال، جمهور المفسرين: معنى التسييح هاهنا الاستثناء، أي: هلا

تستثنون فتقولوا: إن شاء الله، أنكر عليهم ترك الاستثناء في قولهم ﴿ لِيَصْرِمُنَّهَا مُصْبِحِينَ ﴾.

و قال بعض المفسرين: كان استثناءؤهم في ذلك الزمان التسييح : فعن مجاهد في قوله

تعالى: ﴿ أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ لَوْلَا تُسَبِّحُونَ ﴾ ﴿ ٢٨ ﴾ القلم. قال : ((يقول : تستثنون ، فكان التسييح فيهم

الاستثناء)) اهـ (1130). يعني : أنهم كانوا يقولون : (سبحان الله) مكان قولنا : (إن

شاء الله) (1131) . و على هذا يكون قولهم - بعد ذلك- : ﴿ سُبْحَانَ رَبِّنَا ﴾ . استثناء استدركوا

به ما تركوه عند قولهم : ﴿ لِيَصْرِمُنَّهَا مُصْبِحِينَ ﴾ . و لكن بعد ما وقع العذاب على جنتهم

(1132)

و مناسبة ورود التسييح بمعنى الاستثناء من وجهين :

الوجه الأول: أن الاستثناء تعظيما لله وَعَلَىٰ و تزيها له عن أن يكون شيء إلا

بمشيئته ، و إقرارا بأنه يقدر أحد أن يفعل شيئا إلا بمشيئة الله تعالى (1133)، فسمي الاستثناء

لذلك تسييحا ، لأن التسييح - كما علم - : تزيه الله تعالى عن كل نقص ، فلو وقع شيء

في الوجوه على خلاف إرادة الله سبحانه لكان ذلك يوجب نقصا في قدرة الله تعالى

(1130) رواه الطبري في تفسيره: 194/12، و ينظر: زاد المسير، لابن الجوزي: 338/8.

(1131) ينظر: تفسير القرآن، لأبي المظفر السمعاني: 26/6، و تفسير البغوي: 196/8، و الدر المنثور، للسيوطي: 397/6.

(1132) ينظر: تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، للشيخ عبد الرحمن السعدي: ص 880.

(1133) ينظر: معاني القرآن و إعرابه، للزجاج: 209-208/5، و تفسير القرآن، لأبي المظفر السمعاني: 26-25/6، و

تفسير البغوي: 196/8، و الجامع لأحكام القرآن، للقرطبي: 244/18، و تفسير النسفي: 522/3.

و الاستثناء يزيل هذا النقص ، فكان تسبيحا (1134).

و الوجه الآخر : أن الاستثناء ذكر الله تعالى ، كما قال سبحانه : ﴿ وَلَا نُقُولَنَّ

لِشَيْءٍ إِنِّي فَاعِلٌ ذَلِكَ غَدًا ﴿٢٣﴾ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ وَادُّرُّبَكَ إِذَا نَسِيتَ ﴿٢٤﴾ الكهف (1135)

فقوله : ﴿ وَادُّرُّبَكَ إِذَا نَسِيتَ ﴾ ، معناه : إذا نسيت الاستثناء فاستثن عند ذكرك

له (1136) ، فسمي الاستثناء ذكرا للرب تعالى ، و قد تقدم أن التسبيح يطلق على جميع ألفاظ الذكر ، لتضمنها التثنية و التعظيم لله تعالى و الثناء عليه (1137) .

﴿ قَالَ أَوْسَطُهُمْ أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ لَوْلَا تُسَبِّحُونَ ﴿٢٨﴾ قَالُوا سُبْحَانَ رَبِّنَا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ ﴿٢٩﴾ القلم

قَالَ أَوْسَطُهُمْ أَحْسَنُهُمْ عَقْلاً وَرَأْيَا وَدِيَانَةً ، وَقِيلَ سَنًّا ، وَقَدْ قَالَ لَهُمْ تَوْبُوا إِلَى رَبِّكُمْ مِنْ

نِيَةِ مَنَعَ الْمَسَاكِينَ وَامْضُوا إِلَى صِرْمِهِ وَإِعْطَاءِ الْمَسَاكِينَ مِنْهَا وَعَصْوِهِ وَذَهَبَ مَعَهُمْ . أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ لَوْلَا تَحْضِيضٌ .

تُسَبِّحُونَ تَذَكَّرُونَ اللَّهَ وَتَتُوبُونَ إِلَيْهِ مِنْ نِيَةِ مَنَعِكُمْ لَثَلَا تَعَاقَبُوا دُنْيَا وَأُخْرَى، وَالتسبيح

على نية التوبة توبة واعتراف، وقيل التسبيح الاستثناء بأن يقولوا إن شاء الله ، نزهوا الله عن أن يكن غير ما لم يرد كونه ، وكان في شرعهم سبحان الله مثل إن شاء الله في شرعنا

(1134) ينظر: التفسير الكبير، للفخر الرازي: 90/30.

(1135) قال الإمام ابن القيم: "و تفسير الآية عند جماعة المفسرين: أنك لا تقل لشيء أفعل كذا و كذا حتى تقول: إن شاء الله، فإذا نسيت فقلها متى ذكرتها. و هذا هو الاستثناء المتراخي الذي جوزه ابن عباس، و تأول عليه الآية، و هو الصواب" [مدارج السالكين: 403/2].

و قال الحافظ ابن كثير: "و معنى قول ابن عباس أنه استثنى و لو بعد سنة، أي: إذا نسي أن يقول في حلفه و كلامه: إن شاء الله، و ذكر و لو بعد سنة، فالسنة له أن يقول ذلك، ليكون آتيا بسنة الاستثناء حتى و لو كان بعد الحنث" [تفسير القرآن العظيم: 83/3].

(1136) ينظر: تفسير الطبري: 208/8، و تفسير القرآن العظيم، لابن كثير: 83/3.

(1137) ينظر: ص (175) من البحث.

وشرع من قبلنا شرع لنا ما لم ينسخ ، وقيل تسبحون معناه تستغفرون عبر به عنه لأن التزويه تعظيم له عن أن يعصى بذنب وقيل تذكرون الله تعالى شكراً للنعمة .⁽¹⁾

قَالُوا سُبْحَانَ رَبِّنَا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ ﴿٢٩﴾ نزهناه عن أن يعصى وتكفر نعمته وهذا إنشاء أو نزه الله عن ذلك وهو إخبار ، خضعوا به لله عز وجل وبهذا الخضوع يكون إنشاء "إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ" ﴿٢٩﴾ أنفسنا بالمعصية والمساكين بمنعهم حقهم⁽²⁾ .

أي هلا ولم لا تُسَبِّحُونَ أي توقعون التزويه لله سبحانه وتعالى عما أوهمه فعلكم ، وأقل التسبيح الاستثناء عند الإقسام شكاً في قدرة الإنسان وإثباتاً لقدرة الملك الديان استحضاراً لعظمته سبحانه وتعالى ، ودل سياق الكلام على أنهم كانوا متهيئين للتوبة بقوله : (قالوا) من غير تلثم بما عاد عليهم من بركة أبيهم فقال سبحانه حاكياً عن قولهم : (سبحان ربنا) أي تتره المحسن إلينا التزويه الأعظم عن أن يكون وقع منه فيما فعل بنا ظلم ، وأكدوا قباحة فعلهم هضماً لأنفسهم وخضوعاً لربهم وتحقيقاً لتوبتهم لأن ما كانوا عليه من الحال يقتضي أن لا يصدق رجوعهم عنه بقولهم : (إنا كنا) أي بما في جبلاتنا من الفساد (ظالمين) أي راسخين في إيقاعنا الأشياء في غير مواضعها حيث لم نعزم عزمًا جازماً على ما كان يفعل أبونا من البر ، ثم حيث حلفنا على ترك ذلك ثم حيث لم نرد الأمر إلى الله بالاستثناء حيث حلفنا فإن الاستثناء الله عن أن يجري في ملكه مالا يريد ، وأكد توبتهم بقوله مسبباً عن اعترافهم بالظلم : (فأقبل بعضهم) أي في حال مبادرتهم إلى الخضوع (على بعض) ودلت التسوية بين فريقهم في اللفظ على الاستواء في التوبة (يتلاومون) أي يفعل كل منهم مع الآخر في اللوم على ما قصده من المنع وترك ما تركوه من الإعطاء والدفع ما

⁽¹⁾ ينظر: تفسير أطفيش: 304/11

⁽²⁾ المصدر نفسه

يفعله الآخر معه وينسب النقصان إليه كما هو دأب المغلوبين العجزة.⁽¹⁾

المبحث الرابع: دلالة التسييح على مطلق العبادة

و ذكر بعض العلماء في معاني التسييح أنه يطلق عاما على العبادة قولاً كانت أو فعلاً أو نية⁽¹⁾.

العبادة اسم جامع لكل ما يحبه الله ويرضاه من الأقوال والأعمال الباطنة والظاهرة⁽²⁾

قال ابن فارس: "(سبح) السين والباء والحاء أصلان: أحدهما جنسٌ من العبادة،⁽³⁾

و حمل على هذا المعنى قول الله تعالى - عن نبيه يونس عليه السلام: ﴿فَلَوْلَا أَنَّهُ كَانَ مِنَ

الْمُسَبِّحِينَ ﴿١٤٣﴾﴾ الصافات ففي رواية عن وهب بن منبه⁽⁴⁾ - في تفسير هذه الآية - قال: من العابدين . قال فذكر لعبادته⁽⁵⁾.

و في تفسير الآية أقوال أخرى سيأتي بيانها - إن شاء الله - عند الكلام على تسييح نبي الله يونس عليه السلام⁽⁶⁾.

و إذا أطلق التسييح على العبادة فيما أن يراد به العبادة بمعنى التعبد، و هو التذلل

للمعبود محبة له و تعظيماً ، فيكون من باب إطلاق الشيء على مقتضاه و لازمه، لأن

(1) نظم الدرر: البقاعي، 8/105 وينظر: الزاهر في معاني كلمات الناس: الأنباري، 1/48

(2) ينظر: مفردات ألفاظ القرآن، للراغب الأصفهاني: ص392، و عمدة الحفاظ في تفسير أشرف الألفاظ، للسمين الحلبي: ص229.

(3) العبودية : ابن تيمية، ص30.

(4) مقاييس اللغة: ابن فارس، 3/96

(5) هو وهب بن منبه بن كامل اليماني الصنعاني، أبو عبد الله الأنباري، عالم أهل اليمن، كان تابعياً ثقة واسع العلم، و كان ينظر بكعب الأحبار في زمانه، و عنده من علم أهل الكتاب شيء كثير، و كان على قضاء صنعا، و توفي سنة (114هـ)، رحمه الله. ينظر: تذكرة الحفاظ، للذهبي: 1/100-101، و تقريب التهذيب، لابن حجر: 2/345.

(6) رواه عبد الرزاق الصنعاني في تفسير القرآن: 2/156. ينظر: تفسير البغوي: 7/60.

(7) ينظر: ص 113 من هذا البحث

التسبيح هو التزويه و التعظيم لله تعالى ، و هذا المعنى يقتضي التذليل و المحبة لله عز وجل ويستلزمها. و إما أن يراد مع العبادة بمعنى المتعبد به، و هو كل ما يتعبد به الله تعالى، من قول أو فعل أو اعتقاد⁽¹¹³⁸⁾، فيكون من باب إطلاق جزء الشيء على كله، لإبراز مترلة هذا الجزء من الكل ، فإن العبادة شاملة للتسبيح و غيره من القربات.

و هناك مناسبة أخرى لورود التسبيح بمعنى العبادة، و هي أن كل عبادة من العبادات و إن كانت مشروعة بأصلها ، فشرط تحقق التعبد بها لله تعالى أن يخلص العبد نيته فيها لله وحده لا شريك له ، كما قال سبحانه: ﴿ وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ ﴾ البينة و قال الزجاج: (كل من عمل عملا قصد به الله فقد سبح) اهـ⁽¹¹³⁹⁾، و ذلك لان التسبيح - كما سبق تقريره-: تزويه الله تعالى اعتقادا و قولاً و عملاً عما لا يليق به سبحانه⁽¹¹⁴⁰⁾.

فالعبادة - قولاً كانت أو فعلاً أو اعتقاداً - و إن لم تشمل على قول (سبحان الله) فإن إخلاصها لله سبحانه تزويه له عز وجل عن أن يكون له شريك في العبادة ، أو أن يستحق العبادة أحد غير الله تعالى⁽¹¹⁴¹⁾ ، فكل عبادة تسبيح بهذا المعنى ، لأنها تزويه لله سبحانه عن كون العبد يصرفها لغيره تبارك و تعالى⁽¹¹⁴²⁾.

والعبادة تتضمن غاية الحب بغاية الذل . و قوله: "سبحانك" يتضمن تعظيمه و تزويهه عن الظلم و غيره من النقائص ; فإن التسبيح و إن كان يقال: يتضمن نفي النقائص ، فالنفي

⁽¹¹³⁸⁾ ينظر: في معنى العبادة: مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية: 149، 153/10، و تقريب التدمرية، للشيخ محمد بن صالح العثيمين، باعتناء سيد بن عباس الحلبي: ص 113.

⁽¹¹³⁹⁾ ينظر: معاني القرآن و إعرابه: 1/110.

⁽¹¹⁴⁰⁾ ينظر: ص (76) من هذا البحث.

⁽¹¹⁴¹⁾ ينظر: تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، للشبيخ عبد الرحمن بن ناصر السعدي: ص 638.

⁽¹¹⁴²⁾ ينظر: المصدر نفسه: ص 732.

لا يكون مدحا إلا إذا تضمن ثبوتا وإلا فالنفي المحض لا مدح فيه ، ونفي السوء والنقص عنه يستلزم إثبات محاسنه وكماله ، والله الأسماء الحسنى . وهكذا عامة ما يأتي به القرآن في نفي السوء والنقص عنه يتضمن إثبات محاسنه وكماله .

فالتسبيح المتضمن تزيهه عن السوء ، ونفي النقص عنه يتضمن تعظيمه . ففي قوله : " سبحانك " تبرئته من الظلم، وإثبات العظمة الموجبة له براءته من الظلم ، فإن الظالم إنما يظلم لحاجته إلى الظلم أو لجهله ، والله غني عن كل شيء ، عليم بكل شيء ، وهو غني بنفسه ، وكل ما سواه فقير إليه، وهذا كمال العظمة . وأيضا ففي هذا الدعاء التهليل والتسبيح فقوله: (لا إله إلا أنت) تهليل .

وقوله : (سبحانك) تسبيح . وقد ثبت في الصحيح عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : (أفضل الكلام بعد القرآن أربع ، وهن من القرآن: (سبحان الله ، والحمد لله ، ولا إله إلا الله ، والله أكبر) . والتحميد مقرون بالتسبيح وتابع له ، والتكبير مقرون بالتهليل وتابع له ، وفي الصحيح (عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه سئل أي الكلام أفضل ؟ قال: ما اصطفى الله للملائكته سبحان الله وبحمده) وفي الصحيحين عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : (كلمتان خفيفتان على اللسان، ثقيلتان في الميزان، حبيبتان إلى الرحمن: سبحان الله وبحمده ، سبحان الله العظيم). وفي القرآن: (فسبح بحمد ربك) وقالت الملائكة: (ونحن نسبح بحمدك) . وهاتان الكلمتان إحداهما مقرونة بالتحميد ، والأخرى بالتعظيم، فإننا قد ذكرنا أن التسبيح فيه نفي السوء والنقائص المتضمن إثبات المحاسن والكمال ، والحمد إنما يكون على المحاسن . وقرن بين الحمد والتعظيم كما قرن بين الجلال والإكرام ، إذ ليس كل معظم محبوبا محمودا ، ولا كل محبوب محمودا معظما ، وقد تقدم أن العبادة تتضمن كمال الحب المتضمن معنى الحمد ، وتتضمن كمال الذل المتضمن معنى التعظيم ، ففي العبادة حبه

وحمده على المحاسن ، وفيها الذل الناشئ عن عظمته وكبريائه . ففيها إجلاله وإكرامه . وهو سبحانه المستحق للجلال والإكرام ، فهو مستحق غاية الإجلال وغاية الإكرام . ومن الناس من يحسب أن " الجلال " هو الصفات السلبية "والإكرام" الصفات الثبوتية، كما ذكر ذلك الرازي ونحوه والتحقيق أن كليهما صفات ثبوتية ، وإثبات الكمال يستلزم نفي النقائص⁽¹⁾

المبحث الخامس: دلالة التسييح على الدعاء

و مما يتصل بمعاني التسييح في الشرع: تسمية التسييح دعاء ، كما في قول تعالى

﴿ دَعَوْهُمْ فِيهَا سُبْحَانَكَ ﴾⁽¹⁾ يونس، حيث أخبر تعالى أن التسييح بلفظ (سبحانك اللهم) هو دعوى أهل الجنة فيها⁽¹⁾، و (الدعوى)، يقال: دعاء دعاء و دعوى⁽²⁾.

و كما في حديث سعد⁽³⁾ قال: قال رسول الله ﷺ: (دعوة ذي النون⁽⁴⁾ إذ دعا

(1) ينظر: إقامة الدليل على إبطال التحليل: ابن تيمية 360/5

(1) ينظر: الكلام على تسييح أهل الجنة فيها

(2) ينظر: لسان العرب، لابن منظور: مادة (دعو): 257/14

(3) هو سعد بن أبي وقاص: مالك بن وهيب بن عبد المناف بن زهرة بن كلاب الزهري، أبو اسحاق، أحد المبشرين بالجنة، أول من رمى بسهم في سبيل الله، و مناقبه كثيرة، توفي سنة (55هـ) على المشهور، و هو آخر العشرة وفاة، رضي الله عنه و أرضاه. ينظر: الإصاية، لابن حجر: 73/3-77، و تقريب التهذيب، له: 282/1.

(4) النون: الحوت، جمعه نينان و أنوان [القاموس المحيط، للفيروز آبادي: مادة (نون): ص 1596]. و ذو النون: لقب نبي الله يونس بن متى عليه السلام، كما يقال له: صاحب الحوت؛ لأن الحوت ابتلعه

، كما ذكر الله تعالى ذلك في القرآن الكريم. ينظر: تفسير الطبري: 73/9، و زاد المسير، لابن الجوزي: 381/5، و تفسير القرآن العظيم، لابن كثير: 201/3.

و هو في بطن الحوت ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ﴾ ﴿٨٧﴾ الأنبياء،
لم يدع بها رجل مسلم في شيء قط إلا استجاب الله له⁽⁵⁾. فسمى ﷺ القول المشتمل على
التهليل و التسبيح دعوة، و (الدعوة) هي المرة الواحدة من الدعاء.
في الآية دليل على إطلاق لفظ التسبيح على الدعاء وشاهده: دعوة ذي النون: (لا
إله إلا أنت سبحانك إني كنت من الظالمين)

و قد كان التهليل و التسبيح مقدمة بين يدي هذا الاستغفار، و توسلا إلى الله ﷻ
بتوحيده و الثناء عليه، و لهذا استجاب الله تعالى له، كما قال سبحانه: ﴿فَأَسْتَجِبْنَا لَهُ
وَجَعَلْنَاهُ مِنَ الْغَمِّ وَكَذَلِكَ نُثَجِّي الْمُؤْمِنِينَ﴾ ﴿٨٨﴾

و في الحديث عن سعد بن أبي وقاص ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: " دعوة ذي النون
إذ دعا و هو في بطن الحوت: ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ﴾ ،
فإنه لم يدع بها رجل مسلم في شيء قط إلا استجاب له" (1143)

و الآية الكريمة شاهدة لهذا الحديث، في قوله تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ نُثَجِّي الْمُؤْمِنِينَ﴾
﴿٨٨﴾ ، فإنه وعد و بشارة لكل مؤمن أن الله تعالى ينجيّه كما أنجي يونس ﷺ (1144).
و إنما كانت هذه الدعوة بهذه المكانة؛ لأن " فيها من كمال التوحيد و التزويه للرب
تعالى، و اعتراف العبد بظلمه لنفسه و ذنبه ما هو من أبلغ أدوية الكرب و الهم و الغم، و

(5) أخرجه الترمذي في سننه: 495/5، برقم (3505)، و النسائي في سننه الكبرى: تحقيق الدكتور عبد الغفار البنداري، و
سيد كسروي: 168/6، برقم (10492)، و صححه الحاكم في المستدرک: 1/684، برقم (1862)، و وافقه الذهبي، كما
صححه الألباني في صحيح الجامع، برقم (3383).

(1143) سبق تخریجه

(1144) ينظر: تيسير الكريم الرحمن، للسعدي: ص 530.

أبلغ الوسائل إلى الله سبحانه في قضاء الحوائج ، فإن التوحيد و التزیه يتضمنان إثبات كل كمال لله ، و سلب كل نقص و عيب و تمثيل عنه ، و الاعتراف بالظلم يتضمن إيمان العبد بالشرع و الثواب و العقاب ، و يوجب انكساره و رجوعه إلى الله ، و استقالته عشرته و الاعتراف بعبوديته و افتقاره إلى ربه .

فهاهنا أربعة أمور قد وقع التوسل بها التوحيد، التزیه ، و العبودية ، و الاعتراف" (1)

﴿ دَعْوَهُمْ فِيهَا سُبْحَانَكَ ﴾ فالدعاء فيه بالمعنى اللغوي . و يجوز أن تكون تسمية هذا التسبيح دعاء من حيث إنه ثناء مسوق للتعرض إلى إفاضة الرحمت والنعم .

وهذا الاقتصار على كون دعواهم فيها كلمة (سبحانك اللهم) يشعر بأنهم لا دعوى لهم في الجنة غير ذلك القول ، لأن الاقتصار في مقام البيان يشعر بالقصر، وإن لم يكن هو من طرق القصر لكنه يستفاد من المقام ولكن قوله : (وآخر دعواهم أن الحمد لله رب العالمين) يفيد أن هذا التحميد من دعواهم ، فتحصل من ذلك أن لهم دعوى وخاتمة دعوى.

ووجه ذكر هذا في عدد أحوالهم أنها تدل على أن ما هم فيه من النعم هو غايات الراغبين بحيث إن أرادوا أن ينعموا بمقام دعاء ربهم الذي هو مقام القرب لم يجدوا أنفسهم مشتاقين لشيء يسألونه فاعتاضوا عن السؤال بالثناء على ربهم فألهموا إلى التزام التسبيح لأنه أدل لفظ على التمجيد والتزیه ، فهو جامع للعبارة عن الكمالات. (2)

(1) ينظر: زاد المعاد، لابن قيم الجوزية: 208/4

(2) التحرير والتنوير: الطاهر بن عاشور، 103/11

خاتمة



جامعة الأمير
عبد القادر للعظيم الإسلامي

خاتمة

نستطيع -بفضل الله- أن نخلص إلى بعض النتائج المستقاة من تفاعل كلمات القرآن وتعاطفه مع سياق الموقف وسياج المشهد الذي خاطب العقل والقلب وهز الوجدان في تضرع وخشوع؛ ليلقي في الروح ببعض نفحات الإعجاز وهمسات البيان, ومن ذلك:

1. التسييح مصدر للفعل المضعف لمبالغة الفعل وتكراره، ويدور أصل معناه على ثلاثة معان هي: التباعد أو التزيه والعموم والذهاب السريع وجميع هذه المعاني قريب بعضها من بعض.

2. يتعدى فعل التسييح بنفسه تارة وبواسطة تارة أخرى ولكل منهما دلالات بيانية بينت في مواضعها.

3. ورجحت أن(سيحان) مصدر من الفعل الثلاثي المخفف(سيح)وهي معرفة بالإضافة وقد أضيفت في كل المواضع من القرآن.

والمعربون متفقون على نصبها والعامل فيها فعل مضمّر مقدر واختلفوا في تقديره ورجحت

كونه الفعل الثلاثي المخفف (سَبَح).

4. كل ما جاء من التسبيح في القرآن العظيم مرده إلى تسبيح الله عن النقائص والتمثيل، وهذا هو أصل معنى التسبيح الذي جاء القرآن لتقريره وهو التزويه، التزويه الذي زلت فيه أقدم المتكلمين.

5. جاءت لفظة التسبيح باعتبار تركيبها على ضربين: مفردة، أي: مجردة عن إضافتها إلى بعض ألفاظ الذكر والدعاء ومعناها في هذه الحال التزويه والتعظيم والتقديس. وأما المقترنة ببعض ألفاظ الذكر والدعاء فهي لمناسبات عديدة أذكر منها هنا أن قرن التسبيح بأسماء الله الحسنى إشارة إلى أن المراد هو إثبات أصل معنى الاسم والصفة المتضمنة فيه، وتسبيح الله وتزويه عن التشبيه والتمثيل والتأويل والتعطيل.

6. لما كان فضل التسبيح عظيماً شرفه الله جل و علا بنسبته لنفسه فسبح الله نفسه وأضافه الله إلى ملائكة قدسه فسبحته ملائكته وأضافه الله إلى صالح عباده فسبحه أنبيائه وأتباعهم ونسبه الله إلى ما في السموات والأرض فسبحه الكون كله وجعله الله جل وعلا دعاء أهل الجنة.

7. وجميع هذه التسابيح ثابتة واردة في التزويل تذكر وتفهم على حقائقها الشرعية من غير تأويل ولا تعطيل وتثبت لفاعليها كما أثبتها الله لهم، فإذا كان ذلك كذلك دلت على دلالات عقدية وفوائد لغوية وصور بيانية وكان تحت ذلك كله سر من أسرار البيان القرآني الذي تحدى الله جل وعلا به بلغاء الناس من العرب والعجم.

8. التسبيح وظيفة مشتركة بين جميع الكائنات، العاقل منها وغير العاقل، والناطق منها وغير الناطق، وكل منها يسبح لله تعالى بلغته الخاصة، فلا الإنسان يفهم الحيوان والطير والجماد ما يقول، ولا كيف يسبح، وكذلك الحيوان والطير والجماد لا يفهم عن الإنسان ما يقول، ولا كيف يسبح، بل الكل متوجه بلغته الخاصة إلى خالقه يسبح بحمده، ولا يفقه نوع منها لغة النوع الآخر، ﴿وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَكِنْ لَا

نَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ ﴿٤٤﴾ الإسراء

9. يعتبر مفهوم مفردة التسبيح في الشرع أوسع منها في اللغة ذلك أن دلالتها في القرآن الكريم أوسع من معهود لغة العرب في الاستعمال الضيق لها وهذا سر من أسرار استعمال

المفردة القرآنية. لهذا تنوعت دلالات التسييح على تنوع السياقات القرآنية فتارة يدل على الصلاة وتارة على الذكر عموماً وتارة يدل على مطلق العبادة وأخرى على الدعاء.

10. خصوصية النص القرآني تؤزنا إلى القول بأن فهم دلالاته لا يُكتفى فيها بالنظرية البلاغية عند المتكلمين بل ينبغي تحري معهود فهم الأميين ممن عاصروا التزليل قبل دخول علم الكلام وأهله.

أردت في هذه المذكرة أن ألم إمامة ليست كخطرة طيف . وإنما هي لمحة ترى منها كيف كان القرآن معجزاً وتتبر من نواحي إعجازه وما أنا بمستقص دلائل الإعجاز في آحاد الآيات والصور ، فذلك له مصنفاًته وكل صغير وكبير مستطر . تتبر منها بلاغة القرآن ولطائف أدبه التي هي فتح لفنون رائعة من أدب لغة العرب حتى ترى كيف كان هذا القرآن فتح بصائر ، وفتح عقول ، وفتح ممالك ، وفتح أدب غض ارتقى به الأدب العربي مرتقى لم يبلغه أدب أمة من قبل . وكنت أرى الباحثين ممن تقدمني يخلطون هذين الغرضين خلطاً ولعلك تجد في هذه الرسالة أصولاً ونكتاً أغفلها من تقدموا ممن تكلموا في إعجاز القرآن والبيان.

وإني في رسالتي هذه لا أدعي أني أحصيتُ كلَّ ما جاء من التسييح في القرآن، وإنما اكتفيتُ بنصوصٍ وافيةٍ من القرآن الكريم ؛ فالقرآن معجزة الله تعالى ، لا يستطيعُ الباحث أن يحيط بكلِّ جوانبه وخصائصه وأسراره ، وإنما لو تبعنا أيَّ ظاهرةٍ فيه ، فإنَّ دراستنا لا تتجاوز آياتٍ معدودةٍ محدودة ، ذلك لأنَّ هذا الكتابَ وحيٌّ من حكيمٍ عليمٍ ، لكلِّ حرفٍ فيه معنى ، ولكلِّ كلمةٍ فيه مغزى ، ولكلِّ آيةٍ فيه برهانٌ . والله الموفقُ للصواب . انتهى

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية



ملخص البحث

ملخص البحث

هذا البحث يدرس مفردة عظيمة من مفردات كلام الله المجيد، والتي يدور أصل معناها على تزيه الله. تناولت في مدخل البحث ما تعلق بالمفردة معنًى ومبنى وإعراباً وجعلت صلب الموضوع دراسة تطبيقية على آي التسييح، فاستقصيت في ذلك الآيات كلَّها، موضحة في كل موضع ما يتعلق بها من أسرار بيانية ونكت بلاغية بما يوافق ترجمة الفصل. وحشدت في ذلك أقوال المحققين من العلماء القدامى والمعاصرين.

و درست دلالات المفردة (التسييح) كما جاءت ووردت في القرآن من الناحية التركيبية، وهي إما أن تكون مفردة عن غيرها، فلا يضم إليها شيء من ألفاظ الذكر

والدعاء، أو مركبة مع ما ذكر، وبينت أثر ذلك في الدلالة وما له من داع إلى ترجيح معنى على آخر.

وقسمت التسييح في هذا الموضوع الخطير كما قسمته آيات التزييل بنسبة كل تسييح لمسيحه كما دلّ على ذلك منطوق القرآن ومفهومه، وقد أخبر الله -وهو أعلم بكلامه- بأنه سيّح نفسه وسيّحته ملائكة قدسه وسيّح له المرسلون وأتباعهم وسيّحت له الكائنات كلها وسيسيح له أهل الجنة فيها، وكل هذه التسييحات تُثبت على حقائقها اللغوية والشرعية ونفوض العلم بكيفية ما جهل منها إلى المخبر بما وهو الله جلّ وعلا.

والبحث محاولة لبيان وجه من إعجاز القرآن وإثارة لمسألة اللغة والفهم عند المتكلمين وعند أهل السنة وخاصة فهم خطاب الله ومراده .

واتخذت من الدراسة البيانية طريقاً لتقرير هذه المسائل وخرّجت الموضوع في فصول أربعة مع مقدمة ومدخل وخاتمة وفهرست للآيات و المصادر والمراجع والموضوعات.

Summary

This research has studied an great word from glorious gods speech which basically means to honor god or impartiality of god. In the preamble of the research, I discussed what is related to the word structurally and grammatically. then, I mode the body a practical study on(praise)-(the revelations of praise)- thus, I sought for all the revelations showng in each state what concerns all these verses as rhetorical mysteries and jokes which are convenient to the interpretation of the chapter. And I collected sayings of investigators from contemporary scientists and ancient ones .

I studied indications of the word (praise) as it is included in the Qur'an from structural point of view and it is (the word)either to be different . consequently, nothing from mentioning words and invocations (calls) is added up or to be structured with what is mentioned before . And I stated all that in the indication and to

give preference to one meaning than the other

I dirded praise in this significant topic as Qur'ans revelations did by relating each praise to those who praising god as it is indicated by Qur'ans wording is the spoken part of the Quran and its concept . And Allah has told- He is all knowing- that he glorified and praised himself and that angels of his holinesses praised him and praised him and praised to Allah the messengers with their followers and all the creatures praised to him then the people of paradise will praise him in (in the paradise). All this praise, we believe in its linguistic (lexical) and religious facts therefore, we commit science about what is ignored to Allah Almighty.

This research is an attempt of showing Quran miracle face and discussing the issue of language and understanding due to mu`tazilah (isolationist)and due to Sunnis (the people of sunnah) and in particulars to understand the speech of god and his target . And I have taken from this practical study a way to report all these issues and I made the topic in four(04) chapters with an introduction, preface and, a conclusion and an index for revelations, sources references and topics.



فهرس

الآ

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

الصفحة	السورة
	سورة البقرة
112/35/34	﴿ وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلٰٓئِكَةِ اِنِّيْ جَاعِلٌ فِى الْاَرْضِ خَلِيْفَةً ۗ قَالُوْۤا اَتَجْعَلُ فِيْهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيْهَا ﴿۳۰﴾ ﴾
112	﴿ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ ﴿۳۰﴾ ﴾
112/34/20	﴿ قَالُوْۤا سُبْحٰنَكَ لَا عِلْمَ لَنَا اِلَّا مَا عَلَّمْتَنَا ۗ اِنَّكَ اَنْتَ الْعَلِيْمُ الْحَكِيْمُ ﴿۳۲﴾ ﴾
156	﴿ وَاِنَّ مِنَ الْحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنْهُ الْاَنْهٰرُ ۗ وَاِنَّ مِنْهَا لَمَا يَسْقٰٓءُ فَيَخْرُجُ مِنْهُ الْمَآءُ ۗ وَاِنَّ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشِيَةِ اللّٰهِ وَمَا اللّٰهُ بِغَفِيْلٍ عَمَّا تَعْمَلُوْنَ ﴿۷۴﴾ ﴾
99	﴿ وَقَالُوْۤا اَتَّخَذَ اللّٰهُ وَلَدًا ۗ سُبْحٰنَهُ ۗ بَلْ لَّهٗ مَا فِى السَّمٰوٰتِ وَالْاَرْضِ كُلُّ لَهٗ قٰنِيْنُوْنَ ﴿۱۱۲﴾ ﴾
03	﴿ تِلْكَ اَرْسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ مِّنْهُمْ مَّۤا كَلَّمَ اللّٰهُ ﴿۱۲۴﴾ ﴾
106	﴿ لَعَلَّكُمْ تَفْلِحُوْنَ ﴿۱۸۹﴾ ﴾
	سورة آل عمران
124/12	﴿ قَالَ رَبِّ اجْعَلْ لِّيْ ءَايَةً ۗ قَالَ ءَايٰتُكَ اَلَّا تُكَلِّمَ النَّاسَ ثَلٰثَةَ اَيَّامٍ اِلَّا رَمَزًا وَاذْكُرْ رَبَّكَ كَثِيْرًا وَسَبِّحْ بِالْعَشِيِّ وَالْاِبْكَرِ ﴿۴۱﴾ ﴾
124/12	﴿ وَاذْكُرْ رَبَّكَ كَثِيْرًا وَسَبِّحْ بِالْعَشِيِّ وَالْاِبْكَرِ ﴿۴۱﴾ ﴾
129/76	﴿ الَّذِيْنَ يَذْكُرُوْنَ اللّٰهَ قِيَمًا وَقُعُوْدًا وَعَلٰى جُنُوْبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُوْنَ فِى خَلْقِ السَّمٰوٰتِ وَالْاَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هٰذَا بَطِيْلًا سُبْحٰنَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ ﴿۱۱۱﴾ ﴾
	سورة النساء
100	﴿ يٰۤاَهْلَ الْكِتٰبِ لَا تَغْلُوْۤا فِى دِيْنِكُمْ وَلَا تَقْوَلُوْۤا عَلَى اللّٰهِ اِلَّا الْحَقَّ اِنَّمَا

الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ رَسُولَ اللَّهِ وَكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إِلَى مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِّنْهُ فَتَأْمِنُوا بِاللَّهِ
وَرُسُلِهِ وَلَا تَقُولُوا ثَلَاثَةٌ انْتَهُوا خَيْرًا لَّكُمْ إِنَّمَا اللَّهُ إِلَهُ وَحْدٌ وَكَفَىٰ أَن يَكُونَ لَهُ وَلَدٌ
لَّهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ وَكِيلًا ﴿١٧١﴾

154

﴿ فَاتَّخِذُوا مَا طَابَ لَكُمْ مِنَ النِّسَاءِ مِثْنًا وَثَلَاثَ وَرُبْعًا ﴾

سورة المائدة

﴿ اللَّهُ اللَّهُ يَبْعِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ ءَأَنْتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَهَيْنِ مِن دُونِ اللَّهِ قَالِ
سُبْحَانَكَ مَا يَكُونُ لِي أَن أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقِّ إِنْ كُنْتُ قُلْتُهُ فَقَدْ عَلِمْتَهُ تَعَلَّمَ مَا فِي نَفْسِي
وَلَا أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ إِنَّكَ أَنْتَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ ﴿١١٦﴾ ﴾

125/37

سورة الأنعام

﴿ وَجَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ الْجِنَّ وَخَلَقَهُمْ وَخَرَقُوا لَهُ بَنِينَ وَبَنَاتٍ بِغَيْرِ عِلْمٍ سُبْحَانَكَ وَتَعَالَىٰ عَمَّا
يَصِفُونَ ﴿١٠٠﴾ ﴾

100/72

﴿ مَا فَطَرْنَا فِي الْكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ ﴿٣٨﴾ ﴾

أ

سورة الأعراف

﴿ وَلَمَّا جَاءَ مُوسَىٰ لِمِيقَاتِنَا وَكَلَّمَهُ رَبُّهُ قَالَ رَبِّ أَرِنِي إِلَيْكَ قَالَ لَنْ نَرِيكَ وَلَكِنْ نُنظِّرُ
إِلَى الْجَبَلِ فَإِنِ اسْتَقَرَّ مَكَانَهُ فَسَوْفَ تَرِنِي فَلَمَّا تَجَلَّىٰ رَبُّهُ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُ دَكًّا وَخَرَّ
مُوسَىٰ صَعِقًا فَلَمَّا أَفَاقَ قَالَ سُبْحَانَكَ بُنْتُ إِلَيْكَ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُؤْمِنِينَ ﴿١٤٣﴾ ﴾

120

﴿ إِنَّ الَّذِينَ عِنْدَ رَبِّكَ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِ وَيُسَبِّحُونَهُ وَلَهُ يَسْجُدُونَ ﴿٣٦﴾ ﴾

110/16/12

سورة التوبة

﴿ اتَّخِذُوا أَحْبَابَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ اللَّهِ وَالْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ

72

وَمَا أُمُورًا إِلَّا لِيَعْبُدُوا إِلَهًا وَاحِدًا لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ سُبْحَانَهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٣١﴾

47

﴿ مَا بِأَنْفُسِهِمْ عَنِ الْمَدِينَةِ وَمَنْ حَوْلَهُمْ مِنَ الْأَعْرَابِ أَنْ يَتَخَلَّفُوا عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﴾ ﴿١٢٠﴾

سورة يونس

160

﴿ إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ يَهْدِيهِمْ رَبُّهُمْ بِإِيمَانِهِمْ تَجْرَى مِنْ تَحْتِهِمُ الْأَنْهَارُ فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ ﴿١﴾ دَعَوْهُمْ فِيهَا سُبْحَانَكَ وَلَوْ يَعْلَمُ فِيهَا سَلَامٌ ءَأَجْرُهُمْ دَعْوَتُهُمْ أَنْ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٠﴾ ﴾

101/72

﴿ وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنْفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَؤُلَاءِ شَفَعَاؤُنَا عِنْدَ اللَّهِ قُلْ أَنْتَبِتُوكَ اللَّهُ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِي السَّمَوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ سُبْحَانَ اللَّهِ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿١٨﴾ ﴾

سورة يوسف

38

﴿ قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَى بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي وَسُبْحَانَ اللَّهِ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿١٠٨﴾ ﴾

سورة الرعد

61/12

﴿ وَيَسْبِغُ الرِّعْدُ بِحَمْدِهِ وَالْمَلَائِكَةُ مِنْ خِيفَتِهِ وَيُرْسِلُ الصَّوَاعِقَ فَيُصِيبُ بِهَا مَنْ يَشَاءُ وَهُمْ يُجَادِلُونَ فِي اللَّهِ وَهُوَ شَدِيدُ الْمِحَالِ ﴿١٣﴾ ﴾

سورة النحل

72/20/103

﴿ أَتَىٰ أَمْرُ اللَّهِ فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿١﴾ ﴾

/73/50/40

﴿ وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ الْبَنَاتِ سُبْحَانَ اللَّهِ وَلَهُمْ مَا يَشْتَهُونَ ﴿٥٧﴾ ﴾

/105

146

﴿ مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنْثِيَ وَهُوَ مُؤْمِنٌ ﴾ ﴿١٧﴾

سورة الحجر

173

﴿ فَسَبِّحْ اللَّهَ فَلَا وَكُن مِّنَ السَّجِدِينَ ﴾ ﴿١٨﴾

سورة الإسراء

24

﴿ سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلًا مِّنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَا الَّذِي بَنَيْنَا

حَوْلَهُ لِلرِّبِّيَّةِ مِنَّا إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ ﴾ ﴿١٩﴾

41/72/21/20

166/

﴿ أَفَأَصْفَكَ رَبُّكُمْ بِالْبَنِينَ وَاتَّخَذَ مِنَ الْمَلَائِكَةِ إِنثًا إِنَّكُمْ لَنَقُولُونَ قَوْلًا عَظِيمًا ﴾ ﴿٢٠﴾ إِذَا لَا بُدَّ

إِلَى ذِي الْعَرْشِ سَبِيلًا ﴿٢١﴾ سُبْحَانَكَ وَتَعَالَى عَمَّا يَقُولُونَ عُلُوًّا كَبِيرًا ﴿٢٢﴾

/61/43/13

166

﴿ تَسْبِيحٌ لَهُ السَّمَوَاتُ السَّبْعُ وَالْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَكِن لَّا نَفْقَهُونَ

تَسْبِيحَهُمْ إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا ﴾ ﴿٢٣﴾

13/03

﴿ ثُمَّ لَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْوَبْرِ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُمْ مِّنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى

كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا ﴾ ﴿٢٤﴾

44

﴿ وَقَالُوا لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّى تَفْجُرَ لَنَا مِنَ الْأَرْضِ يَنْبُوعًا ﴾ ﴿٢٥﴾

75/20

﴿ أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِّن زُخْرٍ أَوْ تَرْقَى فِي السَّمَاءِ وَلَن نُّؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتَّى تَنزِلَ عَلَيْنَا كِتَابًا

تَقْرَأُهُ قُلْ سُبْحَانَ رَبِّي هَلْ كُنْتُ إِلَّا بَشَرًا رَسُولًا ﴾ ﴿٢٦﴾

75

﴿ قُلْ ءَأَمِنُوا بِوَجْهِ أَوْلَىٰ تُوْمِنُوا إِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مِن قَبْلِهِ إِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ سُجَّدًا

﴿٢٧﴾ وَيَقُولُونَ سُبْحَانَ قُلِّ ادْعُوا كَانَ وَعَد رَبِّنَا لِمَفْعُولًا ﴿٢٨﴾ وَيَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ يَبْكُونَ وَيَزِيدُهُمْ

خُشُوعًا ﴿٢٩﴾

سورة الكهف

185

﴿ وَلَا نَقُولَنَّ لِشَايٍ إِنِّي فَاعِلٌ ذَٰلِكَ غَدًا ﴿٣٠﴾ إِلَّا أَن يَشَاءَ اللَّهُ وَادْكُرْ رَبَّكَ إِذَا نَسِيتَ

سورة مريم

/47/45/12

181

﴿ فَخَرَجَ عَلَى قَوْمِهِ مِنَ الْمِحْرَابِ فَأَوْحَى إِلَيْهِمْ أَنْ سَبِّحُوا بُكْرَةً وَعَشِيًّا ﴾ ﴿١١﴾

47

﴿ يَبِيحُنَى خُدَّ الْكِتَابِ بِقُوَّةٍ وَأَيْتِنَهُ الْحَكْمَ صَبِيًّا ﴾ ﴿١٢﴾

47

﴿ مَا كَانَ لِلَّهِ أَنْ يَتَّخِذَ مِنْ وَلَدٍ سُبْحَانَهُ إِذَا قَضَىٰ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ ﴾ ﴿٣٥﴾

49

﴿ وَمَا يَنْبَغِي لِلرَّحْمَنِ أَنْ يَتَّخِذَ وَلَدًا ﴾ ﴿٩٢﴾

31

﴿ رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا فَاعْبُدْهُ وَاصْطَبِرْ لِعِبَادَتِهِ هَلْ تَعْلَمُ لَهُ سَمِيًّا ﴾ ﴿٦٥﴾

77

﴿ وَهَزَىٰ إِلَيْكَ بِجِدْعِ النَّخْلَةِ ﴾ ﴿٣٥﴾

سورة طه

12

﴿ وَأَجْعَلْ لِي وَزِيرًا مِّنْ أَهْلِي ﴾ ﴿٢١﴾ هَذُونَ أَخِي ﴿٣٠﴾ أَشَدُّ بِهِ أَزْرَى ﴿٣١﴾ وَأَشْرِكُهُ فِي أَمْرِي ﴿٣٣﴾ كَىٰ

﴿ سُبْحَكَ كَثِيرًا ﴾ ﴿٣٣﴾ وَنَذَرْتُكَ كَثِيرًا ﴿٣٤﴾ إِنَّكَ كُنْتَ بِنَا بَصِيرًا ﴿٣٥﴾

173/61/12

﴿ فَأَصْبَرَ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحَ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ غُرُوبِهَا وَمِنْ آنَاءِ اللَّيْلِ

﴿ فَسَبِّحْ وَأَطْرَافَ النَّهَارِ لَعَلَّكَ تَرْضَىٰ ﴾ ﴿١٣٠﴾

سورة الأنبياء

91

﴿ لَوْ أَرَدْنَا أَنْ نَتَّخِذَ لَهْوًا لَّاتَّخَذْنَاهُ مِنْ لَدُنَّا إِنْ كُنَّا فَعْلِينَ ﴾ ﴿١٧﴾

111

﴿ وَلَهُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَنْ عِنْدَهُ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِ وَلَا يَسْتَحْسِرُونَ

111/49/12

﴿ يُسَبِّحُونَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لَا يَفْتُرُونَ ﴾ ﴿٣٠﴾

108/88/75

﴿ لَوْ كَانَ فِيهِمَا ءِالِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا فَسُبْحَانَ اللَّهِ رَبِّ الْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴾ ﴿٣٢﴾ ﴿ الأنبياء

108/49

﴿ وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَدًا سُبْحٰنَهُ ۚ بَلْ عِبَادٌ مُّكْرَمُونَ ﴾ ﴿٣٦﴾

10/09

﴿ كُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ﴾ ﴿٣٣﴾

/138/50/12

152

﴿ فَفَهَّمْنَهَا سَلِيمًا وَكَلَّمَآءَآئِنَّا حُكْمًا وَعِلْمًا وَسَخَّرْنَا مَعَ دَاوُدَ الْجِبَالَ يُسَبِّحْنَ وَالطَّيْرَ
وَكَنَّا فَاعِلِينَ ﴾ ﴿٧٩﴾

/118/96/72

192

﴿ وَذَا التُّونِ إِذْ ذَهَبَ مُغْلِظًا فَنظَنَّ أَنْ لَنْ نَقْدِرَ عَلَيْهِ فَنَادَى فِي الظُّلُمَاتِ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا
أَنْتَ سُبْحٰنَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ ﴾ ﴿٨٧﴾

113

﴿ فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَبَجَعْنَاهُ مِنَ الْغَمِّ وَكَذٰلِكَ نُفَصِّلُ الْاٰمُوْنِيْنَ ﴾ ﴿٨٨﴾

122

﴿ وَزَكَرِيَّا إِذْ نَادَى رَبَّهُ رَبِّ لَا تَذَرْنِي فَرْدًا وَأَنْتَ خَيْرُ الْاٰوْرِيْثِيْنَ ﴾ ﴿٨٩﴾

سورة الحج

158/154

﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَسْجُدُ لَهُ مِنْ فِي السَّمٰوٰتِ حَتَّىٰ عَلَى الْأَرْضِ وَالشَّمْسِ وَالْقَمَرِ وَالنُّجُوْمِ
وَالْجِبَالِ وَالشَّجَرِ وَالْاَدْوَابِ وَكَثِيْرٌ مِنَ النَّاسِ ﴾ ﴿١﴾

سورة المؤمنون

90

﴿ قُلْ مَنْ يَدِيْهِ مَلَكُوْتُ كُلِّ شَيْءٍ ﴾ ﴿١﴾

109

﴿ مَا اتَّخَذَ اللَّهُ مِنْ وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنْ اِلٰهٍ اِذَا لَدَّهَبَ كُلُّ اِلٰهٍ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَّ بَعْضُهُمْ
عَلَىٰ بَعْضٍ سُبْحٰنَ اللَّهِ عَمَّا يُصِفُوْنَ ﴾ ﴿١١﴾

109

﴿ عَلِيْمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَتَعَلَّىٰ عَمَّا يُشْرِكُوْنَ ﴾ ﴿١٢﴾

سورة النور

106/50/41

﴿ وَلَوْ لَا اِذْ سَمِعْتُمُوهُ قُلْتُمْ مَا يَكُوْنُ لَنَا اَنْ نَتَكَلَّمَ بِهٰذَا سُبْحٰنَكَ هٰذَا بُهْتَنٌ عَظِيْمٌ ﴾ ﴿١٦﴾

/52/51/13

132

﴿ فِي يَمُوتِ أَدْنَى اللَّهِ أَنْ تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا أَسْمُهُ، يُسَبِّحُ لَهُ فِيهَا بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ ﴿٣٦﴾ ﴾

131

﴿ رِجَالٌ لَا لِيَهُمْ تِجَارَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَإِقَامِ الصَّلَاةِ وَإِيتَاءِ الزَّكَاةِ يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ

الْقُلُوبُ وَالْأَبْصَارُ ﴿٣٧﴾ ﴾

/144/54/13

159/148

﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُسَبِّحُ لَهُ مِنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالطَّيْرِ صَفَدَاتٍ كُلٌّ قَدْ عَلِمَ صَلَاتَهُ،

وَتَسْبِيحَهُ، وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِمَا يَفْعَلُونَ ﴿٤١﴾ ﴾

178

﴿ وَمِنْ بَعْدِ صَلَاةِ الْعِشَاءِ ثَلَاثُ عَوْرَاتٍ لَكُمْ ﴿٥٨﴾ ﴾

سورة الفرقان

54

﴿ قَالُوا سُبْحَانَكَ مَا كَانَ يَنْبَغِي لَنَا أَنْ نَتَّخِذَ مِنْ دُونِكَ مِنْ أَوْلِيَاءَ وَلَكِنْ مَتَّعْتَهُمْ وَعَابَاءَهُمْ

حَتَّىٰ نَسُوا الذِّكْرَ وَكَانُوا قَوْمًا بُورًا ﴿١٨﴾ ﴾

128/61

﴿ وَتَوَكَّلْ عَلَىٰ آلِهِي الَّذِي لَا يَمُوتُ وَسَبِّحْ بِحَمْدِهِ، وَكَفَىٰ بِهِ يَذُنُوبٍ

عِبَادِهِ خَيْرًا ﴿٥٨﴾ ﴾

سورة النمل

76

﴿ فَلَمَّا جَاءَهَا نُورٌ أَنْ بُورِكَ مِنْ فِي النَّارِ وَمَنْ حَوْلَهَا وَسَبِّحَنَّا اللَّهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ ﴿٨﴾ ﴾

152

﴿ عَلَّمْنَا مَنْطِقَ الطَّيْرِ ﴿١٦﴾ ﴾

156

﴿ حَتَّىٰ إِذَا اتَّوَا عَلَىٰ وَادِ النَّمْلِ قَالَتْ نَمْلَةٌ يَا أَيُّهَا النَّمْلُ ادْخُلُوا مَسَاكِنَكُمْ لَا يَحْطِمَنَّكُمْ

سُلَيْمَانُ وَجُنُودُهُ، وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿١٨﴾ ﴾

89/47

﴿ قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ وَسَلَامٌ عَلَىٰ عِبَادِهِ الَّذِينَ اصْطَفَىٰ فَأَنْبَتْنَا بِهِ، أَمَا يُشْرِكُونَ ﴿٥٩﴾ أَمْ أَنْ خَلَقَ

السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَأَنْزَلَ لَكُمْ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَنْبَتْنَا بِهِ حَدَائِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ مَّا

كَانَ لَكُمْ أَنْ تُنْبِتُوا شَجَرَهَا، أَلَيْسَ اللَّهُ بِعَلِيمٍ قَوْمٍ يَعِدُونَ ﴿٦٠﴾ ﴾

سورة القصص

73

﴿ وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَيَخْتَارُ، مَا كَانَ لَهُمْ الْخِيَرَةُ سُبْحَانَ اللَّهِ وَتَعَالَىٰ عَمَّا

سورة الروم

153/109/24

﴿ فَسَبِّحْنَا اللَّهَ حِينَ تُمْسُونَ وَحِينَ تُصْبِحُونَ ﴿١٧﴾ ﴾

178/54

﴿ وَلَهُ الْحَمْدُ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَعَشِيًّا وَحِينَ تُظْهِرُونَ ﴿١٨﴾ ﴾

109/73

﴿ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَكُمْ ثُمَّ رَزَقَكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ هَلْ مِنْ شُرَكَائِكُمْ مَنْ يَفْعَلُ مِنْ ذَلِكَ مِثْلَ شَيْءٍ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٤٠﴾ ﴾

سورة السجدة

61/45/12

﴿ إِنَّمَا يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا الَّذِينَ إِذَا ذُكِرُوا بِهَا خَرُّوا سُجَّدًا وَسَبَّحُوا بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ﴿١٥﴾ ﴾

سورة الأحزاب

11

﴿ وَسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ﴿٤٢﴾ ﴾

03

﴿ مَلْعُونِينَ أَيْنَمَا ثُقِفُوا أُخِذُوا وَقُتِلُوا نَفْتِيلًا ﴿٦١﴾ ﴾

سورة سبأ

143/139/123
159/

﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَا دَاوُدَ مِنَّا فَضْلًا يَجِبَالٍ أُولَىٰ مَعَهُ وَالطَّيْرِ ﴿١٠﴾ ﴾

112/56

﴿ قَالُوا سُبْحَانَكَ أَنْتَ وَلِيِّنَا مِنْ دُونِهِمْ بَلْ كَانُوا يَعْبُدُونَ الْجِنَّ أَكْثَرُهُمْ بِهِمْ مُؤْمِنُونَ ﴿٤١﴾ ﴾

سورة يس

75/56/20

﴿ سُبْحَانَ الَّذِي خَلَقَ الْأَزْوَاجَ كُلَّهَا مِمَّا تُنْبِتُ الْأَرْضُ وَمِنْ أَنْفُسِهِمْ وَمِمَّا لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣١﴾ ﴾

89/75/57

﴿ فَسَبِّحْنَا الَّذِي بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٨٣﴾ ﴾

سورة الصافات

118/113

﴿ فَالْنَقْمَةُ الْحَوْثُ وَهُوَ مُلِيمٌ ﴾ ﴿١٤٢﴾

﴿ وَإِنَّ يُوسَىٰ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ ﴾ ﴿١٣٩﴾ إِذْ أَتَىٰ إِلَىٰ الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ ﴿١٤٠﴾ فَسَاهَمَ فَكَانَ مِنَ الْمُدْحَضِينَ

188/115

﴿١٤١﴾ فَالْنَقْمَةُ الْحَوْثُ وَهُوَ مُلِيمٌ ﴿١٤٢﴾ فَلَوْلَا أَنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُسَبِّحِينَ ﴿١٤٣﴾ لَلِثَّ فِي بَطْنِهِ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿١٤٤﴾

115/180/58

﴿ فَلَوْلَا أَنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُسَبِّحِينَ ﴾ ﴿١٤٣﴾

109/58/41

﴿ وَجَعَلُوا بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْجَنَّةِ نَسَبًا ﴾ ﴿١٥٨﴾

/90/76/29

﴿ سُبْحَانَ رَبِّكَ رَبِّ الْعَزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴾ ﴿١٨٠﴾

109/106

167 /29

﴿ وَسَلِّمْ عَلَى الْمُرْسَلِينَ ﴾ ﴿١٨١﴾

29

﴿ وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ ﴿١٨٢﴾

112/59

﴿ وَإِنَّا لَنَحْنُ الصَّافُونَ ﴾ ﴿١٦٥﴾ وَإِنَّا لَنَحْنُ الْمُسَبِّحُونَ ﴿١٦٦﴾

سورة ص

12

﴿ إِنَّا سَخَرْنَا الْجِبَالَ مَعَهُ يُسَبِّحْنَ بِالْعُشِيِّ وَالْإِشْرَاقِ ﴾ ﴿١٨﴾ وَالطَّيْرَ مَحْشُورَةً كُلٌّ لَهُ أَوَّابٌ ﴿١٩﴾

﴿ وَأَذْكَرَ عَبْدَنَا دَاوُدَ ذَا الْأَيْدِ إِنَّهُ أَوَّابٌ ﴾ ﴿١٧﴾ إِنَّا سَخَرْنَا الْجِبَالَ مَعَهُ يُسَبِّحْنَ بِالْعُشِيِّ وَالْإِشْرَاقِ ﴿١٨﴾

141/124/12

﴿ وَالطَّيْرَ مَحْشُورَةً كُلٌّ لَهُ أَوَّابٌ ﴾ ﴿١٩﴾

سورة الزمر

90/76

﴿ لَوْ أَرَادَ اللَّهُ أَنْ يَتَّخِذَ وَلَدًا لَأَصْطَفَىٰ مِمَّا يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ سُبْحَانَهُ هُوَ اللَّهُ الْوَاحِدُ

الْقَهَّارُ ﴿٤﴾

72

﴿ وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ وَالْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَالسَّمَاوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ ۗ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٦٧﴾ ﴾

62

﴿ وَتَرَى الْمَلَائِكَةَ حَافِيًا مِنْ حَوْلِ الْعَرْشِ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَقُضِيَ بَيْنَهُم بِالْحَقِّ وَقِيلَ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٧٥﴾ ﴾

سورة غافر

112/92/61

﴿ الَّذِينَ يَحْمِلُونَ الْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيُؤْمِنُونَ بِهِ ۖ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَحْمَةً وَعِلْمًا فَاغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُوا وَاتَّبَعُوا سَبِيلَكَ وَقِهِمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ ﴿٧٧﴾ ﴾

128/92/62

﴿ فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ ۖ وَاسْتَغْفِرْ لِذَنْبِكَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ بِالْعَشِيِّ وَالْإِبْكَارِ ﴿٥٥﴾ ﴾

سورة فصلت

111/59/13

﴿ فَإِنِ اسْتَكْبَرُوا فَالَّذِينَ عِنْدَ رَبِّكَ يُسَبِّحُونَ لَهُ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ ﴿٢٨﴾ ﴾

سورة الشورى

112/93/62

﴿ وَالْمَلَائِكَةُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِمَنْ فِي الْأَرْضِ ۗ أَلَا وَمَا أَنْتَ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ﴿٥٠﴾ ﴾

﴿ تَكَادُ السَّمَاوَاتُ يَنْفَطَرْنَ مِنْ فَوْقِهِنَّ وَالْمَلَائِكَةُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِمَنْ فِي الْأَرْضِ ۗ أَلَا وَمَا أَنْتَ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ﴿٥٠﴾ ﴾

29

﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ ۖ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ ﴿١١﴾ ﴾

سورة الزخرف

94/59

﴿ لِيَسْتَوُوا عَلَىٰ ظُهُورِهِ ثُمَّ تَذْكُرُوا نِعْمَةَ رَبِّكُمْ إِذَا اسْتَوَيْتُمْ عَلَيْهِ وَتَقُولُوا سُبْحَانَ الَّذِي سَخَّرَ

لَنَا هَذَا وَمَا إِنَّا مُقَرَّنِينَ ﴿١٣﴾

91

قُلْ إِنْ كَانَ لِلرَّحْمَنِ وَكْدٌ فَأَنَا أَوَّلُ الْعَبِيدِينَ ﴿٨١﴾

/91/76/20

109

﴿سُبْحَانَ رَبِّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبِّ الْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿٨٢﴾﴾

سورة الفتح

12/11

﴿لِتُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتُعَزِّرُوهُ وَتُوَقِّرُوهُ وَتُسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ﴿١﴾﴾

سورة ق

128/62

﴿وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ الْغُرُوبِ ﴿٣٩﴾﴾

/128/59/11

173/169

﴿وَمِنَ اللَّيْلِ فَسَبِّحْهُ وَإِدْبَرَ النُّجُودِ ﴿٤٠﴾﴾

سورة الطور

109

﴿أَمْ لَهُمْ آلِهَةٌ غَيْرُ اللَّهِ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٤٣﴾﴾

128

﴿وَأَصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ حِينَ تَقُومُ ﴿٤٨﴾﴾

173/128/11

﴿وَمِنَ اللَّيْلِ فَسَبِّحْهُ وَإِدْبَرَ النُّجُومِ ﴿٤٩﴾﴾

سورة الواقعة

/77/76/69

153/128

﴿فَسَبِّحْ بِأَسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ ﴿٧٤﴾﴾

/77/76/69

153/128

﴿فَسَبِّحْ بِأَسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ ﴿٧٦﴾﴾

سورة الحديد

76/30/16/12

139/135/

﴿سَبِّحْ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿١﴾﴾

سورة الحشر

/16/13

/3076135

149

﴿سَبِّحْ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿١﴾﴾

76

﴿هُوَ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْمَلِكُ الْقُدُّوسُ السَّلَامُ الْمُؤْمِنُ الْمُهَيْمِنُ الْعَزِيزُ

﴿ الْجَبَّارُ الْمُتَكَبِّرُ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾ (٢٣)

/92/76/13
135/109

﴿ هُوَ اللَّهُ الْخَلِيقُ الْبَارِئُ الْمُصَوِّرُ لَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى يُسَبِّحُ لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾ (٢٤)

سورة الصف

76/30/16/13
149/135/

﴿ سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾ (١)

سورة الجمعة

/135/76/13
153/137

﴿ يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ الْمَلِكِ الْقُدُّوسِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ ﴾ (١)

سورة التغابن

/76/30/13
153/135

﴿ يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ لَهُ الْمُلْكُ وَلَهُ الْحَمْدُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ (١)

سورة القلم

186/20

﴿ قَالَ أَوْسَطُهُمْ أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ لَوْلَا تُسَبِّحُونَ ﴾ (٢٨) ﴿ قَالُوا سُبْحَانَ رَبِّنَا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ ﴾ (٢٩)

113

﴿ فَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلَا تَكُنْ كَصَاحِبِ الْحُوتِ إِذْ نَادَى وَهُوَ مَكْظُومٌ ﴾ (٤٨)

سورة الحاقة

/128/78/76
159

﴿ فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ ﴾ (٥٢)

سورة الإنسان

128/11

﴿ وَمِنَ اللَّيْلِ فَاسْجُدْ لَهُ، وَسَبِّحْهُ لَيْلًا طَوِيلًا ﴾ (٣٦)

سورة الأعلى

76/69/30/11
153/128/84/

﴿ سَبِّحْ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى ﴾ (١)

سورة البينة

189

﴿ وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ ﴾ (٥)

سورة النصر

93/77/71/62

121/

﴿ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَأَسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُ كَانَ تَوَّابًا ﴾ ﴿٢﴾

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية



قائمة

المصادر و المراجع



قائمة المصادر والمراجع

القرآن الكريم برواية حفص عن عاصم

1. أحكام القرآن ، أبو بكر أحمد بن علي الرازي الجصاص ، ت 370 هـ ، تحقيق :

محمد الصادق قمحاوي ، بيروت ، 1405 هـ - 1985 م .

2. أدب الكاتب . ابن قتيبة : أبو محمد ، عبد الله بن مسلم الدينوري ، (ت : 276هـ) ، تحقيق : على فاعور بيروت ، دار الكتب العلمية ، ط 1 ، 1988م .
3. أدب الكاتب : ابن قتيبة عبد الله بن مسلم ، ، تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد ، ط الرابعة عام 1382 هـ / القاهرة
4. ارتشاف الضرب من لسان العرب . أبو حيان : أثير الدين ، محمد بن يوسف بن علي الغرناطي (ت : 745هـ) ، تحقيق : مصطفى أحمد النماس
5. ارتشاف الضرب من لسان العرب ، أبو حيان الأندلسي ، ت 754 هـ ، تحقيق وتعليق : د مصطفى أحمد النماس ، مطبعة المدني ، القاهرة ، ط / 1 ، 1408 هـ – 1988 م .
6. إرشاد العقل السليم إلى مزايا القرآن الكريم ، أبو السعود محمد بن محمد العمادي، ت 951 هـ ، دار إحياء التراث العربي، بيروت
7. إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم للعلامة أبي السعود (محمد بن محمد مصطفى العمادي الحنفي ت 982 هـ) ط دار الفكر بدون تاريخ .
8. أساس البلاغة : لجار الله أبي القاسم محمود ابن عمر الزمخشري، ط2، سنة 1982، طبعة دار الكتب ، مصر .
9. أسرار البلاغة . الجرجاني : عبد القاهر بن عبد الرحمن ، (ت : 474هـ) ، قرأه وعلق عليه: أبو فهر ، محمود محمد شاكر ، القاهرة ، مطبعة المدني ، جدة ، ط 1 ، 1991م .
10. أسرار التكرار في القرآن ، محمد بن حمزة بن نصر الكرمانى ، ت 505 هـ ، تحقيق : عبد القادر أحمد عطا ، دار الاعتصام ، القاهرة ، ط / 2 ، 1396 هـ – 1976 م .
11. أسرار العربية . الأنباري: أبو البركات، عبد الرحمن بن محمد (ت:577هـ) ، تحقيق: فخر صالح قدارة ، بيروت ، دار الجيل ، ط 1 ، 1995م .

12. الإشارة إلى الإيجاز في بعض أنواع المحاز . العز بن عبد السلام : أبو محمد ، عبدالعزيز بن عبد السلام السلمي (ت: 660هـ) اعتنى بطبعه وقدم له : رمزي سعد الدين دمشقية ، بيروت دار البشائر الإسلامية ، ط 1 ، 1987م .
13. الأشباه والنظائر في النحو . السيوطي : جلال الدين ، عبد الرحمن بن أبي بكر،(ت : 911هـ) ، تحقيق : عبد العال سالم مكرم ، بيروت ، مؤسسة الرسالة، ط 1 ، 1985م .
14. الاشتقاق : لعبد الله أمين ط 1 سنة 1376هـ ، مطبعة لجنة التأليف و الترجمة و النشر .
15. إتحاف فضلاء البشر بقراءات الأربعة عشر . البنا : أحمد بن محمد (ت : 1117هـ) تحقيق: شعبان محمد إسماعيل ، بيروت ، عالم الكتب ، ط 1 ، 1987م .
16. الإتيقان في علوم القرآن. السيوطي : جلال الدين ، عبد الرحمن بن أبي بكر،(ت : 911هـ) تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم ، بيروت ، المكتبة العصرية ، ط 1 ، 1987م .
17. الإتيقان في علوم القرآن : جلال الدين عبد الرحمن السيوطي : تحقيق الدكتور مصطفى البغا . ط 1 سنة 1407هـ دار ابن كثير، دمشق .
18. الإحسان بترتيب صحيح ابن حبان - للأمير علاء الدين علي بن بلبان الفارسي ت 739 هـ - تحقيق شعيب الأرنؤوط ط مؤسسة الرسالة بيروت
19. أحكام القرآن : للقاضي أبي بكر بن العربي ، تحقيق محمد عبد القادر غطا ، ط 1 دار الكتب العلمية ، بيروت .
20. الإصابة في تميز الصحابة : للحافظ ابن حجر العسقلاني ، تحقيق علي محمد البحايوي، دار نهضة مصر للطباعة و النشر .

21. الإصابة في تمييز الصحابة . العسقلاني : أحمد بن علي بن حجر ، (ت : 852هـ -
(، تحقيق : عادل أحمد عبد الموجود ، وعلي محمد معوض ، بيروت ، دار الكتب العلمية ،
ط 1 ، 1995م .
22. الأصول في النحو : لابن بكر ابن السراج النحوي البغدادي ، تحقيق الدكتور عبد
الحسين الفتلي ، ط 1 سنة 1305هـ ، مؤسسة الرسالة .
23. أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن محمد الأمين بن محمد بن المختار الجكني
الشنقيطي : دار الفكر للطباعة والنشر - بيروت - 1415هـ - 1995م تحقيق :
مكتب البحوث
24. أضواء البيان في تفسير القرآن بالقرآن : للشيخ محمد الأمين بن محمد المختار
الشنقيطي ، ط 1 سنة 1417هـ ، نشر دار إحياء التراث العربي ، بيروت .
25. إعجاز القرآن - عبد الكريم الخطيب - الطبعة الأولى - دار الفكر العربي - مصر
- 1964 .
26. إعجاز القرآن والبلاغة النبوية مصطفى صادق الرافعي - - الطبعة الرابعة - مطبعة
الاستقامة - القاهرة - 1945
27. إعراب القرآن . النحاس : أبو جعفر ، أحمد بن محمد بن إسماعيل ، (ت : 338هـ -
(، تحقيق : زهير غازي زاهد ، بيروت ، عالم الكتب ، مكتبة النهضة العربية ، ط 3 ،
1988م .
28. إعراب القرآن لابن جعفر النحاس : تحقيق الدكتور زهير غازي زاهد ، طبع
1397هـ ، مطبعة العاني ، بغداد .
29. إعراب القرآن : لابن القاسم إسماعيل بن محمد التيمي الأصبهاني ، تحقيق الدكتورة
فايزة بنت عمر المؤيد ، طبع سنة 1415هـ .
30. الأعلام . الزركلي : خير الدين بن محمود بن محمد ، (ت : 1976) ، بيروت ،
دار العلم للملايين ، ط 14 ، 1999م .

31. الإفصاح عن معاني الصحاح : للوزير العلامة ابن هبيرة ، تحقيق الدكتور فؤاد عبد المعطي أحمد ، ط1 سنة 1417 ، دار الوطن ، الرياض .
32. الاقتراح في علم أصول النحو . السيوطي : جلال الدين ، عبد الرحمن بن أبي بكر ، (ت : 911هـ) ، تحقيق : محمد حسن الشافعي ، بيروت ، دار الكتب العلمية ، ط1 ، 1998 م .
33. ألفية ابن مالك في النحو والصرف . ابن مالك : محمد بن عبدالله ، (ت : 672هـ) ، بيروت دار الفكر ، 1996 م .
34. الأمالي . القالي : أبو علي ، إسماعيل بن القاسم ، (ت : 356هـ) ، بيروت ، دار الجيل ط2 ، 1987 م .
35. الإنصاف في مسائل الخلاف بين النحويين البصريين والكوفيين . الأنباري : أبو البركات ، عبد الرحمن بن محمد ، (ت : 577هـ) ، تحقيق : حسن حمد ، بيروت ، دار الكتب العلمية ، ط1 1998 م .
36. الإنصاف في مسائل الخلاف بين النحويين البصريين والكوفيين ، كمال الدين أبو البركات عبد الرحمن بن محمد بن أبي سعيد الأنباري النحوي ، ت 577 هـ ، تحقيق : محمد محيي الدين عبد الحميد ، دار الفكر ، بيروت .
37. أوضح المسالك إلى ألفية ابن مالك . ابن هشام : عبد الله بن يوسف ، (ت : 761هـ) تحقيق : محمد محيي الدين عبد الحميد ، بيروت ، المكتبة العصرية ، ط1 ، 1998 م .
38. أوضح المسالك إلى ألفية ابن مالك في النحو : لجمال الدين ابن هشام الأنصاري ، ط2 سنة 1369هـ ، نشر مصطفى الباجي الحلبي ، بمصر .
39. أوضح المسالك إلى ألفية ابن مالك - ابن هشام الأنصاري - دار الطلائع - القاهرة - 2004 .

40. الإيضاح في شرح المفصل . ابن الحاجب : أبو عمرو ، عثمان بن عمر ، (ت : 646هـ) تحقيق : موسى بناي العكيلي ، بغداد ، وزارة الأوقاف والشؤون الدينية ، إحياء التراث الإسلامي ، ط 1 ، 1982م .
41. الإيضاح في شرح المفصل ، أبو عمرو عثمان بن عمرو المعروف بابن الحاجب النحوي ، ت 646 هـ ، تحقيق : د موسى بناي العلي ، مطبعة العاني ، بغداد ، 1402هـ — 1982 م .
42. البحر المحيط . أبو حيان : محمد بن يوسف ، (ت : 745هـ) ، عناية : زهير جعيد ، بيروت دار الفكر ، 1992م .
43. البحر المحيط . أبو حيان ، وبهامشه : النهر الماد لأبي حيان ، والدر اللقيط . للقيسي : أبي محمد ، أحمد بن عبد القادر ، (ت : 749هـ) ، بيروت ، مؤسسة التاريخ العربي ، دار إحياء التراث العربي ، ط 2 ، 1990م .
44. البحر المحيط : لابن حيان الأندلسي ، تحقيق مجموعة محققين ، ط 1 سنة 1413 هـ — ، دار الكتب العلمية ، بيروت .
45. البحر المحيط في التفسير ، محمد بن يوسف الشهير بأبي حيان الأندلسي الغرناطي ، ت 754 هـ ، طبعة جديدة بعناية : صدقي محمد جميل ، دار الفكر ، بيروت ، 1412هـ — 1992 م .
46. البداية والنهاية للإمام ابن كثير ط مركز البحوث والدراسات العربية والإسلامية بدار هجر 1417هـ .
47. بدائع الفوائد . ابن القيم : محمد بن أبي بكر بن أيوب ، (ت : 751هـ) ، تحقيق : هشام عبد العزيز عطا ، وعادل عبد الحميد العدوي ، وأشرف أحمد الجمال ، بإشراف : سعيد عبد الفتاح مكة المكرمة ، مكتبة نزار مصطفى الباز ، ط 1 ، 1996م .
48. بدائع الفوائد ، ابن قيم الجوزية ، ت 751 هـ ، عني بتصحيحه والتعليق عليه ومقابلة أصوله : إدارة المطبعة المنيرية ، دار الكتاب العربي ، بيروت .

49. البرهان في علوم القرآن . الزركشي : بدر الدين ، محمد بن بهادر بن عبد الله ، (ت : 794هـ) ، تحقيق : مصطفى عبد القادر عطا ، بيروت ، دار الكتب العلمية ، ط 1 ، 1988م

50. البرهان في علوم القرآن ، أبو عبد الله محمد بن بهاد بن عبد الله الزركشي ، ت 794 هـ ، تحقيق : محمد أبو الفضل إبراهيم ، دار المعرفة ، بيروت ، 1391هـ - 1971 م .

51. البرهان في علوم القرآن بدر الدين محمد بن عبد الله بن بهادر الزركشي (المتوفى : 794هـ) المحقق : محمد أبو الفضل إبراهيم الطبعة : الأولى ، 1376 هـ - 1957 م الناشر : دار إحياء الكتب العربية عيسى البابي الحلبي وشركائه.

52. بصائر ذوي التمييز في لطائف الكتاب العزيز: لمجد الدين محمد بن يعقوب الفيروز آبادي، تحقيق محمد علي النجار، طبع ونشر لجنة إحياء التراث الإسلامي بالمجلس الأعلى للشؤون الإسلامية، القاهرة، مصر

53. بغية الوعاة في طبقة اللغويين والنحاة: للسيوطي، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم ، ط 1 سنة 1384هـ، مطبعة عيسى البابي الحلبي، بمصر .

54. البلاغة العربية في ثوبها الجديد - د. بكرى شيخ أمين - الطبعة الرابعة - دار العلم للملايين - بيروت - 1995.

55. البلغة في تراجم أئمة النحو واللغة محمد بن يعقوب الفيروزآبادي جمعية إحياء التراث الإسلامي - الكويت - 1407 الطبعة : الأولى تحقيق : محمد المصري

56. البيان في أقسام القرآن : للإمام ابن قيم الجوزية ، تصحيح طه يوسف شاهين ، طبع 1402هـ ، دار الكتب العلمية ، بيروت .

57. البيان في غريب إعراب القرآن . الأنباري : أبو البركات ، عبد الرحمن بن محمد (ت : 577هـ) ، تحقيق : طه عبد الحميد طه ، مراجعة : مصطفى السقا ، القاهرة ،

الهيئة العامة للكتاب ، 1980م .

58. تاج العروس من جواهر القاموس . الزبيدي : أبو الفيض ، محمد مرتضى ، (ت : 1205هـ) تحقيق : علي شيري ، بيروت ، دار الفكر ، 1994م .
59. تاج العروس من جواهر القاموس ، محمد مرتضى الزبيدي ، مكتبة الحياة ، بيروت .
60. تاريخ الأمم والملوك ، لأبي جعفر الطبري تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم ، ط2 ، دار سويدان ، عام 1387هـ ، بيروت ،
61. تأويل مشكل القرآن : ابن قتيبة ، عبد الله بن مسلم (ت 276 هـ) ، تحقيق السيد أحمد صقر ، ط الثانية ، دار التراث / القاهرة / عام 1393 هـ - 1973م
62. تأويل مشكل القرآن : للإمام ابن قتيبة الدينوري ، تحقيق السيد أحمد صقر ، المكتبة العلمية (دون تاريخ) .
63. التبيان في إعراب القرآن ، أبو البقاء محب الدين عبد الله بن أبي عبد الله الحسين بن أبي البقاء العكبري ، تحقيق : علي محمد البحراوي ، دار إحياء الكتب العربية .
64. تحرير التحرير في صناعة الشعر والنثر وبيان إعجاز القرآن . ابن أبي الأصبع : أبو محمد عبد العظيم بن عبد الواحد ، (ت : 654هـ) ، تحقيق : حفي محمد شرف ، القاهرة ، دار التعاون ، ط1 ، 1995م .
65. تحصيل عين الذهب من معدن جوهر الأدب في علم مجازات العرب . الشنتمري : الأعلم ، أبو الحجاج ، يوسف بن سليمان بن عيسى ، (ت : 476هـ) ، تحقيق : زهير عبد المحسن سلطان ، بغداد ، دار الشؤون الثقافية العامة ، ط1 ، 1992 .
66. تحقيق : سعيد الفلاح ، دار الغرب الإسلامي ، بيروت ، ط / 1 ، 1403 هـ - 1983 م .
67. تخلص الشواهد وتلخيص الفوائد . ابن هشام : عبد الله بن يوسف ، (ت : 761هـ) ، تحقيق : عباس مصطفى الصوالحي ، بيروت ، المكتبة العربية ، ط1 ، 1986م .

68. تسهيل الفوائد و تكميل المقاصد : للعلامة محمد بن عبد الله مالك الأندلسي، تحقيق محمد كامل بركات، نشر دار الكليات العربية، سنة 1387هـ .
69. تسهيل الفوائد وتكميل المقاصد . ابن مالك : محمد بن عبدالله ، (ت : 672هـ) ، تحقيق : محمد كامل بركات ، القاهرة ، دار الكاتب العربي ، 1968م .
70. تسهيل الفوائد وتكميل المقاصد ، ابن مالك ، ت 672 هـ ، تحقيق : محمد كامل بركات ، وزارة الثقافة ، القاهرة ، 1378هـ - 1967 م .
71. التصوير الجمالي في القرآن الكريم - د.عيد يونس - الطبعة الأولى - عالم الكتب - القاهرة - 2006.
72. التعريفات : للعلامة علي بن محمد الجرجاني، بتحقيق إبراهيم الأنباري، ط2 سنة 1413هـ ، نشر دار الكتاب العربي .
73. تفسير أبي السعود (إرشاد العقل السليم إلى مزايا القرآن الكريم): للقاضي أبي السعود العمادي ، طبع و نشر دار إحياء التراث العربي، بيروت .
74. تفسير البغوي (معالم التنزيل): للإمام أبي محمد الحسين بن مسعود البغوي، تحقيق مجموعة من المحققين ، ط1 سنة 1411هـ ، دار طيبة الرياض .
75. التفسير البلاغي للاستفهام في القرآن الكريم - الطبعة الأولى - د.عبد العظيم المطعني - مكتبة وهبة - القاهرة - 1999.
76. تفسير البيضاوي ، البيضاوي ، ت 791 هـ ، تحقيق : عبد القادر عرفات العشا حسونة ، دار الفكر ، بيروت ، 1416 هـ - 1996م .
77. تفسير التحرير و التنوير : للشيخ محمد الطاهر ابن عاشور، طبع سنة 1984م ،الدار التونسية للنشر .
78. تفسير الجلالين ، محمد بن أحمد المحلي و عبد الرحمن بن أبي بكر السيوطي ، ت 911 هـ ، دار الحديث ، القاهرة ، ط / 1 .

79. تفسير الخازن المسمي لباب التأويل في معاني التنزيل : لعلاء الدين علي بن محمد البغدادي الشهير بالخازن، ضبط عبد السلام شاهين، ط1 سنة 1415 هـ ، دار الكتب العلمية .
80. تفسير السدي الكبير - السدي - تحقيق: محمد عطا - الطبعة الأولى - دار الوفاء - المنصورة - 1993 .
81. تفسير السمرقندي المسمي بحر العلوم : لأبي الليث نصر بن محمد السمرقندي، تحقيق علي بن محمد معوض و آخريين ، ط1 سنة 1413 هـ .
82. تفسير الطبري (جامع البيان في تأويل القرآن): لأبي جعفر محمد بن جرير الطبري ، ط1 سنة 1412 هـ ، نشر دار الكتب العلمية، بيروت .
83. تفسير القرآن : للإمام أبي المظفر السمعاني، تحقيق أبي تميم ياسر بن إبراهيم و أبي غنيم بن عباس، ط1 سنة 1318 هـ ، دار الوطن الرياض
84. تفسير القرآن : للإمام عبد الرزاق بن همام الصنعاني، تحقيق الدكتور مصطفى مسلم محمد ، ط1410 هـ ، نشر مكتبة الرشد ، الرياض .
85. تفسير القرآن العظيم - ابن كثير - اختصار وتحقيق: أحمد شاكر وأنور الباز - الطبعة الأولى - دار الوفاء - المنصورة - 2003 .
86. تفسير القرآن العظيم : للإمام ابن أبي حاتم الرازي ، تحقيق أسعد محمد الطيب ، ط1 سنة 1417 هـ ، مكتبة الباز، مكة .
87. تفسير القرآن العظيم : للإمام ابن أبي حاتم الرازي، تحقيق الدكتور أحمد بن عبد الله الزهراني، ط1 سنة 1403 هـ، مكتبة الدار، المدينة المنورة .
88. تفسير القرآن العظيم : للحافظ ابن كثير ، بتقديم الدكتور يوسف بن عبد الرحمن المرعشلي ، ط1 سنة 1999 م ، دار المعرفة، بيروت .
89. تفسير القرآن العظيم ، أبو الفداء اسماعيل بن عمر بن كثير الدمشقي ، ت 774 هـ ، دار الفكر ، بيروت ، 1401 هـ - 1981 م .

90. تفسير القرآن العظيم للإمام الحافظ عماد الدين أبي الفداء إسماعيل بن كثير القرشي
الدمشقي ت 774 هـ ط دار التراث العربي بدون تاريخ
91. التفسير الكبير - الفخر الرازي - الطبعة الثانية - دار إحياء التراث العربي -
بيروت - 1997.
92. التفسير الكبير (مفاتيح الغيب) للإمام فخر الدين الرازي ت 606 هـ ط دار الفكر
سنة 1405 هـ
93. تفسير النسفي ، أبو البركات عبد الله أحمد بن محمود النسفي ، ت 710 هـ ، دار
الكتاب العربي ، بيروت.
94. تفسير سفيان الثوري ، أبو عبد الله سفيان بن سعيد بن مسروق الثوري ، ت 161 هـ ،
دار الكتب العلمية ، بيروت ، ط 1/ ، 1403 هـ - 1983 م .
95. تفسير سورة النصر :للحافظ ابن رجب الحنبلي (ضمن مجموعة رسائل له)، جمع
عادل بن يوسف العزازي ، ط 1 سنة 1412 هـ ، مكتبة التربية الإسلامية لإحياء التراث
الإسلامي ، الجيزة .
96. تفسير غريب القرآن :ابن قتيبة ، عبد الله بن مسلم (ت 276 هـ) / تحقيق
السيد أحمد صقر / الناشر / عيسى الحلبي / القاهرة / عام 1378 هـ - 1958 م
97. تفسير غريب القرآن :الرازي ، محمد بن أبي بكر (القرن السابع) / تحقيق د. عبد
الرحمن الحجيلي / ط. الأولى / عام 1417 هـ - 1996 م
98. تفسير غريب القرآن :للإمام ابن قتيبة الدينوري، تحقيق سيد أحمد صقر، طبع سنة
1378 هـ ، دار إحياء الكتب العربية .
99. التكملة ، أبو علي الفارسي ، ت 377 هـ ، تحقيق : كاظم بحر المرجان ، دار الكتب
للطباعة والنشر ، جامعة الموصل ، 1401 هـ - 1981 م .
100. التمهيد لما في الموطأ من المعاني والأسانيد :للإمام أبي عمر بن عبد البر،
بتحقيق سعيد أحمد أعراب ، طبع سنة 1407 هـ ، نشر دار طيبة، الرياض .

101. التناسق البياني لكلمات القرآن الكريم - عبد الدائم الكحيل - موسوعة الإعجاز في القرآن والسنة -
102. التزليل وأسرار التأويل للبيضاوي ناصر الدين أبي الخير عبد الله بن عمر بن محمد البيضاوي ط دار الرشيد بيروت 1421 هـ .
103. التنقيح في حديث التسييح :للحافظ ابن ناصر الدين الدمشقي، تحقيق محمد بن ناصر العجمي، ط 1 سنة 1413هـ ،دار البشائر الإسلامية .
104. تهذيب التهذيب - لابن حجر : أحمد بن علي بن حجر أبي الفضل العسقلاني الشافعي ط دار الفكر - بيروت الطبعة الأولى ، 1404 - 1984.
105. تهذيب اللغة :الأزهريّ أبو منصور محمد بن أحمد (ت 370 هـ) / تحقيق جماعة / المؤسسة المصرية العامة للكتاب / القاهرة
106. تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان ، عبد الرحمن بن ناصر السعدي ، ت 1376 هـ ، جمعية إحياء التراث الإسلامي ، الكويت ، ط / 5 ، 1421 هـ - 2000 م .
107. تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان للشيخ عبد الرحمن بن ناصر السعدي ت 1376 هـ ط الرئاسة العامة لإدارة البحوث العلمية والإفتاء والدعوة الرضا ط 1404 .
108. جامع البيان عن تأويل آي القرآن ، أبو جعفر محمد بن جرير بن يزيد بن خالد الطبري ، ت 310 هـ ، دار الفكر ، بيروت ، 1405 هـ - 1985 م .
109. جامع البيان في تفسير القرآن - الطبري - الطبعة الثانية - دار المعرفة - بيروت - 1972.
110. جامع البيان في تفسير القرآن للإمام أبي جعفر محمد بن جرير الطبري ت310 هـ ط دار الريان للتراث .
111. الجامع الصغير في النحو ، أبو محمد جمال الدين بن عبد الله بن يوسف بن هشام الأنصاري المصري ، ت 761 هـ ، تحقيق وتعليق : د0 أحمد محمود الهرميل ، مكتبة الخانجي ، القاهرة ، 1400 هـ - 1980 م .

112. الجامع لأحكام القرآن : لأبي عبد الله محمد بن أحمد الأنصاري القرطبي، ط2
نشر دار الشام للتراث، بيروت . و- الجامع لأحكام القرآن - الطبعة الأولى - دار الفكر
- بيروت - 1999.
113. الجامع لأحكام القرآن ، أبو عبد الله محمد بن أحمد بن أبي بكر بن فرج القرطبي ، ت 761 هـ ،
تحقيق : أحمد عبد العليم البردوني ، دار الشعب ، القاهرة ، ط / 2 ، 1372 هـ - 1952 م .
114. جمهرة الأمثال لأبي هلال العسكري ط دار الفكر الطبعة الثانية ، 1988
بتحقيق : محمد أبو الفضل إبراهيم .
115. جمهرة اللغة : لابن دريد الأزدي، طبعة الحلبي (دون تاريخ) .
116. الجواهر الحسان في تفسير القرآن ، عبد الرحمن بن محمد بن مخلوف الثعالبي ، ت
875هـ ، مؤسسة الأعلمي للمطبوعات ، بيروت .
117. حاشية الخضري ت (1870م) على شرح ابن عقيل على ألفية ابن مالك ،
شرحها وعلق عليها : تركي فرحان المصطفى ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، ط / 1 ، 1419
هـ - 1998 م .
118. حاشية الصبان على شرح الأشموني على ألفية ابن مالك ومعه شرح الشواهد
للعيبي ، ت 1206 هـ ، دار إحياء الكتب العربية ، عيسى البابي الحلبي وشركاه .
119. الحجة في القراءات السبع ، أبو عبد الله الحسين بن أحمد بن خالويه ، ت 370 هـ
، تحقيق : د0 عبد العال سالم مكرم ، دار الشروق ، بيروت ، ط / 4 ، 1401 هـ - 1981 م
120. حروف المعاني . الزجاجي : أبو القاسم ، عبد الرحمن بن إسحاق ، (ت :
337هـ) ، تحقيق : علي توفيق الحمد ، بيروت ، مؤسسة الرسالة ، ط2 ، 1986 م .
121. حروف المعاني : لأبي القاسم الزجاجي، تحقيق الدكتور علي توفيق الأحمد،
ط1 سنة 1404هـ، مؤسسة الرسالة، بيروت .
122. خزانة الأدب و لب لباب العرب : لعبد القادر بن عمر البغدادي، تحقيق عبد
السلام هارون، طبع و نشر الهيئة المصرية العامة للكتاب و مكتبة الخانجي، بالقاهرة.

123. الخصائص : لأبي الفتح عثمان بن جني، تحقيق محمد علي النجار، نشر دار الهدى .
124. الخصائص ، أبو الفتح عثمان بن جني ، ت 392 هـ ، تحقيق : محمد علي النجار ، دار الهدى للطباعة والنشر ، ط / 2 ، بيروت .
125. دائرة المعارف البريطانية الطبعة الرابعة عشر .
126. الدر المنثور في التفسير المأثور، وهو مختصر تفسير ترجمان القرآن ، عبد الرحمن بن الكمال جلال الدين السيوطي ، ت 911 هـ ، دار الفكر ، بيروت ، 1413 هـ - 1993 م .
127. دراسات جديدة في إعجاز القرآن - د. عبد العظيم المطعني - الطبعة الأولى - مكتبة وهبة - القاهرة - 1996.
128. دراسات في اللغة ، د إبراهيم السامرائي ، مطبعة العاني ، بغداد ، 1381 هـ - 1961 م
129. دراسات في اللغة والنحو ، د عدنان محمد سلمان ، دار الحكمة للطباعة والنشر ، 1411 هـ - 1991 م .
130. دراسات في اللغة والنحو العربي ، حسن عون ، معهد البحوث والدراسات اللغوية ، مطبعة الكيلاني ، 1389 هـ - 1969 م .
131. دراسات لأسلوب القرآن الكريم . عضيمة : محمد عبد الخالق ، (ت : 1404 هـ) ، القاهرة دار الحديث ، 1980م.
132. دقائق التفسير الجامع لتفسير ابن تيمية : جمع الدكتور محمد السيد الجليهود ، ط 2 سنة 1406 هـ ، دار النفائس .
133. دلائل الإعجاز - عبد القاهر الجرجاني - تحقيق: عبد المنعم خفاجي - مكتبة القاهرة - مصر - 1980.

134. دلائل الإعجاز . الجرجاني : أبو بكر ، عبد القاهر بن عبد الرحمن ، (ت : 474هـ) تحقيق : محمود محمد شاكر ، القاهرة ، مكتبة الخانجي ، مطبعة المدني ، ط 3 ، 1992 .
135. دلائل النبوة للإمام البيهقي (أبو بكر أحمد بن الحسين البيهقي ت 458 هـ) تحقيق د عبد المعطى قلعجي ط دار الكتب العلمية بيروت 1405 هـ ط أولى
136. ديوان أمية بن أبي الصلت : جمع و تحقيق الدكتور عبد الحفيظ السطلي ، ط 2 (دون تاريخ) .
137. روح البيان للبروسوى إسماعيل حقى البروسوي ت سنة 1370 هـ ط دار الفكر بدون . .
138. روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني للإمام الألوسي شهاب الدين السيد محمود الألوسي ت 1270 هـ ط دار إحياء التراث العربي ط 4 سنة 1405 هـ .
139. الروض الأنف للسهيلي أبو القاسم عبد الرحمن بن عبد الله بن أحمد بن أبي الحسن الخنعمي (508 - 581) هـ ط / الطباعة المتحدة بالقاهرة بدون تاريخ
140. زاد المسير في علم التفسير ، عبد الرحمن بن علي بن محمد الجوزي ، ت 597 هـ ، المكتب الإسلامي ، بيروت ، ط 3/ ، 1404 هـ - 1984 م .
141. زاد المعاد في هدى خير العباد للإمام ابن القيم ط البابي الحلبي 1369 هـ - ط ثانية
142. الزاهر في معاني كلمات الناس: أبو بكر محمد بن القاسم الأنباري ، مؤسسة الرسالة - بيروت - 1412 هـ - 1992 الطبعة : الأولى تحقيق : د. حاتم صالح الضامن ج 1 ص 50 ، شرح الرضي على الكافية
143. سنن ابن ماجة (أبو عبد الله محمد بن يزيد القزويني ت 275 هـ) ط دار الريان للتراث بدون تاريخ

144. سنن أبو داود (أبو داود سليمان بن شعث السجستاني الأزدي ت 257 هـ ط دار الفكر بدون تاريخ
145. سنن الترمذي (أبو عيسى محمد بن عيسى بن سورة الترمذي ت 297 هـ ط دار الفكر 1408 هـ)
146. سنن النسائي (أحمد بن شعيب النسائي ت 303 هـ) بشرح السيوطي وحاشية السندي ط دار الكتب العلمية بيروت
147. السيوطي - الإتيقان في علوم القرآن - تحقيق: محمد ابو الفضل إبراهيم - دار التراث - القاهرة - 1997.
148. شرح ابن عقيل ، بهاء الدين عبد الله بن عقيل العقيلي الهمداني المصري ، على ألفية ابن مالك ، أبو عبد الله محمد بن جمال الدين بن مالك ، ت 769 هـ ، تحقيق : محمد محيي الدين عبد الحميد ، مطبعة السعادة ، مصر ، ط / 14 ، 1384 هـ - 1964 م .
149. شرح ابن عقيل لألفية ابن مالك . ابن عقيل : بهاء الدين ، عبد الله بن عبد الرحمن ، (ت : 769 هـ) ، تحقيق : تركي فرحان ، بيروت ، دار الكتب العلمية ، ط 1 ، 1998 م .
150. شرح ابن عقيل لألفية ابن مالك ومعه منحة الجليل بتحقيق شرح ابن عقيل: محمد محي الدين عبد الحميد، طبعة دار الطلائع، مصر.
151. شرح أبيات سيويه : لأبي محمد السيرافي، تحقيق الدكتور محمد علي سلطاني، ط 2 سنة 1989 من دار المأمون للتراث .
152. شرح الرضي على الكافية ، رضي الدين الإستراباذي ، ت 686 هـ ، تصحيح وتعليق : يوسف حسن عمر ، مؤسسة الصادق ، طهران .
153. شرح المفصل ، موفق الدين بن يعيش النحوي ، ت 643 هـ ، عالم الكتب ، بيروت.
154. شرح المفصل: لابن يعيش، نشر عالم الكتب .

155. الشرح الواضح المنسق لنظم السلم المرونق ، د عبد الملك عبد الرحمن السعدي ، دار الأنبار ، بغداد ، ط / 1 ، 1416 هـ – 1996 م .
156. شرح صحيح مسلم . النووي : محيي الدين بن شرف ، (ت : 676 هـ) تحقيق : خليل مأمون شيحا ، بيروت ، دار المعرفة ، ط 5 ، 1998 م .
157. شرح كتاب سيبويه . السيرافي : أبو سعيد ، الحسن بن عبد الله المرزبان ، (ت : 368 هـ) حقق الجزء الأول: رمضان عبد التواب ، ومحمود فهمي حجازي ، ومحمد هاشم عبد الدايم القاهرة ، الهيئة العامة المصرية للكتاب ، ط 1 ، 1986 م . وحقق الجزء الثاني : رمضان عبد التواب ، القاهرة ، الهيئة العامة المصرية للكتاب ، ط 1 ، 1990 م .
158. الصاحبي: أبو الحسن أحمد بن فارس (ت 395 هـ) / تحقيق السيد أحمد صقر / الناشر عيسى البابي الحلبي وشركاه / القاهرة / 1977 م .
159. الصحاح (تاج اللغة وصحاح العربية) الجوهري : إسماعيل بن حماد ، (ت : 393 هـ) تحقيق : أحمد عبد الغفور عطار ، بيروت ، دار العلم للملايين ، ط 3 ، 1984 م .
160. صحيح البخاري ، أبو عبد الله محمد بن اسماعيل البخاري الجعفي ، ت 256 هـ ، تحقيق : د مصطفى ديب البغا ، دار ابن كثير واليامة ، بيروت ، ط / 3 ، 1407 هـ – 1987 م .
161. صحيح مسلم ، أبو الحسين مسلم بن الحجاج القشيري النيسابوري ، ت 261 هـ ، تحقيق : محمد فؤاد عبد الباقي ، دار إحياء التراث العربي ، بيروت
162. صناعة الإنشا: أحمد بن علي القلقشندي: ت يوسف علي طويل، دار الفكر – دمشق الطبعة الأولى ، 1987

163. طيبة النشر في القراءات العشر: ابن الجزريّ ، محمد بن محمّد (ت 833)
ضمن إتحاف البررة بالمتون العشرة في القراءات والرسم والآي والتجويد ، مطبعة مصطفى
الخلي / مصر / عام 1354 هـ - 1935 م
164. العقد الفريد . ابن عبدربه : أحمد بن محمد الأندلسي ، (ت : 328هـ)
، تحقيق : عبد المجيد الترحيني ، بيروت ، دار الكتب العلمية ، 1997م .
165. غريب الحديث: حمد بن محمد بن إبراهيم الخطابي البستي أبو سليمان جامعة
أم القرى - مكة المكرمة ، 1402 تحقيق : عبد الكريم إبراهيم العزباوي
166. فتح الباري بشرح صحيح البخاري . العسقلاني : أبو الفضل ، أحمد بن
علي بن حجر ، (ت : 852هـ) مصورة عن الطبعة التي حقق أصلها : عبد العزيز بن
باز ورقم كتبها وأبوها وأحاديثها : محمد فؤاد عبد الباقي ، القاهرة ، دار الحديث ، ط 1
، 1998م .
167. فتح القدير - الشوكاني - تحقيق: دكتور/ عبد الرحمن عميرة - الطبعة
الثانية - دار الوفاء - المنصورة - 1997.
168. فتح القدير الجامع بين فني الرواية والدراية من علم التفسير للإمام محمد بن
علي بن محمد الشوكاني ت 1255 هـ ط البايي الحلبي سنة 1350 هـ ط أولي
169. فتح القدير الجامع بين فني الرواية والدراية من علم التفسير محمد بن علي بن
محمد الشوكاني : دار الفكر - بيروت.
170. الفصل في الملل والأهواء والنحل لابن حزم الظاهري علي بن أحمد بن سعيد
بن حزم الظاهري أبو محمد ط مكتبة الخانجي - القاهرة .
171. فيض القدير شرح الجامع الصغير من أحاديث البشير النذير . المناوي : محمد
بن عبد الرؤوف (ت : 1031هـ) ، بيروت ، دار الفكر ، (غ . ت) .
172. فيض القدير شرح الجامع الصغير من أحاديث البشير النذير للعلامة محمد عبد
الرؤوف المناوي ضبطه وصححه أحمد عبد السلام دار الكتب العلمية بيروت - لبنان
الطبعة الأولى 1415 هـ - 1994

173. القاموس المحيط . الفيروزآبادي : مجد الدين ، محمد بن يعقوب ، (ت :
817هـ) ، تحقيق : مكتب التراث في مؤسسة الرسالة بإشراف : محمد نعيم
العرقسوسي ، بيروت ، مؤسسة الرسالة ط 6 ، 1998م .
174. الكامل في اللغة والأدب . المبرد : أبو العباس ، محمد بن يزيد ، (ت :
285هـ) ، تحقيق : محمد أحمد الدالي ، بيروت ، مؤسسة الرسالة ، ط 3 ، 1997م .
175. الكتاب : سيبويه ، عمرو بن عثمان (ت 183 هـ) ، تحقيق عبد السلام
هارون ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، القاهرة
176. كتاب العين : لأبي عبد الرحمن الخليل بن أحمد الفراهيدي ، تحقيق الدكتور
مهدي المخزومي و الدكتور إبراهيم السامرائي ، ط 2 سنة 1408هـ ، مؤسسة الأعلمي
للمطبوعات ، بيروت .
177. كتاب المطر و الرعد و البرق و الريح : للحافظ أبي بكر ابن أبي الدنيا ، تحقيق
طارق محمد العمودي ، ط 1 سنة 1418هـ ، دار ابن الجوزي .
178. كتاب حروف المعاني : أبو القاسم عبد الرحمن بن إسحاق الزجاجي ، تحقيق
: د.علي توفيق الحمد ، مؤسسة الرسالة - بيروت ، الطبعة الأولى ، 1984 ،
179. كتاب سيبويه ، تحقيق عبد السلام محمد هارون ، دار الجليل - بيروت
180. كتاب سيبويه : تحقيق عبد السلام هارون ، طبعة عالم الكتب ، بيروت .
181. الكشاف - الزمخشري - - تحقيق : مصطفى حسين - الطبعة الثالثة - دار
الريان - القاهرة - 1987 .
182. الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل و عيون الأقاويل في وجوه التأويل :
لأبي القاسم الزمخشري ، تحقيق الشيخ عادل أحمد عبد الموجود و الشيخ علي محمد معوض ،
ط 1 سنة 1418هـ ، مكتبة العبيكان ، الرياض .
183. الكليات : أبو البقاء أيوب بن موسى الحسيني الكفوي .

184. الباب في علوم الكتاب لابن عادل الحنبلي ط دار الكتب العلمية ط 1 -
1998 م .

185. لسان العرب : لابن منظور الأفريقي، طبعة دار صادر، بيروت (بدون تاريخ
) .

186. لطائف الإشارات للإمام عبد الكريم القشيري ت 465 هـ ط دار الكتاب
العربي بالقاهرة .

187. المثل السائر - ابن الأثير - تحقيق: محمد محي الدين عبد الحميد - المكتبة
العصرية - بيروت - 1995 .

188. مجمع الزوائد ومنبع الفوائد للهيثمي ط دار الكتاب العربي بيروت 1402
هـ .

189. محاسن التأويل : القاسمي محمد جمال الدين (ت 1332 هـ) ، الناشر
عيسى الحلبي ، ط الأولى ، 1376 هـ - 1957 م

190. المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز : للقاضي أبي محمد بن عطية الأندلسي،
تحقيق المجلس العلمي بالمغرب العربي، نشر دار الكتاب الإسلامي، القاهرة .

191. المحيط في اللغة : الصاحب بن عباد،

192. المخصص : أبو الحسن علي بن إسماعيل النحوي اللغوي الأندلسي المعروف

بابن سيده تحقيق : خليل إبراهيم جفال، دار إحياء التراث العربي - بيروت - 1417 هـ
1996 م،

193. مدخل إلى القرآن عرض تاريخي وتحليل مقارنة د . محمد عبد الله دراز ط دار
القلم بالكويت .

194. مراتب النحويين : أبو الطيّب اللغوي (ت 351 هـ) / تحقيق محمد

أبو الفضل إبراهيم/ القاهرة،

195. مسألة سبحان :لفطويه، تحقيق الأخ جمال عزون¹¹⁴⁵، مطبوع و لم يتم نشره بعد .
196. المستدرك على الصحيحين للإمام أبي عبد الله الحاكم النيسابوري ت 405 هـ وفي ذيله تلخيص المستدرك للإمام شمس الدين الذهبي ت 848 هـ ط دار الكتب العلمية .
197. المسند : ابن حنبل : أبو عبد الله ، أحمد بن محمد ، (ت : 241 هـ) ، تحقيق : أحمد شاكر وحمزة أحمد الزين ، دار الحديث ، ط 1 ، 1995 م .
198. مسند الإمام أحمد بن حنبل ط المكتب الإسلامي بدون تاريخ .
199. مشكل إعراب القرآن : لمكي بن أبي طالب، تحقيق الدكتور حاتم صالح الضمان، ط 2 سنة 1405 هـ، مؤسسة الرسالة .
200. مشكل إعراب القرآن ، أبو محمد مكي بن أبي طالب القيسي ، ت 437 هـ ، تحقيق : د حاتم صالح الضامن ، مؤسسة الرسالة ، بيروت ، ط 2/ ، 1405 هـ – 1985 م .
201. المصباح المنير . الفيومي : أبو العباس ، أحمد بن محمد بن علي ، (ت : 770 هـ) ، بيروت مكتبة لبنان ، 1987 م .
202. المصباح المنير : لأحمد الفيومي، بتحقيق الدكتور عبد العظيم الشناوي، نشر دار المعارف، بالقاهرة .
203. المصباح المنير في غريب الشرح الكبير للرافعي: أحمد بن محمد بن علي المقرئ الفيومي، المكتبة العلمية - بيروت
204. معاني القراءات للفراء : تحقيق محمد علي النجار، طبع و نشر الدار المصرية للتأليف و الترجمة .

¹¹⁴⁵ وقد اتصلت به من أجل الحصول عليها فأخبرني أنها طبعت ضمن مجموعة رسائل بتحقيق الشيخ مشهور آل سلمان.

205. معاني القرآن: الفراء ، يحيى بن زياد (ت 207) ، تحقيق أحمد يوسف بنجاتي وآخرين ، ط أولى / القاهرة
206. معاني القرآن الكريم: لأبي جعفر النحاس، تحقيق الشيخ محمد علي الصابوني، ط 1 سنة 1408هـ، جامعة أم القرى، مكة المكرمة .
207. معاني القرآن الكريم: للأخفش سعيد بن مسعدة البلخي، تحقيق الدكتور عبد الأمير محمد أمين الورد، ط 2 سنة 1405هـ، عالم الكتب، بيروت .
208. معاني القرآن و إعرابه: للزجاج أبي إسحاق إبراهيم بن السري، تحقيق الدكتور عبد الجليل عبده شلبي، ط 1 سنة 1408 هـ، نشر عالم الكتب، بيروت .
209. معاني النحو . السامرائي : فاضل صالح ، بغداد ، جامعة بغداد ، ط 1 ، الجزءان الأول والثاني 1989م والجزءان الثالث والرابع 1991م .
210. معجم الأدباء: ياقوت الحموي (ت 626 هـ) مكتبة عيسى الحلبي، مصر/
211. معجم المقاييس في اللغة . ابن فارس : أبو الحسين ، أحمد ، (ت : 395هـ) ، تحقيق : شهاب الدين أبو عمرو ، بيروت ، دار الفكر ، ط 2 ، 1998م .
212. معجم مفردات ألفاظ القرآن: الراغب الأصفهاني (القرن الخامس ، تحقيق ندیم مرعشليّ / دار الكاتب العربي / عام 1392 هـ - 1972 م
213. معجم مقاييس اللغة : لابن فارس، بتحقيق عبد السلام محمد هارون، ط 2 سنة 1392هـ، مطبعة مصطفى البابي الحلبي، مصر .
214. معجم مقاييس اللغة: أبو الحسين أحمد بن فارس بن زكريا، تحقيق عبد السلام محمد هارون ، دار الفكر ، ط 1399هـ - 1979،
215. مغني اللبيب عن كتب الأعراب: لجمال الدين بن هشام الأنصاري، بتحقيق الدكتور مازن المبارك و آخرين، ط 6 سنة 1985هـ، نشر دار الفكر، بيروت .

216. مفتاح العلوم ، أبو يعقوب يوسف بن محمد بن علي السكاكي ، ت 626 هـ — ،
حققه وقدم له وفهرسه : د عبد الحميد هندراوي ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، ط / 1 ،
1420 هـ — 2000 م .

217. مفردات ألفاظ القرآن : للعلامة الراغب الأصفهاني، تحقيق صفوان عدنان
داودي، دار القلم، دمشق .

218. المفردات في غريب القرآن. الراغب الأصفهاني - تحقيق: وائل عبد الرحمن -
المكتبة التوفيقية - القاهرة - 2003.

219. المقتضب ، أبو العباس محمد بن يزيد المبرد ، ت 285 هـ ، تحقيق : محمد عبد
الخالق عضيمة ، عالم الكتب ، بيروت .

220. ملاك التأويل القاطع بذوي الإلحاد والتعطيل في توجيه المتشابه اللفظ من آي
التزليل ، أحمد بن إبراهيم بن الزبير الثقفي العاصمي الغرناطي ، ت 708 هـ ،

221. من أسرار التعبير القرآني دراسة تحليلية لسورة الأحزاب للدكتور محمد أبو
موسي ط دار الفكر العربي بالقاهرة .

222. مناهل العرفان في علوم القرآن ، محمد عبد العظيم الزرقاني ، تحقيق :
مكتب البحوث والدراسات ، دار الفكر ، بيروت ، ط / 1 ، 1416 هـ — 1996 م

223. منع تجويز الجاز في المنزل للتعبد والإعجاز . الشنقيطي : محمد الأمين بن
محمد المختار الجكني (ت : 1393 هـ) (مطبوع آخر أضواء البيان للمؤلف نفسه) ،
عناية صلاح الدين العلايلي ، بيروت ، دار إحياء التراث العربي ، ط 1 ، 1996 م.

224. الموسوعة الذهبية في إعجاز القرآن الكريم والسنة النبوية - د. أحمد مصطفى
متولي - الطبعة الأولى - دار ابن الجوزي - القاهرة - 2005.

225. النبأ العظيم للأستاذ الدكتور محمد عبد الله دراز ط 1389 هـ ، 1969
م مطبعة السعادة .

226. النشر في القراءات العشر . ابن الجزري : أبو الخير ، محمد بن محمد ، (ت :
833هـ) أشرف على تصحيحه : علي محمد الضباع ، بيروت ، دار الكتب العلمية ،
(غ . ت) .
227. النشر في القراءات العشر لابن الجزري ط دار الكتب العلمية بيروت
1418هـ
228. نظم الدرر في تناسب الآيات والسور لبرهان الدين إبراهيم بن عمر بن
حسن البقاعي ط دار الكتاب الإسلامي بالقاهرة ط 2 سنة 1413هـ .
229. الوجوه والنظائر لألفاظ كتاب الله العزيز - الدامغاني - الطبعة الأولى -
دار الكتب العلمية - بيروت - 2003.



جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

01	التسبيح	ماهية	مدخل:	
			
02	في	التسبيح	الأول:	المبحث
				اللغة.....
03	التسبيح	لفظ	بنية	المطلب
			الأول:
04	التسبيح	معني	الثاني:	المطلب
			
08	أصل		الثالث:	المطلب
				التسبيح.....
11			الثاني:	المبحث الثاني: التسبيح عند النحاة.....
11	تعديدية		الأول:	المطلب
				التسبيح.....
16				المطلب الثاني: مسألة سبحان
20				المطلب الثالث: استعمال سبحان في اللغة
23				المطلب الرابع: إعراب مفردة سبحان

25	المبحث الثالث: أصل معنى التسبيح في القرآن
26	المطلب الأول: تسبيح الله عن النقائص
29	المطلب الثاني: تسبيح الله عن التمثيل
33	الفصل الأول: التسبيح باعتبار صيغته
34	المبحث الأول: صيغة الإفراد
61	المبحث الثاني: صيغة القرآن
61	قرن التسبيح بالتحميد
72	قرن التسبيح بالتهليل والعلو
75	قرن التسبيح بأسماء الله و صفاته
92	قرن التسبيح بالاستغفار
94	قرن التسبيح بالدعاء
97	الفصل الثاني: التسبيح باعتبار فاعله
99	المبحث الأول: تسبيح الله لنفسه
110	المبحث الثاني: تسبيح الملائكة
113	المبحث الثالث: تسبيح المرسلين
113	تسبيح يونس <small>عليه السلام</small>

120	تسبيح موسى <small>عليه السلام</small>
122	تسبيح داود <small>عليه السلام</small>
124	تسبيح زكريا <small>عليه السلام</small>
125	تسبيح عيسى <small>عليه السلام</small>
127	تسبيح محمد <small>صلى الله عليه وسلم</small>
134	المبحث الرابع: تسبيح الكائنات كلها
160	المبحث الخامس: تسبيح أهل الجنة
165	الفصل الثالث: دلالات التسبيح
166	المبحث الأول: دلالة التسبيح على التعظيم و التزيه
171	المبحث الثاني: دلالة التسبيح على الصلاة
180	المبحث الثالث : دلالة التسبيح على الذكر
184	المبحث الرابع : دلالة التسبيح على الاستثناء
188	المبحث الخامس : دلالة التسبيح على مطلق العبادة
192	المبحث السادس: دلالة التسبيح على الدعاء
195	خاتمة
19	ملخص البحث

20

ترجمة الملخص

1

20

فهرس الآيات

2

21

فهرس المصادر و المراجع

6

24

فهرس الموضوعات

1

عبد القادر للعوم الإسلامية